تفسير سورة الإســــــــــراء

لأول مرة يبحث أن العلو الأول ليهود هو الذي نعيشه، وليس الثاني كما هو مشتهر عند الناس، وبيان ذلك من خلال الأدلة والوقائع التاريخية

كتبه

الشيخ أبو قتادة

عمر بن محمود أبو عمر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين- ربّ أعن ويسّر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على النَّبيِّ محمد الأمين، وعلى آله، وصحبه أجمعين

أما بعد:

فإنَّ بناء الدَّاعي إلى الله والعامل له عِلمياً ونفسياً مهمّة قرآنيّة جليلة، ولو قال قائلٌ إنها أهم أركان القرآن المكي خاصّة لـمَا أبعدَ عن الحقيقة، وهذا البناءُ ليس سهلاً في ظروف النشأة الأُولى، لأنَّ الدَّاعي يعيش ظروفاً تضاده من كلِّ وجهٍ، فالغُربة وظُلمتها، والواقع وقسوته، والأعداءُ وكيدهم؛ كلّها تطأ بقوّةٍ على قلبه ونفسه وعقله، هذا مع مستقبلٍ لا يدري وِجهته، فإنها وإنْ أتتْ بعض البشائر حيناً إلا أنها لا تلبث أن تتلاشى عندما تشتدُّ حِراب الجاهليّة وآلامها، أو يتراجع الرفيق، أو يفوت المـُعاون، والدَّاعي والعامل إنسانٌ فيه طبائعه من عوامل الكسر أو التطويع، ولا يحميه من ذلك إلا دوام الغذاء العلمي والنفسي ليبقى صامداً حتى أداء المهمة والوصول إلى أهدافها، والعامل لدين الله على خلافٍ مِن حَملة المناهج الأُخرى، إذ مبنى عمل الدَّاعي وقيمه على الاتّباع، إذ لا مجال له في هذا السبيل إلا الصَّدع التام وقذف باطل الجاهلية بقيم الحقِّ الإيمانية دون مُداهنة، فالأُسس التي يدعو إليها تُضاد الجاهلية من كلِّ وجهٍ، والجاهلية تُدرك خطر هذا الدَّاعي وقِيمه، إذ ترى يقيناً أنَّ أصل وجودها مُهددٌ بالزوال بمجرد وجود هذه القيم الربَّانيَّة، فالإتّباع المأمور به الدَّاعي حقيقته تقوم على قذف الحقِّ كُلِّه ضدَّ الباطل كُلِّه، وهذا تمارسه مناهج الجاهلية في نهاية مراحلها من الصراع لا في البدايات، إذ تعتمد في البدايات على المـُداهنة وأنصاف الحلول وطلب المـُشاركة وحق الوجود، حتى إذا تمددت واستقوت فرضت وجودها التام بلا قبول للآخر، لكنّ دعوة الحق ومنهج الوحي وسبيل الأنبياء يحذّر من هذا السبيل الباطل، وينهى عن المـُداهنة منذ الكلمة الأولى، وهذا يُشدد الوطأة على الدَّاعي ويُثقل عليه الآلام، ولذلك يحتاج إلى الغذاء القرآني لتمتين روحه ونفسه وعقله، وعماد هذا: العلم والعمل والوعد، فبالعلم الذي يُضاد الجهل وبالعمل الذي يثبت الفؤاد وبالوعد الذي يهوِّن آلام الطريق تثبت أقدام الدَّاعي على الطريق حتى تنجز المهمة وتصل السفينة إلى شاطئها.

في سورة «الإسراء» يُبصر الناظر هذا الغذاء الكامل لرحلة الدَّاعي الشاقة الطويلة، وهو غذاءٌ يأتي في لحظة الذروة من البلاء والألم، فبعد سنين من الدعوة إلى الله والعمل لدين الله تعالى تقف الإنجازات فلا أتباع جُدد إلا الواحد والاثنين، وكأنَّ الأمرَ كلَّه في عدد المستجيبين، هم هؤلاء الذين سيستغرقهمُ الزمن، فالمستقبل إنْ كان يُعرف بالدلائل التي تقع اليوم فإنَّ ما يقع لا يدل على الوعد بالوراثة والنَّصر والتمكين، وهذا إنْ وقع في نفس العامل فإنَّ نتيجته الحتمية الدخول في صراع المـُشاركة لا صِراع الوجود، وهذا مما لا تقبله حقائق القرآن ولا ترضاه، وحين يقبله البعضُ ممن يسلك مسالك الدعوة والجهاد فإنه يعني أنه قبل بقيم الجاهلية، وتخلى عن خصوصيةٍ هي لهذا الدين دون سواه من المناهج الباطلة.

ومن سمات هذه اللحظة -ذروة الألم والبلاء- فُقدان النصير الحامي، إذ يكشف ظهر الدَّاعي والمجاهد فيسهل قصفه أو تخطفه، ويسير الأتباع في الأرض هجرة مشتتة هنا وهناك لا للتمكين والنُّصرة ولكن لمجرد حماية الحياة والتعبد النُّسكي الذاتي.

خلال هذه الرحلة تتحقق شخصية الدَّاعي الوارث، وخلال هذه اللحظة من ذَروة الألم تتحقق في هذه الشخصية أرضية الوراثة الموعودة، وقد رأينا الكثير من العاملين لهذا الدين يصبرون في مسيرة الرحلة، فيتجاوزون آلامها ومُعاناتها لكن حين تأتي لحظة الذَّروة يفشلون ولا يصبرون، وسبب ذلك ضعف اليقين على الوعد، وذهاب العلم الواجب لهذه المرحلة، وقلّة العمل اللازم ثبوته حالاً ومقاماً لا لماماً وتردداً.

هذه السورة تُقدم عمد الثبات عند الوصول لهذه المرحلة، وهي في خُلاصتها قطع الدَّاعي عن علائق الأرض وأسبابها، فالوعد آتٍ حتى لو لم تُبصر له بعينيك مقدماته، فهو مخبوء في الغيب، والعامل مع هذا الدين وله وفيه هو رجلٌ من رجال الغيب؛ يُعاديه رجال الأرض وتعرفه وتحبه سكان السموات، وحين يرميه سفهاء الشهادة بالحجارة وتدمي قدميه تلقي عليه سكان السموات السلام وتستقبله وتهش له، فحين يصل إلى هذا المقام حينها يدخل مقام العبودية والولاية التي هي مُوجب لوراثة الأرض والتمكين فيها.

حين يختص هذا الدين بالإتّباع الذي يقطع على النَّفس منافذها، ويبطل على الظن مصادره تحت دعوى العقل والنظر المزعومين، فإنه يعني فرادة هذا الدين في منهجه عن مناهج الآخرين، فالمسلم ليس أدنى عقلاً ونظراً من الآخرين الذين يعملون في سبيل النَّصر والتمكين، بل لا يهتدي للإسلام في غلبة ظلمة الجاهلية إلا سديد النظر وبصير الفؤاد، فلو ترك لعقله لأدركَ أعظم ما يُدرك البشر من السبل المُوصلة لمراده، لكن الله لم يترك له هذا، ولم يُعطه السبيل، بل أمره بالإتباع ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[يونس:١٠٩]، وهذا الإتباع هو سِرُّ النَّجاح، وهو سِرُّ الخصوصية المُوصل إلى الهدف، وكما أنَّ الاتّباع دينٌ ولا يقدر عليه إلا أهل الإيمان الذين يؤمنون بالغيب والدار الآخرة، فكذلك العاقبة لا تكون إلا غيباً يأتي من السماء على خلاف بصر النَّاس وأنظارهم، فحين ينسى صاحب يوسف -عليه السلام- صاحبه في السجن تأتي الرؤيا غيباً ليتحقق الوعد، وحين يستيئس الرُّسل يأتي النَّصر والوعد، وحين تُقرر الجاهلية قَتْلَ الدَّاعي استئصالاً تنفرج سبيل الهجرة لأرض النَّصر والتمكين، وبهذا العلم إن وجد في القلب يقضي على وساوس التنازل الذي تمارسه مناهج الجاهلية لحظة الإبتلاء والألم، فكل مناهج الجاهلية في التاريخ الإنساني بلا استثناء مارست المُداهنة وهي تسعى إلى أهدافها، وكلها تلبست بقيمٍ خارج ما تُؤمن به، كما أنها كلَّها قبلت الصِّراع على المُشاركة في وقت ضعفها، أما سبيل النُّبوة وأتباعها فهي على الضدِّ من هذا، فهي لا تُداهن، ولا تفتن عن بعض دينها، فبالحقِّ كلِّه منذ البدايات تصل مع الحقِّ كلِّه إلى النهايات، وسرُّ ثباتها هو الاتّباع، إذ يكمن فيه النَّصر الذي يحمل خصوصية الاختباء في الغيب حتى يصل الألم ذَروته والبلاء أوجه.

فهاتان خصيصتان لهذا الدِّين: الاتّباع التام الذي يتحقق في الدَّاعي بالعلم والعمل، والوعد الصادق الآتي مِن رَحِمِ الغيب لحظة الألم والبلاء واليأس.

مع الدَّاعي والعامل والمجاهد في دين الله لا يُقال ما رأيكم، ولكن يُقال: ماذا فَعَلَ الأنبياء هنا؟

وفي مناهج الجاهلية يمشي أصحابها إلى أهدافهم وهم يضعون لكلِّ مرحلةٍ يعيشونها ما يُلائمها من الكَيْدِ والتدبير والإظهار والإسرار، ولذلك هم يقولون مرةً قد اقتربنا، ومرةً أُخرى قد ابتعدنا، أما مع النُّبوة وأهلها فإنَّ الوصول إلى الهدف يأتي عند انقطاع الأمل؛ فلا مُقدمات للنَّصر، ولا بشائر له، ولا يحمل أتباعها إلا الصَّبر واليقين أنَّ وعد الله آتٍ لا محالة.

إنَّ عدم إدراك الدُّعاة والمجاهدين لهذين الأمرين هو الذي يُوقِعُهُم في سبيل المجرمين، وهو ما يُبعدهم عن تحصيل الوعد، فهذا الدِّين له قِيَمه الخاصة في كلِّ بابٍ من أبواب الوجود، فلا يكفي أن يعلم المـُسلم أنَّ قِيم الإسلام تخالف قِيم الجاهلية، بل عليه أن يعلم أنَّ سبيل تمكين هذا الدِّين تختلف عن سُبل غلبة الجاهلية، كما عليه أنْ يعلم أنَّ أقدار هذا الدين في التمكين لها خصوصية سنن التمكين المُوافقة لعبودية العامل ويقينه.

هذا العلم بخصوصية الاتّباع واليقين على الوعد لا يعني أنَّ هناك سنناً في الوجود لأُناس دون آخرين، بلِ السنن القَدرية شاملة للوجود لكن هذه السُنَّة في التمكين لهذا الدِّين لا تُدرك على وجهها إلا بالوحي، ولذلك جاءت قصص الأنبياء في القرآن الكريم لِتؤكد هذه الحقيقة، وهذه القصص الحق تُؤكد كذلك أنه لو لم يكن للدَّاعي والمجاهد إلا خِياران؛ الموت أو الاتّباع فالواجب الاتّباع، ولا يجوز الـمُداهنة لصرف الموت، وهذا نصرٌ آخرٌ لا يفهمه إلا أتباع الوحي من الأنبياء والأولياء، لكن السُنَّة الجارية التي لا تتعطل هي بقاء الحق وعدم زواله، فالحق قد يكمن حيناً لكن لا يموت، وهذا من معاني آية أهل الكهف التي علمها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في مكة كما علمه قصة أصحاب الأُخدود.

هكذا تلقي السورة هذه المعاني وخُلاصتها أنَّ هذا الدين هو دين الغيب، أجره ووعده ورجاله، ومن دون هذا الجوهر فلا خصوصية لهذا الدِّين، لا في قِيَمه ولا في منهجه ولا في أقداره، وهذا هو غذاء العلم والعمل اللازم للوصول إلى النَّصر أو الشهادة، وأي خلط لقيم الجاهلية مع قيم الإسلام أو سبل الأغيار مع سبيل الأنبياء أو جهل بسنن نصر هذا الدين وأقداره يعني ذهاب الأجر والوعد والنسبة، فلا حق لأحدٍ بعدها في السؤال عن الوعد أين هو، ولا لقبول دعاويالانتساب الكاذب للأنبياء والسلف الصالحين، ولا عجب بعدها أن ترى المـُتساقطين والناكبين عن ذروة سنام هذا الدِّين وقد سلكوا بعض الطريق أو أكثره ولكن أصابهم الجهل والجبن والضعف في المراحل الأخيرة وهي أشقها وأصعبها.

إنَّ بناء العامل لدين الله تعالى داعياً ومجاهداً على الغيب في التلقي والأجر والوعد هو من أعظم مهمات القرآن، وهو باب النَّصر وسببه، ومن دون هذا البناء يقع التخبط والذهاب في التيه، ولذلك فسورة «الإسراء» ـ بني إسرائيل ـ هي غذاء هذا البناء في القضايا التي ترتكز عليها فهي:

- إذ تُفتتح بذكر الرحلة المباركة المعجزة لرسولنا صلى الله عليه وسلم، حيث يرحل به على البُراق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى السموات بعد وقوع عام الحُزن بموت زوجه الحبيبة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وموت عمِّه أبي طالب حاميه والمـُنافح عنه أمام قومه وعُدوانهم، وهي إذ تقع بعد السنين الطويلة من إنكار قُريش وعدائها وعدم استجابتها لدعوته، فيرحل النَّبي صلى الله عليه وسلم رحلةً ليُلاقي عالَمَ الغيب من الأنبياء السابقين والملائكة المُقربين، فيشهد هذا العالَمَ الذي يحبه ويُسلِّم عليه ويعرف

له قَدره، ويشهد حقائق الحياة الحقيقية التي سيلقاها المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، وهذا ما يحقق اليقين والاطمئنان عليه، وهو سبب الصَّبر المُوصل إلى التمكين والنَّصر.

- وهي إذ تعرض وعداً إلهياً بوراثة أقصى الأرض في بلاد الشام كما سنرى في الاختيار الذي نعتقده في تفسير عُلُوِّ بني إسرائيل في الأرض، وكما سنعرض ارتباط أول السورة بآخرها في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾[الإسراء:١٠٤]،وَذِكرُ هذا الوعد -كما سيأتي- أنَّ الصِّراع سينتهي مع الشرك في جزيرة العرب لتصبح ساحته أوسع من ذلك، كما فيها ذكر آخر ساحات الصِّراع بين الإسلام وخصومه في بلاد الشام.

وهذا بناء لليقين على الوعد في ذروة الألم والبلاء، ولا يقوم هذا البناء إلا في قلوب تُؤمن بالغيب.

وهي تبني هذا اليقين على الغيب من خلال طلب الأجر الأخروي والسعي له﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٩]

- وهي تربط قِيم الإسلام في كلِّ آيةٍ بالغيب؛ فبعد بر الوالدين يقول تعالى:﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴾ [الإسراء:٢٥]

وبعد الإنفاق بلا تبذير يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾ [الإسراء:٢٧].

وعند النهي عن قتل الأولاد فإنه يحرض عليه بالإيمان بالقدر في الأرزاق بقوله تعالى:﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴾[الإسراء:٣١].

- وكذلك عند النهي عن الإسراف في القتل قِصاصاً يأتي وعد الله بأن العادل هو من يستحق النَّصر ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴾ [الإسراء:٣٣].

والسورة تقضي على شعور الغُربة في الوجود وحين يقل الناصر من الإنسان المُعين على الطاعة، وذلك بتعليمه أنه في عبوديته يتماهى مع ذرات الوجود اتساقاً وائتلافاً، وذلك في قوله تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء:٤٤].

- وهي تُبين ارتباط الشرِّ في الإنسان بعالم الشرِّ في الغيب فتقول:﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[الإسراء:٥٣].

فهذا بعض ما سنراه في حقائق هذه السورة في هذا الباب العظيم.

- كما سنرى فيها التحذير من ترك الاتّباع، وسلوك سبل أهل الجاهلية في حرف العامل عن منهجه بالتزيين أو بالتهديد والإخراج، وربط العامل بحسن العلاقة مع الله بالإخبات والدعاء والذكر والصلاة.

فهذه مائدة الثراء في صنع شخصية الوارث، وهي العمد التي يرتكز عليها الوارث في لحظة إطباق عالم الشهادة عليه بوجوهها الـمُضادة لليقين والوعد.

فهذه سورة تبني بمعالمها العِلم اللازم لرحلة العامل، وتصنع شخصيته على وجه التعبد الذي يحبه الله له، وتُعطيه من أدوات إدراك سنن الشهادة وسنن الغيب، كما تملؤه يقيناً بالوعود الكامنة بعيداً عن بصره، وهذه أركان تحقيق النَّصرين في الدنيا والآخرة، وأي جهلٍ أو تنكبٍ عنها أو عن آحادها يعني الإخفاق وذهاب ما يؤمله ويرجوه، وحين يرى المرء يأساً قد أصاب النُّفوس، أو ضعفاً أوهى العزائم تلبساً بلباس العِلم وزُخرف القول أنَّ طريق مواجهة الجاهلية غير سديد، أو أنَّ مبدأ قذف الباطل بالحقِّ لا يُوصل للمُراد بالنَّصر، أو أنَّ الدَّاعي يقول كلمته في فضاء لا يصنع كشفاً للباطل، ولا تسمية الأمور بأسمائها الشرعية؛ فإنَّ علم القرآن وحده الكاشف لهذه الجهالات والزخارف، وأن غذاء القرآن هو وحده مَن يرد اليأس والضعف، لتتواصل الرحلة حتى تصل إلى مُستقرها الذي يحقق الدخول في حقيقة العبودية لله ربِّ العالمين.

من أجل هذا أتيتُ لهذه السورة؛ عسى أنْ أعيش معها فيتحقق المُراد أو بعضه، فإنْ كان فهذا من الله وحده، وإن حجب فبالذنب اللازم لهذا العبد، فاللَّهُمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرْ لي مغفرةً من عندك إنك أنت الغفور الرحيم. آمين.

****

سورة «الإسراء»، وتُسمى سورة «بني إسرائيل» هي أول المُسبحات في القرآن، وتُسمى بهذا لأنها تُفتتح بتسبيح الله تعالى، وقد جاء تسبيح الله تعالى فيها بذكر المصدر ﴿سُبْحَٰنَ﴾واختتمت المـُسبحات بالأمر في سورة «الأعلى»﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾،وقد ذكر بعض أهل العلم فوائد لهذا الترتيب كما تستطيع أن تراه في كتاب: الإتقانللسيوطي، ومما يمكن أن يُضاف على ما قِيل أنَّ أول المسبحات هي سورة «الإسراء»، والإسراء كان معه المعراج إلى السماء كما جاء في الأحاديث، والمعراج فيه إثبات عُلُو الله تعالى على خلقه ذاتاً وقَدراً، وهذا يتحقق في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾فهو سبحانه وتعالى الأعلى ذاتاً وقدراً جلَّ في عُلاه.

وهذه السورة مع «الكهف» و«مريم» و«طه» و«الأنبياء» كان يقول فيها ابن مسعود رضي الله عنه: «إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي». فهي سور متقدمة النزول أي مكية، وفيها معالم غنية فجعلها من تلاده أي ماله القيم الذي ورثه ويورثه.

يقول سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الإسراء:١]

يمجد الله نفسه ويُقدسه، وهو الكبير المتعالالذي له الحق أن يمدح نفسه لكماله وقُدوسيته جلَّ في عُلاه، فلا أحد غيره له هذا الحق في هذا التمجيد والتقديس، فالتسبيح هو تنزيه المُسبح عن المثيل والضد، وعنِ النقص والعجز والضعف، فهو قدوس ممجد، وهي إحدى الباقيات الصالحات؛ أي سبحان الله، يذكر بها العبد ربَّه ويمجده ويُقدسه ويُنزهه، وهذه السورة إذ تفتتح بالتسبيح فإنها تختم بذكر أسمائه الحسنى ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء:١١٠]ثم يتم المدح بالأمر بحمده تعالى وتكبيره: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[الإسراء:١١١]لتتم الباقيات الصالحات، فهو الواحد، وهو المسبح والمحمود والمكبر جلَّ في عُلاه، ومَن تأملَ خاتمة السورة بذكر الحمد يجد أنَّ مُوجب الحمد فيها هو مُوجب التسبيح بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾فهذه مُوجبات التسبيح، وهي ما جعلها الله تعالى مُوجباً للحمد، وهذا لأنَّ الحمد يكون لأمرين في الوجود، **أولاهما**: للنعمة التي يُسديها المحمود. **وثانيهما**: لكمال المحمود وقُدوسيته، ولذلك قالوا في الحمد هو الثناء الحسن على الجميل الإختياري، أي ما يقع للمحمود لموجب جماله وجلاله وقدوسيته، فتسبيح

الله تعالى وتنزيهه هو مُوجب حمده، ولذلك يُقدم التسبيح على الحمد، إذ هو مُوجبه كما يُقدم العزيز على الحكيم كما قال بعضهم: «عزَّ فحكم»[1]. فالعزَّة موجبُ الحُكم، أو هي سببه.

وسبب ذكر التسبيح عند ذكر الإسراء أنَّ التسبيح لا يكون إلا للقادر في قُوَّته، الحكيم في فِعله وشرعه، والإسراء وقعَ على وجه الإعجاز المُخالف لسنن العادة في المسير والترحال، وهذا لا يُوقعه إلا القادر، ولكن لا يُوقعه إلا على وجه الحِكمة التي لا تُتهم، فلا عبث بها ولا لهو، ولذلك قال تعالى عقبها ذاكراً حكمة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

وكذلك فيه مقدمة الرد على المُنكرين، فالإيمان به ابتلاء ربَّاني للخَلق، يسمع به المؤمن فيسبح ربَّه أنه القادر عليه، ويُنكره الكافر لجهله بربِّه وخالِق الوجود فيُقال له: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ فهو الفاعل له جلَّ في عُلاه، وهو الراحل بعبده، لا بقوة العبد ولا بفعله.

والقرآن الكريم هو لتحقيق مقصد وجود الخلق أي معرفة الله وعبادته، ولذلك أعظم ما في هذا الكتاب هو الحديث عن الله تعالى وعن أسمائه وصفاته، ولذلك كان من فقه علماء الصحابة هو إدراكهم لهذا المعنى ففي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبي بن كعب رضي الله عنه((أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم فرددها مراراً ثم قال أبي: آية الكرسي)) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليهنك العلم أبا المنذر)).

وهذا لأنها آية تختص بجمع جمل في صفات الله تعالى ليس في غيرها، على أن أعظم صفات الرب ما حوته وهما الحي القيوم، فكل الصفات الحسنى تبع لها، فلا صفات حسنى بدونها، وما قال أُبي هذا إلا لما يعلم أن أعظم ما في هذا الكتاب هو الحديث عن الله جل في علاه وتقدست أسماؤه وصفاته، ومثل هذا ما وقع لمحب سورة الصمد، ففي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء فكان فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ

[1] ذكر الطيبي عن الأصمعي قال كنتُ أقرأ: «والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم»، وبجنبي أعرابي فقال: كلامُ مَنْ هذا؟ قلتُ: كلامُ الله، قال: ليس هذا كلامُ الله فانتبهتُ فقرأتُ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة: 38]. فقال: أصبتَ هذا كلام الله. فقلتُ: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلتُ من أين علمتَ؟. قال: يا هذا عَزَّ فَحَكَم فقطعَ ولو غَفر ورَحم لَمَا قَطَع.
«تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور: 275/2. «اللباب في علوم القرآن» لأبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي: 317/7.

سورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلن وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرونه أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟ قال:- إني أحبها، قال((حبك إياها أدخلك الجنة)).

وفي الصحيح من حديث عائشة أنه وقع هذا لرجل أمير على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أخبروه أن الله تعالى يحبه.

فأعظم ما في هذا الكتاب هو ذكر الله وصفاته وأسمائه، والخلق لم يخلقوا إلا لهذا، أي أن يعرفوا ربهم ويقروا له بالعبودية والتوحيد، وكل ما في الوجود من خلقه، وما أنزل الله من شرع إنما هو على معاني بهذه الأسماء الحسنى، بل إن من تأمل الخلق وحكمته وبديع صنعه، ومن تأمل شرعه في أمره ونهيه علم أنها تنتظم كلها في هذه الباقيات الصالحات((سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)) فكل ما في الوجود من خلق محكم وشرع منزل أشبه بذرات جليلة جميلة تشكل لوحة الباقيات الصالحات، وما يقع من العبد من جهالة في باب من أبواب كفره بالقدر أو كفره بالشرع إلا وأثر هذا الكفر والجهل مرتد على هذه اللوحة، ناقض لمعنى من معانيها، وكذلك المعاصي لا تقع إلا لضعف معاني وحقائق هذه الباقيات الصالحات في نفس العبد.

فكلما ارتقى العبد في ولايته لربه ازداد بصيرة بهذه الكلمات، فما من تفكر في الكون أو الشرع أو عبادة وإخبات إلا وأطلقت على لسان العبد كلمة من هذه الباقيات الصالحات، فإما مسبح لله وإما حامد وإما موحد وإما مكبر، ثم يزداد عليها بما يوجب عليه من القول والعمل بالإستعانة التي تتحقق بقوله((ولا حول ولا قوة إلا بالله)) ،فالكلمات الأربع الأولى من الباقيات الصالحات هي معاني الوجود بشقيه الخلق والأمر، وكل عبادات المرء منتظمة فيها، سواء كانت هذه العبادة ذكراً أو فكراً، ولذلك خاتمة الفكر والذكر تكون

بالتسبيح كما قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩١]،وهذا موسى عليه السلام لما رأى أثر نور الله في الخلق، وما يقع من تجليه سبحانه لخلقه قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٣]،فإن تجلي المعاني الإيمانية للقلب بالنظر أو الفكر تخرج هذه الكلمة العظيمة من القلب على وجه التذلل والإخبات كما وقع مع يونس عليه السلام فإن الكلمة التي نادى بها ربه في بطن الحوت قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧]،إذ لا يقع العبد في الظلم إلا وجه من الوجوه إلا وفي هذا العمل إخلال لهذه الباقيات الصالحات، فإقرار العبد بالذنب مع التسبيح هو تمام التعبد، إذ في الإقرار استغفار يصلح الذنب ويمحوه، وفي التسبيح إصلاح للمعنى الذي وقع به الذنب، فالله لا يليق به إلا إخبات العبد له وخضوعه وتذلــله وامتثال أمره على وجه يعلم به هذا العبد أن الله لا يصدر منه إلا الحق والكمال والحكمة والعدل، فالذنب ينقض هذا المعنى، والتسبيح يصلحه، فالإستغفار محو للذنب والتسبيح إصلاح للمعاني القبلية التي أوقعت هذا الذنب، ولذلك فمن دعائه صلى الله عليه وسلم في السجود((سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي)).

كما أن في التسبيح تنزيه للرب أن يصله ظلم العبد أو جهله، فذكر العبد التسبيح مع الإستغفار فيه معنى تنزيه الرب أن يبلغه هذا الظلم كما قال تعالى﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾[البقرة: ٥٧]، [الأعراف: ١٦٠]فقوله﴿وَمَا ظَلَمُونَا ﴾يقتضي التسبيح، وقوله﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾يقتضي الإستغفار، فالجمع بين الإستغفار والتسبيح ليتحقق مراد العبد في نفسه بسقوط الذنب عنه، ويتحقق حق الله بما تقدم من المعنيين ولذلك فإن أصحاب الجنة كما في سورة القلم لما أرادوا التوبة دعاهم أعدلهم وأقومهم إلى التسبيح فقال تعالى﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴾[القلم: ٢٨] فسبحوا الله واعترفوا بالذنب على معنى الندم فقال تعالى عنهم﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[القلم: ٢٩].

فالتسبيح يكون عند رؤية موجبه من آيات الحكمة والقدرة والعزة وهذا أعظمه، ويكون عند الذنب الذي فيه خدش لجناب التوحيد والتعظيم، فيتحقق الحب الإلهي العبد في كليهما برفعة الدرجة في الأولى وقبول الإنابة في الثانية.

والتسبيح هنا في هذه الآية من السورة هو على المعنى الأول كما تقدم.

وحرف السين الساري في هذه الآية مع هذا الإطلاق في الكلمات الربانية في ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يحققان بسطة الروح المفكرة، وإطلاق النَّفَس للقارئ التالي لها، فتتلاءم المعاني من امتداد الرحلة، وتنوع الآيات وكثرتها، وأفق النظر الممتد معها وفيها، مع رحلة الكلمات بألفاظها وحروفها، وهذا لا يكون إلا في كلام الحكيم العليم جل في علاه، إذ تتوافق حركات المباني مع أفق المعاني.

وعدم ذكر اسم الجلالة هنا والإستعاضة عنه بوصفه﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾لأن هذا الفعل العظيم لا ينازع فيه الرب، فإن ذكر الوصف الذي لا ينازع فيه الموصوف أجلى في التعظيم وأوضح، وهذا لا يجري إلا على معنى التبجيل والمدح والتمجيد، فإن النَّفْس إن سمعت هذا الوصف الجليل ارتد عليها بتعظيم الموصوف باسمه قائلة ((سبحان الله))، وهذا فيه معنى التحدي على ما قال الله تعالى﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]،وعلى ما قال﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[العنكبوت:٦١]، [لقمان:25].

كما أن في ذكر هذا الوصف﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾تنبيه على الرسالة والإختصاص باجتباء هذه المرسَلْ محمد صلى الله عليه وسلم، إذ أن هذا الإسراء لا يكون إلا لمجتبى مختص بالمدح والحب، فاجتمع بهذا الأمر ذكر الرب واختصاصه بالفعل، وذكر الرسول واختصاصه بالإجتباء والإصطفاء.

وذكر ((العبد)) هنا جامع لكل معاني الحق والمدح، فإنه ((عبد)) مسرى به، محمول بغيره، وهذا الفعل لا يقوم به بنفسه، بل يقوم بسيده ومولاه، وهو عبد ممدوح بهذا الإختصاص الذي يتحقق له حسن المقاصد من

القرب بربه ورؤية آياته على ما قال الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام:٧٥].

وفي هذه الآية ذكر شرف الأماكن فهو اسراء من المسجد الحرام، وهو موصوف بالكتاب بالمدح وعلى لسان الرسول بتعظيم الأجر، إذ قال الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: ٩٦]وقال تعالى﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا ﴾[آل عمران: ٩٧]وقال تعالى﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ ﴾[المائدة: ٩٧]وقال تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[الحج: ٢٥ -٢٦] وآيات أخرى، وأما على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الصلاة فيه خير في ما سواه من المساجد.

وأما المسجد الأقصى فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية عنه قوله﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ وهذا الذكر هنا دون ذكر أي وصف للمسجد الحرام سوى اسمه لأن المخاطبين يومها يعرفون حرمة المسجد الحرام، وهو في هذا على ما ورثوه من أبيهم ابراهيم عليه السلام، وأما المسجد الأقصى فشأنه لهم جديد، فاحتاج لهذا الذكر والتنويه.

وفي شرف المسجد الأقصى أحاديث أعظمها فضل الصلاة فيه، وشد الرحال إليه. وأما أن الفعل جرى في الليل فلأن الليل آية عظيمة تجري فيه آيات التفكر والنظر، فهو عند أهل الجهالة وقت غفلة، وعند أهل الولاية محطة عبادة وذكر وتفكر، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول((العبادة في الهرج كهجرة إلي)) فكلما كانت غفلة الناس في وقت أو باب كان شأن الذكر والفكر عند الله أعظم أجراً وأكثر أثراً، ولذلك كان من شأن رسولنا صلى الله عليه وسلم أن يقرأ قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران: ١٩٠) في تقلبه في الليل، وجاء في الحديث أنه خرج عليهم ليلاً يتلوها ويقول((ويل لمن قرأها ولم يتفكر بها)).

فاجتمع في هذه الآية عظمة الرب ومدح الرسول وشرف الفعل وفضل الأماكن واختصاص الزمان والوقت وذلك مناسب لقول العبد ((سبحان الله)) كما أنه مناسب لهذا الإفتتاح الجليل، فإن سور القرآن لا تفتتح إلا بأجل الذكر وأعظم الأمور.

إضاءة: جاء في كتاب الأدب للبخاري باب التكبير والتسبيح عند التعجب وذكر فيها حديثين مسندين وحديث معلق وصله في أماكن أخرى، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت:- استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم: فقال:- ((سبحان الله، ماذا أنزل من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجر؟ يريد به أزواجه حتى يصلين، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة))

وعن صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرت علي بن الحسين أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الغوابر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة من العشاء، ثم قامت تنقلب، فقام معها النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها،حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مر بهما رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي)). قالا:- سبحان الله يا رسول الله وكبرا عليهما، قال:- إن الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما))

فهذان الحديثان يدلان على جواز اخراج الأذكار عن معناها واستعمالهما في غير باب الذكر، مع أن الملائمة بين التسبيح وحال التعجب لا تخفى على ناظر.

قوله تعالى﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ تعليم لأهل القرآن لشرف الأماكن، فالله تعالى قال﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ ،وهذا دليل أن مادة الخلق في التفضيل ليست واحدة، وليس الفضل فيها بالأعمال التي تحتويها فقط ولكن فضلها في أصل الخلقة، حيث يكون أصل خلقتها مفضلاً، وبهذا التفضيل في أصل الخلقة يكون الشرع الذي يحقق لها معنى هذا التفضيل في الأعمال، فيقع التلاؤم بين أصل الخلقة وبين الشرع، فالمسجد الحرام فيه معنى في أصل خلقه ليس لغيره من

الأماكن وكذلك أرض الشام التي بارك فيها كما في هذه الآية، وأما الأعمال فيها فقد فهذه تقع على المعنى الشرعي، أي الأمر والنهي، فتقع فيها الطاعة من العابد والمعصية من الإثم، فالمسجد الحرام عبدت فيه الأصنام زمناً طويلاً كما ونصبت فيه، ووقع فيه كذلك العري والمكاء والتصدية، وهذا أعظم شرور الخلق كما تبينه آيات سورة الأعراف من قوله تعالى﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٢٦-٣١]،ولذلك فلا فضل للساكن بفضل المكان إلا بامتثال الشرع فيه، كما لا فضل للمنتسب للأنبياء والصالحين إلا بالعمل والتقوى كما قال تعالى﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[النساء:٥٤-٥٥] وقال تعالى﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾[الحديد:٢٦]،وهذا باب قد ضل فيه الناس اليوم، وخاضوا فيه بالجهالات، وصارت الأنساب إلى التواريخ والأماكن سبباً للفخر الجاهلي، وأدخلوا هذا الفخر في الدين، حتى أصابهم ما أصاب يهود في قوله تعالى﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾[البقرة:٩١] وقال تعالى عن قولهم﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾[آل عمران: ٧٣].

وفضل الأعمال في العلم والجهاد والطاعة والعبادة ليس مخصوصاً بمكان ولا بطائفة على ما يرى الناس من التاريخ والوقائع، فمكة أشرف من المدينة، وكان الفضل لأهل المدينة بنصر الإسلام واستقرار النبي صلى الله عليه وسلم وسلطانه فيها، ولم يتركها حتى بعد أن فتحت مكة وصارت دار اسلام، ثم صار للمسلمين أجناد

في مشرق الأرض ومغاربها، يقوى الدين والعلم والجهاد في مكان ويزول من أخرى، وأهل الصلاح يصدرون من مكان إلى آخر بحسب هذه الأجناد وصعودها دون أن يجعل الواحد منهم فضل المكان القدري سبباً للزوم إلا لأداء طاعة خاصة فيه كالحج في مكة وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك.

وهذه الآية نزلت والمسجد الحرام فيه الأصنام كما في الأرض المباركة حكم الشرك والصلبان، فالتنويه هنا لا لفضل أعمال أهلها، ولا لفضل سكانها ولكن لفضل ذاتها عند الخلق، وهذا الأمر بالنسبة للمؤمن مهم جداً، فإن الفضل القدري في الإختيار والإصطفاء موجب لدى المؤمن بفضل العمل في هذا المكان أو الزمان، كفضل آل البيت واصطفائهم القدري، فإن هؤلاء منهم ما في آل ابراهيم عليه السلام من قوله تعالى﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[النساء: ٥٥]لا كما يظن الجهلة من المخرفين والروافض أن فضلهم القدري مانع من كفرهم أو زندقتهم أو معصيتهم، ولكن المؤمن منهم يوجب عليه فضل النسب شرف العمل، كما يوجب على المؤمن من غيرهم حبهم لهذا النسب وتقديمهم على غيرهم إن تساوت ركب المتسابقين في الأعمال الصالحة، ولذلك فإن الفضل القدري داع زائد لفضل العمل، والأحاديث في فضائل الشام كثيرة لكن أعظمها قوله صلى الله عليه وسلم((إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، ولا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)) خرجه الإمام أحمد والترمذي وقال حسن صحيح، والحديث من رواية معاوية بن مرة عن أبيه.

وهذا فيه من التكاليف على سكان أهل هذه الأرض، وفيه معنى ما في الحديث الآخر((إني رأيت كأن عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام)) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

قال ابن رجب: وفي رواية خرجها ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)): فأولته الملك.

ويعني هذا أن معيار الفتن للمسلمين في وجودهم إنما هو ما يقع في الشام من أحوال، وهذا ما تثبته وقائع التاريخ، فإنه بعد الفتح الأول للشام كان ما يقع في الشام وإلى الآن هو عنوان حال المسلمين في الأرض، وذلك ببيان حال ملكهم وسلطانهم وغلبتهم، لا حال سكانها من الصلاح والعبادة.

والقصد مما تقدم أن فضل الأرض موجب للعامل بزيادة التقوى والصلاح والعمل، لا أن الأرض والزمان يبعثان في المرء من الخير ما لا يفعل ولا يستحق، فإن علم هذا دل على أن هذه الأرض المباركة هي تكليف إيماني على أهلها وعلى المسلمين كما أن البيت الحرام تكليف إيماني كما قال تعالى لابراهيم واسماعيل عليهما السلام﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ**﴾[البقرة: ١٢٥]وقوله﴿ **جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ** ﴾[المائدة: ٩٧]ولذلك كان من الفسق الفساد في المسجد الحرام كما قال تعالى﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ** ﴾[البقرة: ٢١٧]،ويعني هذا أن تقصير المسلم في شأن ما بورك فيه وعظمه الله من المسجد الأقصى وما حوله فسق ومعصية أعظم من التفريط في غيره والمعصية في ما سواه، فحيث بورك في ما حول المسجد الأقصى قدراً يعني هذا أن الشرع يلزم أهله خاصة والمسلمين خاصة بالعناية به والقيام بشأنه على معنى يحفظ هذه الرفعة القدرية، وهذا من أدلة الأحكام لمن تأمل الشرع في الكتاب والسنة، فالقرآن أنزل في ليلة مباركة كما قال تعالى﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ** ﴾[الدخان: ٣] وهذه الليلة هي ليلة القدر كما قال تعالى﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ** ﴾[القدر:١] وقد جعل الله فيها من الشرع ما ليس فيها من الليالي، والأمثلة كثيرة.

فتقصير أهل الإسلام بهذا الأمر يعني أن الشر سرى فيهم، إذ فساد سكانها يعني فساد المسلمين وقلة دينهم بترك العمل الواجب عليهم.

ثمّ إن في هذه النسبة للقدر بالإصطفاء وللشرع بالعمل الصالح يقع حق الملكية والوراثة، فالأماكن لا يثبت فيها حق الملكية بالوراثة النسبية، ولا بالحجة التاريخية لكن يثبت بالحق الشرعي، أي بالعمل الصالح كما قال الله عن أرض بني قريظة بعد إجلائهم بعد غزوة الخندق﴿ **وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا** ﴾[الأحزاب: ٢٦-٢٧] ،فالبلاد لا يخاض بين المتخاصمين عليها على أسس تاريخية والوراثة البشرية لكن بكلمة الله أي العمل بشرعه وطاعته لقوله تعالى﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**

مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[النور: ٥٥]وقوله﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾[الأعراف: ١٣٧] ،وأحكام الغنائم والفيء دالة على هذا المعنى، وهذه السنة؛ أي سنن الإستخلاف والوراثة، جارية في كل زمان وإلى يومنا هذا، فكل من يسعى في النزاع مع الآخرين لأخذ الملك وثبوت الحق من خلال النسب أو التاريخ فهو جاهل بسنن التاريخ والوجود، إذ الغلبة هي قانون الوجود وبها يثبت الملك، وإلا فهناك دول وممالك ذهب أهلها القانطون لها من عمق التاريخ فجاء غيرهم وصارت في يدهم، والبقاء هو لما قال الله تعالى﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[يونس: ١٣]وكما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام لقومه﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٢٩]والدليل على الإستحقاق هو تحقق الغلبة فإن فاتت دل على عدم الحق وذهاب حجة الملك، فهذا قانون الوجود، وهو الجاري في كل أزمانه بلا تخلف، وتحقق الملك في القدر لا يكون بالكلمة الشرعية بل بالكلمة القدرية أي الفعل الإنساني وجهده، ويكون هذا الملك شرعياً بمطابقته للكلمة الشرعية، وهذه أمور سيأتي شرحها عند قوله تعالى﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[الإسراء: ١٨].

قوله تعالى﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ دل على منزلة العبد صلى الله عليه وسلم، فإن الإسراء به صلى الله عليه وسلم على الحال الذي وقع هو من قبيل الإكرام والتعظيم، وأعظم الآيات التي رآها هي منزلته في عالم الغيب، ففي هذه الرحلة حصل أن وقع له صلى الله عليه وسلم:-

- أنه صلى بالنبيين والمرسلين إماماً في بيت المقدس.

- غسل صدره بطست من ذهب فيه ماء زمزم، وهذه غير حادثة شق الصدر وهو عند مرضعته في البادية، وقال صلى الله عليه وسلم عما وقع له بعد الغسل في ليلة الإسراء((فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة)) ،وكما ترى فإن الغسل قبل الحشي قاعدة التخلية ثم التحلية.
- تسليم ملائكة السماء عليه وقولهم: ((مرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء)).
- تسليم النبيين عليه ومنه قول أبوه آدم عليه السلام:- ((مرحباً بك وأهلاً يا بني، فنعم الإبن أنت)).
- عرض الكوثر عليه وقول جبريل عليه السلام: ((هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك)).
- بلوغه ما لم يبلغ نبي مثله ولذلك قال موسى عليه السلام: ((لم أظن أن يرفع علي أحد)).
- بلوغه سدرة المنتهى ودنوه من الجبار رب العزة سبحانه وتعالى.

وهذا الإكرام والتعظيم إنما وقع بعد أمور عظيمة من البلاء ومشاق الدعوة وتبليغ الرسالة، فإن الإسراء وقع في السنة العاشرة للبعثة، ومثلها وقع الحصار الشديد في الشّعب بعد المقاطعة المجرمة التي قررتها قريش ضد المسلمين وضد بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف لحمايتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم البراءة منه ومنعهم تسليمه لهم، فكتبوا الصحيفة التي تعاقدوا عليها كما يفعل الطواغيت في كل عصر ضد المهتدين، وفي هذا الحصار وقع الضيق الشديد على أهل الإيمان ومن حماهم من أهلهم، إذ منعوا الطعام والبيع والشراء، فجاءوا حتى بلغ منهم الجهد الشديد، وكان بكاء الأطفال يسمع من وراء الشعب، وبعد أن رفع الحصار بشهور مات أبو طالب ثم ماتت أم المؤمنين الصديقة خديجة بنت خويلد بعده بأيام فاشتد البلاء برسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ تجرأت عليه قريش. فقد روى البيهقي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال:- لما مات أبو طالب عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم سفيه من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً، فرجع إلى بيته فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول: ((أي بنية، لا تبكي، فإن الله مانع أباك)) ويقول ما بين ذلك: ((ما نالت قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب، ثم شرعوا)).

ثم ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فرد بأشد رد، وآذوه حتى أدموه، فرجع إلى مكة حزيناً، ولم يستطع دخولها حتى أجاره مطعم بن عدي فحماه هو وولده بالسلاح حتى دخل بيته، وهذا قد وقع وقد هاجر أصحابه رضي الله عنهم إلى الحبشة، فكان ما فيه هو أشد حال وأشقه، وأغلقت آفاق الأرض وقلوب الرجال،

فكان الإسراء ليريه الله عالم الحق، وآفاق الوجود الغيبي، وآيات النور التي تثبت الفؤاد، فتقلع آثار آلام المعرضين وجهالات أهل الغشاوة، فالعيش مع الغيب ليس مرضاً يهرب به المرء من الواقع، ولكنه التفات من عالم الصور والخيالات والفناء إلى عالم الحقائق والنور والخلود، والعيش معه هو ترفع عن دنايا الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، وخساسة الذين استقرت موازين القيم عندهم على ما تمليه الشهوات العاجلة، والمرء لا يقوى أن يخالف القطيع إلا إن عاش عالم الحقائق وأبصر معالم الحق، وصغرت لديه هذه الدنيا، ولذلك فإن سورة المؤمن – غافر – قدمت لقصة مؤمن آل فرعون رضي الله عنه وقد خالف قومه وسارعلى الضد من دينهم وقيمهم وحياتهم بذكر حقائق الغيب من استغفار الملائكة للمؤمنين كما قال تعالى﴿ **ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ** ﴾[غافر: ٧]، فإن المؤمن إن استشعر وعاش هذا العالم الغيبي النوراني قويت نفسه على مخالفة الباطل، فالغربة قاتلة، والفرادة ليست رحلة هينة، فحين يهجر المرء قطيع الشهوة العاجلة فلابد له من صحبة أخرى ترافقه ويعيش بها ويتفاعل بها، وهكذا فإن أقسى المحطات تهون بهذه الرفقة الرائعة حين يحس ويذوق بإيمان يقيني أن الملائكة تدعو له وتستغفر له، وأن ما هو أعظم منها وهو الجليل يراقبه ويرعاه، وأن الوجود الغيبي يعرفه ويحبه، فماذا يبقى من قيمة إن عاداه السفلة، أو جهله أهل الأرض، أو صغر في عيونهم، فهذا ما كان من أمر رحلة الإسراء فإنها رحلة تعريف المقامات الحقيقية للوجود، حيث أبصر الأنبياء وما هم فيه من الدرجات، وما هم عليه من المستقر والمقام، وكذلك أبصر مستقر المؤمنين في الجنان، وأبصر مقام العصاة والمفسدين، ومن كان هكذا فماذا يضره من مصاب في سبيل الله، وماذا يعنيه أن تدق قدمه وتدمى، فمن أبو جهل هذا! ومن أبو لهب، ومن عتبة، ومن أبناء عبديا ليل في الطائف!، فهؤلاء صور فارغة، وجرابات جهل حقيرة، والدم الذي يسيل هو النور الذي يدخره عند اللقاء، والألم الذي يعانيه هو بسمات الملائكة حين تلقاه، فهذه محطة التقييم، ومن لم يعلمها فإن مصيره إلى الخسران والضعف والإستسلام، وكلما أحسها المرء وعاش معها صغرت الآلام وقصرت الطريق وحصل المقصود، فمؤمن آل فرعون حين خرج من سياق آله لم يكن ليحصل له هذا إلا بعد أن عاش هذا الوجود، فذهب يتحدث معهم هذا الحديث الإيماني الرائع، وهو حديث كل أهل الدعوة الربانية.

مع هذه الذروة من البلاء، ومع تصميم الإرادة بمواصلة الرحلة تأتي البشائر، ويحصل قوله تعالى﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴾[فصلت: ٣٠].

مع الرسول صلى الله عليه وسلم تحصل الرؤية البصرية كما قال عن ابراهيم عليه السلام﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ** ﴾[الأنعام:٧٥]ومع غيرهم تحدث البشائر على هذا المعنى كما حصل لأم موسى عليه السلام في قوله تعالى﴿**فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[القصص: ١٣] فتتنزل حقائق الغيب على الوجود المشهود لا تتوقف كما في قوله تعالى﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾[الأحزاب: ٩]، فالآيات لا تتوقف، لكن العلم بها يتوقف على الإيمان، وأما الجاهلون فتفوتهم بل قد لا يرون فيها إلا العذاب والألم، وحين تستقر الحقائق في الوجود يقول المنصفون مقالة أخوة يوسف عليه السلام﴿**تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ** ﴾[يوسف: ٩١].

فهذه الرؤى البصرية والقلبية هي وقود السائرين وهم يحملون ثقل الكلمة، ومشاق الصعاب في رحلتهم الطويلة، بأداء الأمانة وإقرار الحق في الأرض، وفي هذا يقع أهل العمى في قوله تعالى﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ**﴾[الحديد: ١٣]،ولو علم أهل الجهالة سعادة هؤلاء القلبية لحسدوهم عليها، بل لقاتلوهم ونافسوهم، ولكن أنى لأعمى البصر أن يرى ذوق الإيمان وحلاوة اليقين ومعالم الغيب.

فهذه رحالة الإسراء بالنسبة لشخص الداعي وحاله، وهذا مقصدهم الأول منها، وهو قبل مقصد البلاغ للناس والتحديث بالرؤى للآخرين، فالداعي أولاً، لأن الإنسان بإيمانه هو مقصد الخلق والوجود، وحملة الشعلة هم أسس الحق، إذ يرتفعون ويرتقون حتى يكونوا هم جزءاً من الإيمان وشرطاً لصحته كما قال تعالى عن

الوارثين﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

وهذه السورة إذ تفتتح بهذا الأمر الجليل فالمعنى عظيم لتحمل كذلك بشارات الغيب بالنصر، فتأتي بعدها بشارات الصراع مع أشد الناس عداءً للمؤمنين وهم اليهود كما في قوله تعالى﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ ،فيأتي ذكر علوهم في الأرض على المعاني التي ستأتي لاحقاً إن شاء الله تعالى، وفي هذه السورة تأتي بشارة الهجرة في قوله تعالى﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾[الإسراء: ٨٠]كما يأتي فيها بشارة فتح مكة في قوله تعالى﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾[الإسراء: ٨١]،وفيها بشارة الوعد الحق بخاتمة الصراع مع المفسدين في قوله تعالى﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾[الإسراء: ١٠٤].

فهي رحلة الغيب الذي يحياها الداعي ليقوى قلبه وتشتد عزيمته وهو في غربته، وهي رحلة الغيب الذي ستحياه الدعوة والأمة في تميزها أنها هي وحدها من يوقف فساد أهل العلو، وأن قدرها هو الشهادة على الخلق وتحمل المشاق مع عاقبة الخير والنصر والتأييد.

في هذه البداية عرض لرحلة مكان، وهي عنوان لرحلة تاريخ دين ودعوة ورجال، فيها يقع الربط بين التاريخ القادم وبين مكانه، ولذلك لم يكن لأحد أن يسأل عن قوله تعالى﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[الإسراء: ٧]عن المسجد من هو؟ فهو المسجد الذي بارك الله حوله؛ أي المسجد الأقصى، وذكر البركة حوله ليس قاصراً على ما ذكره بعض أهل العلم من كثرة الثمار وخصب العطاء، لكن البركة التي تحل فيه هي أحداث الخير التي تقع فيها، وهذا يتلاءم مع ما تقدم من أن فضل المكان قدراً يقتضي اختصاصه بفضل العمل شرعاً، وأي عمل أعظم للأمة من عمل الشهادة على الخلق، وسيتبين لاحقاً بإذن الله تعالى أن قوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾[الإسراء: ٦] وهي وصف للمسلمين لا لليهود، فأرض الصدام بين رأس حرب العداء للمسلمين وبين المسلمين ليتحقق زوال العلو المقترن بالفساد هو الذي

يتلاءم مع بركة الأرض، وهذا من أعظم البشارات المحمولة على كنف هذه الآية العظيمة، وهي مفتاح الباب للمعاني القادمة في الآية، وما بعدها هو محتوى المعاني لهذا الباب وهذا المفتاح، فهي بشرى بغلبة الحق وانتشار الإسلام وبلوغه أقصى الأرض، ودخول الأرض المباركة في كنفه وتحت سلطان أهله، وهي كذلك باتصال الإسلام حتى آخر مدافعة بين الحق والباطل، فلن يكون بديلاً لرجال الحق، بل حملته حتى آخر الزمن إنما هم أهل الإسلام ورجاله، وهم أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والطائفة المنصورة، وكلما ظن قوم أن الوطيس قد جنا فإنه سيزداد وسيقول قوم كما قال إمامهم من قبل((الآن حمي الوطيس)) حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال كما تبين الآيات القادمة.

هذه بعض ملامح هذه الآيات كمفتاح لمعاني السورة، فهي نور بذاتها، ونور لغيرها، فسبحان قائلها، وسبحان من يرفع المعاني والبشارات لأمة تتبع إمامها الذي يسري به ربه فيرى ملكه وملك أمته، ويعلم حال نفسه عند ربه، وحال أمته من بعده.

إضاءة:- لم يذكر ربنا المعراج، وهو أعظم، مع الإسراء، ذلك لأن الله يتحدى عباده بما يعلمون من قوتهم وقدرتهم، فإن الله تحدى العرب في أس قوتهم؛ أي بلاغة ألسنتهم وحكمة أقوالهم، ولو شاء الله لتحداهم بغير ذلك مما لا وسع لهم فيه البتة، ولا معرفة لهم بأدواته وسبيله، فالإسراء حركة بشرية من مكان إلى مكان، وهم يعرفون مشاقها ومبلغ قوتهم فيها، فإخبارهم عن الإسراء هو من تمام التحدي لهم، ومنكر قدرة الله فيه لا يعترف بالعروج إلى السموات لزوماً، ومن تأمل الفرق في سورة الواقعة وما فيها من التحدي على أمرين هما الزرع والماء علم هذا المعنى، فإن الله لما ذكر أمر قدرته في الزرع قال:﴿ **أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**﴾[الواقعة: ٦٣-٦٧]فجاء ((الجعل)) بلام التأكيد، لقدرة الناس على تحويل الزرع إلى حطام بالإحراق، فهو في وسعهم وقدرتهم في حال من أحوال قوتهم المقيدة، ولما ذكر الله أمر الماء فقال سبحانه﴿ **أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠] فلم يؤكد ((الجعل)) بحرف اللام، لأن هذا ليس في وسعهم في باب من أبواب قوتهم البتة، فلم يحتج إلى تأكيد التحدي.

ثمّ إن الإسراء مقدمة المعراج، فمن آمن به كان إيمانه بالمعراج تبعاً كما وقع للصديق رضي الله عنه ولكل مؤمن بعده، ومن كان منكراً للإسراء كان انكاره للمعراج تبعاً.

ثمّ من تأمل السورة وما تبعها من الآيات والمعاني علم أن ذكر الإسراء كما هو مقصود لذاته فهو مقصود لغيره، وذلك لما تقدم من أمور تجعل لذكر المكانين معاني وفوائد.

وأما الفاصلة القرآنية في خاتمة الآية بقوله﴿**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ فهي لمن تأمل فيها تؤكد المعاني التي قدِّمت من أن شأن الإسراء كان كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل كل مقصد آخر، فإن هذه الفاصلة تعيد النظر إلى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي هو تحت سمع الله وبصره، فإن الله سبحانه وتعالى يعلم عبيده أن هذا العبد في كنف الله، وأن ما يقع له ليس إبعاداً له، ولا نسياناً له، بل إن الله سميع بصير لما يقال له ولما يقع له، ليس لما كان من أمر الإسراء فقط، بل لما قبله، فكان الإسراء سبباً لما يراه الله ولما يسمعه من أحوال الناس معه وأحوال الأقدار التي يخوضها.

قوله تعالى﴿ **وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا** ﴾[الإسراء: ٢].

بعد المطلع الجامع المهيب تبدأ السورة في عرض قضية الأمة وأفقها القادم مع الآخر، وهذا الآخر أي بني اسرائيل لم يكن له كبير شأن في مطلع الدعوة إذ أن الصدام كان مع المحيط المشرك أشق وأكثر معاناة، وأما مع بني اسرائيل فلم يكن كبير أمر، فما من قبيلة منهم أخذت شوطاً طويلاً، إنما هي موقعة لكل قبيلة حتى انتهت وذهبت، إما بوجودها كبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وإما بقوتها وسلطانها كأهل خيبر، ومع ذلك فإن هناك من المواقع المدخرة في الصدام واللقاء بين هذه الأمة وبني اسرائيل، فبدأ العرض في مبتدأ هذا الآخر في هذه الكلمات الربانية:-

﴿ **وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا** ﴾

فذكر بينهم موسى عليه السلام وكتابهم، وعماد ما أمروا به ليتحقق لهم الهدى وعدم الضلال، وذكر ((الهدى)) لبيان ما يحقق لهم الكتاب في أنفسهم، وذكر وجوب اتخاذهم ولاية الله دون ولاية أخرى لبيان ما يحصل لهم مع

الآخرين، وهذا تمام المقصد، فإن الأمة لا تكتمل أركانها إلا بهدى ونور لنفسها مع نفسها، وبركن تركن إليه وسلطان تتوكل عليه في وجودها مع الآخرين، فبنو اسرائيل قد أعطاهم الله هذين الأمرين، وهم أول أمة فرض عليها الجهاد كما قال تعالى﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص: ٤٣]وقد ذكر الله أول حالهم مع الجهاد في قوله تعالى في سورة المائدة﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة: ٢٠-٢٦] وذكر بعض تاريخهم مع الجهاد قبل حصول الملك لداود وسليمان عليهما السلام في قوله تعالى في سورة البقرة﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

واختصاص ذكر نوع من الهدى في الكتاب؛ والكتاب كله هدى، وهو ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾ يشعر بمهمة الأمة في الحياة، فإن المرء بحاجة للوكيل وهو يحمل الأمانة في وسط يعاديه ويناوؤه، فيكون الوكيل حاميه وراعيه، ثم ناصره ومعينه، وبنو اسرئيل كان عليهم مهمة الأداء وحمل الأمانة، وإلا ما أرسل سليمان عليه السلام رسالته إلى ملكة سبأ يدعوها إلى الله والدخول في سلطان النبوة والطاعة له، وقد اهتدت بنو اسرائيل في أطوار كثيرة في حياتها، وكان فيهم المؤمنون الصالحون كما قال تعالى﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٩]وقال تعالى﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[الأعراف: ١٣٧]وقال تعالى﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾[الأعراف: ١٦٨]،وهم المقصود في قوله تعالى﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١١٣-١١٥]لأن السياق جرى فيه ذكر قوله﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾[آل عمران: ١١٢]وهذا وصف بني اسرائيل في مواطن من القرآن منها، تقدم في السورة نفسها- آل عمران- بقوله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[آل عمران:٢١] وقوله في سورة البقرة: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا

﴿... تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧]وكذلك فيها قوله تعالى﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[البقرة: ٦١] وأهل الكتاب في القرآن تطلق على اليهود والنصارى، والنصارى لم يقتلوا نبي قط، بل لم يكن بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام نبي قط كما في قوله تعالى﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[المائدة:١٩] والحديث صحيح يشهد بهذا فبنو اسرائيل كانوا أمة مجاهدة، وكان فيهم الأنبياء الذين يسوسونهم بالخير ويحملونهم عليه كما في الحديث الصحيح ((كان بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء))، وما كان يقع فيهم من الغلبة والنصر مع الإيمان لا يجوز أن يسمى علواً كما سيأتي، لأن العلو مذموم في القرآن، وتفصيل ذلك عند الرد على من زعم أن ما تقدم من وجود ممالك سابقة لبني اسرائيل كمملكة داود وسليمان وغيرهما هي المقصود بالآيات القادمة من قوله تعالى﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الإسراء: ٤].

قوله تعالى﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[الإسراء: ٣]

لقد جاء في سورة الصافات أن ابراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾[الصافات:٨٣]،وأقرب المعاني لذلك أنه من ذريته، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول((الأنبياء أبناء علات)) ذلك لاتحاد الآباء واختلاف الأمهات، فبعد أن ذكر الله نبيهم وكتابهم، وأعظم أعمالهم بما ذكر من أعظم ما هداهم إليه في الكتاب ذكر نسبهم فهم﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾،وأقرب ما أفهمه من أرض قوم نوح عليه السلام أنه وقومه وذريته كانوا في جزيرة أطبق عليها الطوفان، لأن الطوفان لم يقع على جميع الأرض كما تزعم التوراة المحرفة وكما نقل عنها بعض علماء الإسلام، وهذا له مبحث آخر ليس هنا محل بسطه.

وقد ذكر الله في هذه الآية وصف هذا النبي العظيم﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ والعبد مأمور، فأعظم ما يوصف به هو الطاعة والإنقياد، فإن ذكر الشكر مقروناً بصفة العبد دل على ابتهاج هذا العبد بهذه العبودية وفرحه بها، كما يدل هذا الإقتران على شعور العبد بنعم السيد عليه في أمرين، بما قدَّر عليه وبما أمر به من أوامر، وهذا أعظم من

وصف العبد بالطاعة فقط، فإنه متضمن له وزائد عليه في المعنى، وهذا هو شأن العبودية في أرقى وجودها وأحوالها؛ أي العبودية للإله الحق، والجواد الكريم، والبر الرحيم.

ونوح عليه السلام حمل على السفينة كما حملت أمته المؤمنة وأهله المؤمنون﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ، وكانت آية عظيمة كما قال تعالى في العنكبوت﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد حمل على ما هو أجل من السفينة وهو البراق، فهما حملان يساقان في مساق واحد ليذكر أحدهما الآخر، كما يذكر النبي بالنبي، فهذا عبد قد أسري به فيقول فيه ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وهذا حمل على السفينة فيقول الله فيه﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ .

والعبودية قد تكون على معنى مدحي وعلى معنى الإخبار بلا مدح، فإن قوله صلى الله عليه وسلم ((اللهم إني عبدك ابن عبدك)) لا تقتضي مدح أبيه، إذ هذه عبودية القهر والجبر، وهي مدح لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها عبودية الإختيار.

ومن المهم أن يعلم المرء أن هذه الآيات خطاب للمؤمنين المسلمين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فهي لهم لا لغيرهم، لأن الآيات التالية لا يمكن أن تفهم على وجهها إلا بهذا الفهم، لا كما يقول عامة المفسرين لها بأنها خطاب لبني اسرائيل، وذلك لأمور تمنع هذا الفهم كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٤].

تقدم أن بني اسرائيل كان فيهم الجهاد، وقد ذكر القرآن الكريم كيف كان الفساد يلج فيهم، وكيف كانت فيهم مداخل الشيطان في مواطن كثيرة، منها ما قال تعالى في الأعراف:- ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ومن تأمل حال بني اسرئيل وحال هذه الأمة فإن الشبه بها كثير، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم((لتدخلن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة)) ،ولهذا قال أهل العلم:- إن من ضل من علماء هذه الأمة شابه ضلاله اليهود، وذلك أخذاً من قوله

تعالى﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ والمغضوب عليهم علموا الحق وخالفوه، وهم اليهود، والضالون لم يبصروا الحق ولا يهتدوا إليه، وهم النصارى.

وكان مما قاله الله تعالى عن اليهود في سورة الأعراف﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ،فهذا شأنهم في الحياة، ومن قرأ تاريخ الأمم علم صدق هذا التقدير الإلهي﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ ،وهو تاريخ يشهد أنه لم يكن لهم أي سلطان إلا مع الأنبياء كداود وسليمان، وهم في تاريخهم إن كان لهم قرى يستقلون بها إلا أنها لا تقوم على سلطان قاهر في المدينة وما حولها، فهم في حصون وقلاع لا يسمى حالهم هذا البتة علواً ولا ملكاً قاهراً.

فحال بني اسرائيل إذاً إما بملك مع نبوة مهدية، وإما بغير ملك على وجه الإنفراد في قرى وقلاع لا شأن لها في الوجود إلا في نفسها، أو باختلاط مع الآخرين وخضوع مباشرة للغير كما كان حالهم في أغلب الأحوال، وقد قامت لليهود أحوال فيها من الإستقلال في قرى على وجه الضعف وعدم الملك القاهر في أزمنة كثيرة قديماً وحديثاً، ومنها دولة اسرائيل التي قامت في جورجيا، ومنها ما أثبتته لفائف البحر الميت من وجود قرى لليهود القرائين في خربة قمران، وليس هذا من العلو في الأرض في شيء فلا ينبغي النظر إليها في تفسير هذه الآيات.

ثمّ إن الإخبار عن ماضي بني اسرائيل في القرآن كان لمعاني كثيرة منها بيان نعمة الله عليهم كقوله﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ وإما لبيان ما جرى منهم من سوء الإختيار في ما سبق من الأحوال ليدلل على ما هم عليه من الإعراض عن الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومثال ذلك ما ذكر من قتلهم الأنبياء في قوله تعالى﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا

﴿عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ ومنها لبيان تحذير المؤمنين من مشابهتهم كقوله تعالى﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وإما إيناساً للنبي صلى الله عليه وسلم في عدم إيمانهم كقوله تعالى﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ أو إيناساً للمؤمنين معه كما في قوله تعالى﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولأمور أخرى، ومن تأمل هذه الآيات هنا في ((الإسراء)) لم يرها على هذه المعاني، بل فيها من المعاني الأخرى التي تعني المسلمين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما تعني حال اليهود، إذ لو قرأت على أن الخطاب لليهود ولا للمسلمين لما استجابت لهم إلا بتكليف، بل تكاد أن لا تستجيب البتة كقوله تعالى﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فهذا لا يكون خطاباً لليهود المعرضين عن الحق وعن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأولهم لم يحسن قط فكيف يحسن آخرهم، أو أن يكون هنا احتمال لإحسانهم، وإن كانت خطاباً لليهود وكان قوله﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ يقصد به أهل الإسلام فلا يمكن أن يوصف هؤلاء بقوله﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ ،فإن المسلمين لا يوصفون بهذا، بل هذا وصف للمفسدين، وهم غير اليهود وغير المسلمين هنا كما سيأتي.

وكذلك قوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو خطاب لحال قومين مذكورين سابقاً، أي اليهود وهم أهل العلو الأول وآخرين، ومن ذكر أن العلوين قد مضيا، أو أن أحدهما قد مضى والآخر آت فإنه لزوماً– كما يفعلون يجعلون المواجهة في العلو الأول مع قوم والمواجهة في العلو الثاني مع قوم آخرين، إلا من فسّر أن العلو الأول كان قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة وما حولها والعلو الثاني هو هذا، وهذا لا يستقيم مع قوله تعالى﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ إذ لم يكن في حالهم في المدينة أي علو، ولم يكن لهم كبير شأن مع العرب من الأوس والخزرج في يثرب إلا من جهة التطاول عليهم بالعلم لا من جهة القوة والغلبة، ثمّ إن الأرض التي يجري عليها العلو هي أرض المسجد كما في قوله تعالى﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وأمر اليهود في المدينة لم يكن فيه هذا الدخول للمسجد.

والقصد أن هذه الآيات لا يمكن أن تفهم إلا بأمرين؛ أولاهما:- أن القضاء قد جرى أن يقع العلو الأول والثاني في ما يأتي من الزمن لا فيما مضى، فلا يوجد علو سابق لليهود فيه هذا الوصف، فملك داود وسليمان لا يجوز أن يوصف بالعلو، ولا بالفساد، وأما غيره من وجود القرى المستقلة فلا يوجد في التاريخ ما يثبت أن قرية من قراهم أو تواجداً لهم حقق الوصف الرباني في قوله﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ .

وثانيهما:- أن الآيات خطاب لأهل الإسلام، إذ ينتهي الخطاب لبني اسرائيل في الآية بقوله﴿ ولتعلن علواً كبيراً﴾ ليعود الخطاب لأهل الإسلام في قوله﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ - أي المسلمين المخاطبين في هذا الكتاب-عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فهذه مقدمة العلو الأول، وواقع التاريخ المعاصر يشهد لهذه الآية، بل ينطبق عليها تمام الإنطباق، فإن هذا الذي عليه اليهود ومن العلو في الأرض، والدخول في المسجد الأقصى قد سبقه ما قاله تعالى﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ إذ قد سبق حلول اليهود في المسجد، وعلوهم في الأرض ما وقع من مجيء أوروبا النصرانية المشركة، واحتلت بلاد المسلمين، وتقاسمت ديارهم، وكانوا أولي بأس شديد، إذ أن أول حلولهم لم يكن ليقع إلا ببأس البارود لمن تأمل قوتهم في دخولهم الأول منذ الهجمة النابليونية المجرمة على مصر وعلى بلاد الشام.

فهذه الآية﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ هي بيان لمقدمة العلو الأول، وهو ما يعيشه العالم اليوم من سلطانهم السياسي في فلسطين، وسلطانهم السياسي والمالي في العالم، وهذه الآية في تطابقها مع الحال من الماضي القريب لزماننا، وتطابق وصف الفساد والعلو الكبير مع حال اليهود وليشهد على صدق هذا التفسير دون سواه من الأقوال الأخرى، وأما الزمن القادم والنبوءة المنتظرة في الآيات التالية فهي على الأبواب والله أعلم بالغيب، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، لكن وعد الآخرة هو وعد ملكهم المنتظر الدجال، وهو الذي يتحقق فيه قوله تعالى﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ ،فهذه الآية تبين حال العلو الثاني في قوله﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ ولا يمكن إلا أن تفهم على هذا الفهم، إذ هي وصف للعلو، وإذا كان الأمر كذلك فإن الخطاب ليس لليهود بل هو خطاب للمؤمنين، إذ سيقع علوهم الثاني بهذه الوقائع على غيرهم،

أي من خوطبوا بهذه الآيات وهم المقصود بخطاب القرآن؛ أي المسلمين، ومن قرأ الأحاديث التي تصف الدجال وعلوه، وهو ملك اليهود المنتظر علم معنى قوله تعالى﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فإن الصدام بين المسلمين والدجال لا يكون فيه غلبة لأهل الإسلام عليهم إلا على هذا المعنى من الآية؛ أي رحمتهم.

وهذه الآية ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ لا يمكن أن تكون خطاباً لليهود، وهم الذين إن رحموا، على معنى ما يجعله من جعل الآيات خطاباً لهم لا تكون رحمتهم إلا بعلوهم وفسادهم، ولا تزال عنهم الرحمة إلا بتسليط الآخرين عليهم، وعلى هذا التفسير لا تكون الرحمة رحمة بل تكون إفساداً وعلواً، وهذا غير سديد البتة.

ثم من عجائب هذا الإختيار لكون قوله تعالى﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ تعود على اليهود لزوم أن يكون لهم علواً آخر، أو احتمال وجود علو آخر، فيكون المعنى على قولهم هذا: إن عدتم إلى العلو عدنا إلى عذابكم وإذهاب علوكم، وهذا لمن تفكر فيه يعلم أنه يناقض بداية الخبر في قوله﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فليس لهم إلا هذا لا غير، واستقامة المعنى لا تكون إلا بجعل الخطاب للمؤمنين من المسلمين إذ هم من يفتح لهم مجال العودة في قتال اليهود وقتال غيرهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال.

ومن دلائل وجوب هذا الإختيار قوله تعالى﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فهذه الآية ترد على من جعل الدخول مرة أخرى خطاباً للمؤمنين، وقوله ﴿وُجُوهَكُمْ ﴾ ضمير يعود على اليهود، ذلك لأن الضمير في ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ يعود على المسلمين، وأما ضمير الدخول فهو لليهود، فإن المسلمين دخلوه في زمن عمر الفاروق رضي الله عنه ودخلوه في زمن صلاح الدين ولهم دخول آخر وآخر، أولهما في اسقاط العلو الأول وهو هذا الذي نعيشه، وثانيهما في موقعة قتال المسيح الدجال على الصحيح، فيكون للمسلمين أكثر من دخول لا دخولان فقط، ويكون لليهود دخولان فقط كما تقول الآية، كلاهما فيه العلو والفساد، والمسجد الأقصى لم يكن لليهود دخول فيه على هذا المعنى قط قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد بناه سليمان عليه السلام وكان فيه سلطان إيماني بلا علو ولا فساد، وهذا لا يقال له دخول، ولم يعرف لهم فيه بعد بناء حتى يدخلوه، ولم يكن لهم منه علو ليتحقق لهم دخول أول ولا ثان قبل بعثة النبي صلى الله

عليه وسلم، إنما كان لهم دخول في هذا الزمن بعد أن تحقق قوله تعالى﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ فجاءنا علوج أوروبا من النصارى وتحقق ما في هذه الآية على معناه التام ثم حصل الدخول الأول وهو مازال قائماً إلى يومنا هذا.

ومن الأدلة البينة أن الخطاب للمؤمنين لا لليهود من قوله﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ أن الله جعل بعث أولي البأس الشديد مقدمة للعلو لا إزالة له كما يذهب عامة من فسّر هذه الآية على غير هذا الوجه، والله يقول﴿وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ فهو مقدمة للعلو لا أن هؤلاء﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ هم من يزيلون العلو الأول، بل ما يزيله هو قوله الآتي بعدها؛ أي قوله﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي إن المؤمنين من أهل الإسلام فهم يُذهبون هذا العلو بما يمدهم الله به، ولذلك قال عقبها﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا ﴾ فبالإحسان يتم القضاء على علوهم، وبالإساءة يقع علوهم الثاني كما قال عقبها﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ . ولو حملت الآية على ما يقولون من الفهم لوقع الإضطراب ذلك لأن الآية تقول:-

- إن جاء الوعد الأول وحصل العلو أرسل الله عباداً فدمروا علوهم.
- ثم يكون لهم كرة أخرى كما تقول الآية عقبها﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾ وهذا فيه معنى العلو، فهذا علو ثاني.
- ثم يكون لهم علو آخر هو الموصوف بقوله﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾
- وبغير هذا يضطر القائل إلى أمور أبعد، كقول بعضهم إن قوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ خطاب لغيرهم، أو كقول بعضهم﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ هو لبيان مقدمة زوال العلو وعلته،

وهذ أبعد ما يكون، لأن الآيات في صدرها تبين نوع علوهم وطريقة عملهم فيه وهو الفساد، ثمّ إن هذه الآية﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ تكون لما هو آت لا لما وقع وانتهى.

- ومن تأمل الآيات رأى بوضوح أن العلو يقع بين طائفتين فقط اليهود وطائفة أخرى، لا بين اليهود وطائفتين مختلفتين إلا في قوله تعالى﴿عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ فإنها وصف لطائفة أخرى، فإن جعلها قائل هي الطائفة الأخرى المقابلة لليهود في الثانية لم يحصل له في التاريخ شاهداً أن أمة واحدة أزالت وجود يهودي مرتين، والذين يقولون بانقضائهما يقولون بطائفتين ضد اليهود لا طائفة واحدة، وأما القائلون بأن هذا العلو الثاني فإنهم لا يستطيعون تعيين العلو الأول الذي أزاله المسلمون لما تقدم من أن وجودهم في المدينة وما حولها ليس له صفة العلو ولا الإفساد في الأرض، ولم يكن للمسلمين فيه أي دخول للمسجد، كما أنه لا يمكن وصف عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بقوله تعالى﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ .

ومما يمنع أن تكون هذه الآيات خطاباً لليهود قوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ فهذا لم يكن لليهود لا في الماضي ولا في الحاضر، وما تحكيه التوراة عن صفة الخروج من مصر ومئات الآلاف الذين صحبوا موسى عليه السلام هو خرافة تردها صفة الخروج بالسر، ولو كانوا كذلك لغلبوا بعددهم أهل مصر ولم يخضعوا لهم.

- ومما يؤيد هذا القول، وهو أن هذين العلوين كلاهما بعد البعثة صنيعة الخطاب في قوله﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ ، وقوله﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ وهي صيغ تدل على المستقبل لا على ما مضى، بهذين المعلمين في مقدمة هذه الآية يكون فهمها على وجه لا يقع فيه أي اضطراب، ولا يضطر المفسر إلى الحمل البعيد، ووقائع التاريخ تشهد له، بل إن هذا المعنى يحقق معجزة قرآنية، وهو التطابق التام بين الخبر القرآني وواقع التاريخ المشهود، وأما من حمله على غير هذا المعنى فقد اضطر إلى تجاوز معاني كثيرة سواء في لفظ الآيات أو في وقائع التاريخ، فاليهود لم يكن لهم أي علو في التاريخ قط يحقق هذه الآيات، وأما ما يشهده العالم اليوم فهو علو لا يمكن لأحد أن ينفي أفراده ولا معانيه ولا واقعه، بل هو يحقق كذلك ما قال الله تعالى فيهم﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولو أراد مفسر أن

يجمع بين آيات سورة الإسراء هذه من وجود علو كبير وفساد في الأرض، وبين هذه الآية من سورة آل عمران لما استطاع قط إلا من خلال العيش في واقعهما، وهو هذا الواقع الذي نعيش، فهم في علو كبير وإفساد في الأرض، وكل هذا بحبل الناس كما نرى ونشاهد، ومن دون حبل الناس هذا فلا وجود للعلو قط، ومن حمل الآيات على أن العلو قد مضى فإنّه لا يقول قط أن علوهم في ما معنى((مع تكلف بعيد وغير سديد في تسميته علواً كبيراً)) كان بحبل من الناس، والعجب أن يقال إن مجرد وجود قرية، لهم فيها استقلال محصور بمقدارها يحقق قوله تعالى﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ ،أما من حمله على ملك أنبيائهم في قوله تعالى على لسان موسى كما في المائدة﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فهذا أبعد وأفسد فإن ملك الأنبياء وأتباعهم من الصالحين لا يقال له أنه علو ولا يكون فيه الفساد، يعرف هذا كل واحد من المسلمين إن خوطب فيه وبيِّن له.

وبعد هذا البيان نأتي إلى الآيات الكريمة على التفصيل إن شاء الله تعالى:-

قال تعالى﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾

فهذا قضاء قدري يجري في الوجود على مقتضى السنن الجارية في الخلق، وقد كتبه الله تعالى في الكتاب كما كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة كما جاء بذلك الحديث، واسرائيل عليه السلام هو يعقوب والد الأسباط، وهو نبي من الأنبياء، وقوله ﴿ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي السجل الذي كتبت فيه المقادير، والقدر كما هو معلوم من مراتب الإيمان به هو الإيمان بالكتابة، والكتابة تكون بمعنى الإمضاء وعلى معنى الرسم، وههنا قد ذكر الأمرين فذكر القضاء وهو الإمضاء والإرادة وذكرت الكتابة في الكتاب.

وقد قدم الله تعالى الإفساد على العلو، والتقديم له أسبابه منها الترتيب الزماني ومنها السببية ومنها الإعتناء، وتقديم الفساد على العلو هنا لهذه الأمور، فإن الفساد سبب علوهم، وهو سابق له، وهو أهم في البيان لخطره، أما إن الفساد سبب العلو فإن حال اليهود في الفساد هو ما أوصلهم للعلو، إذ كان فسادهم وسلوكهم طرق الشر هو سبب حصول العلو في الأرض، واليهود في دينهم وتوراتهم المحرفة يرون أن من دينهم للوصول إلى أهدافهم

إفساد الآخرين، وقصصهم هناك مشهورة، وهذا ما وقع قبل حصول العلو، إذ أن واقع العلو هو التغلغل من خلال المال وشراء ذمم الآخرين كما حاول هذا هيرتزل- أبو الصهيونية المعاصرة- مع السلطان العثماني عبد الحميد رحمه الله، حين عرض عليه الأموال وسداد ديون الدولة مقابل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، ومن المعلوم أن ما يسمى بالثورة البلشفية التي قام بها لينين في روسيا ما قامت إلا بالذهب اليهودي، وبها استطاع اليهود السيطرة على الإتحاد السوفياتي كما تقرر الوثائق التي كشفت تباعاً، وبالمال اليهودي في شراء الناس وإفسادهم حتى وهم في علوهم اليوم، وأما جواز استخدام النساء في الدعارة حتى من قبل اليهوديات فإن قصص التوراة فيها ما يشهد لهذا، ودهاقنتهم يرون جواز هذا الفعل كما هو مشهور بين الناس، وأشهر قصصهم التي يحتجون بها هي قصة أستير التي دفعت لملك فارس من قبل أحد أحبارهم لتسهيل حياتهم وهذه القصص التي يحتجون بها إنما تمت بعد السبي البابلي ولا قصص لهم تشهد لهذا الفجور قبل ذلك.

فالإفساد في الأرض هو طريق علوهم، وسبب ذلك؛ أي استخدام الفساد للوصول إلى الهدف أن أهداف اليهود حسب معتقدهم أمر عظيم، وهو جعل الأرض ملكاً لهم، واخضاع الناس عبيداً لهم، وهذا الإعتقاد تشهد به نصوص توراتية كثيرة، ومع هذا الهدف الكبير إلا أن اليهود عاجزون عن تحقيق هذا الهدف بأنفسهم وذواتهم وذلك لأمرين؛ أولاهما قلتهم العددية التي تمنعهم من المواجهة والقتال والوصول إلى أهداف معتقدهم بالغلبة والقوة، وهذا نراه اليوم حقيقة فإن فلسطين كلها مع صغرها في المساحة إلا أنهم عجزوا عن ملئها مع استقدامهم أشباه اليهود ممن لا يعترف دهاقنتهم بيهوديتهم، إلا أن مساحة هذه الأرض الصغيرة جداً قد كبرت عليهم، مما اضطر دهاقنتهم السياسيون إلى نقض معتقدهم التوراتي بأن يتقدمون إلى الأمام دون تراجع، وقد حصل تراجعهم مراراً حين تخلوا عن سيناء وهي أرض مقدسة عندهم بل هي من الأرض الموعودة، فإن الأرض الموعودة عندهم ليست فلسطين فقط بل هي من النيل إلى الفرات، وهذه الأرض الموعودة ليست كل هدفهم في التوارة، بل عقيدتهم أن الأرض، كل الأرض ملك لهم، وأن البشر، كل البشر خدم وعبيد لهم، لكن موطأ القدم لهذا الهدف هو فلسطين ثم أرض الميعاد، ومع ذلك فإنهم عجزوا بقوتهم عن الإحتفاظ بفلسطين وذلك لقلة عددهم. هذا مع أن دينهم دين عنصري، وإلههم الذي يعبدونه خاص بهم بصفتهم شعباً ونسلاً، لا بكونهم أهل معتقد، ولذلك دينهم غير تبشيري، وغير دعوي، حتى إن صفة اليهودية عندهم لا تزول حتى لو ألحد المرء وأنكر الإله وسب

دينه وكل دين كذلك، والإلحاد في اليهود اليوم أكثر ما يكون بين أهل الكتاب، ومع ذلك يقول أحبارهم أن هؤلاء هم يهود ولا تغيير لصفتهم حتى لو غيروا دينهم.

ثانياً:- إنهم وإن قاتلوا غيرهم، وإنهم وإن غلبوا الجبناء أمثالهم أو غلبوا الفاسدين مثلهم إلا أنهم موصوفون في كتاب الله بأوصاف تمنع تحقيق أهدافهم وذلك بقوله﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ**﴾ ولبلوغ هذا الهدف من الغلبة على الآخرين لا يجوز الإتصاف بهذا الوصف الخسيس، وها نحن نراهم اليوم مع قوتهم المادية إلا أنه لم يحصل لهم الغلبة على الآخرين بحروب حقيقية بل من قرأ واقع حربهم الأولى قبل قيام دولتهم ثم حربهم الثانية في دخول المسجد الأقصى علم بيقين أن خصومهم لم يحاربوا بل ولوهم الأدبار، مع أن القادة في المقابل هم أهل تواطؤ مع اليهود في تحقيق غلبتهم، فأهل فلسطين منعوا من كل وسائل القتال، إذ كان الإنجليز وهم هنا في هذه الآيات الموصوفون بقوله تعالى﴿**أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ يقتلون كل مسلم يقتني ولو رصاصة فارغة، ثم إن من قرأ سيرة قادة أهل البلاد في استغاثتهم بقادة البلاد المحيطة بفلسطين لمدهم بالسلاح علم أي خذلان حصل لهم، حتى إن الخبيث عبد الله بن الحسين حاكم شرق الأردن لما سأله المفتي الحاج أمين الحسيني سلاحاً ومداداً له رد عليه: ولا رصاصة واحدة، ووقائع خيانة هذا الحاكم قد شهد بها أصحابهم من اليهود كما يصف ذلك ايفي شلايم في كتابه ((تواطؤ عبر الأردن)) إذ كشف فيه وبالوثائق كيف أن العائلة الهاشمية ومنذ مؤسس شرق الأردن عبد الله بن الحسين وهي خنجر مسموم ضد أهل فلسطين، وأن علاقة هذا الرجل مع قادة اليهود أوثق ما تكون، وقد سار حفيده على سننه من هذا التواطؤ كما كشف هذا المؤرخ اليهودي سيرته في كتابه((أسد الأردن)) ،وقيمة هذين الكتابين تكمن بالوثائق لا بالآراء، مع أن هذا اليهودي هو الذي اختاره الملك حسين بن طلال مؤرخاً لعائلته، وهو عندما يتكلم عن الملك يتكلم بحب وشغف، وما يكشفه من علاقة إنما يريد التدليل به على حسن العلاقة بين العائلة الهاشمية واليهود.

وخارج الأردن كان الأمر قريباً من هذا الوضع وبمثل هذا التواطؤ، ومن قرأ ما كتبه صاحب ((سقوط الجولان)) فيما سمي كذباً بالنكسة، وما كتبه عبد الله التل في كتبه عما سميت بالنكبة قبلها لتدل على أن الأمر لم يكن فيه ثمة حروب بين اليهود وغيرهم، بل إن وصف الحال هو تولية للدبر وفقط.

ومن قرأ سيرة جمال عبد الناصر كذلك وطريقة إدارته للصراع مع اليهود لا يكاد يشك أن الرجل متواطؤ معهم في كل ما صنع، ولم يكن ليمرر إجرامه على الأمة يومها وإلى يومنا هذا إلا بسبب خطابه الكاذب وكلماته الجوفاء، أما الوقائع والأحداث فهي على الضد من ذلك.

وأما من قبله من الخديويين في مصر فلم يكن لهم كبير اهتمام بفلسطين ولا بضياعها، وتدقيق النظر في تلك المرحلة ليدل على أن المرء يكاد يموت قهراً وهو يرى أهل فلسطين لا يكادون يجدون الرصاصة في معركة لا تقوم إلا من طرف واحد.

ومن راقب الحال اليوم من خسة ونذالة وتولية للدبر وبيع للديار من قبل حكام بلاد المسلمين يستطيع أن يتصور كيف كان الحال في ما سبق عند دخول اليهود الأرض المباركة ثم ما تلاها من دخولهم المسجد الأقصى.

فالقصد أن اليهود بعاملهم العددي وعاملهم الخلقي لا يستطيعون الوصول إلى أهداف معتقدهم ولا إلى نبوءات التوراة، وهم يعلمون هذا حقاً، ولذلك لابدّ من البحث عن وسيلة أخرى غير المواجهة في الوصول إلى نبوءات التوارة بملك الأرض وتعبيد البشر خدماً لهم، وهذه الوسيلة هي اتخاذ طرق المكر والخداع والإفساد حتى يتحقق لهم المراد.

فبخضوع الآخر –الغوييم= الأميين- بالمال والنساء، وابتزازهم أخلاقياً يحصل امتطاؤهم لبلوغ أهداف المعتقد ونبوءات التوراة الكاذبة، ولذلك من دين اليهود التحالف مع القوي، والتذلل له حتى يتحقق المراد.

فهذا هو الفساد الذي يتحقق به العلو، فهو مقدمته وهو سببه، وهذا الذي تقدم يحتاج إلى كتب ومجلدات، وفيه كتب الكثير وما غاب أكثر، ومن شرط الناظر للآيات التي تتكلم عن التاريخ والوقائع أن يعلم هذه الوقائع، وأن يبصر أحداثها وبواعثها وسيرورتها وإلا سيخطئ في فهم الآيات، ولذلك فمخالفة السلف في تفسير آيات الوقائع والتاريخ لا يعدّ بدعة ولا خروجاً عن سنن التفسير، فإن السلف وإن فسروا ألفاظها إلا أنه يغيب عنهم وقائعها وصورتها، وهذا الذي نحن فيه من هذا الباب، فلا يقولن أحد هذا تفسير محدث أو بدعي لمجرد أنه خالف ما قالوه قديماً من كون العلوين قد مضيا، فإنهم وإن قالوا هذا إلا أنهم لم يتفقوا على تعيينهما وهذا يدل على الإضطراب في تحديد الأحداث والوقائع وعدم اليقين، ولو كان هذا التفسير منقولاً عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم لوجب اتباعه ولما جاز لأحد أن يخالفه، لأنه المعصوم صلى الله عليه وسلم، وما يقوله وحي من عند الله تعالى، أما غيره فهم غير ذلك، فإن فسروا باللغة فهم أقرب القائلين بالحق، وإن فسروا بالأحداث لما هو تاريخي فهو رأي يخطئ ويصيب، هذا وقد علم الناس اليوم خطأ بعض كبار المفسرين في أمور على هذا النحو، وقولهم لا ينبغي أن يعدّ قولاً في الشريعة، بل هو اليوم على ما ظهر من خطئه مردود والشريعة بريئة منه مع علم هؤلاء المفسرين باللغة والحديث والآثار، وذلك كقولهم في عمر الدنيا، أو عمر هذه الأمة حتى إن بعضهم أجرى حساباً لذلك في تفسير وثبت اليوم خطأ قوله يقيناً.

وهذا الذي أقوله هو خلاف وقوع معاني جديدة للآيات لما يبصر الناس من علوم وأحداث لم تكن عند السابقين، فإن الأوائل قد يفسرونها على معنى يوافق لفظ الآية فيصح قولهم من باب ثم تأتي الوقائع لتثبت معاني جديدة أخرى لا تخالف ما قاله السابقون كقوله تعالى﴿ **بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ** ﴾ فإن المروي عن الصحابة معنى صحيح، ولفظ الآية يحتمله، وفيه ما تقصده من إظهار قدرة الله تعالى، هذا وقد ظهر للآية معنى آخر يعرفة الناس، ولا تناقض بين المعنيين.

وليعلم أن هذا الحديث في مخالفة ما يقوله السابقون إنما هو في غير الشرعي، فإن ما لم يكن ديناً في السابقين فليس هو اليوم دين، ولا يجوز إحداث أقوال أخرى غير ما كانوا عليه، وأما في الأمور القدرية فهذا قد يعلم المتأخر ما لم يعلم المتقدم فيها مصدره النظر، فإن من علم اليوم قانون النسبية لا يضطر إلى تأويلات السابقين في قوله﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ أو كقوله تعالى﴿**تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ فإن قانون النسبية يشرح هذا على أتم وجه من غير اضطرار خوض في خلاف الأوائل ولا اضطرابهم في تفسير صيغها اللغوية.

وهذا المعنى الذي قلنا من حاجة المفسر للتاريخ ومعرفة الوقائع وتتبع الأحداث يعني وجوبه عليه، فإن كان ما يفسره من قرآن وسنة يتعلق بواقعه المعاصر يعني أن يكون بصيراً بحال زمانه، وبما يدور فيه، فليس الدين ورق لما مضى، بل هو للواقع، بل إن هناك من الآيات هي حديث لما سيأتي كهذه الآيات التي قدمنا وكقوله تعالى﴿**قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** ﴾، فهذه يقصد بها أهل الردة من قوم

مسيلمة وغيرهم كما قال بعض أهل التفسير، وآيات الإخبار الغيبية وكذا الأحاديث فيها معاني شرعية لمن تأملها، لا يعني أن الأخبار أحكام، بل يعني أن فيها ما يدل على ما يعني المسلم من موقف، فهذه الآيات من سورة الإسراء على المعنى الذي تقدم تبين وجوب الجهاد في هذا العلو، وأن من أوقفه بإلحاقه بما سيقع من عيسى عليه السلام من ترك الجهاد والإلتجاء إلى الطور جاهل بدين الله جهلاً مركباً، على ما فيه جهل بالواقع كذلك وبسيرة التاريخ.

نعود إلى ما نحن فيه:-

فقد تقدم أن من أسباب تقديم الفساد على العلو هو عظم الفساد على العلو، وهذا معناه هنا مهم جداً مع اقترانهما، فإن بعض من انتسب للدين والدعوة إلى الله في زماننا يدعو إلى الإصلاح الذاتي والإجتماعي، وحين ينبه إلى وجوب مواجهة العلو، وهي مواجهة لا تصح إلا أن تكون بالقوة ،إذ مواجهة الفساد يمكن أن يُرد بعضه بالدعوة فيستجيب لها البعض دون الأكثر، وأما العلو فهو حال لا يزال إلا بمعناه وهو القوة والغلبة؛ أقول: حين يطالب هؤلاء بدعوة الأمة لمواجهة العلو بالطرق الشرعية والواقعية فإنهم يهربون من هذه الدعوة بحجج تضحك الثكلى، سواء من جهة الشرع أو العقل، والمنصف من أهل العقول يدرك أن الفساد مرتبط بالعلو، وأنه لا زوال للفساد إلا بزوال العلو معه، وذلك لأنهم يديمون علوهم بالفساد، وبعلوهم هذا يتحقق لهم وسائل الفساد، فيصبح ولوج الفساد في الأمم والشعوب أسهل، وأصحاب العزائم الخائرة والضعيفة والنفوس المشربة بحب المال تكون صيداً سهلاً لهم، وهم عموم البشر إلا القلائل من أصحاب الإرادات وحملة القيم وورثة النبوة، فالعلاقة بين الفساد والعلو علاقة تبادلية بعد الوصول للعلو، كما لا يمكن تحقق العلو لليهود إلا بفساد حميرهم وعبيدهم، وبزوال العلو يزول فسادهم الكبير، ولذلك فالواجب مواجهة الأمرين حين وجودهما، أي مواجهة الفساد بالدعوة والبلاغ ومواجهة العلو بالجهاد والقوة حتى يتحقق زواله بإذن الله تعالى.

ومن تفكر في واقع الفساد يجد أن أعظمه من جهة المال وذلك عن طريق الربا والتجارات المحرمة كالقمار والدعارة، وهذا الأمر وهو الربا هو بابهم الأول في تحقق اللعنة عليهم كما قال تعالى﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ**

﴿بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ،وعالم الربا وسيطرة أهله على العالم هي الصورة الواقعية لقوله تعالى﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، فالعالم يمشي على عمدته، والناس خاضعون لحب الشهوات، وبالمال تُسيّر الأمم في أكثرها أسيرة كما قال تعالى﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ فإن المال قوام الحياة، وحين تحتاج الأمم هذا القوام فإنها تصبح قائمة بغيرها من مالكي الأموال، فيسهل قيادتها وأسرها، وإصلاح العالم لا يكون من خلال نظمه الفاسدة، ولا من خلال صنائع أهله من وسائل، بل بالخروج على نمط الموجود، وبالتمرد على أساس وجوده، ومن تفكر في العالم رأى عدم إمكانية الإصلاح من خلال قوانين أهله الفاسدين من سياسيين واقتصاديين، بل بالخروج عليهما، ولذلك فغير المجاهدين في الأرض تجدهم على حالين؛ إما اليأس من الإصلاح، وهذا اليأس يدعوهم إلى أحد حالين؛ إما الإعتدال والدعوة إلى الإنكفاء على الذات الفردية أو العائلية، وإما بالدخول مع الفاسدين حتى الثمالة، وأما الحالة الثانية فهم ضمن قوانين الجاهلية، وتحت سقفها وأطرها وقوانينها يزيلون بعض الأوساخ هنا أو هناك، مع أن الأصل نفسه فاسد ولا يمكن إصلاحه، ومن كان أصله فاسداً فإن إزالة بعض الأوساخ من الفروع ضرب من العبث وإضاعة للوقت والجهد، والمهديون في هذا الباب هم النزاع من القبائل، ممن خرجوا عن أطر أهل الفساد وقوانينهم، ولا يصلح لهذه الحالة إلا الزهاد أصحاب الإرادات في التغيير والمواجهة.

فلابدّ من مواجهة العلو وأدواته من أهل الفساد من مرتدين ومنافقين، إذ لو سقط هؤلاء فإن ذهاب علو اليهود أمر تابع له، فعلوهم إنما هو بحبال غيرهم، وأما هم فهم على ما قال الله تعالى﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ووقائع الحياة تشهد لهذا، ولا يغرنك هذا الخنوع من المنافقين والمرتدين، فإن ما يقولونه هو تبرير لخستهم وجبنهم وتواطئهم معهم، ومجموع الأمة إلا من رحم الله قد أصابهم الوهن =حب الدنيا، وكراهية الموت، والعجيب أن طوائف العمل السياسي من المسلمين يكونون من أشد الناس حماسة في الدعوة إلى جهاد علو اليهود ووجودهم في المسجد الأقصى، فإذا دخلوا في سلك القرب من المرتدين والمنافقين وخدمة اليهود من النصارى وغيرهم حينها تلين عباراتهم، ويصبحون على مسافة قريبة من تبرير ترك الجهاد لهؤلاء المرتدين والمنافقين، إذ يدخل عليهم الوهن مثلهم، ويصبح الجهاد إفساداً لرغد العيش الذي يعيشه الملأ المترفون من أهل بلاد المسلمين، ومذهباً لأموالهم التي هي في الحقيقة جزء من حبل الناس الذي يعتمد عليه اليهود في تقوية علوهم وفسادهم في الأرض، فأموال هؤلاء

المترفين ليست لهم إلا من جهة الاسم وما يضيعونه على ملذاتهم وشهواتهم والتي هي أقرب إلى المعاصي من الجواز، وحقيقتها هو مال اليهود في علوهم وفسادهم.

وحال اليهود من العلو في الأرض في غير المسجد الأقصى وما حوله هو ما يمد وجودهم فيه، فهم في المشرق والمغرب يسيطرون على المال وهو عماد الأحزاب السياسية، ويسيطرون على وسائل الإعلام، وهي وسيلة صنع الرأي العام والقرارات، وهذا ليس من الوهم كما يريد المنافقون من سحرة الشر في بلادنا تصويره تحت الإستهزاء من (نظرية المؤامرة) ،فإن هذا الإستهزاء هو جزء من خطة الخصم في ضرب أهل الوعي والبصيرة، حتى يصبح القائل بالحقيقة أضحوكة للناس.

وحقيقة الأمر وواقعه أن المال اليهودي، وتغلغل الأفكار العنصرية القائمة على تعظيم الجنس اليهودي!![2] أو التي تقوم على شعور الشفقة عليهم لتاريخ شعوبهم في ذبح اليهود واحتقارهم تؤدي إلى تنفيذ هؤلاء الغوييم = الأميين مقاصد اليهود في بلوغهم لأهداف معتقدهم ونبوءات التوراة.

وقوله تعالى﴿ **وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾ فيه معنى الشر، لأن العلو في القرآن ليس ممدوحاً كما قال تعالى في سورة القصص ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا** ﴾ فالعلو يضاد الإيمان والتقوى، ولذلك ليس هو التمكين والنصر، بل هو معنى آخر، وصوره مذكورة في القرآن كما قال تعالى عن عدو الله فرعون﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ فالعلو قرين الفساد والبغي والظلم والكبر، فإن المؤمن وإن تمكن وانتصر إلا أنه لا يبغي في الأرض، ولا يظلم الآخرين، ولا يفسد في الأرض بل هم كما قال الله تعالى﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾ ولذلك لا يمكن لامرئ ولطائفة على معنى الإيمان إلا من كان صفتها قبل التمكين كذلك؛ أي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[2] مع أن اليهودية ليست جنساً بل هي دين ومعتقد

وحال العلو يقتضي وجود الطبقية، أي عالٍ مفسد وخاضع له، والخضوع قد يكون لقوة وغلبة فيقهر الضعيف ويخضع مع كره وبغض وإرادة تغيير ومواجهة، وقد يكون لاستمتاع وذلة واستجابة كما قال تعالى عن فرعون وقومه﴿ **فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** ﴾ وكقوله تعالى عن خضوع الإنس العابد للجني﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** ﴾ هذا مع ما في الخضوع والإستمتاع من رهق كما قال تعالى﴿ **وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ لكنها الأمزجة الفاسدة، والنفوس المريضة التي تحسن هذا الخضوع والذلة والإستجابة لقهر الظالم المستكبر، فيتحول هذا الخضوع المرضي إلى استمتاع ولذة، كلذة المريض يجربه وألمه، وهذا هو واقع الأمة اليوم، فإنها مع خضوعها وذلتها وهوانها إلا أن الحال أشد من ذلك إذ صار هذا الخضوع وهذه الذلة والهوان استمتاعاً ولذة، بل صاروا يحاربون بقوة ضد محرريهم، وكل ذلك مخافة ذهاب الحياة ولقيمات الذل التي يقتاتون بها، مع أنهم لو تحرروا من طواغيتهم لحصل لهم من نعيم العيش وعزته ورغده أضعاف ما هم فيه، لكنها هي عينها نفوس بني اسرائيل في خضوعهم لفرعون وقومه، وإنكارهم على موسى عليه السلام دعوته لهم للتحرر والإنعتاق فقالوا له﴿ **أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾ بل إن حال الأمة اليوم أسوأ من حال بني اسرائيل فإنهم لا يعدون ما هم فيه العذاب عذاباً، بل هم يظنون أنفسهم في أحسن حال وأرغد عيش، وهذا منتهى المرض والجهل، ويزداد الضلال ضلالاً حين ينسب هذا الإستمتاع المرضي إلى دين يتبع، فيلصق بدين الله والإسلام زوراً وبهتاناً، فينتقل الأمر من مرض إلى شريعة وعقيدة يقاتل عليها، وهذا أعظم ما يقع في الأرض من الفساد، ذلك لأن المعاصي درجات إذ تبدأ بالوقوع من المرء على جهة الجهل والغفلة، ثم تزيد وتتكرر فتصبح سمة المرء وصفته، ثم يجاهر بها، إلى أن تصبح ديناً يتبع وشريعة مقررة كما قال الله عن قوم لوط لما دعاهم لزواج بناته فقالوا له:- ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**﴾ فقد صار اللواط حقاً وشريعة، وأما الزواج فمستنكر غريب، وهكذا صار الهوان والذلة والخضوع للآخر شريعة يبررها أصحاب الأهواء والمكاسب العاجلة، ويستجيب لها الجهلة والمقلدة من بهائم البشر، وصار المنافح عنهم عدواً لهم، والمحرر لهم خصماً، والأمر كما قال تعالى﴿ **فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** ﴾ .

وهذا الخط من الهوان مع الحياة، وهو خط أعداء الأنبياء﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ يتناقض مع خط النبوة الداعي إلى التضحية بالنفس والمال في سبيل الحق وقيم الحق، لأن القيم أغلى من المال، ولأن الحق هو أس وجود العالم، ولأن أتباع الأنبياء يرجون لقاء الله والدار الآخرة.

اليهود يفسدون في الأرض كما قضى الله تعالى، فيستجيب لهم الضعفاء، وبفسادهم يساقون إلى الخضوع والهوان والذلة، فإنهم وإن ربحوا شهوة عاجلة إلا أنهم خسروا أنفسهم كحال بهائم البشر في كل وقت، وتشتد حلقة الألم والمعاناة حين يشرع الهوان ويصبح ديناً يتبع، ويبرر له مشايخ وأصحاب عمائم، ويرون أن أعظم ما يواجه به هذا الفساد هو معرفته والحديث عنه على وجه الخوف والجبن من مواجهته، فإن سئل عن مواجهته أوكل أمر إزالته إلى من يعلم هو قبل غيره أنه حبل لهذا الفساد وأنه سبب من أسباب تحقيقه في الأرض؛ أي بإسناد أمر مواجهته إلى المرتدين من الحكام، وواقع علو اليهود وفسادهم مرتبط بهذا الحبل من الأقوياء في خارج بلاد المسلمين من نصارى وملحدين وغيرهم، وبحبل من الأتباع البهائم من المرتدين في داخل بلاد المسلمين، ولا اسقاط لعلو اليهود وافسادهم إلا بمواجهة هذين الحبلين، فصياصي يهود اليوم محمية من جدر البهائم من المرتدين، ودم ودعم الكافرين الأصليين، فناس يطلبون الإنتصاف من اليهود وظلمهم بالإرتماء في أحضان الأقوياء كيهود ليصيروا سواءً، وناس يطلبون اصلاح واقع الفساد بالشكوى إلى بهائم اليهود من المرتدين، ولو قيل لعاقل وجود هذا التصور لعده من المستحيلات، لكن حين تضيع معالم النبوة، ويستمكن الجبن والشهوة في النفس البشرية فإنها ستقول بأشد من هذا وهي التي قالت قبل ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ ،وهو الذي جاء لإنقاذهم من الهوان الذي يعيشونه، وهذا القول عينه يقوله هؤلاء اليوم.

فائدة:- جاء ((القضاء)) هنا بمعناه القدري، وسيأتي في السورة بمعناه الشرعي في قوله تعالى﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وهذا التنوع الشرعي في اللفظ الواحد يوجد في القرآن كثيراً، وغالباً ما يوجد في السورة الواحدة كلفظ ﴿ٱلْحُكْمُ﴾ فإنه أتى بمعناه الشرعي وبمعناه القدري في سورة واحدة هي سورة يوسف، ففيها بمعناه الشرعي قول الله على لسان يوسف الصديق عليه السلام﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وبمعناه القدري في قول الله على لسان يعقوب عليه السلام﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ

مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ فالحكم الشرعي يقتضي الإمتثال والعبادة، والحكم القدري يقتضي التوكل.

وقد يأتي في السورة الواحدة لفظاً على معناه اللغوي دون الشرعي، ويكون في السورة ما يبين هذا، كما في سورة النحل، فإن الله قال﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ ﴾ والإيحاء هنا بمعناه اللغوي، ويعرفك الفرق بينهما ما قال الله في الآية الثانية من السورة نفسها ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ فدلت هذه الآية وجوه الإختلاف بين وحي النبوة، وبين ما قاله عن ((وحيه)) إلى النحل، وهي لا تبين وجهاً واحداً للإختلاف بل وجوهاً متعددة لمن تأملها.

كما لفظ ((عبد)) فإنه ذكر في هذه السورة –الإسراء– بمرتبتيه الشرعية والقدرية، فقد تقدم في مرتبته الشرعية، وهي مراتب ودرجات كما ذكرعن نوح عليه السلام﴿عَبۡدًا شَكُورًا ﴾ وسيأتي في الآية التالية بمعناه القدري.

وحمل بعضهم ﴿قضى﴾ هنا بمعنى أعلم ولا تعارض، فقد يكون هذا الخبر قد ذكره لهم أنبياؤهم من قبل في أحاديثهم، فيكون الكتاب هنا بمعناه الشرعي، والأول أقوى والله أعلم.

قوله تعالى﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدًا مَّفۡعُولًا ﴾ .

تقدم أن الخطاب من هنا للمؤمنين من أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وليس خطاباً لليهود، وقد تقدمت موانع حمل هذا الخطاب لليهود، وإذ قد صح بالدلائل إن شاء الله تعالى أنه خطاب للمسلمين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فإن وقائع هذه الآية قد تمت وانقضت بمجيء أعداء الله الصليبيين من أهل أوروبا إلى بلاد المسلمين، ووقوع الأمر منهم على ما قال تعالى﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ وهذا البعث﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ كان مقدمة العلو والفساد ودخول المسجد الأقصى كما تبينه الآيات التالية في قوله تعالى﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .

ومن تأمل التاريخ القريب، وما فيه من أحداث وبالتفصيل يرى صدق هذه الآيات على هذا الواقع، إذ أن مجيء أولي البأس الشديد إلى بلادنا كان مقدمة هذا العلو في العالم أجمعه، ومقدمة لدخول المسجد الأقصى، فإن تمهيد دخول اليهود للأرض المباركة، وللمسجد الأقصى كان منذ أول دخول لهم في بلادنا، أي منذ دخول اللعين نابليون إلى مصر وبلاد الشام، فإن وعد نابليون أسبق بكثير من وعد بلفور، ثمّ أن حدث ما حدث بين الصليبيين من اقتتال وحرب، وكان بعض ساحات هذه الحروب هي بلاد المسلمين، واستطاع هؤلاء السيطرة على عموم بلاد المسلمين، وتحقيق قوله تعالى﴿**فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ**﴾ ،وهذه الجملة القرآنية من الآية تدل بإشارتها أن المقصود بها غير المسلمين وغير اليهود، فأما أن اليهود لا يدخلون فيها لأن اليهود لم يتحقق لهم هذا، فليسوا هم على هذا الوصف من الكثرة ولا الغلبة العددية حتى يتحقق لهم قوله﴿**فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ**﴾ ،كما أنهم ليسوا على وصف الجملة السابقة من الآية﴿**أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ**﴾ ،وأما إن المسلمين لا يتصفون بها فليس أهل الإسلام إلا أهل تلك البلاد، وهم أهل الديار فلا يتحقق قوله﴿**فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ**﴾ ، وهذا الإعتراض على قول من يقول إن الآيات لخبر مستأنف غير سابق على نزول الآيات.

والحق – إن شاءالله تعالى–أن هذا الخبر مقدمة للعلو كما تقدم، وقد تحقق بما وقع من غلبة نصارى أوروبا على بلاد المسلمين، ووقع فيهم قوله ﴿**بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ**﴾ فهم مبعوثون من خارج البلاد، وفيهم ﴿**بَأۡسٖ شَدِيدٖ**﴾ ،إذ به استطاعوا غلبة المسلمين والسيطرة على بلادهم، مع ما أصاب المسلمين من تخلف في دينهم ودنياهم، ومن قرأ كتب علماء المسلمين هذه الفترة علم مقدار جهلهم بالدين، واندراس معالمه فيهم، إذ علومهم تقدم على الخرافة والجهل واتباع البدع إلا القليل، ويستطيع المرء أن يبصر الحال في أمتنا عند قدوم اللعين نابليون في تاريخ الجبرتي رحمه الله تعالى، وأما حال الأمة عند خضوعها لمن سموا كذباً بالمستعمرين فهو أشد من هذه الحالة، وأما تخلفها الدنيوي والمادي، فقد كانت الأمة أبعد ما تكون عن التقدم والتطور وذلك لطول الكسل الذي أصابها، حتى تحول إلى عجز شبه تام في شؤون الحياة ﴿**وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا**﴾ ،وستأتي الآيات في هذه السورة الدالة على سنن الوجود والغلبة، وهي سنن لا تحابي أحداً.

أما قوله تعالى﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ فليست إلا وصفاً قدرياً لهم، ولعل ذكر العبودية هنا يناسب حال القوم، إذ أن ما أعطوا من وصف –بأس شديد- إنماوقع هذا بسبب عبوديتهم القدرية، والتزامهم السنن الكونية في الوصول إلى أهدافهم، فناسب الوصف الحال، إذ خضوع المرء لحكم الله القدري على وجه الصواب يجعله مستحقاً لوصف العبد الكوني.

تنبيه: قوله تعالى﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ يدل على أن هؤلاء فرقة أخرى غير اليهود، وهذا بعد أن يتقرر في ذهن الناظر أن الآيات خطاب للمؤمنين لا لليهود، وأما من جعل الخطاب كله لليهود فإنه يقر بهذه الحقيقة ولكن ترده المعاني التي تقدمت واللاحقة.

فإن تقرر هذا المعنى وأن الآيات منذ قوله﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ خطاب للمؤمنين علم أن هذا الوصف ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ كان لغير اليهود، وهو ما قدمناه وشهد له الواقع الذي تطابق كلياً مع اللفظ.

أما من قال إن هذه الآيات قد نزلت إخباراً عن ماضٍ قد تقدم، ويجعلون الآيات خطاباً لليهود، ويقولون بأن هؤلاء العباد هم من أزال علو اليهود الأول وفسادهم في الأرض، فإنه يرد على هؤلاء بالآيات القادمة، إذ أنه لو صح تفسيرهم على هذا المعنى لما استقام لهم قوله تعالى﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ إذ لم يحصل لهؤلاء المفسرين خبر ماض فقط يدل على أن من أزال علوهم الأول هو من أزال علوهم الثاني، وأن من دخل المسجد أول مرة هو من دخله المرة الثانية، كما يرد عليهم كذلك بقوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ فلم يحصل في التاريخ قط أن وقعت هذه الآية على اليهود، أي أنهم عادوا إلى علوهم الثاني بالكر والغلبة والقوة على أعدائهم ممن أزالوا علوهم الأول، ولا صار لليهود قط هذا الوصف﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ .

كما إن العلو في الأرض والإفساد فيها لا يقال لها ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ ،فإن الله قضى أن يكون لليهود فساد في الأرض مع علو، لا أن يكون لهم غلبة إيمانية ليقال لهم﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ فيكون

هذا شرطاً لدوام النصر والغلبة، بل إن من أول أمرهم وإلى منتهاه في هذا القضاء هو العلو المذموم دوماً والفساد في الأرض، فمن الإحسان هو إزالته والقضاء عليه، ولذلك فإنه يقال لخصومهم إن كانوا مسلمين؛ وهم كذلك هنا بلا ريب، ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ فيدوم لهم الخير بعدم علو اليهود إن أحسنوا، ثم إن أساؤوا وقع قوله تعالى﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ وهنا يقع قوله تعالى للمسلمين﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ .

قوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

تقدم أن هذا خطاب للمسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في حصول غلبتهم على اليهود في علوهم الأول، وهو هذا الذي نعيشه اليوم وهم في دخولهم الأول في المسجد الأقصى، وقد تقدم التنبيه على امتناع هذا الخطاب لليهود، لأن فيه معنى المن على النّعم التي يتحقق بها الفضل والخير، لا ليحصل بها الفساد والعلو المذموم، وقد تقدم أنه مما يمنع جعل هذه الآية وصفاً لليهود هو عدم تحقق لهم هذا الوصف أبداً، فالذين يقولون بمضى العلو الثاني لا يقولون إن عودتهم للأرض المباركة كان بسبب الكرة على من سباهم إلى بابل، فإنهم رجعوا من بابل إلى فلسطين (كما تقول أخبارهم في توراتهم)، وليس للناس في هذا الباب إلا أخبار التوراة على ما فيها من التحريف، بمنّ كورش ملك فارس عليهم، لا لغلبتهم على الفرس، كما أن هذا الوصف﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ليس لهم يومها، ولم يحصل أن صاروا﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ .

أما الذين جعلوا هذه الآية خبراً لهذا العلو ووصفاً لليهود اليوم، فإن الواقع لا يصدقهم، إذ لم يحصل لهم دخول الأرض المباركة والمسجد الأقصى بعد إمدادهم بالبنين، بل واقع الحال أن حصل عليهم مقتلة في أوروبا من قبل النصراني هتلر وقتل منهم مقتلة، كذلك لم يكن دخولهم بسبب هذا الوصف القرآني﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ لما تقدم من أن غلبتهم ليست إلا بسبب خيانة وخذلان وجبن مقابليهم، فالآية وصف للمسلمين كما تقدم بفضل الله تعالى، وإن كان الأمر كذلك –وهو كذلك إن شاء الله تعالى– تكون هذه الآية بشارة للمسلمين في زوال علو اليهود وفسادهم بأيدي المؤمنين، وذلك بالجهاد لما تحمله الكلمة القرآنية ﴿ الْكَرَّةَ ﴾ ،فاليهود يكرون على المسلمين، ثم تكون كرة المسلمين عليهم.

والذي أعتقده كذلك أن قوله تعالى﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ هو وصف للحال لا شرطاً للغلبة لما جاء في الحديث الصحيح((أمن قلة نحن يا رسول الله؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل)) ،كما أن الغلبة الإيمانية على الأعداء ليس هذا شرطها، بل الأمر كما قال تعالى على لسان المؤمنين مع طالوت﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ،وإن صح هذا المعنى فهو إخبار قد وقع أوله وبعض معانيه، ذلك لما عليه وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم اليوم من المال والأعداد، إلا أن ما فيه من بشارة ووعد مفرح هو قوله تعالى﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ فهو وصف للمجاهدين، وذلك لوصف ((النفير)) وهو في الأغلب يطلق على رجال الجهاد، ثمّ إن ذكره بعد البنين وكثرتهم يدل على المغايرة، فعدد المسلمين وصف للحال، وكثرة النفير وصف للمجاهدين منهم ممن يقضون على علو اليهود وفسادهم في البلاد.

ومما يمكن استشعاره من كثرة النفير أن ملحمة القضاء على علوهم لن تكون سهلة ولا هينة، بل سيكون فيها دماء كثيرة، وقتلى كثر، ولذلك يحتاج الأمر إلى كثرة النفير، ومن دلائل الحال أن سبب هذا القتل والدماء ليس كثرة المقابل؛ أي اليهود، ولا بأسهم في القتال، بل لأمور أخرى؛ منها وجود بهائمهم معهم من الأميين =الغوييم الذين ينتصرون لهم ويأتمرون بأمرهم، ومنها امتلاكهم لعتاد وأسلحة فيها قوة التدمير والقتل والفتك، وهذا ما يستدعي وجود هذا الوصف القرآني للمقاتلين ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ .

ودولة اليهود لم تكن بحاجة إلى كبير عناء وقتال في أول أمرها، وقد تقدم أن قوة اليهود في النشوء هو فساد مقابليهم، لكن الأمر مختلف بعد تمكنهم واستقرارهم، فإن إزالتهم اليوم ليست بالأمر نفسه في البدايات بل أشق وأكثر تكلفة في المال والرجال.

وفي قوله تعالى﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ إشارة إلى أن جند المسلمين الذين يزيلون دولة يهود وعلوهم وفسادهم الأول من أقطار شتى وأماكن متعددة ولذلك يحصل "النفير" فيكون كثيراً، أما في المكان الواحد فلا يكون هذا الوصف، على أن الخطاب للمسلمين لا لقوم ولا لسكان قطر واحد.

وقد يصح القول –والله أعلم– أن ماغلبوا عليه من البلاد قد قلّ فيه المسلمون وصاروا أقل من اليهود، وهذا هو الواقع في دولتهم الأولى قبل دخولهم المسجد الأقصى، اذ فرغوا البلاد من أهلها بالقتل والتهجير، ثمّ إن ذهب

علوهم صار السلمون أكثر عدداً وأموالاً في هذه الأرض المباركة، وعلى كل فإن حقيقة هذه الآية في الواقع ما يدل على معناها، وإن كان كل معناها لم يأت، ولما يأت سيرى المعاصرون لها حقيقتها على وجه لا يخطؤوه، وسيقولون يومها: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وأما ما يعني أهل الاسلام اليوم من هذه البشارة فأمور أهمها؛ أن الإستسلام للواقع وما فيه من علو اليهود وفسادهم يضاد الإيمان، وهو كفر بوعد الله تعالى لمن علمه، فزوالهم أمر يقيني، وهو سمة القدر والتاريخ البشري الإنساني كله، فمن يدعو إلى ترك الجهاد بحجة عدم جدواه، أو بدلالة عدم حصول الأثر والتغيير هو ضال يفتري على الله وعلى دينه وعلى المؤمنين، وهو على شاكلة من قال من المنافقين للمؤمنين من أهل المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾، وكفى بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم تكذيباً لهم ((كذبوا الآن حمي الوطيس)) وهي تقال في كل موقعة يدعو فيها داعي إلى ما دعى الأوائل من ترك الجهاد حتى ينزل عيسى عليه السلام من السماء.

ولكن ما يجب فهمه وهو فهم واجب لكل مسلم أن حصول الأحداث لا يكون بالطفرة، ولا يقع فجأة، بل لا يقع شيء في الوجود إلا على جهة السنة القدرية، ومن تأمل جهود اليهود وبلاءهم وسعيهم في بلوغ ما بلغوا إليه من العلو ودخول الأرض المباركة علم أن الأمر لا تكون وقائع الحياة ومصائر الشعوب هينة بلا مقابل كما لا تكون طفرة يبيت الناس على حال ثم يصحو على حال يجانب سيرورة التاريخ والحياة، ذلك بأن اليهود دبروا ومكروا واجتهدوا بما يستطيعون ومات منهم الآلاف حتى وصلوا الأرض المباركة، ثم لما حصل الوصول، وكان وجودهم قلقاً غير مستقر فإنهم صبروا وبذلوا الطاقات حتى صار لهم الإستقرار، فوقائع الحياة لا تقع إلا بالجهد كما ستبين آيات سورة الإسراء فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

أما الذين يحلمون حلم الجهال، ويؤملون ما يؤمله الأطفال من حصول الإنقلابات في الحياة على وجه الطفرة أو بلا جهد و تعب ولا إعداد فهؤلاء لا يستحقون إلا وجوداً واحداً في الحياة، وذلك بأن يكونوا دواب الأرض وخدم المستعلين وبهائم المستكبرين.

كذلك إن صح ما تقدم من دلائل كلمة النفير وأرجوا أن يكون صحيحاً، فإن هذا معناه أن ما يكون في أرض المسلمين من جهاد إنما هو إعداد لهذا النفير الآتي للوصول إلى إزالة علو اليهود، ذلك لما تقدم أن علوهم إنما يحصل

بحبل الناس، ولذلك لا يتم الوصول إليهم إلا بقطع هذه الحبال وإزالتها ليتم زوال علو اليهود، فإن تحضير هذا ((النفير)) لا يكون إلا خارج أو حول الأرض المباركة، ودقائق التاريخ تدل على أن التحولات الكبرى إنما تبدأ في الهوامش ليحصل لها الإشتداد والقوة ثم ما تزال تسري وتتمدد حتى تصل إلى مستقرها، وهذا أمر قد شرح بفضل الله في غير هذا الموطن بتفصيل.

والقصد أن هذا النفير، بكثرة كما يقول القرآن، وبوصفه كما ظننت إنما يُرعى ويقوى ويحضر في الأنحاء والأطراف والهوامش على وجه سنني حتى يأتي وعد الله تعالى.

وفي هذا الوعد دليل على عودة أهل الإيمان والاسلام إلى حكم أرض المسلمين التي غلب عليها الطواغيت والمرتدين؛ أي مؤذن بفضل الله تعالى بعودة إمارة المسلمين والخلافة وخاصة في مصر وبلاد الشام، إذ هي منافذ الدخول على اليهود وإزالة علوهم بفضل الله تعالى، وهذا مع أنه وعد إلا أنه تكليف ككل وعود القرآن، فإن الله لما وعد المسلمين في بدر بقوله ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ** ﴾ كان في هذا الوعد تكليف بالتصدي لهما حتى يقع الوعد، وهذا ما كان فإن الصحابة قاتلوا فوقع وعد الله تعالى، وهذا يفهمه أهل القرآن والحديث ويجهله أهل الوهم والخرافة، كما أنه يكذب به منافقون وتضعف قلوب قد طال عليها الطريق فذهبت تنشر اليأس والقنوط في قلوب الأمة وتدعو إلى التصالح مع العلو أو مع حباله من المرتدين وبهائم البشر.

وقوله تعالى ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ** ﴾ يشعر بطول زمن هذه الكرة حتى تقع، لقوله ((ثم)) وهو حرف يفيد التراخي كما يعلم في حروف المعاني، وهو طول نسبي كما يعلم.

وزوال هذا العلو ليس هو القتال الذي يكون في المهدي المنتظر رضي الله عنه، إنما يكون في العلو الثاني الذي يقع فيه مجيء ملك اليهود وهو الدجال، فينزل عيسى عليه السلام فيقتله.

ومثله قوله صلى الله عليه وسلم ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود)) فهذا فيما أظن في العلو الثاني، لما يقع فيه من آية تكلم الحجر والشجر، فهذه الآيات الكبرى إنما تكون عند قرب القيامة، ومجيء الدجال، فتحصل هذه الآيات حينئذ والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

وما زال الخطاب للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلو كان لليهود لما قيل لهم في علوهم وفسادهم وهو قدرهم الذي قدمته الآيات﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ فهو علو وفساد من مبتداه حتى يزول، لا أن الفساد أمر طاريء على علوهم فيحذّروا من الإساءة لئلا يقع لهم اذهاب علوهم بهذا التحذير في قوله تعالى ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾حتى يدوم لهم العلو، مع ما تقدم أن العلو لا يكون إلا شراً.

ثمَّ إن من عجائب تفسيرهم هذا هو جعلهم قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ يعود إلى إزالة العلو، اذ أن هذا لازم قولهم ولابدّ، ليكون دخول أعدائهم عليهم مرة أخرى في المسجد فيقع قوله تعالى ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ مع أن الآية صريحة أن ﴿وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾إنما هي العلو لا ازالته، فهما وعدان لبني اسرائيل في قوله تعالى ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾.

ثمّ إن في هذه الآية بيان واضح أن الخطاب للمؤمنين، وأن الضمير في ﴿لِيَسُوءُوا ﴾ هو لليهود، وذلك للفظ العلو في الآية في قوله تعالى﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ فهي وصف لعلوهم الثاني ولا شك، فاللفظ واضح صريح، إذ هو هو، فقد ذكر أمر العلو وعدده في مقدمة الآيات، ثم ذكر وصف هذا العلو، هنا.

وفي الآية بيان واضح أن الأمر مستأنف لم يمض، وذلك لقوله﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ فهذا لا يقال لما مضى وانقضى، ولكنه يقال ارشاداً لما سيأتي، فما مضى وانقضى لا يخاطب أهله على جهة الإرشاد والنصح ليجتنبوه، بل يساق مساق الوصف لحصول العبرة والتنبيه.

فالآية بينة لما قدمنا من أمرين أن الخطاب فيها للمؤمنين، وأن البلاء بعلو اليهود يكون عليهم، وأن هذين العلوين هما بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ولما كان ما نراه اليوم هو أول دخول اليهود المسجد الأقصى كان هو العلو الأول، وأما العلو الثاني فهو ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الدجال ولحوق اليهود به، وذلك لأن

الدجال هو ملك اليهود، وهوعينه مهدي الشيعة المنتظر كما بينت ذلك في دراسة مستقلة، أخذها البعض وألحقها باسمه بعد أن زوّر عليها أموراً هي أجنبية على البحث.

ولابدّ من اعادة التنبيه أن الخطاب بين طائفتين فمن يعلو هم اليهود، والأخرى هم المسلمين، وكل من فسَّرها على غير ذلك فإنه لن يجد أبداً ما ينجده في التاريخ حدثين قد زال علو اليهود بنفس الطائفة، فمن قال إنهما مضيا فإنه يجعل الطائفة المذهبة لعلوهم في الأولى غير الطائفة الثانية، وهذا خلاف الآيات كما هو بين، وهذا الاضطراب لا يمكن لهم دفعه.

وفي هذا العلو ((الثاني)) الذي يقع بعد الاساءة يكون قوله تعالى﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ وذلك لحصول الذلة والمهانة، ويحصل دخول المسجد الأقصى مرة أخرى كما دخلوه أول مرة، وقد علِمنا كيف دخلوه في الأولى على الوصف الذي قدمنا من حال المسلمين، وكذا حال من قابلهم من خصومهم، ويكون قوله تعالى ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ والتتبير هو التدمير، وهم في دخولهم الأول لم يكن لهم هذا؛ أي التدمير، فالدخول سيكون على الحال الأول وسيزداد عليه التدمير الذي قاله الله تعالى، اذ ذكر المصدر بعد الفعل يدل على التأكيد والمبالغة.

والذي يظهر من هذه الآية في وصف العلو الثاني أن أمرهم يومها ليس على ما هو عليه الآن من استقرار في الأرض المباركة والغلبة عليها، بل إن دخولهم لا يكون إلا للتدمير والإهلاك، لأن دخولهم الأول كان على وجه الإستقرار في الأرض وتعميرها لتكون لهم وطناً ومسكناً، فلم يدمروا الموجود، بل أخذوه وملكوه وزادوا عليه، ولكن عند مجيء الدجال ملكهم يكون دخولهم البلدان للتدمير والقتل كما في الآية وكما تبينه الأحاديث، فإن الدجال يعيث في الأرض فساداً بالاهلاك لأن أمره وأمر جنده وملأه إنما يكون دعوة للناس لمجرد الدخول في الطاعة والانقياد الى عبوديته، فمن استجاب أنعم عليه وإلا فالهلاك والتدمير، ولما كان الخطاب في الآية للمؤمنين كان يعني هذا أن ما سيلاقونه هو الدمار والعنت والعذاب، فاجتمع في العلو الثاني الفساد كما في العلو الأول، وكذلك التدمير والاهلاك، وهذا التدمير والاهلاك لم يكن في العلو الأول إذ لم يذكر في الآية وكذلك لم يقع إلى الآن، بل إن حروبهم ضد خصومهم لم يكن فيه هذا المعنى قط، بل كما تقدم هو تولية الدبر وإخلاء البلاد لهم بسبب خسة ونذالة من قابلهم من الحكام، وضعف وعجز أهل البلاد.

لكن الذي وقع في العلو الأول أن مقدمته كانت على ما قال الله تعالى ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾.

في هذا الحال من البلاء والمشقة والتدمير يقع قوله تعالى:-

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

وكما تقدم لا يصح أن يقال هذا لليهود في علوهم وفسادهم، إذ لو كان هذا المعنى صحيحاً لكانت الرحمة هي رفع عذاب خصومهم عنهم ليبقى لهم العلو والفساد وهذا كما تقدم لا يسمى رحمة، بل هو مكر بهم كمكر الله بكل عال مفسد، يترك له ربه الحبل ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

فهذه الآية تدل على أن المخاطبين هم أهل لوقوع الرحمة عليهم لأن ﴿عَسَىٰ﴾ في القرآن واجبة كما قال ابن عباس والشافعي ومن تلاهم من أهل العلم، يعني هذا أن الرحمة واقعة عليهم يقيناً، وهذا لم يكن لليهود قط فيما سبق بعد علو مدَّعى، ولم يكن إلا ما قال الله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، فمتى استحقوا الرحمة فوقعت عليهم إذاً؟!!

واستخدام القرآن للفظ﴿عَسَىٰ﴾ مع ما تقدم من أنها واجبة فيه معنى يظهر بالاستقراء وهو على أنها معلقة على عمل المقابل وهو المؤمن ، كما في هذه السورة في قوله تعالى﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فهو مقام معلق بالعمل، وكقوله تعالى﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾فهو وعد معلق بالعمل المذكور عقبها ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ و على هذا فإن الإتيان بقول عسى مع خوف ذهابه وذلك كما وقع لرسولنا صلى الله عليه وسلم في دعائه يوم بدر، فقد اشتد في الدعاء والإلحاح به مع وجود الوعد ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ لأن المؤمن يخاف أن يفوته الوعد

الإلهي بفوات شرطه منه، وإن أردت أن تعلم أن الأنبياء مع دينهم واخلاصهم وعلمهم قد يفوتهم الإنتباه لشرط الوعد فتأمل قصة نوح عليه السلام وهو يقول له:- ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فعلمه الله وجه الوعد فأناب وأسلم وجهه لقضاء ربه، وهذا قد وقع للفاروق رضي الله عنه مع علمه وفقهه في قصة الحديبية وهو يحاور في وعد الدخول لمكة حتى نُبِّه أن الوعد ليس في هذا العام الذي هم فيه، فقد يخطيء السامع في فهم الوعد، أو قد يخطيء شرطه فيفوته، وهذا المعنى من الإتيان بلفظ عسى أرجو أن يكون حقاً، فإن كان كذلك فهذا من نعمة الله عليه، وإن كان غير ذلك فهو من ذنبي وجهلي وضعفي وكل ذلك عندي.

والقصد أن هذا العلو الثاني لا يزال إلا برحمة الله لاستحقاق المسلمين لها بما يعملون من شرطها وهو دفع هذا العلو وعدم الخضوع له.

والرحمة هنا تعود على كل المذكور سابقاً من فعل اليهود؛ أي العلو والفساد والتتبير، لا على واحد فقط، فتنزل الرحمة بإزالة علوهم وفسادهم وإيقاف تتبيرهم، لكن لما كان البلاء في هذا العلو أشد، وذلك بما زيد فيه عن العلو الأول اقتضى ذكر الرحمة والتي هي أليق بإيقاف العذاب.

ومما يلاحظ من الآيات وألفاظها أن ذكر زوال العلو كان فيه صفة الإزالة بالكرة عليهم، وحصول كثرة النفير المذهب لعلوهم، وأما العلو الثاني فلم يكن إذهاب العلو إلا بهذا الوصف القرآني الصادق﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ ،ذلك لأن العلو الثاني يقضى عليه كما في الأحاديث بموت ملكهم الدجال وعلى يد نبي الله وعبده ورسوله عيسى عليه السلام، وليس هذا هو صفة إزالة العلو الأول، فهذا فيه معنى المن بالنصر مع الضعف لما تتضمنه كلمة ((الرحمة)) ،فهي وإن وقعت على مستحقها إلا أنها لا تكون إلا مع حاجة وضعف، وهذا حال المسلمين يومها مع الدجال، فإنه أعظم الفتن على الإطلاق منذ آدم إلى يوم القيامة، وما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال كما في الحديث، فناسب ذكر الرحمة الحال، وهي؛ أي الرحمة إمدادهم بعيسى عليه السلام بنزوله من السماء.

قوله تعالى﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾

هذه الجملة القرآنية يجعلها من قال بأن العلوين قد مضيا خطاباً لليهود على ما تقدم، ويجعلون الواقع الذي نحياه اليوم من علوهم على معنى هذه الآية؛ أي إن عدتم للفساد عدنا للإهلاك، هذا مع ما تقدم من عدم قدرتهم على التوفيق بينها وبين قوله في الجملة السابقة﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ ،أي إن صرف مزيل العلو عنهم هو الرحمة، مع أن إزالة العلو والفساد هو الرحمة كما تقدم.

ولو صح قولهم هذا وأنها خطاب لليهود لكان لليهود علو آخر غير ما قضاه في الكتاب، فيكون آخر الخبر ناقضاً لأوله وهذا لا يصح أبداً.

ولما علمنا –إن شاء الله تعالى– أن الخطاب للمسلمين إذاً يكون قوله تعالى﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ على معنى الرحمة لهم، أي إن عدتم إلى الله وإلى طاعته والعمل بشرعه عدنا لكم بالنصر على كل من أراد الفساد والعلو عليكم.

وهذه الجملة خطاب لكل حال قبل علو اليهود وبعده، فهي سنة جارية، لكن لما كان الأمر بعد قتل الدجال وانتصار المؤمنين قصيراً، والزمن ليس طويلاً فاقتضى هذا الإقتضاب في الخطاب بقوله﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ، ومقتضى هذه الآية سيقع بعد مقتل الدجال، فإن عيسى عليه السلام لما يخبر المؤمنين بخروج يأجوج ومأجوج، ويحرضهم إلى الطور، فإنهم يجأرون إلى الله بالدعاء لشدة مصابهم فيخلصهم الله منهم بالنغف كما في الأحاديث الصحيحة، وهي مشهورة في مظانها فليرجع إليها ولا نذكرها مخافة التطويل.

وهذه الخاتمة من الآية تدل على ما تختم به الدنيا من قوله صلى الله عليه وسلم ((تقوم الساعة وليس على الأرض رجل يقول الله)) وقوله صلى الله عليه وسلم((لا تقوم الساعة إلا على لكع بن لكع)) وما جاء في الحديث الصحيح من خروج ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى على الأرض منهم أحد.

وهذا الخطاب القرآني وتمايزه في حديثه مع المؤمنين ببقاء باب الرحمة مفتوحاً بقوله﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وقوله ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وفي حديثه مع المؤمنين ببقاء باب الرحمة مفتوحاً لهم بقوله﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وقوله﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وفي حديثه عن الكافرين بأن لهم حالاً واحدة وهي قوله﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ يعلمك أن اليهود ليسوا أهل الخطاب الأول ولا يستحقونه، فلا يصح الظن أنه موجه إليهم وهم الذين قال الله فيهم﴿ لَمْ

يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ويقول فيهم﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ على معنى التيئيس من إيمانهم؛ أي في عمومهم، فهم على هذه الحال من الوصف القرآني أحق بالدخول في قوله تعالى﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ .

وهكذا يتم الإنتهاء من خبر انتهاء العلو، والإنتهاء من أخبار الدنيا، ووصف من تقوم عليهم الساعة، وهي خاتمة تشهد لما تم اختياره من تفسير هذه الآيات على الوجه الذي نرجو الله تعالى أن يكون حقاً، وأن يكون فيه بشارة لأهل الجهاد والثابتين على العهد، والمؤمنين بوعد الله، وفيه الرد على أهل اليأس والقنوط، ومروجي الخذلان وترك القتال الذين كذبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد عليهم إرجافهم.

وفي خاتمة هذه الآيات على المعنى الذي تقدم يكون السؤال الخاتم في هذا الموضع وهو: لماذا لم يذكر في هذه الآيات من بدايتها أي خطاب للمؤمنين على ما جرى من سنن القرآن من قوله يا أيها الذين آمنوا، أو ما يدل عليه باللفظ؟

فالجواب هو التالي:- اعلم أن الخبر القرآني، سواءً الماضي عنه أو المستقبلي إنما يجري لفظه في القرآن على وجه يناسب خبره، فالتلاءم بين معنى الخبر ومراده وبين لفظه حقيقة قرآنية، وقد تقدم في أبحاث سابقة الكلام على هذا، ومن ذلك سبب تأخر ذكر سبب أمر الله على لسان موسى عليه السلام بذبح البقرة، فقد تقدم الخبر على السبب، وكذلك هذا التنوع بين الخبر الرباني في الحديث عن علم الله في ما جرى من ((تطويع)) لنفس القاتل من ابني آدم حتى قتل أخيه، فقد قال الله عن هذا الأمر﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ ولفظ((طوعت)) يحمل معنى التليين بعد المعارضة، لأن الأخ لم يقتل أخاه إلا بعد صراع مع النفس، ومغالبة بين نوازع الخير ونوازع الشر، فكان أن ((طوعت)) له نفسه القتل فقتل، وهذا خبر قرآني يقوله الله بما يعلم من نفس القتل، فإن قارنت هذا الخبر بما قاله الله تعالى عن يعقوب والد يوسف عليهما السلام حين أخبروه كذباً بأكل الذئب ليوسف عليه السلام، فإنه قال﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وهو قولهم عند صدقهم﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ ولم يصب عليه السلام في الثانية، وهم في الأولى يصح عليهم وصف التطويع لما ذكر القرآن من محاورتهم في قوله تعالى

عنهم﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ فإن ما فعلوه لم يأت إلا بعد تطويع للممانعة، لكن يعقوب عليه السلام أخبر بما ظن في الظاهر، أو بما استقر عليه قرارهم، ومنه كذلك سبب عدم التعريف لكلمة((بلد)) في سورة البقرة في دعاء الخليل عليه السلام، فإنه قال﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴾ وفي سورة ابراهيم عليه السلام﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴾ والفرق هو الحال، فإن الدعاء الأول وقع قبل وجود البلد، وأما في سورة ابراهيم فقد وقع الدعاء بعد وجود البلد واستقرار أهله فيه وبناء البيت، فاختلف الخطاب، وهذا التنوع بين في الخبر القرآني، فإن تأملنا واقع هذا الخبر القرآني وزمان نزوله علمنا أن الجماعة المخاطبين بهذا غير ممكنين، ولا لهم وجود جامع، بل هم أفراد ليس بينهم العصبة الإيمانية، فكيف يكون الخطاب يومها لهم على صفة الجمع الذي يفقدونه، فهذه آيات تتحدث عن أمة غالبة ممكنة تَغلِب وتُغْلَب، تديل مرة ويدال عليها أخرى، والحال يوم نزول الآيات لا يصلح لهم هذا الخطاب، فخبيء إلى يومه، والأمر كقوله تعالى﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وهي آية من سورة القمر، وهي سورة مكية كما يعلم، فإن عمر الفاروق لما قرأها عجب لها وقال: ((أي دبر سيهزم)) فهو وإن فهم أنها وعد إلهي بالنصر، وأن دبر الكافرين ستولي وتهرب لكن عجب لها، ثم رأى تأويلها في بدر، ولن يتوقف تأويلها بإذن الله تعالى، هذا وقد علم الناس أن الآيات المكية ليس فيها خطاباً بـــ(يا أيها الذين آمنوا)، إنما كان هذا خطاب القرآن المدني، والسورة كلها؛ أي الإسراء ليس فيها توجه بهذا الخطاب، حتى في الآيات التشريعية كقوله﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾ فهي خطاب لعموم الناس أولاً وللمسلمين خاصة ثانياً، فيكف والحال هذا ستتوجه هذه الآيات الخبرية للمؤمنين بالخطاب بغير هذا الذي هي فيه؟

هذا مع ما علم أن أعظم كلام العرب كما قال الشافعي رحمه الله في الرسالة تخبئة المراد منه مع ترك أبوابه مفتوحة لتدل عليه وقد ذكر كلامه في هذا المكان في تفسير سورة أخرى هي سورة العنكبوت فارجع إليه إن شئت، وهذا هنا جار مجرى كلام العرب وخطابهم.

وأما التوفيق بين المعنى وصيغة الخطاب، فإن هذه الآيات مع ما فيها من ذكر علو اليهود وفسادهم إلا أن فيها وعوداً إلهية للمسلمين، ففيها وعد الغلبة على الأرض المباركة وفتحها، وبلوغ الإسلام إليها، وقد كان بفضل الله تعالى لما فتحها الفاروق عمر رضي الله عنه، وهذا وعد عظيم لأهل الإسلام يوم نزول الآيات وما هم فيه من الضعف والعذاب، وفيها وعد إلهي للتالين بأن علو اليهود سيزول، وهذا وعد صدق وحق، وحال الناس اليوم مع هذا الوعد كحال بلوغ الإسلام الأرض المباركة لما نزلت الآيات، يؤمن به المؤمنون، ويشكك به ويرده الملحدون والمنافقون، كما فيها وعد النصر على الدجال ونزول الرحمة بنزول عيسى عليه السلام، فهذه وعود مخبّأة، وصيغة الخطاب كذلك مخبّأة، فهي خطاب للمؤمنين لأن هذا القرآن كله خطاب لهم قبل غيرهم، حتى وهو يحاور ويرد على الملحدين والمعاندين فإن أهل الإيمان هم أهل الخطاب قبل غيرهم.

وفي ختام هذا الإختيار فإن على الناظر فيه أن ينظر بإنصاف ودين، وأن يتأمله على وجه العلم لا الجهل، والله عز وجل ولي قائله وحسبه، فإن كان من الله فله الحمد رب العالمين، وإن كان غير ذلك فأستغفر الله.

قوله تعالى﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾

قد ذكر في تفسير سورة أخرى طريقة بناء السورة القرآنية، وعدم فهم هذا البناء يوقع المتهمين بعلم المناسبة في تكلف لتوجيه التوافق بين الآيات، وقد قيل في موطنه إن السورة تبنى على تنوع بين التكوين والتشريع، فحيث يكون الخطاب جارياً على أمر من أمور الشرع أو الوعد أو الخبر حتى يأتي بعده ذكر التكوين وآيات الله فيه، لأن حق الشرع والأمر مصدره حق الخلق والإمداد، وسور المئين والمثاني إنما تجري على هذا المجرى، وقد ذكر في موطنه أدلة على هذا، وهنا أزيد بأن هذا البناء القرآني قد يوجد في الآية الواحدة، وتأمل إن شئت آيات سورة الرعد كقوله تعالى﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ** ﴾ ثم تأمل في هذا الموطن من سورة الرعد ما تقدم من سنة بناء السورة القرآنية حيث تذكر الآيات الكونية من

بداية السورة ثم يقول الله ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ .

بل تكاد السورة كلها تنشق إلى هذين القسمين فقط لمن تأملها، وهي مثال لما تقدم.

وسترى هذا بيناً في سورة الإسراء، فحيث أنت تخوض مع خبر قرآني حتى يأتي شرع وهدي إيماني قلبي أو عملي، ويكون هناك المناسبة بين الأمر الكوني والأمر الشرعي وذلك لأمور منها بيان حق الله على عباده، أو منة الله على عباده، لأنه كما تقدم فإن موجب الشرعي هو الصفات الإلهية التي خلقت وأبدعت وأحكمت ورزقت، وهذه الآية وهي قوله﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ لمن تأملها على هذا المعنى فإنها دليل على الإختيار الذي قدمناه من أن الآيات السابقة هي خطاب للمؤمنين، وفيها دليل على أن الوعد الإلهي هو أمر إلهي كذلك، وهذا قد بسط في غير هذا الموطن، ولكن نقول هنا أنه ما من وعد إلهي إلا وهو أمر إلهي بتحصيل شروطه والسعي إلى إدراكه، وشروط الوعد هي أمر الله تعالى، وهي أسبابه القدرية والشرعية كذلك، فحين يعد الله عباده المؤمنين بالتمكين يعني هذا أن التمكين واجب إيماني، وأن أسبابه من واجبات الإيمان، والغفلة عن هذا الباب هو الذي أوقع طوائف كثيرة في الكسل وترك العمل بواجبات إيمانية عظيمة تتعلق بحقوق الدين ووجوده في العالم، وتتعلق بحقوق المسلمين، فإن فهم هذا علمنا أن الخبر المتقدم هو أمر إيماني، وهداية القرآن له على ما فيه من وعد فإنه أمر، ولذلك قال سبحانه عقبه﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ فهذه مناسبة الآية للخبر السابق، فإن القرآن هدى المؤمنين لهذا الخبر، وهداهم بأمره لتحصيل وعده، ثمّ لهم فوق هذه الهداية وهذا الوعد بأن بشرهم بأمر هو أجل وأعظم وهو قوله﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ

﴿يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾ ، فالقرآن لا يهدي للتي هي أقوم بأحكامه ولكن كذلك بأخباره ووعوده كما تقدم، وهو يهدي للتي هي أقوم بما هو عملي وما هو قولي وما هو قلبي، وهذه الصفة للقرآن تبين أن أوسط الطرق وأعدلها هي طرق القرآن في الوصول إلى المراد، فالله جعل للعباد مقاصد في الوجود يجب عليهم العمل لها، وهداهم إلى الطرق الموصلة لهذه المقاصد، فالإنسان مهدي بهذا القرآن وما فيه، وذلك أن من رحمة الله أنه لم يتركه لنفسه، وإن من عجائب الملحدين والمعرضين أن يعدوا الهداية والإرشاد تعطيلاً للعقل وإماتة للنشاط العقلي الإنساني، ولو ترك الإنسان عملاً لاعترض على هذا الترك، ثمّ لما هدي اعترض على هذه الهداية، وهذه هي نزعة الشر في المعرضين والملحدين، وأما المؤمنون فيقولون: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ .

وبيان هذه الصفة لكتاب الله توجب على المؤمنين الإيمان بأن القرآن فيه كل ما يسعدهم ويهديهم ويرشدهم، وليس كما انتشر قديماً وسار في طوائف المسلمين اليوم أن القرآن فيه جُمَلٌ عامة بلا تفصيل، أو أنه حمال أوجه لا يحسم قضية، فهذه أقوال شر، وهي على هذه المعاني ترفع هذه الصفة عن القرآن فلا يعود كتاب هداية، بل تكون الحيرة معه أشد، والشك قائم لا يزول، وبهذه الجهالات قديماً وحديثاً اتجه الناس إلى مصادر أخرى جعلوها يقينية وسموا دلالات القرآن ظنية، فأكثر الأقدمون في مسائل العلم على علوم الأغيار وطرقهم في الإستدلال، بل اعترضوا على ظاهر القرآن بهذه الدلالات التي سموها فعلية ويقينية، واليوم تجد هذه السموم تسري تحت العمائم واللحى، وتشبع بها قادة للناس وأجيال المسلمين، حيث اعتناؤهم بالقرآن لا يكاد يوجد، ومدارسته هي أقل علوم الناس، وأحسنهم حالاً من تعجبه فكرة أتته من نفسه أو من الأغيار فألبسها آية من كتاب الله ليجعل لها القبول في نفسه وفي نفوس الآخرين، ومما يدلك على ما أقول فإنك لو دعوت أحداً من أصحاب مناهج العمل الإسلامي الذين يعملون للإسلام إلى كتاب الله ليفصل بينكم فإن أول قول ستسمعه منه: أن القرآن حمال أوجه، أو أن هذه المسائل اجتهادية لا يحسم أمرها الكتاب، بل قد يعجب أن يكون في كتاب الله حلاً وجواباً شافياً لهذا الإختلاف، وسبب هذا أن الناس اليوم –إلامن رحم ربي– لا يعلمون أن القرآن هو الذي يعصم من الخلاف، لا أنه يحقق الخلاف بكون آياته تحتمل المعاني المختلفة واجتهادات الناس المتعارضة والمضطربة، فعلى هذا المعنى الذي يقولونه ويعتقدونه ماذا يبقى من حقيقة هذه الآية﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ ،إذ من معاني هذه

الآية أن القرآن لا يدلك على ما هو قويم بل يهديك لما هو أقوم، مع أن غير القرآن لا يوصف بالحق أبداً، بل هو الباطل أبداً، فإن صيغة المبالغة هنا﴿ أَقْوَمُ ﴾ لا تعني أن غيره له حق في هذه الصفة، بل غير القرآن ضلال واعوجاج.

فالقرآن يهدي الناس إلى الحق المطلق في كل باب من أبواب حياتهم، وأولى الناس طلباً لهذا الحق في القرآن هم أهل الإسلام حين يختلفون في أمر، وأولى أهل الإسلام طلباً للحق منه هم من يدعون الناس إلى العودة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن يدعون إلى تحكيمه وتحكيم آياته، وهذا الباب وهو العمل للإسلام والدعوة إليه هو من أركان هداية القرآن، فإن القرآن أفاض في قصص الأنبياء وسيرتهم، وتعددت هذه القصص في سور على وجه تفصيلي تبين دقائق هذه المسيرة وهذا الطريق، وكما أن من أركان قضايا القرآن ذكر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن، وما هي سنته التي سار فيها لتحقيق وعد الله والنصر، فالساعي للحوق بالسابقين عملاً بقوله تعالى﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ سيجد في كتاب الله كل ما يحتاجه لحل معضلات طريقه في الوصول إلى أهداف الإسلام، وهو غني بهذا القرآن عن مناهج الأغيار، وشرط هذا الغنى أن يأتي القرآن مسترشداً مهتدياً، لا ممتلئ القلب والعقل من زبالات الأغيار فإن صادف في القرآن ما يضاده ذهب لتأويله أو زعمه أن الزمن قد تغير، وأن الواقع غير الواقع، فهذه هي عينها تأويلات أصحاب المذاهب البدعية القديمة التي ينفر منها هذا المرء ويتبرأ من أهلها، لكنه لا يدري هذا المسكين أنه على غرز هؤلاء المبتدعة، وأن بابه في الإستدلال هو بابهم، ومع ذلك يزعم الإنتساب إلى الدعوة إلى الكتاب والسنة، وما حاله إلا مجرد شعار لا واقع له إلا على وجه محاربة المذاهب البائدة أو التي لم يعد لها وجود إلا في ألفاظ وراث لا أثر لهم في الحياة، ولا وجود ظاهر، فهو يفتش عنهم في الزوايا المظلمة ليحاربهم رجاء اللحوق بالأوائل الذين حاربوا هذه البدع يوم كان لها وجود ظاهر وأثر في حياة المسلمين، ولو دعي إلى قضايا الإسلام العظمى في عصره لغض عنها الطرف وسكت بلا حراك لأن خصومه هم أهل السيف والسلطان، والرجل صفوه لهم، يرجو خيرهم ويخاف شرهم.

والقصد أن حملة شعار العودة للكتاب والسنة هم أحوج الناس للعودة إلى الكتاب والسنة وأهم باب في العلم لهؤلاء هو تعلم طريقة نبينا صلى الله عليه وسلم في الخروج من التيه والذلة إلى وعد الله بالتمكين والنصر، والأمر يبدأ بمعرفة واقعهم من خلال حكم الله في أمثالهم، فإن أحكام القرآن وأوصافه على الناس هي أول الهداية، وهي

السبيل للدخول في هدي القرآن في العمل، وبدون هذا السبيل وهو معرفة واقع الناس ثم أحكامهم في القرآن ثم العمل بهدي القرآن مع أمثالهم فإن الأمة لن تخرج من التيه ولن تنال وعد الله تعالى.

وهذه الآية الجليلة ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ رد عظيم على طائفة الإلحاد الجديد، والتي تريد أن تجرد القرآن من هدايته، وتعطل أحكامه، وتنفي عنه صفة الهيمنة، فيدعون إلى تفسير جديد لكتاب الله، يجرون عليه ضلالات الحداثة وتفسيراتها على نصوص الشعراء المرضى بالفصام، فيتحول النص الرباني الهادي للبشر إلى مجرد أحجية تحتاج إلى حل مشكلاتها، أو إلى مجرد رمز لفظي لخيال شارب المخدرات ومريض العصاب، ويزعمون أنهم يحققون الحداثة للنص القرآني، والتي تحقق بدورها الصلح بين الناس فلا يعد القرآن حاكماً للبشر ولا موزعاً لهم إلى مهتدين وضالين، ولا إلى مؤمنين وكافرين، ولا إلى طائعين وعصاة؛ أي يصير الناس مجرد دواب بلا ضوابط، وبهائم تحكمهم الغرائز، فلا حلال ولا حرام، ولا جزاء ولا عقوبات.

وهذه الآية الجليلة، وهي تبين هداية القرآن للتي هي أقوم، فإنها تجعل أعظم هداية فيه هذا التفريق بين البشر على أساس الإيمان، وليس على أي شيء آخر، فهناك مؤمنون مهديون، لهم حسن الجزاء وحسن العاقبة، وهناك كافرون لهم العذاب، فلا هداية دون أحكام، ولا هداية دون توزيع الناس وتفرقهم على أساس الإيمان، وحين يرتفع ميزان الإيمان وأحكامه، فيفقده الناس أو يتركونه، فهم حينئذ ضلال بلا هداية، حتى لو اجتمعوا على صعيد واحد، وعلى معنى واحد من معاني الحياة الدنيا، كالإنسانية أو الأرض أو اللغة، ومن تأمل طرق الملحدين في آيات الله لصرفها عن مراد الله فإنه يجد أن أس طريقهم تقوم على أمرين أولهما:- نزع عربية القرآن، وترك مناهج العرب في الفهم والإدراك، وثانيهما وضع ضوابط الهوى التي يسمونها عقلية أو اجتماعية أو سياسية، وكل جهالاتهم تدور حول هذين الأمرين، فأولهما يعود إلى نفس النص وثانيهما يعود إلى أجوائه وتاريخه، وأساس القضية أن القرآن إنما يضع أحكامه لهداية الخلق لتحقيق ما يحبه الله ويرضاه من الحق حتى لو خالف محبوبات الإنسان ورغباته، أو خالف واقعه وتقريراته، وأما هم فإنهم يريدون اخضاع حب الله ومراده وكلامه لما يحبه الناس ويرغبونه من شهوات ولما استقرت عليه أوضاع الناس من أحكام وتقريرات، ويزين لهم الشيطان أن هذه إنما هي خلاصة فكر البشرية، وأنها وصلت إلى هذا الحد بعد تجارب وتطوير، فهي قمة التقدم والحضارة والمدنية،

وأما غيرها فهو تخلف ونكوص على الأعقاب، ولذلك فهذا هو جهاد الأنبياء وهو جهاد أتباعهم مع أعداء خط النبوة، والعاقبة للمتقين.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

فهما أمران جليلان في كتاب الله؛ أولاهما الهداية للحق وهذا يتضمن بلوغ الهدف بالطاعة من غير اضطرار لإدراك أهداف المرء بالمعصية، لأن ما عند الله لا يؤخذ بمعصية كما يفعل الضالون، وثانيهما: الأجر الأخروي بعد المات وذلك بما يجنوه من أجر كبير، والأجر الكبير إنما يكون بمضاعفة الأجر والحسنات، ويكون بجزاء هذه الحسنات، فإن الحسنة هي ثمن رغد الجنان، ومن تأمل ثمن الحسنة علم أي أجر كبير ينتظره، على ما في هذا الوعد الإلهي من النجاة من العذاب، فهذا فضل آخر يدرك بالطاعة، لأن الطاعة لها أثران من جهة الجزاء الأخروي؛ تحصيل الحسنات والنجاة من السيئات، كما أن السيئة لها أثران؛ حصول موجبها وهو العذاب وفوات أجر الحسنة ما لو عملها، ولذلك قال الله تعالى عن غير المؤمنين:

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ،إذ قد فاتهم هداية القرآن وإدراك مرادهم كما قال تعالى﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ وفاتهم الأجر الكبير، ثمّ لم تكن هذه كل خسارتهم؛ وهي لعمر الحق خسارة عظيمة، إنما كان لهم ما قاله تعالى﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

وفي هذه الآية جعل الله مضاد الإيمان والعمل الصالح عدم الإيمان باليوم الآخر﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ،لأن سبب الإيمان والعمل الصالح هو الإيمان بالآخرة، بل لا يكون هناك إيمان ولا يكون العمل صالحاً قط إلا بالإحتساب؛ أي الإيمان باليوم الآخر، فكان سبب كفر الكافر هو عدم الإيمان باليوم الآخر.

وفي هاتين الآيتين بيان واضح أن هدى القرآن وأثره في الوجود لا يقع بعمل ظاهر الأمر فقط، بل لابدّ من وجود الباعث الأخروي لهذا العمل حتى يحصل أثره، فالفعل وإن التقى بصورته مع حكم الله فإنه لا يكون حكماً إلهياً ولا يعطي أثره التام في الوجود إلا بوجود الإحتساب، فالداعي إلى الله لتحكيم شرعه في الوجود وفي حياة الناس لا يدعو الناس إلى الحكم الظاهر، بل يدعوهم إلى الله والدار الآخرة، فإن حصل لهم هذا كان العمل بالشرع يعد

عملاً صالحاً، ثم يعطي أثره في صلاح الوجود، وهذا الأمر لا يفهم إلا من هداية القرآن، أما الذين يعملون لإعادة حكم الشرع في الظاهر على مناهج الأغيار فإنهم في بعد عن هدي القرآن، وإنما هم دخلوا في سبيل المجرمين دون بصيرة، ويحسبون أنهم مهتدون.

قوله تعالى﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾

هذا معوق من معوقات الإيمان بالآخرة، وبالتالي هو معوق من معوقات العمل الصالح، فالإنسان ابتداءً لا تصح أحكامه في تسمية الشر والخير، بل إن أدرك الخير والشر فإنه يتبع هواه باتباع الشر لما يحصل له بالشر من الشهوة العاجلة.

والشر والخير اسمان في الشرع لأشياء وأعمال، وهما خلق من مخلوقات الله، لكن الشر لا ينسب إليه، فإن الله لم يخلق شيئاً إلا على وجه الخير حتى لو كان شراً في نفسه، فإن مقاصد الخلق هي التي تطلق اسما الخير والشر على الأعمال والأشياء، ولما كان الله لا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يخلقه بلا مقصد عظيم، فإن الشر لا ينسب إليه جل في علاه، مع أن اسم الشر يطلق على الشيء قبل عمل الإنسان به، وكذلك اسم الخير، فإن من الأشياء والأعمال هي شر خلقت على جهة الإبتلاء والإمتحان كما وضعت لحكمة الوجود في افتراق الخلق إلى مؤمن وكافر، وطائع وعاصٍ.

والإنسان لضعفه وحبه للعاجلة فإن يدعو لتحصيل الأمرين؛ الشر والخير، مع أن أحدهما يفوت الآخر، ولولا وجود الآخرة لكان هذا السعي صحيحاً، لكن لما كان الميزان هو ميزان الآخرة وعاقبة الأمر فيها كان الخير هو كنز العقلاء الصالحين، وقد حكم القرآن أن الشر لا قيمة له ولو كثر فقال﴿ **قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ .

وهذه الصفة؛ وهي الرغبة والجد في تحصيل المتضادين من الخير والشر هي صفة الإنسان لما خلق عليه من الحرص، ولما خلق عليه من حب الشهوات، وكشف القرآن عن الحقيقة الإنسانية وما فيها من نوازع له سر قرآني يتعلق بمنهج الله في الشرع والأمر، فإن مناهج البشر المقطوعة عن الوحي وهداه إنما تضع مناهج الحياة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية على جهة شهوة الإنسان وما تكتشفه فيه من رغبات، وحين تتصور صراعاً انسانياً ما كالصراع بين رغبة الفرد ومصلحة الجموع فإنها تنحاز لأحدهما بحسب الدوافع لأصحاب هذه النظريات

والمناهج، فهناك من ينحاز إلى الفرد كالرأسمالية وهناك من ينحاز إلى الجموع كما تزعم الإشتراكية، ولكن أصل هذه المناهج هو أن وضعها يكون عند أصحابها بحسب فهمهم للطبيقية الإنسانية في ضعفها وحاجاتها وشهواتها، وأما القرآن الكريم فهو يكشف حقيقة الإنسان، وفطرته التي فطر عليها، وأصل نوازعه وتركيبه، وفي العموم فإنه يكشف ضعفه وجهله كما قال الله تعالى﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ فالظلم يضاد العمل الصالح والجهل يضاد العلم الصحيح، هذا مع ما لدى الإنسان من فطرة مركب عليها في حاجاته وضروراته، فالله عز وجل في أحكامه لا يوافق هذا الإنسان في تركيبة وأصل خلقه، بل يدعوه إلى مجاهدة هذه الخلقة، لما في تسامي المرء عنها خير له، فالله يقول: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فقال عقبها جل في علاه﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ ،ويقول سبحانه في سورة هود﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ثم استثنى ربنا بقوله﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

على أن منهج التشريع الإلهي مع فطرة الإنسان أن يستجيب لضروراته وحاجاته حتى وهو يأمره في مجاهدتها على وجه الإستحباب حيناً أو على وجه الوجوب إن كان فيها تعدٍ أو ظلم كما قال سبحانه وتعالى﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وقال تعالى﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

والقصد أن حب الإنسان وشهوته ليست معيار القيم، ولا هي ضابط التشريع كما تؤذن بذلك مذاهب البشر، ولا أن الإنسان بوصفه فرداً في صراع مع الإنسان بوصفه جمعاً، بل قيم الشرع مستندها الحب والبغض الإلهي، والصراع إنما هو صراع الإنسان مع نفسه وهواها وشيطانها، ثم صراعه مع الباطل سواء كان فرداً أو جماعة، وعلى هذا فإنه لا يجوز البتة مقارنة بين الوضع الإلهي للشرع وبين الوضع البشري له، لا على جهة المفردة الواحدة، ولا على جهة أصل التشريع، ولذلك فمن الضلال تسمية الإسلام بأي اسم آخر غير ما سماه الله به وهو الإسلام، ومن الضلال الزعم أن شيئاً من الإسلام هو عند الآخرين، كما من الضلال الزعم أن الإسلام جزءاً من مذهب وضعي بشري، إذ مثل هذه الأقوال القصد منها تبرير الشرك باسم التوحيد وتبرير الكفر باسم الإيمان، وهذا أعظم الضلال في الوجود لأنه من القول على الله كذباً وبهتاناً.

ودعاء الإنسان بالشر كما يدعو بالخير لا يعني لزوماً أنه يجهل الشر، بل ربما دعا به مع علمه به أنه شر وذلك كقول الكافرين﴿**ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ ،أو كما يدعو المرء على نفسه بالموت أو بالفقر مع ما يعلم أن هذا من الشر له، وهذا مخالف لما فسر ابن العربي المالكي المعافري حديث النبي صلى الله عليه وسلم:- ((حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره)) فإنه جعل النار بنفسها حجاباً للشهوات، والشهوات محجوبة منها، فهم لا يرون إلا الشهوات، كشبكة الصياد تكون مستورة والجنة فوقها ظاهرة للطير، فالطير يريد الجنّة فيقع في الشبكة قبل وصوله إليها، فهذا حال النار والشهوات، فالناس يرون الشهوات دون النار التي حولها فهم لا يصلون للشهوات إلا باقتحام النار، فإن جاؤوها وقعوا في النار على عكس حال الجنة وهذا على قول((قد حيل بين العير والنَّزوان)) أي وقع الحيلولة، والجمهور على غير هذا التفسير، فهم يقولون إن الله جعل حجاب النار الشهوات فهم لا يرون إلا الحجاب وهي الشهوات فيقتحمونها فإذا اقتحموها دخلوا النار، وأما الجنة فمحجوبة بالمكاره، فهم معرضون عنها مخافة منها فيحرمون الجنة.

لكن يبقى السؤال هل يستجيب الله دعاء المرء على نفسه أو غيره بالشر والله يقول في سورة يونس﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ؟

فالجواب:- لقد جاء في الحديث النهي عن أن يدعو المرء على نفسه وولده بالشر فقال صلى الله عليه وسلم((لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم)) ،وهذا يدل على أن هناك من دعاء المرء بالشر على نفسه وولده وماله يستجاب، فبعض أهل العلم حمله على الإكثار؛ أي إن أكثر الدعاء على نفسه وولده وماله، هذا مع أن الآية لا تنفي الإجابة مطلقاً، بل فيها بيان رحمة الله على عبيده بعدم التعجيل، وذلك لا ينفي واقع الدعاء، حتى لو دعا بالحق والخير، فإن الله سبحانه وتعالى يجيب دعاء الداعي بالحق في الأجل الذي قدره، وبالحكمة التي يعلمها، ولا يقع إجابة الدعاء فوراً إلا إن وافق القدر، وهذا معلوم.

والذي يبدو لي أن من أسرار هذه الآية ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ أن استعجال الخير في غير قدره الذي قدره الله له إنما هو شر، وذلك لربط الأمرين في الآية، أي طلب المرء الشر كطلبه للخير وكونه عجولاً، ومن تأمل قدر الله علم هذا المعنى، فإن الشيء لا يكون حسناً إلا إن أتى في قدره الذي قدره الله له، فإن جاء في غير موعده كان شراً، وذلك كالثمر في غير زمانه، وكالوليد في غير وقته، وهذا يوسف عليه السلام إنما وقع له ما وقع من الخير إنما جاء بعد طول رحلة، ولو وقع له الخير بغير هذه الرحلة وفي غير وقته لما كان على المعنى الذي وعده الله إياه على لسان أبيه بقوله﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ،ومن صحح هذا المعنى في هذه الآية علم توافقها مع الوعد الإلهي الذي تحمله هذه السورة مما تقدم من الآيات السابقة وما سيأتي كذلك من الوعد بالهجرة إلى دار عزة وكرامة، والفتح الأعظم لمكة المكرمة، وهو موافق لحديث خباب عن النهي عن الإستعجال ((ولكنكم تستعجلون)) ،فإن الخير في مرات كثيرة لا يكون بصفته المستقلة فقط، بل لا يكون خيراً إلا في بيئته وظرفه، فإن خلا من وقته الملائم له كان شراً باعتبار الإضافة، وهكذا النصر، فإن الغلبة في وقت وبيئة

لا تلائمها تكون شراً على أهلها، كأن تقع على غير مستحقيها، فيكفرونها كما يكفر الغني الفاجر نعمة الله عليه في وضع المال محله الشرعي، أو قد يكون حالهم غير ملائم لها فتكون عليهم وبالاً وثقالاً فتنقلب إلى هزيمة ماحقة، وذلك كحال الغنائم التي قال الله فيها في سورة الفتح ﴿ **وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ ،فهذه ساقها الله مساق الإنعام على الصحابة بعد قوله ﴿ **وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ ،فإن الغنائم لو جاءت في غير قدرها لكانت شراً عليهم، وهذا من باب نعمة الله على كل حال، سواء كان خيراً ظاهراً أم غير ذلك مما يكره الإنسان، وكم من وقائع ظنها أهلها خيراً لهم لما فيها من زهرة وفرح عاجل فكان أمرها إلى شر على أهلها، فيتمنون أن لم تكن، وكم من حزن ومشقة وقعا على الناس فلما انقضى أمرها كانا على خير ونعمة وفرح، وفي هذا الأمر تعليم لأهل الإسلام في وقت البلاء والشدة، وفي زمن بناء القواعد أن الإستعجال شر، وأن طلب العواقب المفرحة في غير زمانها ليس من الحكمة ولا من العقل، فكم من نصر وتمكين تحقق للمسلمين فما لبث أن علم أهله أنه فوق طاقتهم، وأنه لم يكن إلا صورة ظاهرة بلا قواعد مستقرة تصمد أمام المحن والحوادث، وأن الكثرة التي التحقت بهم ليست إلا غثاء سيل لا حقيقة لها، تفر عند اللقاء وتقبل عند الغنيمة، فهؤلاء شرّ ورهق على الدعاة والعاملين، والجماعة كما المرء إن رتب حياته على وجه من الأحوال فهو مطمئن ومرتاح أكثر ممن ذاق طعم شيء واعتاده ثم سلب منه إذ آلامه تكون شديدة، فالدعاة إلى الله تعالى والمجاهدون هم في خير ما كان واقعهم الذي يعملون فيه ملائم لما هم فيه من القوة، فإن جاءهم حال خادع لهم فاطمأنوا إليه فإن سلبه سيكون شديد عليهم، وسيكون البناء بعد ذلك شاقاً، فإن الضعف ومعاناته لبلوغ القوة والتمكين لا يسمى هزيمة، لكن القوة والغلبة إن سلبتا كان هذا هو هزيمة، والهزائم تقتل الإرادات إن تكررت كما أنها تصيب الناس باليأس والقنوط، ولذلك فما يعطيه الله من التمكين للمجاهدين إنما هو يوافق أحوالهم وقدرتهم، وهذا من تمام النصر والرعاية الإلهية، وهو من الحب والرأفة بهم، فالله عز وجل رحيم بهم ولا يجري لهم إلا ما فيه الخير لهم، وتلك صفة الحق، فإنه يأتي قطرة قطرة، ويمتد بسنن إلهية حتى إذا بلغ مقصده كان ثابتاً، وبهذا المعنى يتحقق معنى النصر الدائم للمؤمنين، فإنهم مع ضعفهم إلا أنهم يقودون ويزدادون، وهذا نصر، فإذا تمّ التمكين لم يسلب على جهة ذهاب الحق وزواله ولكن ليعود كما كان وأقوى.

والقصد أن هذه الآية تبين – إن شاء الله تعالى– أن استعجال الخير في غير أوانه شر، وما يفعل المرء هذا الفعل إلا لأنه عجول لا يصبر للقاء الأقدار في مواعيدها.

وأهل الإسلام من الدعاة والمجاهدين ينبغي لهم في هذا الباب تذكر غيرة الله على دينه، وأنه يغار عليه أكثر من غيرتهم عليه، ولولا أن الله سبحانه وتعالى حكم عدل، وأنه على صراط مستقيم لما سقى كافراً شربة ماء، فكيف يعطيه غلبة وتمكين على المسلمين، لكن يجري الله الأقدار لحكمة هي أجل من رغبة المسلم ومراده، فالمؤمن وإن حزن على فوات التمكين وتأخر النصر حسب مراده، إلا أن عليه أن يعلم أن ما هو عليه من الحال هو الذي يتلاءم مع الحكمة والعدل، وأن وضع الأشياء والوقائع غير مكانها لا عدل فيه ولا حكمة وإن وافق الأمزجة ورغبة النفس، ولذلك فإن من الدعاء المنهي عنه أن يدعو المرء على وجه الجزع في زمن الإبتلاء والمحنة كما يفيد حديث خباب، وهو حديث قد شرحته في جزء خاص والحمد لله، وهذا المعنى في الآية هو الذي يتوافق مع جو السورة وما تقدم من حكمة الإسراء والمعراج بالنسبة للداعي، وهو الذي يتلاءم مع إفادة الآيات السابقة في فتح المسلمين لبلاد الشام ونصر الله لهم على أعتى قوى الأرض في آخر الزمان وليس في أوله فقط.

قوله تعالى﴿ **وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا** ﴾ .

إن من أعظم العبادات التي ينبه الله عباده إلى النظر فيها آية الليل وآية النهار، وهما مع كونها من مادة واحدة هي الزمن إلا أنهما متضادتان، وهذا من أعظم الأدلة على وحدانية الخالق وعلى قدرته، فإن الله يخلق الوجود من مادة واحدة ثم يجعله متنوعاً ومختلفاً، كما أنه لا يخلق شيئاً إلا ويخلق زوجه كما قال تعالى﴿ **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ .

والآيات القرآنية تفيد أن الليل سابق النهار في الوجود لقوله تعالى﴿ **وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ** ﴾ ،فهذه الآية وإن دلت على واقعهما في كل تعاقب إلا أنها تدل على الأولية كذلك، وهذا يتوافق مع عماد الوجود قبل النور، ثم كان النور، ومن تأمل الآيات الجامعة لذكر الليل والنهار رأى أن الليل قبل النهار، وذكرهما في القرآن إنما يقع لمعاني منها التنبيه على قدرة الله تعالى وأنهما آيتان من آيات الله أو يقع ذكرهما لما فيهما من الحكمة كقوله تعالى في

الفرقان﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أو كهذه الآية من الإسراء وكقوله تعالى في القصص﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكقوله في يونس﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

وفي هذه الآية من الإسراء جعل من حكمة هذا التنوع قوله﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ ،فإن الناس من غير هذا الإختلاف لا يعرفون حساب الزمن ولا حساب السنين والأيام، فإن اليوم لا يعرف إلا بليل ونهار، فلو امتد الليل لما عرف اليوم، وكذا إذا امتد النهار، وبعدم معرفة اليوم لا تعرف الشهور ولا السنين، ففي هذه الآية جعل الله عدد السنين بالليل والنهار، وفي سورة يونس جعل الله معرفة الشهور بمنازل القمر فقال سبحانه وتعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ وعلى هذا فإن تقدير الشهور وهي أصل السنين بمنازل القمر أمر قرآني شرعي لا يجوز خلافه، وذلك لما ربط الله بين الشهور القمرية وبين عبادات شرعية كالحج والصيام، ومما يلاحظ أن ما كان زمنه مربوطاً بحركة الشمس كانت العبادات فيه معلقة بهذه الحركات كالصلوات الخمس في الليل والنهار، فإن الليل والنهار أمرها قائم بحركة الشمس، أما ما كان معرفته بالأهلة وهي منازل القمر فإن العبادات تربط بها كقوله تعالى﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ .

والذي في القرآن أن الفلك مدور، وأن كل ما فيه له حركة حتى الأرض، أما أن الفلك مدور فقد جعل ابن حزم وغيره هذا من ضروريات الدين وأعلن على مخالفه بالكفر، وأما أن كل ما فيه فله جريان فلقوله تعالى عن الشمس والقمر﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ،وأما أن الأرض تجري فلقوله تعالى في سورة النمل ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وهذه الآية تصف واقع الجبال

الآن قبل يوم القيامة، لا ما قال بعضهم بأنها تتحدث عن يوم القيامة، فإن هذا غلط على الآية وغلط في فهمها لأمور:-

- فإن الآية تتحدث عن الرؤية – وترى الجبال- والناس يوم القيامة إنما يحشرون على أرض لا جبال فيها لقوله تعالى في سورة طه ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا** ﴾ والقاع هو المستوي من الأرض والصفصف تأكيد له، بل إن الأرض يوم القيامة ﴿**لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا**﴾ فلا وادياً ولا رابية، ولا مكاناً مرتفعاً، ولا مكاناً منخفضاً، وهذا ما فسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي)) قال سهل أو غيره ((ليس فيها معلم لأحد)) ،هذا مع التنبيه أن الأرض مصمته وليست مجوفة، وما جاء في كتاب الله في سورة الطلاق ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ لا يعني تشابه خلق السموات والأرض، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال:- ((يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه)) فدل على أن الأرض مصمته غير مجوفة فناسبها القبض، أما السماء فإنها مبسوطة بسط الثوب فناسب طيها، أما كون الأراضين سبع فقد فسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الغاصب، وأنه ((من غصب شبر أرض طوقه يوم القيامة لسبع أراضين)) فالسموات سبع والأراضين سبع واختلفا في الكيفية، فإن لكل سماء عمارها، ولا عمار للأرض إلا على سطحها لقوله تعالى﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا**﴾ فلا بشر في باطنها إلا الأموات.

- أما الدليل الثاني أن زمن مرور الأرض هو أصل خلقتها إلى قيام الساعة من الآية المتقدمة﴿ **وَتَرَى ٱلْجِبَالَ**﴾ فهو قوله﴿**صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ**﴾ فهذا وصف للصنع المتقن، ويوم القيامة يهدم هذا الصنع ويهد بقدرة الله وحكمته، وقد جاء تشبيه هذا الصنع المتقن بما جرت قدرة الله في اتقان كل شيء ﴿**ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ**﴾ ،فهو وصف لأصل الخلق وجريانه لا لانهداده ودماره، فإن الله وصف أحداث القيامة فذكر خراب السموات والأرض كما تقدم من آية سورة طه في الحديث عن الجبال وكما قال تعالى في سورة

الرحمن﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ وكما قال تعالى في سورة الحاقة﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ ،فهذا حال الأرض يوم القيامة، وهو حال لا يناسب قوله تعالى﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ فالصنعة إنما تطلق على إيجاد الشيء لا على دماره وزواله.

- وكذلك قوله تعالى﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ فإن الناس لا يفعلون يوم القيامة فعلاً يقتضي الحساب، وهذه الآية إنما تساق في القرآن على هذا المعنى، وهو علم الله بفعل العبد الذي يوجب الحساب والمساءلة يوم القيامة، ولذلك ما يذكر يوم القيامة إنما هو حضور الأعمال السابقة وعدم خفائها كقوله تعالى﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ ،وحضور الحساب عليها.

وسبب وهم هذا القائل وأمثاله أن الآية خبر عن يوم القيامة هو وقوعها بعد قوله تعالى﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ ،وهذا القائل ربما لا يعرف أو جهل طريقة القرآن، فإن القرآن ينوع في الذكر على ما تقدم سابقاً وعلى ما ذكر في غير تفسير هذه السورة، ففي هذه السورة؛ أي النمل تنوع الخطاب بين الآيات السننية الجارية وبين الآخرة، ومن تأمل هذا من قوله تعالى﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ثم قال بعدها﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهو خبر عن يوم القيامة.

ولذلك جعل الآيات مقدمة لقوله تعالى﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ ثم ذكر محاورته لمنكري القيامة، ثم عاد بعد آيات متعددة إلى ذكر الآيات السننية الجارية فقال﴿ أَلَمۡ

يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ وكانت الآية بعدها﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ثم كان قوله تعالى﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ فلو تأمل هذا القائل طريقة القرآن في ذكر الآيات السننية الجارية وذكر يوم القيامة لعلم أنها تتداخل، فإلحاق قوله تعالى﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ ﴾ بالدلائل التي تقدمت بالآيات السننية الجارية أولى من إلحاقها بأخبار يوم القيامة، وخاصة أنه قد ذكرت الرؤية في الآيتين من السنن الجارية وذلك في قوله﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ وقوله﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ .

أما استدلال هذا القائل وغيره بعدم حركة الأرض بما جاء في القرآن من استقرارها كقوله في هذه السورة – النمل- ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن جهل هذا القائل بسنن الخلق في الأرض وسنن الحركة هو ما أوقعه في هذا الوهم، والمبتدئ في علم سنن الحركة يعلم كيف يقع الإستقرار في المتحرك بسبب قانون الجاذبية، لكن كما قال السابقون: من تكلم في غير فنه أتى بمثل هذه العجائب، ولو ذكر لهذا القائل كيف يمشي الناس في الطائرة، وكيف يعيش الناس في السفن الكبيرة لعلم كيف لا تمنع حركة الأرض استقرار أهلها عليها.

استراحة: قال قائل كيف تجري الأرض، والطائر في السماء وهو في فضائها ثابت في مكانه في الجو لا يتغير ما تحته، فقال الراد: أعجب لهذا السائل كيف يتعجب لهذا وهو لو قذف قطعة معدنية خلال ركوبه للسيارة أو الطائرة في الجو فإنها تعود لحجره ولا تسقط خلفه.

وأعجب من هذا من أنكر علو الله على خلقه واستهزأ بمثبت هذه الصفة الجليلة لربنا بسبب زعمه أن كروية الأرض تنفي العلو، ذلك لتصوره أن التحت المطلق يؤدي إلى العلو، فمن أشار بيده إلى أسفل قدمه، فإن إشارته ستلتقي في النهاية مع إشارة من أشار إلى العلو في الجهة المقابلة من الأرض.

والحق أن مثل هذا القول جهل بالخلق وسننه كما هو جهل سابقه، ولو سكت من لا يعلم عما لا يعلم لذهب خطأ كثير من الوجود كما قال السابقون، وهذا المعترض على علو الله تعالى يجهل معنى العلو المطلق، كما يجهل

أن الفلك مدور، ويجهل في أنه لو تصور أنه لو أراد النزول إلى جوف الأرض فإنه لا يزال يسمى نازلاً حتى إذا وصل إلى المركز فتقدم بعده فإن تقدمه يسمى صعوداً ويكون هذا الصعود ارتفاعاً للأعلى سواء رجع القهقرى أو تقدم للإمام، ولا يكون نازلاً، ثم وهو في هذا المركز تماماً فإن أي إشارة يشير بها فوق رأسه إنما تشير للعلو وتلتقي مع كل إشارة يشير بها القائم على سطح الأرض إلى العلو، ولا يمكن أن تشابه أي إشارة يشير بها قائم فوق السطح إلى الأسفل بل تضادها، وهذا يعرفه من تأمله بسهولة لكن شهوة الرد على المخالف هي التي تمنع المرء من الفكر حتى فيما هو بدهي في العقول، وحال هؤلاء كحال من جعل المرأة أدنى خلقة من الرجل لأن عدد أسنانها أقل من عدد أسنان الرجل ولم يكلف أحدهم أن يعد أسنانه وأسنان زوجته، وعلى كل فإن إثبات مسألة كونية لا يكون بالنص الشرعي، لأن القرآن والسنة ليسا لهذا الأمر، ثم إنه لا يمكن معارضة مسألة كونية بالنص الشرعي، كما لا يمكن أن يكون العكس، ولكن فصّلت هذا بالنص للرد على أمر منتشر من البعض وتكلموا فيه بغير علم.

فائدة:- يقول الله تعالى في سورة التكوير﴿ **وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ** ﴾ ويقول في سورة المرسلات﴿ **وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ**﴾ فمن احتج بالآية في سورة التكوير على أن مرور الجبال في سورة النمل هو يوم القيامة، فإنه لابدّ أن يفوته ما في سورة المرسلات، والحق أن معناهما واحد، فإن تسيير الجبال يوم القيامة هو زوالها عن مكانها بما ذكر الله من نسفها في سورة المرسلات، وبما تقدم من سورة طه، وهذا الذي عليه أهل التفسير لا غير.

ثمّ إن هذه الآية من سورة التكوير ترد بجلاء على القائلين أن المرور المذكور في سورة النمل يوم القيامة، لأن الجبال حين تسير من مكانها أي تزول وتنسف فمن رآها يومذاك فلن يقع عليه قوله تعالى﴿ **تَحْسَبُهَا جَامِدَةً**﴾ بل لو وقع عليها نظر فنظر لرآها زائلة عن مكانها بما وقع لها من نسف ولا يراها جامدة والآية في سورة ﴿**عَمَّ**﴾ من قوله تعالى﴿ **وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا** ﴾ جامعة لآيتي المرسلات والتكوير وهي بينة على المراد الذي تقدم. فلا يطمئن هذا المستدل بما في التكوير فإنها بنصها لا توافقه، وبغيرها ترده، وتبقى آية سورة النمل بينة على المراد وأن الجبال تمر حال الصنعة لا حال النسف والإذهاب. والقول في آية سورة التكوير هو القول في

آية سورة الطور في قوله تعالى﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ وكذلك الآية في سورة الكهف من قوله تعالى﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

قوله﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ يعني أن المحو نقيض الإبصار ومقابله، وذلك بعدم وجود الضوء فيه كما قال تعالى﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾

والضياء نور الشمس كما قال تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ ،وبقاء آية النهار مبصرة بضوء الشمس يحقق ما قاله تعالى﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي في معاشكم وأعمالكم، مع أن الشمس ليس للضوء فقط وتحصيل الإبصار، بل هي للطاقة كذلك، وبها يحصل تحقيق الحياة للبشر كالماء.

وأما الليل فكما قال تعالى﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وقال سبحانه عن الليل والنهار﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ فكما أن اللباس يستر بدن الإنسان ويمنعه من كشف عورته فكذلك الليل فإن المرء يستتر فيه ويمنع ظهور عورته كما قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ فالليل يستر المرء ويستر عمله كما أنه يستر حاجاته التي يستحي منها.

والتفريق بين الليل بتسمية فعل الله فيه محواً وبين النهار وتسمية فعل الله جعلاً يدلك على أن المنع وإن كان فعلاً، وأن الترك كما يقول عامة الأصوليين عملاً، فإن هذا يفيد أن ما يسمى شراً في الوجود إنما هو في حقيقته يكون بالمنع، فالليل يعني منعه من الشمس، كما أن الباطل يعني فراغه من الحق، وهذا المعنى في تنوع الخلق يفيدك فيما يأتي من هذه السورة –الإسراء- حين قوله ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فإن الباطل إنما يكون بعدم وجود الحق، فإن جاء الحق لم يكن للباطل وجود، كالليل إنما معناه غياب الشمس فإن ذهبت الشمس كان الليل، فالصراع في حقيقته بين وجود وغياب، لا بين وجود ووجود، فالحق إنما يضره أن يغيب هو لا وجود الباطل، وإن تأملت هذا المعنى علمت معنى أن يخلق الإنسان على الفطرة فيغيرها أبوه وأمه إلى الباطل،

فالأصل هو الحق لأنه الوجود الحقيقي، وأما الشر والظلمة وإن كانا وجوديين إلا أنهما وجوديان بالسلب لا بالإيجاب، ولذلك فالله يقول﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ .

والحق إنما يغيب بغياب معالمه كاندراسه أو بقلة أهله أو ذهابهم كما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نزع العلم من الأرض بموت أهله، فإن فقهت هذا المعنى علمت مناسبة هذه الآية لما تقدم من قوله﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ وبين هذه الآيات وبين بشارات القرآن في مكة لأهله، كما أن قوله تعالى﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾ يناسب الرد على المتعجلين، فإن السنن إنما تجري بمواقيتها وأقدارها، فكما أن الليل والنهار لا يسبق أحدهما الآخر، وقد فصل أمرهما على وجه سنني لا يتخلف فكذلك الأقدار التاريخية إنما تجري على وجه سنني فلا تتقدم ولا تتأخر، وحال طالب الإستعجال للبشائر كحال طالب النهار والليل قبل موعدهما سواءً بسواء، والداعي إلى الله والعامل لدينه من مجاهد ورد، إنما يسعيان لإظهار الحق ونصره، ولا يكون حال الحق في الوجود إلا بحسب ملاءمة أهله له وملاءمة الوجود كله له.

وقوله تعالى﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾ أي كل شيء مقدر ومحكم، وهو كقوله تعالى في سورة القمر﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ وكقوله تعالى في سورة الرحمن﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ .

وهذا التفصيل في القدر في عدم خلط الحقائق هو الذي يحقق مقصد وجود الشيء، فإن الفصل بين الليل والنهار في معناهما ووجودهما هو الذي يحقق حكمة وجودهما في معرفة السنين والحساب، وهذا المعنى يتوافق مع الآيات التالية التي تتحدث عن حال الناس مع الحق وافتراقهما، كما يتوافق مع ما تقدم من قوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ فإن الوجود لا تقوم مقاصده بالخلط بين المعاني المتضادة، ولا بعدم وضوح كل معنى عن غيره، بل إنما تقع مقاصد الوجود بتميز الحقائق عن أضدادهما، وبوضع كل اسم على حقيقته، وبإجراء كل حقيقة على الوجه الذي وضعت له، وهذه هي هداية القرآن كما تقدم، فالتفصيل؛ أي فرز الأسماء ومعانيها وحقائقها مقصد قرآني، ومن خصائص القرآن أنه يفصل في صفات الأشياء الثبوتية ويوجز في ما هو سلبي، فالإثبات هو الذي يحقق معنى الشيء وأما النفي فضعيف إلا إذا تضمن مدحاً، وهذا

عام في كتاب الله، فالله سبحانه وتعالى يفصل في إثبات صفاته ويوجز في النفي، وكذلك يفصل في النعم الثبوتية، واقرأ إن شئت آيات سورة النحل في النعم من أولها إلى خاتمتها، وآيات سورة النمل من قوله﴿ **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ إلى خاتمتها، وآيات سورة الروم من قوله﴿ **فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾ إلى خاتمتها، فالإثبات هو الذي يحقق معاني الإعمال والصفات والأشياء، وهذا كذلك في الأحكام، فإن صفة الإيمان في القرآن لا تجدها إلا مع اثبات أعماله مع القليل من النفي، واقرأ إن شئت فاتحة الأنفال إلى قوله﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ وخواتيم سورة الحج من قوله ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟** ﴾.

وكذلك خواتيم سورة الفرقان من قوله﴿ **وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا** ﴾ وأما النفي فقليل إلا إذا تضمن مدحاً كقوله﴿**وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾ .

ومن فهم هذا علم أن ترك التفصيل بترك التفريق بين الخلق والأعمال أو بعدم تسمية الأمور بأسمائها التي سماها الله بها والتي لها أحكامها التي وضعها الشارع لها هو جهل وانحراف عن طريق القرآن، ومن ذلك هذا الشعار المحدث الذي وضعه أصحابه هروباً من التكاليف الشرعية أو جهلاً بطرق الحكم الشرعي على الخلق والأعمال؛ أعني شعار((دعاة لا قضاة)) مع أنهم يسمّون أشياء متعددة باسمها، لكن لما تكون بعض الأسماء تحمل حكماً وتكليفاً يخالف مناهجهم المحدثة فإنهم يتخفون وراء هذا الشعار.

وهذا الشعار لا يقصد أصحابه من كلمة ((قضاة)) معناها الإصطلاحي بل يقصدون الحكم الشرعي على الأشياء والأعمال والأشخاص، وهذا الترك لواقع الحكم –الذي يسمّونه قضاءً– لا يكون له سبب إلا الجهل بطرق الحكم الشرعي، أو جبناً منه لما يترتب عليه من ابتلاء وفتنة، وكأن أهله يريدون للمسلمين دوماً بلا علم يهديهم للحكم الشرعي ولا سعياً لإدراك واقعهم، وهم يستبدلون ألفاظ الحكم الشرعي بألفاظ أخرى مائعة لا توجب عملاً ولا موقفاً ولا جهاداً، ولو كانت هذه طريقة القرآن وهدايته لرسوله صلى الله عليه

وسلم وأصحابه لكتموا قول الله تعالى﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ولكتموا قوله تعالى﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ولكتموا قوله﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وكلمة الكفر في هذه الآية الواحدة لو نطقها داعٍ إلى الله في موطن بعددها لقال له أصحاب هذا المنهج: نحن ليس من منهجنا الإكثار من كلمة التكفير.

ورفع هذه الشعارات المحدثة واتخاذها ديناً يعمل به وسريانها بين الناس دون عرضها على كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل أهلها على سنن السابقين من أهل البدع في تقرير القواعد العقلية وجعلها يقيناً يصار إليه، والعجب أن مثل هذه الشعارات هي مجرد أقوال لأناس قيلت في ظرف الرد على مخالف، وخلقة لسان فاستحسن الناس بناءها ولفظها فصاروا يرددونها على معنى الآية والحديث تماماً، فليتق الله دعاة العودة للكتاب والسنة من هذه الشعارات التي يجعلونها حاكمة على الكتاب والسنة، مع كونها معرفة للمسلمين، فإن في الكتاب والسنة الغناء، وفيهما ما يحقق الخير والهدى.

والقصد أن التفصيل بالإثبات هو دين الله تعالى وهو منهج القرآني، وأما العمومات التي تبطل الأحكام والمواقف فهي مناهج بدعية جديدة والله الموفق.

قوله تعالى﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾

طائره؛ أي عمله الذي قدره الله له، وأظن أن سبب هذه التسمية إنما هو لارتباط هذا المعنى بالطيرة، ذلك لأن المتطير يتبع طائره إن تشاءم أو تيامن، فيكون عمله اختيار طيره، وهذا الحال وإن كان منهياً عنه لكنه صار وصفاً للعمل، كتسمية حسن البيان سحراً كما قال صلى الله عليه وسلم((إن من البيان لسحراً))، ذلك كأنّ طائر المرء في الحقيقة ليس هو الطير الذي يرميه فيتشاءم أو يتيامن بل هو ما قدره الله له من العمل، فهو تابع له كما قال صلى الله عليه وسلم ((ولكن اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) ،فهذه الآية تبين حال العمل قبل حدوثه وكذلك بعد حدوثه، أما أنه قبل حدوثه فهو قدر الله الذي كتبه الله له وعليه، وأما بعد حدوثه فهو كتابه الذي

يحاسب عليه يوم القيامة، وهذا الذي قلته عن معنى الطائر واشتقاقه لا أدري أسبقت إليه أم لا فإن كان حقاً فمن الله وإن كان غير ذلك فمن نفسي وأستغفر الله.

فالله تعالى بعد أن ذكر ظرف الوجود الإنساني وأنه ليل ونهار وبين حالها في الإفتراق وفائدة تنوعهما فإنه ذكر بعد ذلك الإنسان وعمله من جهتين؛ من جهة القدر السابق ومن جهة الحساب، فهي آيات تستوعب حال الوجود وقدر الإنسان في مبتداه ومنتهاه.

وذكر قدر الإنسان الذي لا يخرج عنه﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ رد على دعاء المرء بالشر كدعائه بالخير، فالأقدار تأتي في موعدها المكتوب قبل خلق السموات والأرض كما قال تعالى﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ وقوله﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ .

وقوله تعالى﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ دليل على ما تقدم من معنى الطائر، لأن ما يوضع في العنق إنما يقاد به، فيسير بسيره وهكذا أمر القدر فإن المرء يتبعه ولا يخطؤه.

وقوله تعالى﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ دليل على أن عمل الإنسان مكتوب في كتاب، وذلك بالملائكة الملازمين له كما قال تعالى﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ ولقوله تعالى﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وقوله تعالى﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ،فما تكتبه الملائكة من عمل ينشر له، وهناك كتب غير كتاب المرء الذي تكتبه الملائكة الحفظة، ومن ذلك ما تكتبه الملائكة يوم الجمعة في الساعات الأولى وحضور الناس فيها كما في الحديث الذي في الصحيح وكذلك حديث البطاقة، وهذه كلها تدل على شهادة الملائكة لما يعمل الإنسان من عمل، وهذا الكتاب حقيقي وينشر يوم القيامة كما في هذه الآية، ويطلب من الإنسان أن يقرأه بنفسه.

وكتابه هذا هو غير شهادة بدنه عليه كما قال تعالى﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟

أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

وكتاب المرء يتلقاه بيمينه أو بشماله بحسب عمله كما قال تعالى﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾** .

أما قوله﴿ **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ أي حاكماً، فإن المرء إن رأى عمله الذي عمله، وتذكره ولم ينكر منه شيئاً علم بنفسه حكمه يومذاك، وأين سيكون مستقره، فهو محاسب لنفسه حاكم عليها.

قوله تعالى﴿ **مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾

إن تأملت موضع هذه الآية بعد ذكر خبر القيامة وتوزيع الكتب علمت ما قدمته لك من أن الآية في سورة النمل﴿ **وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾ هي عن الحال اليوم وليس عن يوم القيامة حتى لو سبقتها الآية بذكر يوم القيامة، فأنت ترى كيف كان الحديث عن خبر الكتب وصحائف الناس يوم القيامة ثم جاءت هذه الآية بالحديث عن موقف الإنسان في الدنيا.

وقوله تعالى﴿ **مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ هو لبيان جزاء المرء في موقفه من القرآن الذي تقدم ذكره﴿ **إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ** ﴾ فالمهتدي لا يمن على الله بهذه الهداية، بل الله يمن عليه أن هداه للإيمان كما قال تعالى﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ** ﴾ والله عز وجل غني عن العالمين كما قال تعالى﴿ **وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ .

نعم إن الله ليفرح لطاعة الطائع، ويعجب له، كما يفرح لتوبة التائب، كما أنه يغار ويغضب أن تنتهك حرماته وتعصى أوامره، لكن هذا ليس لفضل يقع من الإنسان على ربه، بل الله غني عن العالمين.

وهذه الآية عنوان يجعله الله على لسان الأنبياء، وهو على لسان الدعاة إلى الله، فهم يرغبون الناس بالحق من أجل مصالحهم لا من أجل حاجة الدين لهم، ولا من أجل فقر الله لطاعتهم، بل الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي((لو أن أولكم وآخركم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك في ملك الله شيئاً)).

فالدين ليس عرضاً دنيوياً يزيد ثمنه عند إقبال الناس عليه، ويقل عند زهد الناس به، بل هو الحق الذي يحتاجون إليه في دنياهم ومعادهم وهذا المعنى هو الذي علمه الله لأنبيائه فنهاهم عن الجزع بإدبار الناس عنهم كما قال تعالى﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ**﴾ وكما قال تعالى﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ ،وهذا النهي ليس مثل قوله تعالى﴿ **يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ فإنها ليست حسرة الرب ولا حسرة الأنبياء ولكن حسرة العصاة بما سيصيبهم من عذاب الله تعالى.

والله عز وجل هو الصبور، فإن ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة ما يقارب خمسمئة سنة، ولما بعث رسولنا صلى الله عليه وسلم قال عن أهل زمن السابقين على بعثته((إن الله مقت عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب)) ،وعبدت الأصنام في أطهر مكان في الأرض؛ في بيته المحرم مع دعوة بانيه الأول ابراهيم عليه السلام﴿**وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ** ﴾ ،إلا أن هذا لم يغير حقائق الأحكام شيئاً، فبقي اسم الكفر والكافرين يطلق على أصحابه، وبقي اسم الإيمان والمؤمنين يطلق على أصحابه، ولم يقع التنازل عن حقوق هذين الاسمين كما يريد بعضهم في زماننا أن يفعل، وكأن دين الله وأحكامه عرضة لقوانين البضائع والتجارات في العرض والطلب، وهذا البناء النفسي والعلمي مهم للداعي والمجاهد، فإنه لا يجوز له أن يحول قضية الحق إلى قضية شخصية، ولا يقبل بأن يعيّر بالإخفاق في هداية الخلق وتحقيق غلبة الدين على وجه يريده الجاهليون منه كما يعيّر الخاسر في التجارة والصفقات، ولذلك يقول الله له﴿ **فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا**

يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ويذكره بردود الأقوام السابقين على أنبيائهم كما قال تعالى﴿ **مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾ وقال تعالى﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ**﴾ وهذا الكلام الإلهي بقوله﴿**جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ**﴾ رد على وساوس الشيطان أن سبب الإعراض هو ضعف الأدلة أو ضعف الداعي في البيان والحجة، ولذلك قال تعالى﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ فإن الداعي والعامل لدين الله قد يقع في قلبه الحزن بما يقع من اتهامه في خلقه، أو اتهامه في مقصده كما قال قوم فرعون لموسى﴿ **قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ ،فرد الله هذا في كتابه، وأعلم أنبياءه وأتباعهم أن المنكرين إنما ينكرون الحق، ويعرضون عنه لكراهتهم به، وإنما هم يتخفون وراء هذه الكراهية باتهام شخص الداعي في مقصده، أو اتهامه في قدراته﴿ **أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ أو اتهامه في أتباعه﴿ **وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ** ﴾ أو تهامه بتاريخه﴿**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ ،والقرآن يأمر أتباعه بعدم الوقوف مع هذه الدعاوى والإتهامات وتوجيه القضية فقط لأمر واحد وهو الدعوة والحق الذي تحمله، فإن حصل الإعراض فهو لعدم استحقاق هؤلاء لهذه القيم ولعدم هداية الله لهم بميزان عدله وحكمته كما قال تعالى﴿**ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾ . بل في هذه السورة؛ أي الأنعام، جاء التحذير من سيطرة الحزن والألم على قلب الداعي بعدم وصول الهداية للناس لإعراضهم فقال سبحانه﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ .

وهذا الفقه النفسي والعلمي يجب مصاحبته في كل حادث لم يدرك به أصحابه من الدعاة والمجاهدين مقصدهم، فلا يجوز لهم التحسر والتألم على فواته، بل هي الأقدار وواقع المقابل لها من نفوس الخلق وأقدار الوجود وسننه، وقد شرحت هذا في شرح حديث النهي عن لو وأنها تفتح باب الشيطان بحمد الله تعالى.

فهذه التجارة الربانية التي يدعو الله الخلق إليها عنوانها هذه الآية وأشباهها كقوله تعالى﴿ **إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ ،يرفعها الداعي والمجاهد من غير غرور ومن غير كبر لكن ليعلم الناظر عظم بضاعة هذه التجارة وثراءها وحاجته إليها.

وهذا الفقه القرآني هو ما يرسخ الثبات على الإتباع وترك الإبتداع، وهذا ما قاله القرآن في الموطن المتقدم من سورة الأنعام فإنه أمره بالإتباع والإعراض عن المشركين وقد جعل عاقبة الصبر على الإتباع قوله﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ .

فهذا الدين عزيز لا يبذل للناس بذل الهوان، ولا يعرض عليهم كما يعرض أصحاب الجهالات زبالاتهم، ولو تفكر أهل هذا العصر في هذا المعنى لترفعوا عما يفعلون من عرضه في سوق النخاسات الشركية، ولمنعوه من أن يقبل على معنى الإختلاط والمشاركة لكفر العقول وأهوائها.

وهذا المعنى من هذه الآية يشاركه معنى آخر يشرحه تماماً في قوله﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ ،فإن المهتدي وإن كان يبلغ الهدى بدعوة أهل الحق له، إلا أن هداه في خاتمة الأمر له، وكذلك الضال، فإنه قد يضل بدعوة غيره، أو بسبب استضعافه أمام بطش وكبر ضال مستكبر إلا أن هذا لا يمنع إلحاق الضلال به، بل هو منسوب إليه ومحاسب عليه، ولا عذر له في هذا الباب، وقد شرح هذا المعنى في موطن آخر.

فقوله﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ قد تكون استئنافاً لمعنى جديد، وقد تكون تفسيراً لقوله﴿ **مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ وإن كان كونها استئنافاً هو الأقوى لأن التأسيس أولى من التأكيد كما هو معروف في علم التفسير، ثم إن الآية فيها حكم مستأنف آخر وهو قوله﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾ فهذه أحكام ثلاثة في هذه الآية كما هو بين.

وقوله تعالى﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ هي من العدل الإلهي، فإن المرء لا يحاسب على فعل غيره إلا أن يكون سببه أو ردءاً له أو متمنياً إتيان فعله أو محباً للفعل، وهذه حقيقتها من وزره فيكون إثمه عليه، وشريعة

الله في هذه الدنيا وفي الآخرة تقوم على هذا المعنى وهذا الحكم، بل إن هذا الحكم قد سبق في الأمم السابقة كما قال تعالى﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ ولأن هذا من العدل في الوجود فهو من الأحكام التي لا تزول ولا تتغير.

وهذه القواعد الثلاث متضمنة أمر المشيئة الإنسانية، وأنها حقيقة تنبعث من الإنسان على وجه الإستقلال دون سوق من إرادة أخرى، ولذلك هو صاحب الإختيار للحال الذي يسلكه من هداية وضلال، ولا يجوز له أن يحمل اختياره على غيره، بل هو مسؤول عنه، كما أن فيها أن الإرادة لا تكون مسؤولة إلا بعلم الوحي الذي يقرر أحكام الأشياء، ولذلك لا يعذب الإنسان باختياره إلا بعد مجيء الرسل بالأحكام، وهذا بين في القرآن كقوله تعالى﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ فجعل شرط إلحاق الحكم بالفعل تبين الهدى، فإلحاق الحكم بالضلال لا يكون إلا ببعثة الرسل، وأما قبل البلاغ فإن المرء غير محاسب على أعماله، مع أن حقائق الهدى والضلال تحمل أسماءها قبل ورود الشرع، فالحق له حقيقة كما الضلال له حقيقة قبل ورود الشرع، ويمكن إدراكها قبل ورود الشرع بفطر البشر وتمييز عقولهم، لكن لحوق الإثم لا يكون إلا بالشرع وبعثة الرسل، وهذا الأمر رد على من زعم أن الأحكام الشرعية هي التي تنشيء حقائق الاشياء، ورد على من جعل الإثم بأحكام الفطرة وتقريراتها، وكلا القولين خطأ؛ أما الأول فخطأ على القدر وأما الثاني فخطأ على الشرع.

ومن فقه قوله تعالى﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أنه لا يجوز أن يعذب أهل الإسلام قوماً إلا بعد بلوغ الحجة، ولا يحل من دمائهم وأموالهم شيئاً إلا بعد البيان، وأما قبل ذلك فإنهم وإن سموا كفرة ومشركين فلا يجوز تعذيبهم بالقتل والقتال، ولا استحلال أموالهم وسبيهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وإقامة الحجة له فقه في الشرع، وتختلف باختلاف الناس، فالطائفة الممكنة الممتنعة إنما تكون الحجة بالبلاغ العام، وبإيصال هذا البلاغ إلى أئمتهم وقادتهم كما فعل موسى عليه السلام مع فرعون، وكما كان يرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى قادة البلاد والطوائف والقبائل، فيكون بلاغ قادتهم بلاغاً لكل واحدة فيهم وسيأتي

دليل ذلك في الآية التالية إن شاء الله تعالى، وأما من كان مقدوراً عليه فيعمل فيه قوله تعالى﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ**﴾ فيبلغ هذا بلاغاً خاصاً ويعرض عليه الإسلام ثم يولى ما تولى، وهذا الفقه إنما هو في جهاد الدعوة أما جهاد الدفع فلا شرط له، بل يقاتل ويقتل كل صائل ليدفع شره عن المسلمين، وحال المسلمين اليوم هو جهاد الدفع الذي لا يشترط له شروط جهاد الدعوة المبسوطة في كتب الفقه ويلزم بها مشايخ العصر شباب المسلمين في جهادهم لدفع عدوهم، كشرط الإمام أو نبذ العهد إلى المعاهدين مع أن النبذ إنما يكون لمن التزمه ولا يكون لمن انتقضه، على ما في العهود المزعومة اليوم من شروط باطلة تعود على أصل العهد بالإبطال، وعامة المتحدثين اليوم عن شروط الجهاد إلا من رحم ربي هم في بعد عن النظر إلى قوله تعالى﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ**﴾ ذلك لأن جهاد المسلمين اليوم من نوع دفع الصائل الذي يفسد الدين والدنيا، ويسرق الثروات ويبث الجواسيس، وينصب ولاة الردة على بلاد المسلمين، وهم خلل البلاد والعباد ومع ذلك فإن بعضهم يشترط تمايز الصفوف أو يشترك وجود الإسلام مع أن الجهاد إنما هو لدفع الصائل الذي حوّل دار الإسلام إلى دار كفر، ولذلك فالواجب اليوم النظر إلى أصل وجود الأحكام الغالبة، وليس النظر إلى صورة الحكم فقط، فإن أصل الشيء هو الذي يقرر الحكم لا صورته، فإن الصورة قد تختلف بالأحوال، لكن الأصل ومبدأه يبين لك حقيقة الحال.

وأنا أعطيك مثالاً لهذا فإن شرع الجاهلية المعاصر يفرق في القتال بين من حمل السلاح وبين غيره، فيسمون الأول محارباً، والثاني يسمونه مدنياً، فيجيزون قتال الأول ويمنعون التعرض للثاني على أي وجه كان، وذلك لأن القتال عند هؤلاء إنما ينشأ لأصل لا علاقة له بدين المرء ومعتقده، وفي دين الله فإن النسبة للدار لا للحال، فيقال عن رجل أنه حربي نسبة للدار التي تسمى دار الحرب وهي دار الكفر التي لا عهد بينها وبين المسلمين، ويكون الرجل معاهداً للدار، أي من كان بيننا وبينهم ميثاق، وعلى هذا فإن الصحابة غنموا الديار والأموال بعد فتح الديار دون تفريق بين من حمل السلاح وغيره، بل باعتبار حال الدار التي فتحت؛ أي دار الحرب، وسبب هذا أن الجهاد في الإسلام إنما هو على أساس الدين؛ فلا يمكن لمسلم أن يكون محارباً، حتى لو حمل السلاح ضد دار الإسلام لمعنى من المعاني كالبغي، فإنه وإن قوتل رداً لبغيه إلا أنه لا يجوز سلب ماله ولا

أهله ولا جعله رقيقاً، وهذا الفقه وإن خجل منه المعاصرون لانتشار مذاهب الباطل التي تحسن القتال من أجل المال والعشيرة والدولة القومية، وتجعل الدين شأناً خاصاً للإنسان ولا يجوز أن تبنى الدولة على وفقه ومقاصده، وهذا الضلال المنتشر اليوم هو أحد امتحانات الله لعبيده والدعاة إليه والمجاهدين في سبيله، فإن استجابوا لفتنة الشيطان وجنده فيصح فيهم قوله تعالى﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ وهذا من البعض الذي حذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم من متابعة المشركين عليه كما قال سبحانه﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

وإنه من سبل المشركين هو الإستهزاء بالحق حتى يخجل منه أهله فيتبرؤون منه، وذلك كإنكارهم أن يكون الجهاد في سبيل الله يعني بناء الدولة على أساس الدين، وأن يفترق المتقاتلون على أساس الدين كما قال تعالى﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ فيستجيب ضعاف الدين والعلم لهم فيحصل غلبة أهل الباطل على المسلمين، ذلك أنه ما من حق في كتاب الله إلا وهو ركن قوة لهم، فإن تركوه ذهبت قوتهم وصاروا تحت ولاية الشر والشيطان في هذا الباب، والواقع يشهد لهذا، فإن من أسباب تأخر النصر وغلبة المشركين على المسلمين إنما هو لاشتراكهما في المعاني الباطلة التي يدعون إليها، فذهب عامل النصر الذي يحقق غلبة القلة على الكثرة، وهو عامل الإيمان واتباع الحق، ودخل المسلمون في خطة الخصم وسبيل المجرمين فلم يعد لهم تميز في الحق والهدى.

والقصد أن جهاد المسلمين اليوم يضع له بعضهم شروطاً ما أنزل الله بها من سلطان، وهذه الشروط يراد منها إبطال الجهاد، والمقاصد والمآلات تبين حقيقة الحكم إن كان حقاً أو باطلاً، فمن وضع شروطاً لإبطال الزواج الشرعي فإن شروطه باطله، لإبطالها حقاً شرعياً، ولأن مآلات هذه الشروط عند واضعيها تسوية الزواج بالزنا، فتصير شروطهم في إبطال الزواج سبيلاً للزنا، وهذا الفن الشيطاني يمارس اليوم في أغلب سبل الفقه التي تتعلق بحياة المسلمين، كقولهم حل الربا، فإن زعم بعضهم أن الحلال ممتنع اليوم هو الذي يؤدي بهم إلى فتح باب الحرام زعماً منهم أنه ضرورة، وهذا الحال هو شبيه بما نبه عليه العلماء حين زعم بعض المتصوفة خلو البلاد من الحلال فأدى بهم إلى أكل الحرام كأكل قاذورات الناس وزبالاتهم، وحال هؤلاء اليوم

في وضع شروط باطلة لجهاد الدفع أدى بهم إلى موالاة الكافرين والدخول في أعمال المرتدين، فهم حين يزعمون شرط الإمام مثلاً فإنهم في حالهم هم أخلص الناس لحكام الردة، وهم صفوهم وأهل سرهم، وتجد من اشترط التمايز يجعل هجرة المسلمين لأرض الجهاد ضرباً من الجنون وقتل النفس، كذلك تجد من اشترط نبذ العهد قبل قتال الصائل من أكثر الناس فتحاً لباب العقود الباطلة وقبول الشروط الفاسدة في العقود مع هذه الدول، فهم في تشددهم المزعوم مع سبيل إقامة الدين هم أكثر الناس تساهلاً وترخصاً مع الحرام والمكروه تحت باب الحاجة والمصلحة، وبهذا تعلم أن الأمر ليس أمر دين وتقوى، إنما هو الدفاع عن الباطل ومنع راية الجهاد أن تقوم.

ومن الباطل الذي يجب كشفه من هدي هذه الآية – وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً– على المعنى الشرعي الذي تقدم في معنى البلاغ، والتفريق بين الطائفة الممتنعة وبين المقدور عليه أن بعضهم يرى أن كسب الأنصار في هذه الطوائف هو ما يحقق النصر للمسلمين في رد بغي وظلم الصائلين من مقاتليهم على بلاد المسلمين، وحين يقارن هؤلاء بين فعل المجاهدين في تحقيق الدفع والنصر وبين كسب الأنصار وتعاطفهم فإنهم يرون أن كسب الأنصار وتعاطفهم أولى من جهاد المجاهدين، ولذلك تجد من صراخهم الدعوة لإيقاف جهاد المجاهدين لأن جهادهم على وفق الحكم الشرعي في عدم التفريق في القتل والقتال بين من حمل السلاح وغيره يؤدي إلى خسارة تعاطف هذه المجموعات، وهذا الأمر هو أعظم حجج الناس اليوم، وهو من تلبيس إبليس بلا شك، فإن المسلم لا يترك الحق الذي يعتقده لرغبة محب له أو متعاطف معه، كما أنه لا يترك الحق لكراهة مبغض له ولا محارب له سواءً بسواء، كما أن الذي يحقق النصر ليس هذه الطوائف المتعاطفة والتي هي أشد تعاطفاً مع مصالح قومها حين تتعارض مع مصلحة الجهاد والمسلمين، بل الذي يحقق النصر هو أهل الحق وسلوكهم الحكم الشرعي والثبات عليه، وهؤلاء وإن كانوا أحسن حالاً من غيرهم الذين يعادون حقوق المسلمين، لكن تعاطفهم لا يحقق النصر للإسلام وأهله، وهم وإن حزنت قلوبهم لموت المسلمين ووقوع الظلم عليهم، لكنهم لا يرضون غلبة المسلمين على بلادهم ولا على مصالح بلادهم، لكن هذا المعنى عند بعضهم سببه الهوان الذي أصاب المسلمين حتى صاروا يظنون أن الذي يحقق

لهم مصالحهم في دفع الشر عنهم هو غيرهم لا هم، فبدل أن يعملوا للحق فيقفوا أمام الباطل صار عامة جهدهم كسب تعاطف البعض حتى على حساب الحق وجهاده وجهاد أهله.

ومن فقه هذه الآية﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أن العذاب القدري والعذاب الشرعي إنما مناطها حكم الشرع وهدي الأنبياء، فلا يجوز عقوبة أحد ولا المعونة على عقوبته إلا أن يخالف أمراً شرعياً جاء الرسول به، ولا يطاع أحد في الوجود إلا إن أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فإن أمر بمنكر أو نهى عن معروف فلا طاعة له، كذلك من أمر بأمر من غير استناد سلطته للشرع فلا طاعة له، فلا يطاع المشرك ولو أمر بأمر غير محرم، فسلطة المرتد والمشرك على المسلم باطلة، وولايته غير صحيحة، وأما الوالدان المشركان فقد أمر الشارع بالإحسان إليهما مع عدم طاعتهما في المعصية، وأما إن أمرا بأمر فيه مصلحتهما دون وجود معصية فيطاعا لحقهما على الأبناء، أما هؤلاء الذين يأمرون المسلمين بطاعة عموم الولاة والسلاطين والحكام دون النظر إلى دينهم فهم مبطلون جاهلون، وأجهل منهم من رأى أن عقد الولاية على هذه الصفة عقد صحيح ولا يجوز نقضه إلا بخروج المسلم من أرض هذا الوالي أو الحاكم أو السلطان، أو إعلانه رد عقد الولاية، مع أن هذه الولاية بأصلها باطل، وفرق بين العقود التي أصلها البطلان وبين العقود الصحيحة التي يلحقها الشرط الباطل أو الفاسد، فعقد الربا لا يصحح لأنه عقد باطل بأصله، وكذا عقد الزنا، أما عقد البيع فهو عقد صحيح قد يلحقه شرط باطل فيمضي أصل العقد مع رد الشرط الباطل كما هو معلوم في كتب الفقه، وهكذا فإن عقد ولاية الكافر على المسلم عقد باطل لا يجوز الإلتزام به، ولا يصير العقد الباطل صحيحاً في حال آخر، فإن عقد الربا عقد باطل ولا يصير صحيحاً بإذهاب شرط الزيادة في المال، كذلك ولاية الكافر على المسلم لا يقال إنه عقد صحيح بشرط فاسد فيصلح بإبطال الشرط، وم كان باطلاً بالشرع فوجوده وعدمه سواء كما يقول الفقهاء: ((المعدوم شرعاً كالمعدوم قدراً)) ،وذلك لو اشترى مسلم خمراً من آخر ثم أهله ولم يؤد إليه الثمن فإنه لا يضمنه ولا يلزمه أداء ثمنه الذي عقد عليه عند الشراء، ولا يضرنك في هذه المسائل وجود المخالف، فهو خلاف غير معتبر، ولا يجوز حكايته إلا على وجه الرد والإنكار.

وهذه الآية﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ قد بدأت بذكر أثر الهدى والضلال فثنّت بإلزام العاصي معصيته دون غيره ثم ختمت بذكر مصدر الحكم بما هو هدى وما هو ضلال، فهي أمور متضمنة أن الحكم

معلق على المشيئة الإنسانية وعلى العلم، وهذا ما لو عكس لتبين لك موانع إلحاق الحكم الشرعي بالعامل لو وقع منه الفعل، فالمكره والجاهل والناسي والمخطئ لا يلحقه الحكم على فعله حتى مع وقوعه منه لتخلف الإرادة والعلم، وهذا باب من أبواب تفصيل القرآن في الأحكام، وهو يبين لك أن فقه هذه القواعد إنما تكون لإجراء الحكم الشرعي لا لتعطيله، فحملة شعار ((دعاة لا قضاة)) إنما يعطلون فقه القرآن، ويعطلون إجراء أحكامه في الوجود ولذلك هم دعاة جهل كما تقدم، كما أنهم دعاة تعطيل للشريعة، إذ أن المعاني النفسية حين تعطل عن حقائقها الوجودية فإنها تنقلب إلى معاني شعرية تخييلية كما قال القرآن عنهم﴿**وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾ ، ومقصد هؤلاء يلتقي مع مقصد الشعراء، فإن قواعد العلم الشرعي يقصد منها العلم والعمل، ومن العمل بها هو تحقيق مناطها في الوجود فإن عرت عن هذا الأمر كانت مجرد شعر تخييلي يعاب على صاحبه ويذم الداعي إليها.

قوله تعالى﴿ **وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا** ﴾

هذه قاعدة من قواعد الحق في جريان الأقدار بالعذاب على المجتمعات والأمم، وهي تأتي بعد ذكر القواعد الثلاث المتقدمة وهي متعلقة بالأفراد دون الجماعات، فالمرء يلزم الهدى والضلال بما يختار وبإرادته، وأما هذه فإنها حكم قدري في عالم الشهادة، ففي يوم القيامة تقدّم أنه مسؤول عن كتابه الذي ينشر أمامه، أما في هذه الدنيا فإن هناك سنة إلهية تتعلق بالمجموع وهي هذه الآية، ففيها أن هناك قرية فيها بعض مترفون، وهؤلاء المترفون هم بيئة الفساد ومضاجعته ورد الحق وعدم اتباعه كما قال تعالى عنهم: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ** ﴾ وقوله تعالى﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ ،وآيات بيان المترفين وحالهم مع الحق وحالهم يوم القيامة بينة لمن طلبها، وهؤلاء المترفون هم علية القوم والملأ في المجتمعات الضالة كما في هذه الآية –أمرنا مترفيها– وكما قال تعالى في سورة "المؤمنون" :- ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** ﴾ ،فالمترفون هم قادة وأئمة الناس في المجتمعات الضالة، وحيث هم كذلك فإن ذلك يعني أن

المجتمعات هذه هي مجتمعات متواطئة على الشر، راضية به، وساكنة إليه، فيكون حكم المجتمعات في الوجود هو حكم أئمتها كما يحكم على الطوائف وأديانهم ومذاهبهم بحكم قادتها وسراتها، وهذا من تمام العدل، ولذلك فإن مؤاخذة المجتمعات بفعل قادتها هو الحق لسكوتهم ورضاهم وسكونهم عن ممارسة التغيير الذي أمر الله عباده الصالحين به، فهذه الآية هي أصل لأحاديث كثيرة منها حديث السفينة والذي فيه((فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً وإن ضربوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)) والحديث الذي فيه سؤال الصحابة رضي الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث)) ،وأحاديث عاقبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلها تدل على أن العقوبة الجماعية إنما تكون بالسكوت عن المعاصي حتى تغلب على المجتمع على جهة الكثرة أو على جهة تواطؤ القادة عليها، وهذا يبين لك أن الفساد في الكبراء والأمراء والعلماء ليس كالفساد في غيرهم، لأن فساد هؤلاء يسري إلى حياة المجتمعات لأثر هؤلاء في غيرهم من الأتباع، ولذلك فإن هذه الآية هي أصل ما تقدم من فقه إقامة الحجة على الطوائف الممتنعة والممكنة، فإنه لما كان الناس تبعاً لقادتهم ورؤسائهم، ويتبعونهم في اختياراتهم كان بلاغ هؤلاء القادة بلاغاً للأتباع، ويدلك على هذا أن ما يتبع رأي واختيار هؤلاء القادة هو الذي يترتب عليه القتال أو عدمه، فلو رفض أئمةهذه الطوائف الدعوة واختاروا الحرب والقتال فإن هذا ما سيقع، وهو الحال في كل زمان وفي زماننا هذا، فهذه الحروب التي ينشؤها قادة الحكومات والأمم هي واقع الحياة، ولا يؤثر فيها رأي معترض على هذه الحرب، بل إنهم يعتبرون وجود المعارض جزءاً من شرعية قرار الحاكم، لأن وجود مخالف في كل مسألة هو جزء من وجود وبناء النظام نفسه، لكن لو قرر أحد الإمتناع عن تنفيذ الأمر بعد اتخاذه فإنه يحاكم ويعاقب، ويجري الحكم عليه ومعاقبته باسم الشعب كله الذي ينطق باسمهم حينها القضاة، فهذه أركان المجتمعات من تشريعية وتنفيذية وقضائية كلها تجري على معنى المتابعة العملية لقادة الطوائف والدول، وتبقى العواطف والأصوات الضعيفة والتي تعتبر نفسها جزءاً مشكلاً لهذا الكيان وليست خارجاً عنه، فهي تعمل ضمن قواعد هذا الكيان ولا تخرج عنه خروج النابذ له كما يخرج المؤمن عن نظام الكافر، وكما يخلع المرء دينه السابق لدين آخر.

فهذه حقيقة كونية تسري في كل المجتمعات منذ الأزل ليومنا هذا، ولا يغرنك دعواهم تقدم الفكر السياسي وترقيه عما كان عليه الناس قديماً، فالحال قديماً هو الحال اليوم، والقواعد هي القواعد وإنما تتغير الأشكال والظواهر والأسماء، وهذا باب يدركه كل عاقل يعرف حقائق الأنظمة المعاصرة وجوهر تشكلها، ولا يعدم الحال من وجود ضعفاء في الفطر ومساكين في الفكر تسري فيهم أكاذيب الناس وخداع الشيطان وجنده.

في افتراق المجتمع إلى تابع ومتبوع، يكون حكم التابع حكم المتبوع إلا أن ينكر ويمنع، وحين يقع العذاب فإنه يصيب لزوماً التابع والمتبوع، وهذا الحكم القدري حكم شرعي كذلك، فإن أفعال الله تعالى يحتج بها عند أهل العلم إلا أن يأتي دليل بالخصوصية كقوله صلى الله عليه وسلم(لا يعذب بالنار إلا ربها) ولذلك احتج ابن عباس رضي الله عنه في حكم من أتى فعل قوم لوط بما فعل الله بهم، واحتج ابن تيمية على قتال الصائلين بلا تمييز بين الراضي والمكره بفعل الله تعالى في غزاة الكعبة آخر الزمان حيث (يخسف بأولهم وآخرهم) مع أن فيهم أسواقهم ومن ليس منهم.

وهذه الآية وهي تنزل في مكة فإنها تحمل دعوة صريحة للأتباع والضعفاء بالإنعتاق والتحرر من سلطة متبوعيهم والمستكبرين والملأ، وأنه لا عذر لهم في قبول هذا الإستضعاف، وأنه إذا نزل العذاب فإنهم مشمولون به مع أسيادهم المستكبرين، كما أن هذه الآية تبين دلائل وسمات أهل الباطل والضلال وأعداء الرسل وأن سمة الأبرز إنما هي الترف، فهم يكرهون الحق لأنه يجردهم من سلطانهم الكاذب على المستضعفين، كما أنه يجردهم من كبرهم وغرورهم في ترفعهم بأموالهم على الناس، كما أن التشريع الرباني يمنع هذه الطبقة التي تجري في الناس مجرى النسب إن لم يكن هناك إرشاد الأنبياء، فالمترف يورث ترفه وترفعه إلى أبنائه ويمنع وصول الخير لغيره، فيورث الضعيف الضعف إلى أبنائه ولذلك قال الله تعالى﴿ **وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ .

ولما وزع الله أموال الفيء جعل علة هذا التوزيع قوله﴿ **كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ** ﴾ .

وهذه الدعوة الربانية تبدأ من داخل الإنسان في تحرره من عبودية غير الله ليكون عبداً لله وحده دون خلقه، ثم ترتد عليه بالعزة والخير والهدى، ولذلك كان أكثر أتباع الأنبياء وهم الفقراء والمستضعفين، وبهم تحقق

مقاصد الدعوة والنصر في الأرض، فإعراض الملأ المترف عن الحق أمر سنني، فلا ينبغي أن يكون هم الدعاة اقتناص هؤلاء ورقع الرأس بهم دون رعاية للفقراء والضعفاء من المهتدين وقد قال الله تعالى﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .

ومن تأمل حال أهل العصر فإنك تجد أن مانعي المجاهدين من سلوك سبيل المحنة والإبتلاء وهي سبيل النصر والتمكين ورد الصائلين على دنيا المسلمين ودينهم إنما هم المترفون، فمترفو العلماء ومترفو الحكام يرون في الجهاد سبيلاً لسلب ترفهم، وهو ترف قائم على حساب الدين، وعلى حساب مصالح الأمة، ولذلك هم يخوفون الناس من اتباع سبيل المجاهدين مخافة أن يذهب ترفهم ونعيمهم، ويحذرونهم بما يرون من واقع البلاد التي قام أهلها أو بعض أهلها بحث دينهم عليهم من إنكار المنكر أو عدم قبول ولاية الكافرين حيث يقع ذهاب الترف ويصير الناس إلى بعض البلاء بجريان هذه السنن الربانية مع الحق ومدافعته للباطل، وبهائم البشر ممن لا يراعون قيمة للدين، بل يرون أن الدين كله، وعزته وغلبته لا تستحق منهم إنفاق درهم واحد في سبيله، هؤلاء يستجيبون لهذا التخويف والتحذير فينساقون وراء المترفين من أجل بعض الفتات الذي يرمى لهم كالكلاب، وهذا السبيل هو أكبر حجج منافقي العلماء في الصد عن سبيل الجهاد وأهله، ويسمون حفاظة الترف مصلحة شرعية يجب مراعاتها وتقديرها في رد حكم الله بوجوب الجهاد، فما هو عند الله سبب للضلال وعلامة من علامات المقت والصد عن دين الله صار عند هؤلاء مصلحة شرعية يجب حفاظها حتى لو أدت لمنع ذروة الإسلام، وهم في الحفاظ على الترف لا يراعون مصالح الدين وإقامة الحكم الشرعي ونصر الحق ورد الحقوق ودفع الصائلين.

ولذلك فإن إقدام الأمم على مقاصدها في أكل غيرها لا يكون في الأمم المترفة، وهذا حال هذه الأمة وهي تسعى لمقاصد الحق فيها، فإنها حققت مقاصد الدين لما كان أهلها بغير ترف، حتى إذا جاءهم الترف كسلوا عن مقاصدهم في الدعوة والجهاد، واليوم فإن الشر مضاعف لأن الترف الذي أصاب الأمة لا يمنعها لتحقيق جهاد الدعوة بل إنه يمنعها من دفع الصائلين عليها، وكان الشر أعظم حين دخل العلماء في طبقة المترفين، وصاروا ينازعون أهل الدنيا دنياهم، ولا يفترقون عن حال قارون في شيء، وهذه الصفة؛ أي الترف لا يمكن

أن تكون مع التقوى ولا مع العلم بالله، ولا مع الجهاد، ولا مع قول كلمة الحق، وتاريخ علماء الأمة يشهد لهذا، فإنهم في طلبهم للعلم، وفي نشرهم له، وفي جهادهم في قول كلمة الحق كانوا أبعد الناس عن هذه الصفة، بل هم الزهاد، حتى إذا مال هؤلاء إلى أهل المال ودخلوا في وظائفهم، وصاروا من قرنائهم ذهب عنهم سمات أسلافهم، وصاروا هم أهل الترف، ومثل هذا الحال لا يلتقي مع قول كلمة الحق أبداً، ولا مع الجهاد، ولا مع ذكرى الدار الآخرة، وهذا الباب ليس من باب الوعظ المستحب بل هو من حقائق الوجود كما تخبرنا هذه الآية والآيات الأخرى التي تذم المترفين، ولذلك خذ هذا المعلم دوماً لك في قياس ما يقوله القائل في قضايا الحق التي يترتب عليها ابتلاء وجهاد ومخالفة الناس، فإياك إياك من أخذ هذه المسائل ممن ركن إلى الدنيا واستحب مرافقة أهلها وسعى إلى منافسة الناس عليها، وإياك إياك أن تستفتي في مسائل الحق والجهاد والبلاء ممن يتخذ أجرة على الوظائف الدينية التي يمارسه، فمثل هؤلاء يصرخ ويتظلم ويتألم ما لو فاته أجرة شهر، وربما فكر الليالي وتعب من كثرة التطواف حتى لا يفوته زيادة أجرة على دخله ورزقه، وإن ذكر بحال الأمة أعرض ونئا بجانبه، وأقصى ما يفعله أن يتألم لحظة ثم يعود إلى حاله الذي هو فيه، فمثل هؤلاء لا يؤلمهم ذهاب الدين، ولا يعنيهم نصرته، وليس من همومهم أن يبذلوا له المال والنفس والأهل حتى يمكن وينتصر.

فهذا معلم قرآني في معرفة أهل الحق وليس هو من شطحات القصاص ولا من مبالغة المذكرين والوعاظ كما يريد بعضهم أن يجعله.

ولذلك فمن فقه هذه الآية أن الله إذا غضب على قوم سلط عليها المترفين ففسقوا فيها،فإن كان الترف في العلماء فإن فسقهم في أقوالهم ومواعظهم وفتاويهم، وإن كان الترف في أعدائهم كان في أفعالهم وأموالهم، فحينئذ تلتقي حلقتا البطان؛ فهذا فساد العلم وهذا فساد العمل، فيتحالف الطرفان ويذهب دين الناس، وهذا النوع من الفساد؛ أي الذي يكون منسوباً للدين بكذب أهل العلم عليه هو أشد أنواع الفساد في الوجود، بل إن الأمة المسلمة لم يكن هناك سبب لزوالها وزوال مفهوم الأمة عنها إلا بعد أن تشتت سلطان العلماء بذوبانهم في سلطان الحكام، حتى إذا ارتد الحكام عن دين الله بتشريعاتهم الكفرية ودخولهم في طوائف المشركين ومللهم ومذاهبهم التي يسمونها دولية وأممية وكان السور الأخير الحالي لمفهوم الأمة قد ذاب قبل ذلك بذوبان العلماء في ملك الحكام، لأن هذه الأمة أمة تنسب للشريعة، وأصحاب السلطة الفعلية فيها هم

العلماء، وهم أمراء على الناس وعلى الأمراء بما يبلغوهم من أحكام الشرع وبما يقولون من كلمة الحق التي هي حافظة لوجود الأمة وكيانها، فكان هذا هو أعظم ما أصاب الأمة، وهو أشد عليها من كل بلاء آخر، حيث ذهبت طائفة العلماء وذابت في سلطان غيرها، وصاروا مجرد موظفين عند غيرهم، يأتمرون بأمرهم، فيطلبون رضاهم لأن رزقهم وأمور معاشهم بيدهم، والأمر يبدأ باستقلال هؤلاء العلماء، وذلك بزهدهم ورفضهم ترف الحياة، وقبولهم الدخول في شظف العيش، وانتظامهم في سنن الإبتلاء التي كتبها الله على أسلافهم، وحينها ستتغير الأمة، ويبدأ الصحو الحقيقي فيها، وأما ما دام هؤلاء يقولون بأنهم لن يدفعوا ضريبة الأمة التي لا تهتم بهم كما يزعمون ونسمع منهم كثيراً هذا فإن كلمة الحق لن تقال منهم وسيبقى فسادهم في الأمة عاماً وحاضراً.

وبإزاء هذا الذهاب والذوبان الذي حصل من حاملي شارات العلم والوظائف الدينية كالقضاة والإفتاء والإمامة والخطابة فإن من مهمة المصلحين إنشاء طبقة علم موازية لهؤلاء، وهذا ما صار يبدو ويظهر، ومن مظاهر هذاالأمر أن الذائبين في سلطان الحكام ومسالكهم قد شنوا الحرب على هذا النبت المبارك الذي صار ينموا ويتجذر وذلك بمحاولتهم تجريدهم اسم العلم، أو بالإستهزاء بهم، أو بدعوى عدم معرفة طبقات العلماء لهم، وهم يعلمون أن هذا من الكذب والإفتراء، وهو من الإحتجاج بالباطل والبهتان، فإن علم هؤلاء الموصلين بالحق ورجاله أسلم وأحكم من علم الطبقة الفاسدة المترفة من حاملي شارات العلم، ولا أعلم موقعة من مناظرة بين هؤلاء وهؤلاء إلا كان النصر لسلسلة الحق الموصولة بسلفهم من أهل الحق فهي الظاهرة، كما أن من تأمل كلام هؤلاء وكلام هؤلاء من المكتوب أو المسموع إلا ورأى كيف بصيرة علماء الحق بالكتاب والسنة، وأما غيرهم فليس عندهم إلا عمومات الألفاظ التي تحكي كلام أهل الضلالة على وجه يمرر على أهل الدين كدعوى المصلحة الشرعية أو مقاصد الشريعة، وهي في حقائقها مصالح الحكام والمترفين وأهل الفساد، لا مصالح الدين ولا مصالح الأمة، أما زعمهم عدم شهرة هؤلاء فهم يعلمون أن شهرة المترفين من العلماء إنما كان بانتخاب الحكام الضالين من مرتدين وزنادقة لهم، ثم ابرازهم للناس بأسماء العلم وأشكاله وزي أهله، ولو ترك أحدهم بغير هذا الدخان السحري الكاذب لما كان لجاره اللصيق به أن يستفتيه في أمر دينه إن كان يبغي وجه معرفة الحق، ولذلك كان من آثار هذا التدافع بين الفريقين أن صار

الزنادقة من علمانيين وغيرهم يصرخون بشعار ((سرقة الإسلام)) ،أي قد صار يتكلم باسم الإسلام من هو من غير مؤسسات الحكم، وصار الإسلام ينسب لهذه السلسلة الصالحة من القائلين بالحق والمجاهدين في سبيل الله، ولم يعد الناس، حتى أهل الفساد فهم يثق بهؤلاء الذائبين في فتنة الحكام من مترفي العلماء، بل هم يستهزؤون بهم، ويطلقون عليهم ألقاب الإهانة، وهذا من رحمة الله بهذه الأمة فلولا هذه الصفوة من الصادقين لصار الإسلام وعلماؤه في الأرض كحال رهبان وأحبار أهل الضلالة في الأديان السابقة، ولذلك فهذا الأمر هو جزء من معركة الإسلام ضد الجاهلية، بل هو أعظم جزء فيها، ولن تمتد معركة الإسلام ضد خصومه من مرتدين وصائلين حتى يتحقق الإنعتاق الأكبر من سلطة المترفين من العلماء الذائبين في سلطان المرتدين والزنادقة.

ومن تأمل واقع الحياة وهذه الآية﴿ **وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا** ﴾ علم أن قضية الفساد في الأرض لا تنتشر وتحكم بالكثرة، بل بالغلبة، فالمترفون في كل أمة قلة أمام الجموع من البهائم التابعة، لكن هذه القلة هي التي تدير شؤون الحياة، وهي تقود البهائم، وهي تؤثر بها، ولذلك فإن الكلمة؛ وهي أعظم سلاح الدعاة وأتباع الأنبياء، وهي كذلك اللبنة الأولى التي تشكل نواة الحق في مواجهة الباطل إلا أنها لا تستطيع أن توقف فساد هؤلاء المترفين، بل الواجب هو الضرب على أيديهم؛ أي أيدي هؤلاء الأئمة المترفين كما قال تعالى﴿**فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ** ﴾ وذلك لمنعهم من تسرية فسادهم إلى البشر والآخرين، لأن الناس في عمومهم ينساقون وراء الشهوات ويستجيبون لدعاتها، وأما قصر نشاط وراث النبوة على الكلمة منذ بداية الدعوة إلى نهايتها، ومنذ اليوم الأول فيها إلى كل تاريخها فهذا لا يحقق مقاصد الدين، ولا يخرج الأمة من كبوتها، ولا يعيد سلطانها، كما أنه لا يدفع صولة المفسدين والعابثين بها، فالمدافعة بين قلة وقلة؛ أي قلة مترفة وقلة مؤمنة، ولا يجوز الإحتكام إلى الدهماء وإلى المتفرجين والمشاهدين الذين قال الله عنهم﴿**ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

ولذلك من الواجب الضرب على أيدي هؤلاء المترفين لمنع فسادهم الذي يحقق عذاب الله في الأمم، وأما السكوت عليهم فهو فساد في الأرض، والله عز وجل منع تدمير القرى إن كان فيها المصلحون كما قال تعالى﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ولا يظنن ظان أن المقصود من كلمة المصلحين هم حملة الكلمة فقط، لأن المقصد هو تحقيق الإصلاح، فإن كان دفع الفساد يقع بالكلمة لم يجز تجاوزها وإلا فالواجب العمل بمنع الفساد حتى يحقق الإصلاح بما يناسب الحال، والله عز وجل جعل الكلمة نافعة لناس دون ناس كما قال تعالى﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ ،وأما العتاة والمعرضين فالأمر كما قال تعالى﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ .

وبهذا تعلم أن مبرر الجهاد ضد أهل الفساد ليس سببه منع الكلمة كما قال بعضهم، فالجهاد عند هؤلاء لا يصار إليه إلا بعد التضييق بمنع التذكير، فإن سمح بالتذكير منعوا الضرب على أيدي الفاسدين، وهذا الظن خطأ على الدين، وقول في الشريعة محدث، فإن الضرب على أيدي المفسدين وجهاد المرتدين والصائلين إنما يكون بمجرد ووجودهم فقط حتى لو سمحوا للمذكرين بالدعوة والبلاغ، لأن الفساد لا ينقطع بالكلمة بل ينقطع الفساد ويحصل الصلاح بمقابلة المترفين المفسدين بالضرب على أيديهم، وهذا هو ما يحقق الحكم الشرعي ومقاصد الدين.

كما أنه يعلم أن هؤلاء المترفين المفسدين، والصائلين على دين المسلمين لا يسمحون بالكلمة إلا دفعاً لخير المجاهدين، فإن حصل إضعاف لأهل الحق صالوا على أهل الكلمة كذلك، وهذا معروف في تاريخ المدافعة بين الحق والباطل.

فهذه الآية وإن كانت خبراً إلا أنها أمر شرعي، فهي أمر للمستضعفين بعدم متابعة المفسدين، فإن تابعوهم ووقع عليهم العذاب القدري والشرعي فهذا مقتضى العدل والحكمة، ثم هو أمر لأهل الإسلام برد فساد المفسدين والضرب على أيديهم حتى لو زعموا أن فسادهم على أنفسهم لا غيرهم، فإن قولهم هذا باطل كما رد على ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه على المتأولين بالباطل على قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ

أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ فإنه رد عليهم بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله((إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)).

إضاءة:- يميل بعض المتعبدين إلى العزلة في هذا الزمان عملاً بحديث أبي ثعلبة الخشني الذي رواه أهل السنن في تفسير قوله تعالى﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وأنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:- يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثر وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام، إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها مثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم، قيل: بل منهم يا رسول الله. قال((بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون عليه أعواناً)).

وهذا الحديث كما هو بين منه إنما هو في غير الواجب والفرض بل هو في المكرمات وما في معناها، فلو تأملت الموانع التي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنك تجدها على هذا المعنى، إذ ليس فيها من أعمال تمنع واجباً أو تسقط في حرام، بل هي موانع للمكرمات، فمانعان للكرم ومانعان لاتباع الحق في المسائل والعلم، أما مانعا الكرم فالشح المطاع والدنيا المؤثرة، وأما مانعا اتباع الحق في العلم ومسائله فالهوى المتبع والإعجاب بالرأي، وهذه تناقض خصال الإيمان المستحب، فالمرء الشحيح ومحب الدنيا لا يمنع الزكاة وإن منع الفضل فوتها، ومتبع الهوى والمعجب برأية إنما يقع في المتعبدين وطلبة العلم، وهي سمات تكثر حيناً وتقل حيناً، لكنها لا تجعل المرد يرد دين الله تعالى ويعرض عن شرعه، وتكون هذه الصفة ظاهرة في المسائل المختلف فيها لا في ما هو محرم ظاهر الحرمة أو مجمع عليه، فإن رد حكم الحرام المجمع عليه لا يقال له هذا اللفظ((معجب برأيه)) وإن كان فيه هذا المعنى، والقصد أن بيان حكم الله، وردع العصاة واجب شرعي، فإن جاء الأمر إلى المكرمات في العلم والعمل فحينئذ يقدر المرء حال السامع حينئذ، أما أن يحتج بهذا الحديث على ترك الجهاد الواجب، وعلى ترك رد الصائلين على دين المسلمين ودنياهم، وعلى ترك جهاد المفسدين من المرتدين واخوانهم من المشركين فهذا من أبطل الباطل وجهل على هذا الحديث، ونسبته للدين خطأ محض، فإن أمر الجهاد الواجب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجبان لا يجوز ايقافها إلا بأمر شرعي من عيسى عليه السلام حين يحرض المؤمنين إلى الطور.

ومما يشهد لهذا المعنى، وأن هذا الحديث في المكرمات لا غير قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث((ودع عنك العوام)) لأن هؤلاء فيهم عوارض هذه المكرمات أكثر من غيرهم، كما أنه مما يمنع تحقيق هذا الحديث اليوم قوله صلى الله عليه وسلم ((فعليك بنفسك)) والمنكر اليوم لو تركه المرء فلن يتركه لنفسه، فهو منكر صائل لا ساكن ولا مهادن.

ومن علم آيات وأحاديث النهي عن المنكر وما فيها من أهمية، وما ترتب على تركه من الشر والعقوبة علم أن هذا الحديث لا يصح إلا على هذا المعنى.

لكن هناك من يستحب لهم العزلة وهم المقصودون من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي الناس أفضل؟ قال:- ((مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى)) قيل: ثم أي؟ قال: ((رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره)) ،فهؤلاء الذين يتأذى الناس بمخالطتهم، ويعرف من علمهم وعملهم الشرور فالعزلة لهم خير، وهذا يقال لعلماء السوء الذين ينهون عن المعروف، ويزينون الباطل، ويبررون لطواغيت الأرض فعالهم، وجلّ عملهم السكوت عن الباطل إن صدر من المترفين المجرمين، فإن وجدوا مثلبة لمجاهد أشاعوا وأقاموا عليها الصراخ والنشر، فهؤلاء خير لهم أن يعتزلوا، ويرحموا المسلمين من شرورهم، ولمثلهم يقال: نوم الظالم عبادة.

ومما يجدر فهمه أن سريان هذه السنة في الأمم إنما يجري على وفق قدر الله تعالى، ففهم معنى قوله﴿أَمَرۡنَا﴾ على وجه سنني يعرف الناظر معنى قوله﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ ،فإن أمره تعالى للمترفين بالفساد إنما هو الإذن القدري لهم، ولا يكون هذا إلا بسعيهم بما معهم من قدرات مع عدم وجود الموانع، أو وجود الموانع الضعيفة، ومع وجود البيئة المناسبة لهذا القدر يقع فسادهم وفسقهم، ثم يكون وقوع العاقبة بالتدمير على وجه سنني كذلك، والتدمير الذي يتلاءم مع المذكور سابقاً في علو اليهود إنما يكون بتسليط الأعداء عليها كما قال تعالى﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ وهذا هو الجاري منذ أن أمر الله موسى عليه السلام وقومه بالجهاد وذلك بتوقف جريان سنة الهلاك العام، وهذا التدمير بتسليط الأعداء هو المناسب لغلبة المترفين على الأمم ومتابعة الأمم لهم، وهذا

ما تقدم الإشارة إليه في فقه هذه الآية، لأن أولى الناس بالخطاب في هذه الآية هم أهل الإسلام، فما من تدمير يصابون به من أعدائهم إلا بخنوعهم وتسلط المترفين عليهم، ومن فقه هذا علم أن الأمم التي لا تغزو فلابدّ أن تغزى وتذلّ ((وما غزي قوم في عقر دار إلا ذلوا)) ،وبالإذلال يقع التدمير والهلاك.

أما أعظم الفسق الذي يصيب الأمم بغلبة المترفين فهو ما يتعلق بالمال والنساء، فالمال يتعلق بشهوة الإستئثار والقنية ولما يضع المال من حال يريده صاحبه به، وأما النساء فيتعلق أمرهن بشهوة الباه، وحب هاتين الشهوتين أمر فطري لكن الجهل في تجاوز هاتين الشهوتين إلى حد المرض وظلم الناس، وعاصم طغيان المال هو أخذه من حله ووضعه في محله واداء حق الله فيه، وعاصم طغيان الشهوة هو قوله تعالى﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ وتجاوز هذه الحدود هو الفسق، وهذا العالم الغريب من المترفين في تحكمها بهذين الأمرين؛ المال والنساء يقع لهم إدارة شؤون الحياة البشرية، فهم بهما يديرون من وراء وراء حيناً ومباشرة حيناً آخر الشؤون السياسية، وعلى وفقهم تقام الحروب فتباد أمم وتسالم أمم، ولذلك فقبل أن تتحرك الجيوش قد يسبقها هاذان السلاحان؛ المال والنساء، وقد تقوم الحروب ليتم بعد ذلك تسويق هاتين البضاعتان؛ المال والنساء، فهي حروب المترفين، فيقع بها الدمار والهلكة ثم يزعم الزنادقة أن الدين وتفرق الناس فيه هو سبب الحروب والخلافات والقتل والدمار، ولو أحصيت أعداد القتلى في حروب نشر الدعوة مقابل الحروب على هذين الأمرين لكانت المقارنة ظالمة، هذا مع أن سمات هذه الحروب؛ أي حروب المترفين أنها تتخفى كذباً بأقنعة الحق والشعارات الخادعة.

ومن تأمل أول حروب أهل الكفر ضد المسلمين في هذا العصر رأى أن معركتهم الفكرية كانت تقوم على قضيتين؛ قضية المرأة وقضية الجهاد، فحرب ما يسمى بتحرير المرأة؛ أي تعهيرها قامت على سوق شديدة، ونشط لها في كل واد، ذلك لأن المرأة هي حصن الأمة من داخلها، وأما قضية الجهاد فإن تجريده من سماته الحقيقية ومعنى كونه في سبيل الله، وتحويله إلى نوع من قتال البشر من غير المسلمين كانت هي عماد المعركة ضده، وقد أثمرت المعركتان واقعاً وفكراً صار من رجال الضلال فيها مفتون ومشايخ وأصحاب عمائم.

وكان أن تبع هاتين المعركتين معركة حل الربا، وتجويز العقود المشتبه بها، والتحايل لتحليل الحرام، حتى صار القول بجواز الربا في دار الكفر هو المفتى به عند هؤلاء، وصار أخذ الربا للمصلحة الشخصية أولى من العقود الشرعية كمن أجاز الربا في شراء البيوت بدل إجارتها لأن الإجارة تضييع للمال بلا بدل كما يصورونه، أما الربا فإنه يؤدي إلى تملك البيت في النهاية، فقسط يؤدي إلى التملك خير من قسط لا يؤدي إليه، وهكذا حكمت الأمة الإسلامية في شؤونها الداخلية وأسرتها وأعراضها على وجه جاهلي، كما حكمت منافذ أكلها وشربها وتصرفاتها المالية تحت سقف الربا، كما حكمت في علاقتها بالأمم الأخرى بقواعد الجاهلية وعقودها، فصارت أسيرة للشيطان وجنوده، وصار همّ المصلحين فقط تنقية هذه الأمور تحت سقف الجاهلية، دون جواز تحطيمها من قواعدها، مع أنه لا منفذ للخير إلا بالتوحيد الذي لا يصح إلا بالخروج من الشرك كله، وبالنور الذي يحطم أسس الجاهلية لا هوامشها.

ولذلك فإن المترفين وحالهم ليس مجرد شخص يفسق ويفجر في نفسه، بل هؤلاء قد صار حالهم إلى نظم وحكومات وطوائف، فالربا نظام قد دخل في كل ورقة مالٍ تتعامل بها، وهو يقيدك في شؤونك الحياتية كلها، وكذلك سقف الجاهلية في شؤون الإجتماع والسياسة فإنه تغلغل في كل مفاصل الحياة على وجه لو اطلع المرء عليه لهاله أن يكون في سكوته وركونه في مهادنة هذه الجاهلية قد تحول هو إلى جندي لهذه الجاهلية، وهذا واقع الأمر، فأنت ربما تعمل بجد وإخلاص من أجل لقمة الخبز التي تحقق لك الكفاف إلا أنك ستكتشف أن سعيك هذا وإخلاصك هذا قد تحول إلى رصيد مالي في جعبة المترفين، ولم يكن سعيك وجدك إلا زيادة سلطان مالي وسياسي لهؤلاء المتوحشين من المترفين، وهذا في كل جانب من جوانب الحياة، ولا خروج من قبضة هؤلاء إلا بالتوحيد والجهاد، وذلك بالبراءة التامة من نظم هؤلاء، ثم الخروج عليها ليكون الدين كله لله، فإن لم تفعل فإنك لا تعدو إلا أن تكون جندياً لهؤلاء المتوحشين المترفين، وذلك حين تقول: أريد العيش بسلام، فأكسب رزقي من حلال، وأربي أولادي على الدين، فأكون الثري المسلم، والغني الصالح، والبيت النموذجي لصورة الإسلام المعاصرة، وحال هؤلاء الحالمين سيكشف عندما تشد الجاهلية بعض خيوطها في المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء الحالمون فيدركون حينها أن الجاهلية قد نفذت بسمومها إلى كل مفاصل هذا

الإنسان وبيته وماله ورزقه وأبنائه وبناته، وأن دينه لم يصن بهذا السكوت، ولا مسلم له عرضه، بل كل ذلك صار بأيدي هؤلاء المتوحشين المترفين.

ولذلك فإن ما قاله الله تعالى عن فساد اليهود في الأرض يعرفك معنى سريان قوله تعالى﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ فإن الفساد صار في الأرض، وأن سلطان المفسدين ليس قاصراً على قرية من القرى، ولا بلدة دون بلدة، بل إن سلطان هؤلاء المفسدين قد عم الأرض، ودخل في كل البيوت، واختلط مع كل درهم ودينار يتعامل به الناس، ودخل أمر فسادهم مع كل حركة لامرأة أو أسرة، كما شمل كل تصرف فينشؤه المرء مع غيره، فهو محكوم بقيمهم وتشريعاتهم التي تجذر سلطانهم وتشيع فسادهم في الكون.

تصدرك هذا الحال يعرفك بضرورة قتال أئمة الكفر، ويحملك واجب التغيير على وجه سنني يقضي على مصادر الفساد ورؤوسه، لا أن تتوجه بنصيحتك للغثاء ثم تظن أنك أديت واجب الوقت، فإنك لو بقيت العمر كله تلقي كلمات الوعظ مع فرعون وعلى سياطين ووحوش المترفين فلن تؤتي كلماتك أثرها، وستجد بعد كل مسيرتك في الوعظ والنصيحة أن اللواط صار قانوناً، وأن الزنا صار حقاً شخصياً، وأن الربا هو دين الناس، وأن قانون الجاهلية هو الذي يحكم بيتك وحيّك ومدينتك وبلدك، وما أمر بلدك بعد ذلك إلا حلقة من حلقات لعب المترفين، وأنا ما فيها من خيرات في قبضتهم، وأن سعي أهلها مهما كان سيكون عاقبته إلى أرصدتهم، وأن سقف طموح بلدك في هذا العالم أن يكون مزبلة حيناً، وحيناً آخر دواب مسخّرة لخدمة المترفين المستعلين في الأرض. فحين يصبح العالم كله هو هذه القرية التي ذكرها القرآن فإن الهجرة الحقيقية حينئذ لا تتحقق إلا بالخروج التام من سلطان هؤلاء المترفين وذلك بغزوهم في مصالحهم التي تحقق لهم الترف وتحقق لهم قوى الفساد في الأرض، والساكت بعد ذلك شاء أم أبى هو جندي لهؤلاء المترفين، وهم الغثاء الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذم والتقريع.

قوله تعالى﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

هذه الآية تبين دليل ما تقدم، فتاريخ البشرية في سقوط القرى والأمم والحضارات يدل على يد الله تعالى ومكره بهم، وأن هذه الحضارات مهما كانت قوية، ومهما زعم أصحابها خصوصية بنائهم إلا أنه قد جرى

عليهم الحكم القدري حين غلب عليها الفساد فكان كما قال تعالى﴿ **كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ** ﴾ .

فهذه قرى كان شأنها الإستمتاع واللهو، والركون إلى قوتهم، والفرح بأموالهم وأولادهم ثم جرت فيهم سنة الله في الإهلاك.

والتاريخ وسيرورته هو دليل الحق لمن تفكر واعتبر، لكن الغفلة مع ظن الخصوصية الذي قال الله فيه﴿ **أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ** ﴾ هما سببا الإعراض عن العبرة والإتعاظ، وآخرون ملحدون ينسبون هذه السنن إلى الطبيعة دون ربطها بطاعة الله ومعصيته كما قال سبحانه عنهم﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ** ﴾ ،فهذه سنن الأمم مع جريان الحكم القدري فيهم، وهذا وقع الأمم اليوم، وإلى قيام الساعة، وهذا ما تشير إليه الآية، فإنها تبين غفلة الناس ومعصيتهم حتى يأتيهم أمر الله، فكل القرى قد أصابها الوهن، وكل الحضارات قد حط عليها قوله تعالى ﴿ **فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا** ﴾ ،وسيأتي في هذه السورة –الإسراء– سريان عامل الزمن ودخول الوهن في كل الأمم، كما يدخل في الأشخاص سواء بسواء وذلك في قوله﴿ **وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا** ﴾ .

والمذكور في القرآن من القرى ليس كلها بل الأمر كما قال تعالى في سورة المؤمن﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ** ﴾

وهذا الحكم القدري يراه الناس في كل عصر رأي العين، فلا يجوز عن الحضارات والأمم السابقة إلا الأخبار، بل قد يعيش المرء نفسه مخضرماً بين أمتين وحضارتين وعصرين، فيرى كيف كان علو الأول ثم باد وانتهى، وكيف خلفه آخر بدون اعتبار ولا تفكر، بل هو يجري على سنن سابقة في الظلم والفسق.

ودارسو التاريخ يختلفون في أسباب ضمور الحضارات وذهابها، فمنهم من يجعل الأسباب المادية هي العامل دون النظر للعامل الخلقي، وأخرون يخالفونهم ويرون أن التفسير الحقيقي لحركة التاريخ إنما ينشأ بسبب القيم والأخلاق، لكن كلاهما في بعدهما عن مصدر الوحي وهدي النبوة لا يرون يد الله ومكره في هذه الحركة، ويطلق بعضهم وصف – مكر التاريخ- على جريان سنن الضمور والإهلاك، وهذا مضطرد عند هؤلاء فإن السنن والمقادير عوارض لمن غاب عن هدي الأنبياء، فالماء سبب الري، فمن لم ير يد الله فيه لم يحمد الله تعالى عند شربه، ولا فهم قوله تعالى﴿ **لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ** ﴾ ولا اهتدى بقول الله تعالى عن نوح﴿ **فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا** ﴾ ،وحال هؤلاء كحال من قال الله فيهم﴿ **وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ** ﴾ ،وهداية القرآن ترشد إلى مكر الله لا مكر التاريخ، وإلى يد الله وراء السنن والمقادير، وأن الحب الإلهي يوجب العطاء والمدد، وأن البغض الإلهي يوجب المنع والدمار، لكن كل هذا يجري على وفق السنن التي جعلها الله في الوجود، وهي سنن تجري على صفتي العدل والحكمة الإلهيتين، ولذلك فإن ما من حدث في الوجود إلا وله سببه المادي، ولا من سبب مادي إلا وراءه الإرادة الإنسانية والتي لا تنفعل إلا بالعلم وقوة الدافع، وهو السبب الأخلاقي، ولذلك قال رسولنا صلى الله عليه وسلم لأسماء((لا توكي فيوكي الله عليك)) فهكذا كان الحديث الوجودي في الفقر والمنع سببه المنع الإنساني وهو لا ينشأ إلا بالإرادة، فالقيم هي أصل حركة الإنسان، وفعل الإنسان هي ميزان حركة الغيب في ما يقع عليه من أقدار إلهية، والأمر الشرعي يعرفك بحركة الغيب التي في عمومها لا تدرك إلا بالوحي، وهذا من أركان مقصد بعثة الرسل وهو تعريف الناس بتفسير ما يقع لهم من أقدار، وارتباطها بالحب والبغض الإلهيين، ومنكر هذا شأنه شأن منكر النبوة في مصدر القيم والتشريعات، فكما أنهم ينكرون ما أتى الأنبياء به من تشريع، كذلك هم ينكرون ما جاؤوا به من علاقة عالم الشهادة بعالم الغيب.

وفي الجانب الآخر فإن هناك من يعظم جانب الغيب لكنه جاهل في فهم السنن والأقدار في عالم الشهادة، فمنكر الأسباب على أي وجه كان كالجبري حقيقة أو من يشابهه في معنى قوله، كمن يقول بالكسب الذي يجعل الآثار عند الأقدار لا بها، ويجعل الإرادة علامة للفعل لا سببه فإن هؤلاء مع تعظيمهم للغيب إلا أنهم جهلة بسنن التكوين، والمسلم القرآني وسط عدل، يقيم السنن على وجه ما أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويعظم الغيب ويؤمن به ويتفاعل معه.

فجريان سنن ضمور وهلاك الحضارات إنما يكون بما أقامه الله من سنن التكوين، وهذه السنن تتعلق بالإرادة الإنسانية، والتي تستجيب أو ترد حكم الشرع، والشرع إنما ضابطه الحب والبغض الإلهيين، فما يجري في الكون فهو على هذا المعنى، ويبقى جوانب أخرى من الأقدار كجانب الإبتلاء والمحنة كما قال تعالى﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾،وجانب الهرم ودخول عامل الزمن كما قال تعالى﴿**وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾ ،وهي جوانب محكومة بصفتي العدل والحكمة كما تقدم كما قال تعالى﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ .

وقوله تعالى﴿**وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾ وهي كلمة قرآنية يقولها الله تعالى على معنى حق الله في ما يجري في الخلق من أقدار، وهذه طريقة قرآنية تناسب حقيقة الكلام الإلهي، فإن الله عز وجل يرد كثيراً من جدالات الخلق بالباطل إلى وقائع الحق التي أصابتهم أو ستصيبهم، فلو تأملت ردود القرآن في منكري البعث مثلاً فإنك تجد الكبرياء والعزة الإلهيين تجريان الكلام القرآني على معنى تبكيت المخالف بالحق الذي سيصيبهم كقوله تعالى﴿**وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ فرد الله عليهم بقوله﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ وكقوله﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فرد الله عليهم﴿ **مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**﴾ ، وهذه الطريقة لا تقع من متكلم إلا على وجه الإستعلاء والقدرة والإيمان، فإن من كان هذا صفته ثم جودل في حق قاله فإنه يرد على مجادله على هذا الوجه، وهذه الطريقة هي إحدى معالم اكتشاف العربي الذي سمع القرآن لأول مرة أنه كلام

إله، وأنه لا يخرج إلا منه، وليس هو كلام بشر، فإن هذه الكبرياء وهذا الإستعلاء وهذا الإيمان وهذه القوة التي تقول هذا الكلام لا تليق ببشر مهما بلغ شأنه.

فالله عز وجل حين جرى فعله في الخلق على ما تقدم من إهلاك العصاة جعل علة هذا الفعل ما تصف به من النعوت والصفات الحسنى فقال سبحانه﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ ، وهي على معنى ما تكرر في القرآن في مواطن في مثل هذا الموطن ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ،فالبصر المطلق المحيط بكل فعل، والخبرة التامة التي تدرك كل موجود صفات تليق بإله يحكم في عباده بالحق على وجه ما يرى ويحيط، فالمنازع لحق الله في الحكم القدري بإجراء العذاب بالإهلاك والتدمير ويرد عليه بحقائق هذه الصفات الإلهية، ولكون البشر عبيداً له؛ فهو خالقهم وممدهم ومميتهم ثم يحييهم كما قال تعالى﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

وهذا الوصف تكرر في هذه السورة، فقد قال سبحانه وتعالى﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ ،وهو يؤيد ما تقدم من المعنى من رد المنازع على عدل الله في الخلق بأنه سبحانه وتعالى خبير بصير بعباده، فبسط الرزق ومنعه إنما يجري بعلم الله في عبيده، فهو المحيط بهم وهو العادل بينهم.

وكذلك قوله﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾، فرد سبحانه وتعالى على منكر إرسال البشر للبشر بحق الله في وقوع هذا القدر بعلمه بعباده فيما يصلحهم وما يناسبهم، وأن المتصف بهاتين الصفتين على معنى الحسن المطلق هو الذي له حق الشهود على غير منفرداً دون الحاجة لغيره.

وهذا المعنى مضطرد في القرآن، فإن صفات الله الحسنى هي علة الخلق والأمر، كما قال تعالى﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ وإنما تحقق هذا المعنى ما له من صفات حسنى أوجبت حقه على خلقه بالعبادة والخضوع.

وذكر الذنوب هنا خاصة لسياق الآيات، وأنها في ما أجرى الله على العصاة من العذاب.

قوله تعالى﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا** ﴾ .

بعد أن بيّن الله سنته في المدن الآبقة عن طاعته، وبيّن خاتمتها اللازمة لها دون ريب فإنه سبحانه وتعالى جاء إلى سنته في العطاء، ذلك بأن الناس يرون كيف يعطى الكافر غنى، وكيف تقوم المدن والحضارات وهي على غير هدي النبوة، فيقع التساؤل: كيف هذا؟ وأين هذا الذي نراه من حكم الله في تدمير القرى الفاسقة الظالمة؟! فجاء هذا الجواب الإلهي في سياق ما تقدم من سنة الإهلاك، فهذه سنة العطاء والصعود والتمدد.

وهذه السنة الربانية تبين أثر الإرادة الإنسانية في الوجود، وأن الإنسان نفسه بإرادته يصنع حاله، فلا يتغير حال امرئ إلا بتغير إرادته، وبتغير سعيه حسب هذه الإرادة، وهذا من تمام العدل الإلهي في الوجود، وهي تبين أن الوجود المادي تبع للإرادة الإنسانية، مع خضوع هذه الإرادة وكذلك الوجود المادي لإرادة الله تعالى، فالسنن لا تجري أفرادها إلا بإرادة إلهية تأذن بوجودها، وليس كما يقول بعضهم بأن السنن تجري على وفق الوضع الإلهي الأول، بل كل فرد من أفراد هذه السنن إنما يجري بإرادة إلهية، كما أن هذه الآيات تثبت حقيقة الإرادة الإنسانية وأنها مؤثرة، وتبين أن قوة الدافع للإرادة إنما هو الحب والقيم التي يؤمن بها، وفيها كذلك أنّ الوقائع في الحياة يكون فيها الصراع بين الدنيا والآخرة، إذ ينشأ بينهما التعارض، ولا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، وهذا رد على مذهب معاصر يقوله بعض المسلمين من أن افتراض هذا التعارض في ظرف من الظروف غير صحيح، ويتخذون هذا المذهب وسيلة لهم في ترك واجبات شرعية ومقامات مدحية يترتب عليها بلاء ومحنة، أو يترتب عليها فوات بعض الدنيا وزهرتها.

فقوله تعالى﴿ **مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ ، فالتغيير في الحال لا يكون بالأماني ولا بالإشتهاء ولا بمجرد الرغبة، بل لابدّ من الإرادة، والإرادة لا تكون مؤثرة إلا إن كانت جازمة، حينها تنطلق الجوارح استجابة لهذه الإرادة، ثم لا تكون هذه الإرادة مؤثرة حتى لو كانت جازمة إلا بوجود المشيئة الإلهية،

والمشيئة الإلهية تمنع تحقق الإرادة الإنسانية إن وجدت بطريق سنني وذلك عن طريقين؛ أولاهما وجود الموانع وثانيهما تخلف القدرة، فإن وجد المانع المكافئ أو الزائد أو تخلف قدرة المريد المكافئة فإن الإرادة الجازمة لا تنفذ حتى لو وجدت، وحينئذ يعلم أن إرادة الله نفذت بمنع جريان هذه الإرادة الجازمة، فمشيئة الله ونفاذها في الوجود لا تقع إلا على وجه سنني يفهمه الناس ويدركون معالمه، وفهم هاتين القضيتين وهما وجود الموانع وتخلف القدرة يعلمك أنا نفاذ فعل إنساني في الوجود لا يقع إلا بعد صراع مع إرادة أخرى، فالموانع الخارجية هي إرادات معارضة لإرادة الفاعل، ومانع القدرة إنما هو العجز، وهو ينشأ من كسل متواصل متراكم، والكسل تخلف الإرادة عن الفعل لوجود إرادة أخرى، فدل هذا أن الفعل الإنساني في الوجود لا يقع إلا بانتصار إرادة على أخرى، فحركة الإنساني هي صراع إرادات، والوجود المادي كما تقدم هو صناعة إرادة، فدل هذا على أن الحياة تصنع بالإرادة الإنسانية الغالبة.

هكذا يوضع الإنسان في قلب الوجود، فيكون ما يحياه من عزة وذلة، ومن غنى وفقر، ومن سعادة وشقاوة إنما هو من داخله؛ أي من إرادته، ولذلك قال تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ .

أما كيف تصنع إرادة التغيير، فإن الإرادة ينشؤها الحب والبغض، وهما ينشآن من العلم، فالعلم الصحيح ينشئ حباً صحيحاً، وبالتالي تتوجه الإرادة للنافع الحقيقي دون الضار، أما العلم الفاسد فإنه ينشئ حباً فاسداً وبالتالي تتوجه الإرادة للضار دون النافع، كما أن الوجود الخارجي هو صراع إرادات، فإن الوجود الإنساني الداخلي هو صراع علم وحب وهي صراع إرادات، فالعلم الضار ينشئ حباً فاسداً ويُدفع به علم نافع وحب صحيح، والعكس صحيح، وصراع الإرادات الأول يسمى منازعة الأقدار ومنه جهاد الكفار والمرتدين والمنافقين والزنادقة، والثاني يسمى مجاهدة النفس والشيطان. وبهذا البيان يتبين أن ما هو داخلي لا قيمة له في الوجود الإنساني إن لم يحقق عملاً، فإن كان مجرد تصور باطني لا ينشئ إرادة جازمة يحصل بها العمل فإن هذا لا أثر له في التغيير ولا في الوجود الإنساني قط، فالذين يسعون للتغيير بمجرد تغيير تصوراتهم الباطنية، أو بإنشاء أعمال داخلية ليس فيها صراع مع إرادة خارجية مخالفة هم جاهلون بالقرآن والسنة، وأن احتجاجهم بقوله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ على مرادهم احتجاج جاهل باطل.

يبقى هناك بيان لمعنى القدرة اللازمة، بأنها تتضمن العلم بسنن الوجود لمعرفة المؤثر وغير المؤثر، إذ لابدّ من سلوك الطريق السنني لتحصيل شيء أو لدفعه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ فإن السعي الذي يحقق الأثر هو الذي يكون في اتجاه الشيء، فإن كان المطلوب شرعياً كان لابدّ له من دليل شرعي، وإن كان قدرياً كان لابدّ له من دليل قدري.

فالعلم في هذا الباب علمان؛ علم يميز بين المحبوب وضده، وعلم يعرف به الطريق الموصل إلى المحبوب، وفي هذه الآية بيان وجود صراع الحب الإنساني بين الدنيا والآخرة، ومما يتبعه من توجه الإرادة إلى أحدهما.

ومن خصائص علم القرآن أنه لا يسمي مجرد تصور علماً، بل إن العلم في القرآن لا يكون إلا مع الحب والبغض؛ أي العلم الذي ينشئ إرادة، فمثبت خبر الآخرة دون حبها ودون السعي لها لا يسمى عالماً بالآخرة، كما أثبت خبر صدق الرسول ولم يتبعه فلا يسمى مؤمناً كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ليهود كما قالوا له:- نشهد أنك لرسول الله، فقال لهم:- ((ما يمنعكم من اتباعي)) فأعلم صلى الله عليه وسلم أن اثبات الخبر دون اتباعه لمانع يحول من تحقق الإرادة التي تحقق العمل لا يسمى إيماناً ولا يقال لصاحبه عالم أو مؤمن، وهذا بين في آية سورة الأعراف في قوله تعالى﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ولو شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ،فجعل الله وصف المنصرف عن خبر يصدقه إلى ضده انسلاخاً عن العلم فهو كأن لم يعلمه﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ،ولذلك قال تعالى﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فالعلم في القرآن هو الذي يحقق الإرادة دون ما سواه، كما أن الحب إن وجدت حقيقته فإنه كذلك كما قال تعالى﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ .

في الوسط الإسلامي المعاصر، وهو وارث لتصورات بدعية دخيلة على القرآن والسنة يتوزع هذا الوسط في فهمه لسنن التغيير، لكن أخطر ما في هذا المصاب أن هذه الإنحرافات تنسب كلها للشريعة، فأصحابها يتدينون بها، وحين يقارن بين الإنسان السنني وإن كان غير مسلم وذلك بسبب ملاحظته وتفكره في عالم الشهادة وبين المسلم البدعي وهو يتخفى بالبدعة والإنحراف بالآيات والأحاديث فإنك تجد أن الأول يصل لمراده، وأما الآخر فهو

على ما قال الله تعالى ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ،فهو قد يصح حبه ولكن لا يصح علمه، وقد يصح تصوره وفكره ولكن لا يصح حبه، فالأول ساع إلى غير جهته مع ظنه أنه ساعٍ إليه وهو الجاهل البدعي، والثاني هو من أضله الله على علم فاتبع هواه فكان من علماء السوء يبيع دينه بدنيا غيره، فإن كان له ديناً فإنما هي فتات يرضى به كما يهش الكلب للعظم، والمسلم القرآني السنني هو من صح حبه وصح علمه، فهو على ما قال الله تعالى﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

هذه الآيات العظيمة في هداها تنزل في مكة المكرمة لتصنع المسلم الصحابي الذي صنع أكبر تغيير في التاريخ البشري كله، فهي بعثت إرادته وحررتها من الموانع وخاصة حب الدنيا وكراهية الموت، وكان أعظم ما بعثها حب الله والدار الآخرة، ثم الخيالات والأوهام وأزبال البشر، فانطلق وهو يدرك أن الوجود صناعته، وأن فاعلية الآخر لن تؤثر إلا إن غابت فاعليته، وأن فاعليته لن تؤتي ثمارها إلا بالمنازعة والمغالبة، فقام سوق التدافع، وبدأ الحق كشعاع النهار يدفع ظلمة الليل، وهي تنحسر أمامه، حتى تحقق مراده و وقعت الوعود الإلهية.

ولذلك فليعلم أن الفكر بلا حب إنما هو مجرد حبر على ورق، والإنسان والحياة ليسا كذلك وإن كان هذا منها، وليعلم أن الحب بلا علم صحيح هو سعي باطل، بل هو إفساد في الأرض كما قال تعالى﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، وهناك مسألة تتعلق بمسمى قوله تعالى﴿أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ فهذه قد دخل فيها الجهل والبدعة كذلك حتى خرجت عن المراد القرآني، فإنه كما يعلم أن العبادة في الكتاب والسنة هي طاعة الله، ومن تأمل العبادة الشرعية فإنه يجد أنها جامعة للكيان الإنساني كله، وذلك على جهتين؛ على جهة أنه إنسان له قول وعمل فالعبادة جامعة لهما، وعلى جهة الوجود الإنساني العام في علاقته مع ربه ومع نفسه ومع الوجود الآخر كله سواء كان إنساني أو غير إنساني، فالعبادة تحيط بها كلها ولا يخرج منها شيء كما قال تعالى﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ،فهذا معنى أول لقوله تعالى﴿أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ ،أي أنه في قوله وعمله مع كل الوجود من غيب وشهادته إنما يريد المرء بها تحقيق الفوز في الآخرة، وهناك معاني أخرى هي في حقيقتها صادرة من المعنى الأول، منها ما يتعلق باختيار الإرادة الشرعية على مخالفها من الإرادات كما تقدم في البيان الأول، فإن الإرادات الداخلية

حين تتنازع فإن المؤمن سيختار ما يحقق الدار الآخرة، وكذلك حين تتصارع الإرادات في الخارج فإن المؤمن ينحاز إلى الذي يحقق النجاة في الآخرة.

فليس إرادة الآخرة هو الفراغ عن حركة الوجود المشهود كما يظن البعض، أو الهروب من التنازع الواقع فيها، بل إنه لا يتحقق الوصول إلى النجاة والفوز بالآخرة إلا في خوض غمار هذا التنازع والإنحياز إلى الحق ومدافعة الباطل، سواء كان هذا الباطل داخلياً في النفس مما يتوجب مدافعته أو كان خارجياً يجب مجاهدته، وبهذا يتبين لك أن هذه المنازعة وإن كانت تحقق أثراً وجودياً بالغلبة والنصر أو الإبتلاء والمحنة إلا أنها داخلة في قوله تعالى﴿**أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ** ﴾.

وعامة وعاظ اليوم يلهجون كثيراً في تحويل ما هو مصلحة للنفس وشهوتها إلى إرادة الآخرة، وهو معنى صحيح في عمومه، لكن لا ينبهون إلى أن ترك مصلحة الدين ومنازعة أعدائه، والإنشغال عنها بالمعنى السابق إنما هو داخل في قوله تعالى﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ ولا ينظر إلى زعمه أنه يريد بهذه العاجلة الدار الآخرة.

فالزاعمون أنهم في شغل في أمر الدنيا مع قيامهم بأداء حق ما معهم منها أنهم يريدون الآخرة هم واهمون إن فاتهم ما هو أوجب عليهم مما هو بين أيديهم، وهو حق الدين الذي ينازعه الأغيار ويسعون لإبطاله.

فحصول المنازعة بين العاجلة والآخرة حق وليس وهماً، وهو أمر كان معلوماً عند الأولين، يرونه في كل سبل الحياة، لكن لما غلبت الأهواء، وصار الناس إلى ترك الآخرة، فإن هؤلاء الوعاظ قد لحقوهم إلى ما هم عليه مقيمون ليجعلوا ما هم فيه ديناً، وليزوروا عليهم أنهم يحققون كذلك الدار الآخرة، وهذا من التزوير والإفساد في الأرض، إذ الواجب عند مفترق الطرق أن يبين للناس الحق والباطل ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، فمن عمل في الدنيا وشؤونها والدين منازع يطلب جهده وإرادته فهو مريد للعاجلة حتى لو زعم أنه يريد وجه الله في دنياه.

ومن نافلة القول التنبيه إلى جهالة من أراد الدنيا بعمل الآخرة فهذا أمره بين والمواعظ فيه كثيرة، لأنه داخل في باب وجوب الإخلاص وهو في قوله تعالى﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

وتبقى مسألة الرد على أعداء وراث النبوة، وهو زعمهم أن سعي أهل الإيمان للتمكين والنصر هو سعي للعاجلة، لأن التمكين سلطان دنيوي، وشأن من شؤونها، فمن سعى له فهو ساعٍ للدنيا بزعمهم، وهذه تهمة قيلت قديماً للأنبياء كما قال فرعون وقومه لموسى وهارون عليهما السلام﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ وكذلك قال قوم نوح عليه السلام له﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ،وقد علم أن أتباع الأنبياء إنما ينصرون في هذه الحياة الدنيا لرغبتهم في الآخرة، وزهدهم في الدنيا كما قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ وقال تعالى﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وقال سبحانه﴿ ت تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا ﴾ ،فالمؤمن يسعى للتمكين لأنه عمل من أعمال الآخرة، لا أنه عمل من أعمال العاجلة، ولذلك لا يصل إليه إلا بعد المحنة والإبتلاء، فيكشف عن صدقه وإيمانه، فيكون قوله تعالى﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ رداً على من ظن أن أعمال النسك هي فقط التي تتحقق بها الآخرة، بل علم من القرآن والسنة أن أعظم الأعمال الموصلة للجنة والدار الآخرة إنما هو الجهاد في سبيل الله تعالى كما قال تعالى﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ وهذه الآيات إنما نزلت في جهاد الطلب لا الدفع، لأنها نزلت في غزوة تبوك، وهي غزوة على هذا المعنى كما هو معلوم، وأحاديث فضائل الجهاد مشهورة تدل على أنه أعظم من صيام التطوع ومن قيام الليل.

فهذه الآيات من سورة الإسراء لا تعني ما يفهمه أهل التعبد الجاهل من ترك أهل الترف في إفسادهم والخلوص إلى النفس لتزكيتها كما يقولون، فإن هذا جهل بدين الله تعالى، وترك الجهاد الواجب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لعذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، والمعرض عن هذا السبيل لن يدرك مراده في بلوغ خير الآخرة، لأنه لم يسع لها سعيها، فإن تحديد معنى السعي الشرعي ليس للناس وإنما هو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

على هدي ما تبين يكون معنى قوله تعالى﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ على معاني منها من يريد الدنيا بعمل الآخرة، وعمل عملا في الدنيا وشؤونها ولم يرد الآخرة لعدم إيمانه بها أو لضعف إيمانه بها، ومن ترك واجب الدين وضرورته انشغالاً بالدنيا حتى لو زعم أنه يؤدي حق الآخرة في عمله.

ويكون تحقق معنى قوله تعالى﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ في المرء هو أن يريد بعمله وجه الله، وأن يسعى لها السعي الصحيح لا البدعي كما قال تعالى﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، وقول من اشترط شرط العمل السنني لتحقق معنى العمل الصالح الذي يحقق إرادة الآخرة لا يقتصر على ما هو نسكي بل هو شامل لأمور، منها ما هو في الأمور النسكية، ومنها شرط السير وفق السنن التي تلائم العمل المراد، كما تقدم من أن العلم بالسنن شرط لبلوغ المراد، كالساعي إلى الحج فإنه لابدّ له من التوجه الصحيح لمكة وإلا كان سعيه فساداً وباطلاً، وكذلك بقية أمور الحياة التي تتعلق بالدين وقضاياه كقضية التمكين والنصر.

وقوله تعالى﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ ذلك لأن الساعي للآخرة قد يريد أمراً وجودياً من عالم الشهادة فيفوته، كالمهاجر في سبيل الله تعالى، فهذا قد يموت في الطريق ولا يدرك مراده، وكالساعي للتمكين والنصر فقد يستشهد قبل أن يدركه، ففوات الأمر الوجودي لا يعني فوات أجره ولذلك قال تعالى﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ أي لهم أجرهم الذي لا يفوت حتى لو فاتهم مرادهم.

وقوله تعالى﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

فهذا أمر هذا الوجود وسنته، فإن المرء والأمم إنما تحصل ما تسعى إليه، فإن تنازع الناس على أمر كان الغالب فيه هو من حصل له المدد الزائد عن غيره، والذي تحصله بسعيه وجهده وإرادته، فخزائن الله تعالى مشرعة للساعي

إليها دون اعتبار لقضايا الإعتقاد والتصورات الباطنية، وذلك في الأمور الوجودية التكوينية، فلا محاباة ولكنها السنن.

وهذه الآية لا تعني أن المؤمن له الآخرة دون الدنيا، فإنه قد تقدم أن من الأمور الوجودية كالنصر والتمكين والغلبة هي على وجه من أمور الدنيا، وهي على وجه من أمور الآخرة، لكن هذه الآية تعني أن من سعى لأمر فسيأخذه، ومن نازع غيره بمدد زائد عن خصمه فسيغلبه، فلا يلومن أحد إلا نفسه.

وفي هذه الآية سمى ما يأخذه كل فريق عطاءً ربانياً، هذا مع أن هذا العطاء لم يؤخذ إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامة، ومن القدرة التامة أنه أتاه على الوجه السنني الذي يؤخذ منه، وهذا الفعل الإنساني هو من حجب إدراك العطاء الإلهي ورؤية يد الله وكرمه على خلقه مما يؤدي به إلى الكفر كما قال قارون﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ**﴾ ،مع أن القدرة التي حصل بها هذا الأمر لم تكن لتكون إلا بعطاء إلهي، وكذلك العلم لم يكن ليقع في قلب المرء إلا بتوفيق إلهي، لكن المحجوب من حجبه الله فلم ير إلا الحياة الدنيا كما قال تعالى﴿ **ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ**﴾ ،وكما قال تعالى﴿ **يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ**﴾ .

وقوله ﴿**وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا**﴾ دليل على أن مراد الإنسان مهما علا وارتفع يمكن له تحصيله، وإنما يدرك هذا أصحاب الإرادات العالية في شؤون الحياة، فما كان الناس يعدونه خيالاً في زمن صار عند آخرين حقيقة لتوجه إرادتهم لتحصيله، ففتح لهم العطاء الإلهي بقدر جهدهم وآمالهم في الوصول، وهذا بين في شؤون التكوين والقدر يراه الناس ويبصرونه، أما في أمور الدين فكم من آمال ووعود كانت عند البعض خيالاً أو ضرباً من الأحلام الواهمة فما أن سعى لها رجالها حتى تحققت ووقعت، ففي مكة والحصار والتعذيب والخوف والتضييق يعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الصدق بالأمان في كل جزيرة العرب، وببلوغ هذا الدين المشرق والمغرب، وأن العجم سيدفعون للمؤمنين الجزية، وقد كان بحمد الله، وفي غزوة الخندق والناس في خوف وشدة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعدهم بفتح كسرى وقيصر وتنفق أموالهما في سبيل الله تعالى وقد كان.

ووقعت هذه الآية لكل طائفة تريد مرادها وتسعى لها السعي الصحيح نحو المراد، فحين أراد الصليبيون غزو بلاد المسلمين، وهم مجرد شعوب همج، وطوائف متناحرة، وكلاب مسعورة، لكن تم لهم الأمر وتحقق لهم المراد،

وجاؤوا حتى دخلوا بلاد المسلمين وكان لهم مرادهم فيها، فلما نازعهم المسلمون، وقامت سوق الجهاد فدافعوهم، كان في ظن بعضهم أن طردهم حلم واهم، لكن وقع الحق وذهب شأنهم كأمس الذاهب.

ثم هؤلاء اليهود وهم من هم في خلقهم وقلة عددهم لما أرادوا أمراً، وسلكوا له مسالكه القدرية صار العلو، وصار من أمامهم غثاءً كغثاء السيل، ولو قال أحدهم يوماً من الأيام الفائتة أن سيكون هذا لاستلقى على قفاه ضحكاً واستهزاءً بقوله.

والعجب أن يرى الناس هؤلاء القلة من اليهود، ويعلمون ما هم فيه الخلق الذي لا يقوم لمعارك الغلبة والنصر ثم هم يستهزؤون بحملة الوعود القرآنية بالنصر والتمكين، وعودة دولة الإسلام وسلطانه، وحقيقة أمرهم قوله تعالى﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ .

وقوله تعالى﴿**مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ**﴾ فالأولى مشيئة المقدار والثانية مشيئة للفاعل، فالله عز وجل يقسم مقدار ما يريد لمن يريد، فلا يقع مقدار شيء إلا بمشيئته، ولا يقع هذا المقدار لأحد إلا بمشيئة منه أن يكون له، وهاتان المشيئتان ضمن قوله هنا﴿**وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ ،وهي كقوله تعالى﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ ،فهي مشيئته لا تمنع إن وجد شروطها.

ومن تأمل هذه الآيات وسياقها في ما تقدم من الآيات، وما تقدم من وعود الله للمؤمنين علم سر وقوعها هنا، فإن الوعود القرآنية كما تقدم وذكر مراراً في غير هذا الموطن هي أوامر قرآنية، فالوعد بالجنة هي أمر للمؤمنين بسلوك طريقها والسعي لها، ووعد النصر والتمكين هي أوامر قرآنية بسلوك طريقهما والسعي لهما، وتعليق هذه الوعود على الإيمان يعني أن الإيمان أمر قرآني، وهذا بين، لكن يجب التنبيه كما نبه مراراً أن الإيمان قول وعمل، ولا يصح أن يكون العمل إيمانياً إلا بأن يكون موافقاً للسنة، أي قد علم ارتباطه السنني مع النتيجة وإلا كان هباءً منثوراً.

إضاءة:-

- لو سأل سائل: كيف تستقيم هذه السنة مع ما تقدم من تدمير القرى الكافرة والظالمة، وهي قرى يسعى أصحابها للعاجلة، ويسعون إليها بطريق سنني، ومع ذلك حق عليها الهلاك والدمار ولم يتحقق لها ما قيل في هذه الآية﴿ **كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ** ﴾ ؟

فالجواب:- اعلم أن الأمم والحضارات والقرى ليست كياناً مادياً قدرياً فحسب، لكنها كيانات قيمية كذلك، فالسعي لتحصيل الكيان المادي القدري يخضع لهذه السنة﴿**وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ ،لكن بقاء هذه الأمم وهذه الكيانات ليس منوطاً بهذه القدرات والقوى المادية وهو ركن من أركان بقائها عند المنازعة خاصة، لكنها كذلك تحتاج للدوام إلى ركن قيمي مكين يحقق البقاء لها، فالإنسان هو عنصر الحضارات والأمم، وهو أهم من الأركان المادية المصاحبة، وهذا الإنسان بقيمه وتصوراته التي تنشئ سلوكه تجاه نفسه وتجاه أمته وتجاه الآخرين قد يسلك السلوك الصحيح فيدوم بقاؤه أو يطول وقد يقصر بقاؤه ويقطع، فقيم الإنسان الحاكمة لسلوكه في هذه الحضارات والأمم تحدد زوال حضارته أو بقائها، فقيم العدل والإحسان تقوي هذه الأمم، وقيم الظلم والمنع توهن وتدمر هذه الأمم، ولذلك فإن الأمم قد تشاد في لحظة اندفاعها بعامل القوة المادية لكن بقاءها بعد ذلك منوط بقيمها الخلقية، ولذلك لما ذكر الله الأمم السابقة ذكر ما كانت عليه من القوة المادية، أي أنها شادت كيانها المادي حتى بلغ شأوه، لكنها ذهبت بعد ذلك لفوات قيم البقاء والدوام كما قال تعالى عن عاد﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ ،فحصل لهما قوتان؛ قوة الإشادة للبنيان الداخلي وقوة الغلبة على خصومهم، لكن فاتهم العامل القيمي والخلقي فكان ما كان من أمرهم، وهذا عينه ما حصل لثمود كما قال تعالى﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ** ﴾ ،ومن تأمل تاريخ الحضارات يجد هذا بيناً واضحاً، فإنها تندفع في البدايات بعامل القوة المادية، فتشاد وتستقر ثم لفوات عامل بقائها وهو القيم تبدأ عوامل الفساد تدب فيها حتى يأتي قدرها، فلا تعارض بين السنتين، بل هما حق، ولهما واقع لا يتخلف في التاريخ كله، ولذلك فإن عامة الحضارات الإنسانية إنما

جاءها الهلكة من داخلها لما سيطر عليها المترفون، وهم أبعد الناس عن الهمم والإرادات، بل هم أهل بطالة وكسل، مع ما ذكر عنهم من اختياراتهم المستمرة لقيم الشيطان والفساد بعيداً عن هدي النبوة.

لكن مما يحزن القلب في عصرنا، ومما يشكل عبئاً كبيراً على الدعاة والمجاهدين والعاملين، أن المترفين وأهل البطالة إنما ينشؤون في الطور الثاني أو الثالث في تاريخ الحضارات، وذلك بعد استقرارها وبلوغ قوتها، إلا أن أمتنا اليوم قد سيطر عليها هؤلاء والأمة لم تشرع بعد سلوك طريق التمكين وبناء حضارتها الذاهبة، وهم أشد الناس عداوة لحملة الوعود القرآنية وأكثر الناس تعويقاً لهم في الوصول للمراد.

والقصد أن الترف مانع من صعود الأمم، وكذلك هو مانع من بقائها واستقرارها، وفساده في تدميره للإرادة التي تنشئ الأمم، فإن نشأت فإن فساده في تدمير إرادة بقائها وتواصلها ومن ذلك ما قيل((ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا))، وهو قدر لازم للأمم والحضارات حين تنشأ بقيم جاهلية، ولذلك فلابدّ من لحوق الهلاك الإلهي بها.

أما تصور بقاء الأمم والحضارات بغير قيم الغيب، وبغير هدي النبوة فهذا لا وجود له، ولن يكون، لكن زوال الحضارات وإن تم من داخلها بسبب غياب القيم وإرادة الإندفاع بالترف إلا أن سنة التدافع بوجود المنازع أمر قدري لتحقق الزوال الحقيقي، وهذا شرح في غير هذا الموطن، لكن يكتفى القول هنا بالتنبيه أن الفراغ ممنوع في الوجود المشهود، فلا تسقط أمة إلا وترثها أخرين وهذه السنن دعوة ربانية لأهل الإسلام من أجل أخذ زمام المبادرة، وتحقيق التدافع في هذا العالم على أساس القيم؛ أي بين إيمان وكفر، وبين أتباع الأنبياء وبين أعدائهم، أما أن يشهر المسلمون أنفسهم في العالم على أساس قيم الجاهلية وقواعدها فهذا لا يحقق الوراثة المقصودة، وبهذا يتبين لك فساد الداخلين في قيم الجاهلية لتحقيق منافع للإسلام، أو من أجل تحقيق حقوق لهم ولأقوامهم، إذ لابدّ من حمل رسالة القرآن ودعوة الأنبياء من أجل مدافعة الجاهلية بقيم الإسلام ليتحقق لهم وعود القرآن بالنصر والتمكين.

ثمّ إن هذا يبين لك أن التدافع بين الأمم والحضارات إنما هو على مستوى العالم والكون كله، ولذلك لابدّ من مدافعة ومجاهدة تتوجه إلى الكيان الوارث لإزالته وتحقيق وراثة إيمانية مكافئة، وهذا البناء النفسي والعلمي

هو الذي أنشأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه في مكة حين كانت الوعود بوراثة العرب وبخضوع العجم وتحقيق الامن في العالم.

أما إنشاء المسلم الهزيل في نفسه من خلال العمل تحت سقف الجاهلية، وإصلاح الفرع دون الأصل، وجعل أعظم همه تحقيق مقصد موضعي لا ينازع فيه الجاهلية الممكنة فإن هذا المسلم لن يحقق وعود القرآن، ولن تتحقق به وراثة الأرض، ولن تبنى به أمة الإسلام ولا حضارته.

بعد هذا البيان القرآني من مطلع السورة في ذكر جغرافية الدعوة، وبيان ما سيقع لها من امتداد، ثم ذكر خاتمة الصراع مع المفسدين في مكان سلطان الدعوة الجديد في بلاد الشام، وما سيحققه من مدافعة في الأرض المباركة حول المسجد الأقصى، ثم ما علّم الله عبيده من قواعد وسنن التدافع والصراع، يكون هذا البناء العلمي والنفسي قد أكمل حلقة تامة، جمع فيها ما يحتاجه المسلم الصحابي للسير نحو الوعود، ولتحقيقها بطريقة سننيّة، وتجعله في قلب الحياة والوقائع التي تصنع التاريخ، فإذا ضم إليها ظرف الخطاب وهو البلاء والإمتحان في أشد مراحله، وبعد مسيرة سنين لم يكن فيها إلا هذا المعنى، وهو الصبر واليقين؛ صبر على واقع يضغط حتى النهاية في تحقيق الألم ليتحقق الإنكسار، ويقين على وعد قادم لا تبدو منه أي بوادر تلوح في الأفق، بل هو مجرد اليقين على كلام الغيب.

بعد هذا كله تكون النفس المؤمنة قد اكتمل غذاؤها وارتفعت عن ألم الواقع الذي يحياه شخص المؤمن في نفسه وأهله ومحيطه الصغير ليعلم أن قضيته وإن كانت من هنا تبدأ لكنها أكبر من ذلك، فهي قضية تشغل عالم الغيب، وتتحدث بها الملائكة، وفوق ذلك ترقبها عين الله، وهي بعد ذلك أكبر في وجودها القادم، لأنها قضية الوجود الإنساني كله، وحين يصنع الصحابي الأول نصراً تدخل فيه الأرض المباركة في سلطان المسلمين، فإن خليفته ممن يسير على دربه في سلوك طريق الإتباع والإبتلاء والمحنة هو الذي سيحقق الوعد القادم في إزالة الفساد الكبير الأول، وستختم الحياة بوراثهم بعد ذلك حين تنزل عليهم رحمة الله فيزيلون ما سيكون من علو وفساد آخر، وكما تحققت الوعود للسابقين وصارت حقائق ثابتة فستقع الوعود الكامنة،

وحين قرأ المسلم الصحابي الأول هذه الوعود وهو خائف مطارد، وغريب مهان، فإن حال أهل الغربة الثانية ليس بعيداً عنهم لكن سيقرعون يوماً أبواب الوعود، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾

لقد تبين أن أعظم ما يبني نفسية المرء القرآني إنما هي الوعود؛ وأول هذه الوعود بناءً لعلم المسلم ونفسيته هو وعد الدار الآخرة وبلوغ رضوان الله ودخول الجنان، ثم تأتي الوعود التي تجري في تاريخ الإيمان ومدافعته للباطل، وهي وعود يحملها المسلم بطريقة سننية، هو صاحبها، وهو الساعي لها، وهو الذي يحقق أسبابها، وهو الذي يغالب خصومها في نفسه وخارجها.

هذه وعود ترفع من أول الطريق، وفي وقت المحن، ويعلم أهلها أنها وإن تخفت وطالت لكن الثبات حتى النهاية هو الذي يخرجها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وكلما اشتدت المحن وزادت آلامها كان هذا مؤذناً أن الباطل قد زاد ألمه وزاد تخبطه وهي معالم تحقق الوعود وحصول بشائرها.

قيمة الوعود مع الفهم السنني أنها تبعث الإرادة، وتثير الهمم، وتقوي الصبر، وتحقق الثبات، فإذا انضم إليها قواعد وسنن الوقائع والحوادث كما تبين آيات القرآن وتهدي إليها حينها يصبح المسلم فاعلاً، وحيث تكون الوعود عظيمة تملأ الوجود كله يكون أهلها صناع التاريخ وبناة أمة الوراثة والشهادة.

هؤلاء الوراث ومزيلو الغربة الثانية هم الذين يريدون بناء الحياة كلها على أساس الغيب، وعلى قواعد العبودية لله، ومن أجل ذلك فإنهم مع الوعود التي تثيرهم وتسوقهم وتثبتهم وتصنع برامجهم تصطبغ شخصيتهم في داخلها ووجودها بصفات العبودية والإخبات والإنابة، فكانت هذه الآيات التالية.

قوله تعالى﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾

بعد أن ذكر الله الآخرة وأن لها سعاة يسيرون إليها على وجه صحيح، ومعهم شرط الإيمان، شرع يبين للمؤمنين الأعمال التي تحقق لهم وصف السعي الصحيح ووصف الإيمان فجاءت هذه الآيات الجليلة، وقد تقدم في الآيات السابقة أن الآخرة درجات، فهي ليست درجة واحدة، وفيها فاضل ومفضول، إذ ليس كل أهلها في مقام واحد كما قال تعالى﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ فإن هذه الآية وإن كانت تبين فضل درجات الآخرة على درجات الدنيا، وأن الفضل والعطاء في الآخرة أكبر من الفضل والعطاء في العاجلة، إلا أنها كذلك تبين أن الآخرة درجات وأن أهلها يفضل بعضهم بعضاً بمقدار سعيهم إليها، فجاءت هذه الآيات لتبين طرق تحصيل الدرجات، وطرق تحصيل العطاء والتنافس فيه، وهذا التفضيل في بيان الأعمال التي يتنافس فيها المؤمنون لتحصيل الدرجات هو سنن القرآن كما تقدم ﴿فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ ،فما من خير إلا وبينه، وبين مراتبه، ثم بين درجة الإحسان فيه، وما من شر إلا وذكره وبين مراتب أهله فيه، ثم فصل مراتب الشرور فيما بينها حتى يتحقق البيان ويحصل الهدى الذي أراده الله من كلامه.

وقوله تعالى﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ يبين أعظم شرور ومعاصي الوجود الإنساني، وهو الشر الذي لا يغفره الله تعالى ويغفر ما دونه كما في سورة النساء من قوله﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ،وهذه المعصية لا يدرك أثرها في الوجود إلا أتباع الأنبياء، فإن دارسي الحضارات والأمم وإن أدرك أكثرهم أهمية القيم والأخلاق والمبادئ في بناء الحضارات وسقوطها إلا أن

هؤلاء الأكثر لا يذكرون شر الشرك وأثره في زوال هذه الحضارات، ومن تأمل القيم الإنسانية بعيداً عن التوحيد رأى أنها عرضة للنسبية وللمساومة، فهي لا تكتسب ثباتها ومعياريتها إلا بارتباطها بالتوحيد، فقيمة العدل وإن كانت ممدوحة في كل العقول إلا أن أفراد هذه القيمة تختلف من أمة إلى أمة، فهي عند المهتدين على معنى، وعند المشركين على معنى آخر، وغياب إقرار العبد بحق الله في العبادة والإخبات والخضوع مقدمة لزوال مفاهيم القيم كلها، ولكن من التحايل البشري أن تبقى الشعارات العامة كما هي، ثم تتغير مفاهيمها بحسب الهوى والشهوة وطائفة الملأ والمترفين، فالأمم على اختلاف طبقاتها لا تجادل في ألفاظ القيم الممدوحة لكنها تختلف اختلافاً كبيراً في مفاهيمها وتفسيرها، فالتوحيد هو مصدر معيارية القيم، وهو الحافظ لها ثباتاً واستقراراً.

هذا كله في أثر التوحيد في بنية المجتمعات والأمم والحضارات من جهة قيمها، لكن أثر التوحيد ليس قاصراً على هذا المعنى، بل القرآن ووعوده يبين آثاراً أكثر وأعظم من ذلك كالأثر النفسي كقوله تعالى﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ وقوله تعالى﴿ **مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً** ﴾ ،ومنها العطاء الإلهي بسبب الإيمان كقوله تعالى﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ وكقول الله عن نوح عليه السلام لقومه﴿ **فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا** ﴾ ، كما أن التشريعات الربانية والتي يلتزمها المؤمن على جهة إيمانه، ويكون ردها نقضاً لإيمانه وتوحيده فإنها تحقق آثارها العظيمة في ديمومة الأمم، كل تشريع بحسبه وآثاره الخاصة في بابه.

ومن طريقة القرآن في بيان الإيمان بالله عند ذكره لصفات المؤمنين أنه يذكرها على صفة نفي الشرك ، وعلى هذه الصيغة جاءت دعوة الأنبياء؛ فإن الله مدح المؤمنين في سورة المؤمنين بقوله﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ** ﴾ ، وقال عنهم في سورة الفرقان﴿**وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ** ﴾ ،وهذه دعوة الأنبياء فإنهم قالوا لأممهم﴿**ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ** ﴾ ،ذلك لأن الإيمان لا يتحقق إلا بنفي الشرك، أي نفي عبادة غير الله، فإن الأمم قد تعبد الله

في جانب من جوانب حياتها لكنها تشرك به غيره في جوانب أخرى، وهذا لا يحقق التوحيد، وكل فساد من جهة التوحيد هو فساد في بناء الأمم في العاجلة والآخرة، وهذا مع بداهته في الشرع إلا أن أهل العصر يكذبون به ولا يقرونه، فيسمون أنفسهم أو غيرهم مؤمنين مع أنهم ينقضون توحيد الله في جوانب عدة من جوانب العبادات، كنقضهم لتوحيد التشريع والقضاء، ونقضهم لتوحيد الولاء والبراء، بل إن بعضهم ينقض التوحيد في ما هو عبادة ونسك جلي كالدعاء والإستغاثة والذبح وغيرها، ولذلك فإن الإيمان لا يتحقق إلا بتوحيد الله، وهو لا يتحقق إلا بنفي الشرك في كل صغير وكبير، ولذلك قال تعالى هنا في الإسراء﴿ **لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴾ والإله هو المعبود، ومن العبادة الحب والبغض، والإنابة والإخبات والنسك، والخضوع والقبول والإقرار، فهذه أعمال وأقوال الإنسان، وهي شاملة لحركة الإنسان القلبية واللسانية والعملية، كذلك هي شاملة لكل أمور الحياة وتصرفات الإنسان ورؤاه، فالموحد من أسلم لله تعالى في كل هذه الجوانب، والمجتمع المؤمن هو من أسلم لله في كل قضاياه وروابطه.

وحين يخرج المرء ويعاند أي جانب من هذه الجوانب فإنما خرج عن تعبده لله، وصار خاضعاً لغيره في هذا الجانب الذي خرج منه.

في هذه الآية بيان لأثر الشرك على ما تقدم من الحديث عن الإرادات في قوله تعالى﴿ **وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾ فإن الله تعالى قال فيها﴿**فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴾ ،ذلك لأن الإيمان والتوحيد والبراءة من الشرك تحقق انبعاث الإرادات الحسنة الممدوحة، والتي تحقق أثرها في الوجود الإنساني وفي العاجلة الموعودة، وضد التوحيد وهو الشرك يحقق هذا الأثر السيء المناقض﴿**فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴾ ،فهو لا ينبعث لإرادة حسنة قط، والمرء وإن كان لا يخلو من إرادات كما قال الله تعالى في هذه السورة﴿ **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ**﴾ وكما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم((أصدق الأسماء حارث وهمام)) إلا أن المقصود هو قعوده عن الإرادات الحسنة، فلذلك هو مذموم مخذول، فالذم يقع لأمرين لقعوده عن الإرادة الحسنة وانبعاثه للسيئات، وخذلانه إنما يكون لموت إرادته عن الحسنات.

والقرآن كما هو معلوم لا يوجد فيه تكرار، فصفات المؤمنين التي جعلها الله من السعي للآخرة في هذه السورة افتتحت بهذه الآية﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ واختتمت بقوله﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ،فالأول تبين البدايات في الإرادات، والثانية تبين الخواتيم في النهايات، وهذه طريقة قرآنية يدركها المتأمل في كتاب الله تعالى.

ومن هذه الآية يعلم المهتدي بالقرآن أن التوحيد هو باعث الإرادات الصالحة، وأن كل فساد يلحق أمة الإسلام إنما مرجعه إلى شوائب تصيب هذا الباعث، ولذلك فإن البداية لتحقيق زوال الغربة الثانية إنما تكون بالبداية التي حققت الوعود الأولى للصحابي، فالتوحيد أولاً، وذلك بالبراءة من الشرك وأهله، ومعاداتهم في الله، والإلتقاء بين الناس على أساس هذا المقصد دون سواه، ولا يغرنك اليوم صياح الناس بكلمة التوحيد، فإنهم يقولونها دون تحقيق لمعناها، ودون الخروج من ظلمات الجاهلية، وهذا لا يعني تكفيراً لهم، بل هو حكم بجهلهم لمعنى هذه الكلمة التي تحقق لصاحبها نوراً يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الخروج من زمرة أهل الجاهلية إلى زمرة أهل الإيمان، وهي تحقق الإنبعاث لأمة الإسلام في بناء حضارتها ووجودها على وفق هذه الكلمة العظيمة، ولذلك فإن من جوانب الصراع والتدافع اليوم هو إعلان طائفة الإيمان أن جهادها لله، وأن حبها لله كما أن بغضها لله، أما هؤلاء الذين قبلوا بقسمة الجاهلية ودخلوا في دينها حين أعلنوا أن النزاع اليوم هو على معاني الجاهلية، وما تقره من حقوق وقيم، فيخجلون اعلان جهادهم باسم الله، وأن مزقتهم مع الآخرين على أساس الإيمان والشرك فهؤلاء ليسوا هم أهل الوعود القادمة، ولا بهم يتحقق زوال الغربة، وليسوا هم بناة أمة الإسلام وحضارته، أما فرحهم، بما يطلق عليهم من أزلام الجاهلية من صفات الإعتدال والتسامح فهذه من فتات الشيطان يلقيها لهم لسقوطهم في حبائله وحبائل جنده، ورضى خصومك عنك يعني أنك فقدت عوامل قوتك وتفردك.

قوله تعالى﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ دل على أن الخذلان وهو عدم انطلاق الإرادة أو الإنطلاقة غير الموفقة إلى مقاصدها مذمومة، وهذا من أعظم ما في القرآن من ذم الكسل وموت الإرادة، ذلك لأن المعنى الأول للخذلان في هذه الآية هو القعود وعدم نشاط الهمة والإرادة، ومن كان كذلك فهو مذموم، ولذلك فما

يمدحه البعض من البطالة والخمول، وترك السعي لوعود القرآن هو جهل بدين الله تعالى وأن نسبته للشريعة نسبة باطلة لا تجوز.

هذا مع أن الذم هو حكم الحال والخذلان هو واقعه، فدل هذا على أن الشرك وما يحصل به من موت الإرادة للصالحات أو انبعاثها للفساد والضلال يحقق حالاً حقيقياً وله صفته التي تليق به، ذلك لأن كثيراً من الأحوال قد تخفى فلا توصف من الآخرين، وقد يذم المرء بما يمدح به في الحقيقة لكن تمام الخزي على المشركين أن يتحقق فيهم حال مخذول، كما أن شارته وصفته الذم.

وقوله تعالى﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا** ﴾

لقد تقدم أن أعظم ما يجب على المرء إصلاحه هو علاقته مع الله، وأن أعظم حق يجب أن يقيمه هو حق الله، وأن أعظم ظلم يقع في الوجود إنما هو الشرك بالله، ثم كان بيان ثاني الحقوق، وهي علاقة المرء بأبويه، فإن الله قضى بأمره الشرعي أن لا تعبد إلا إياه، إذ حقه مقدم على كل حق، فهو الخالق والرازق والمميت، وقوله سبحانه﴿ **أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ** ﴾ بعد قول﴿ **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ** ﴾ فيه طرد وعكس، وهو يفيد إحاطة الكلام بطرفيه، مع إفادة أن التأليه هو التعبد، فمن عبد غير الله في ما يسمى عبادة فقد اتخذه إلهاً، وجهلة هذا الباب في زماننا كثيرون، إذ التأليه عندهم لا يكون باعتقاد الربوبية، ثم أمر سبحانه ببر الوالدين، فهما سبب الوجود، إذ لولاهما لما كان المرء، ولذلك أمر المرء بالإحسان إليهما وخاصة عند الكبر لحاجتهما للبر والعناية، وفوات قدرتهما على نفع أنفسهما.

كما أن الله نهى المرء أن يقول لهما أقل السوء وهو قول﴿ **أُفٍّ** ﴾ ، كما نهى عن فعل السوء وهو النهر، وقالوا: أي نقض اليد في وجوههما رداً لهما، في نهي عن القول السيء والفعل السيء، ثمّ أمر بالقول الحسن﴿ **وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾ .

كما أمر بإحسان الفعل القلبي كذلك، وليس حسن القول والفعل فقط، بل قال سبحانه﴿ **وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ** ﴾ وهذا أمر قلبي له أثره على السلوك تجاهها، فإن الرحمة خلق قلبي تبعث على الإحسان والشفقة والرعاية.

ثمّ أمر بالدعاء لهما في قوله تعالى﴿**وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا** ﴾ ، وهذا كله من باب قوله تعالى﴿ **هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ** ﴾ فإن الوالدين قد أحسنا للمرء في صغره حين حاجته لهما، فالجزاء أن يحسن المرء لهما في كبرهما عند الحاجة لهما.

وبناء نفسية المسلم على شكر المنعم، وأداء الحقوق بعد بنائه على توحيد الله تعالى وهو متضمن لهذا المعنى وهو شكر الله على نعمه وأداء حقه بتوحيده هو بناء لمفهوم العدل في قواعده الأولى، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ولا تقع وراثة الأرض ودوام الأمم إلا بالعدل والإحسان، ومكافئة المحسن على إحسانه حتى لو طال الوقت عن زمن الإحسان، فإن الحياة لا تقوم إلا بهذا المفهوم الإيماني الصالح، وهو الرحمة على الخلق وذكر ما كان المرء عليه ليعلم واجباته، ولذلك فإن الله تعالى قال للمؤمنين لما أمرهم بالتبين في الجهاد ذكرهم بما كانوا عليه فقال سبحانه﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ** ﴾ ،والمرء عند القوة يجب تذكيره بما سيؤول حاله، أو بما كان عليه حاله حتى لا يطغى ويتكبر، بل يجب أن يتحقق فيه قوله تعالى﴿ **وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ** ﴾ ،وهذا الذي حققه رسولنا صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة فاتحاً، فإن حاله كان سمتاً من الخضوع لربه والتواضع له، وهي صورة تحقق واقع التعبد الذي يحبه الله في خلقه.

ومفهوم الإحسان والرحمة للوالدين مفهوم شامل للحياة، فإن الأخلاق لا تتجزأ إن كانت ملكة حقيقية في النفس، بخلاف ما لو كانت نفاقاً أو ستراً لحاجة، فمن كان عبداً شاكراً كان الشكر له ملكة تضطرد في كل حياته وسلوكه كما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم((من لم يشكر الناس لا يشكر الله)) ،والإحسان إلى الآخرين لا يتصور وجوده على معنى حقيقي دون الإحسان إلى الوالدين، وكذلك الرحمة، ولذلك فإن من أعظم ما يتصف به

المسلم الذي يستحق رحمة الله هو صفة الرحمة كما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم((الراحمون يرحمهم الله)) وكذلك صفة العدل، وهما أساس بناء الأمم من داخلها، فإن اللبنة الأولى للأمم هي الإنسان وأول تكوّن لهذه اللبنة إنما هي العائلة، فإن كان هذا التكون هشاً أو منهاراً كان المجتمع مجتمع ذئاب وكلاب مسعورة، ينهش بعضهم بعضاً، وإن من أعظم حروب خصوم هذه الأمة في زماننا هو تدمير العائلة وبنائها، ولذلك تقام المؤتمرات من أجل إجازة الزنا وتحليل العلاقات المحرمة خارج الزواج، وإجازة بناء العلاقات بلا عقد شرعي، حتى تنتهي مفاهيم الحلال والحرام، ويسقط جدارهما النفسي في المجتمع، وهو طريق لإسقاط الإلتزام بالشرع والدين، فلا أب ولا أم بمفهومهما الشرعي، بل تصبح هذه المصطلحات على مفاهيم جاهلية جديدة.

وهذا السقوط في مفهوم العائلة وما يترتيب عليها من قيم هو سبيل لسقوط كل القيم، فبعد أن نجحوا في إقصاء مفهوم العبادة في القيم الحاكمة من سياسة وإقتصاد، وعلاقات دولية، التفوا لإسقاطها من البناء الإجتماعي، وهو اليوم آخر جدار يعترف به في المجتمعات التي يقال فيها إسلامية، فإن الشيء الوحيد الباقي فيه نوع صلة بالحكم الشرعي هو ما يسمى بقانون الأحوال الشخصية، ولذلك تشتد عليه الحروب حتى ينهار، وانهياره يعني انتهاء اسم الإسلام كلياً عن المجتمعات، وإن بقي فهو كبقاء اسم الأديان الأخرى في المجتمعات الأخرى.

والحرب على هذا الجانب هي نفسها الحرب التي وقعت على الجوانب الأخرى السابقة، إذ يقوم عليها مفتون ضالون، وعمائم فاسدة، وساسة مرتدون، وسحرة إعلام يسمون زوراً بالمفكرين، مع ما يرافقها من نشاطات أخرى رديفة تستهزئ بهذه القيم وتنفر منها وتظهرها على وجه قبح مرذول.

وانتهاء مفهوم العائلة كما تبنيه كلمة الله تعالى ابتداءً بالعقد الشرعي يعني تحول المجتمع كله إلى مسوخ وبهائم لا تقيم اعتباراً للقيم أبداً، فيسهل بعد ذلك سوق كل المخططات ضد الأمة تحت باب المصلحة بمفهومها البهيمي المحكوم بغرائز الجنس والشهوة.

ولذلك ففي هذه الآيات من قرن أمره بأن لا يعبد إلا إياه، فله الأمر كله جل في علاه، حيث يكون المرء عبداً له في باطنه وظاهره مع بر الوالدين على هذا الوجه الإنساني الرائع الذي يمنعه من اتيان أدق الألفاظ والحركات التي

تؤذيهما يعني أن إنسانية الإنسان في جوهره ووجوده ككائن فاعل لا تتحقق إلا بالعبودية لله وبالإحسان إلى الخلق والعدل فيهم، ولا يتحقق هذا العدل وهذا الإحسان إلا بالبر بالوالدين.

والمتأمل بواقع البشرية اليوم يرى أن ابتداء سقوط القيم الإنسانية وأعلاها بر الوالدين إنما بدأ بسقوط مفهوم ثبات القيم وتحولها إلى نسبية، وذلك من خلال غلبة قيم الشهوة والرغبة، واقصاء حق الله في التشريع والعبادة، فلم يعد هناك مرجعية علوية للبشر، إنما هم بما يحقق لهم الشهوات والعاجلة.

موقظة:- قال بعض السلف إن قوله تعالى﴿**وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ منسوخ بقوله تعالى﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ**﴾ وقد ذكر في غير هذا الموطن أن النسخ عند الصحابة رضي الله عنهم والتابعين رحمهم الله يطلق على أمور ليست هي النسخ بمعناه الإصطلاحي كما استقر عليه اللفظ عند الأصوليين، إذ النسخ عند الأصوليين هو:- رفع حكم شرعي، وعند السابقين قد يطلق على التخصيص وتقييد العام، بل إن بعضهم يطلق لفظ النسخ على تأويل الظاهر، كما نص على ذلك ابن حزم وابن تيمية، ووسع الطحاوي في مصطلح النسخ فجعل منه ظهور أمر بخلاف ما كان عند الصحابة رضي الله عنهم كما قال عن مسألة الإبراد، إذ كان عندهم التعجيل في الظهر، فإذا أبرد النبي صلى الله عليه وسلم فقد ظهر بخلاف ما كان عندهم، وجعل هذا نسخاً، وأشار إليه ابن تيمية في رسالته في أصول التفسير في عرضه لخواتيم سورة البقرة عند ذكر أنواع النسخ، والنسخ عند الجمهور لا يصار إليه إلا بعد التطبيق؛ أي توجيه الأدلة بإعمالها معاً، وعند الحنفية يصار إليه رأساً كما في (التحرير) ،ومن تأمل هذه الآية علم أن طلب الرحمة أوسع من الإستغفار، وإن كان الإستغفارمن طلب الرحمة، لكن ليس كلها، فدل على أن الآية غير منسوخة، إذ من طلب الرحمة للوالدين إن كانا كافرين الدعوة لهما بالإسلام، وهذا لا خلاف في جوازه بل استحبابه.

قوله تعالى﴿ **رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا** ﴾

وهذا تعليق على مناط الصلاح، وهو ما في النفس والقلب، فإن العمل في ظاهره قد يكون صالحاً ويريد به صاحبه الشر أو النية فاسدة فلا يكون صاحبه صالحاً، وكذلك ما لو أخطأ ظاهراً بغير قصد، و أراد بوالديه خيراً فلم يقع عندهما موقعاً حسناً، فإن ما في نفسه تنبئ عن صلاحه، وهذا كله في ما يخطئ به المرء، أو ما هو محتمل في

ظاهره للوجهين، أما ما تعين فساده ظاهراً فلا يحكم إلا على فساد نفسه، وقد تقدم شرط شكر الله للعبد أن يسعى للآخرة سعيها، أي سبيلها الذي شرعه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم إن سبحانه وتعالى جعل مخرجاً لهذا المخطئ بقوله﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ فإنه لو أراد خيراً فجاء على غير مراد قلبه فله أن يتوب ويعيد ففعله على الوجه الحسن في ظاهره كما هو في نيته، وكذلك هذا لمن أتى بالمعاصي على أي وجه كان فإن التوبة مفتوحة له، لكن هذا الوصف –الأوابين- إنما يطلق على من كان شأنه الصلاح ثم يحصل منه الغفلة فيتذكر، أو تحصل منه الزلة فيتوب، وهو وصف مدحي وكفى به كذلك أن وصف به ابراهيم الخليل عليه السلام كما قال تعالى عنه﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ ،وقد قيلت هذه الآية في معرض مجادلته الملائكة في قوم لوط كما قال تعالى﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ ،ولذلك فصلاة الضحى تسمى صلاة الأوابين كما في الحديث((صلاة الأوابين حين ترمض الفصال)) ،ومكانها بين الصبح والظهر، وهو وقت طويل بين فريضتين، كالفرق بين العشاء والفجر، فكان للوقت الأول الضحى وللوقت الثاني قيام الليل والتهجد.

وذكر هذا الوصف لهم- الأوابين- دل على تكرار عودتهم ورجوعهم من الغفلة إلى الذكر، ومن النسيان إلى التذكر، ومن المعصية إلى الطاعة،وهو تكرار يحبه الله ولو حدث كثيراً كما في الحديث((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)).

وذكر هذا الباب من الإنابة في هذا السياق لما تقدم من دقة جانب التعامل مع الوالدين، فإن ما أمر الله به عباده في التعامل معهما كان فيه شدة الملاحظة، إذ نهى عن أدنى الكلام والأفعال التي تسيء إليهما، وهو جانب ضيق في الحياة، قد يخطؤه المرء وهو لا يشعر، خاصة عند كبر الوالدين وما يكون عليه الكبير من فرط الحساسية والملاحظة بسبب الإنكسار والحاجة، فكان هذا الباب رحمة بعبيده في سعيهم لحصول الصلاح والقرب من الله تعالى.

ودلت هذه الآية على أن الغفلة والنسيان والمعصية لا تنافي الصلاح، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال((لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بأقوام يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم)) ،لكن الذي ينفي الصلاح هو عدم الإنابة والتوبة، وأما من كان في الخير والطاعات وترك المعاصي ثم وقع منه بعض القاذورات فاستغفر فهذا هو الصلاح.

وقوله تعالى﴿ **وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** ﴾

فهذه دوائر العلاقات والروابط تمتد ليشملها فعل الإيمان، ذلك لتستوعب الوجود كله، فإن ورّاث الأرض وأهل الوعود وبناة الأمم لهم وجود إيماني حاضر في الوجود الإنساني كله، وهم يَسَعونَ بالقيام حقه، وعلى وجه يحقق العدل والكفاية والدوام، فبعد الوالدين جاء ذكر ذوي القربى جميعاً، والله قال﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا** ﴾ ،فالقرابة إما بالنسب وإما بالمصاهرة، وهي كلها يجب مراعاة الإحسان إليها.

وقوله تعالى هنا﴿**حَقَّهُۥ**﴾ لا يعني بها ما استقر في الإصلاح من الحق الواجب، بل يدخل فيه الإحسان، وهو ما زاد عن الحق، ودليل هذا الإختيار قوله تعالى﴿**وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** ﴾ فإن هذا قيد لا يدخل على الحقوق الواجبة لأن الزيادة عن الحقوق الواجبة مستحبة في الجملة كأداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناً كان عليه وزاد فوقه، ولقوله صلى الله عليه وسلم((رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى)) والسماحة زيادة على الحق، فدل هذا أن كلمة ﴿**حَقَّهُۥ**﴾ هنا لا تقتصر على الحقوق، بل يدخل فيها الإحسان.

ولما كان الأمر في بر الوالدين على المعنى المتقدم العظيم من البر وترك نواقضه، كان قوله تعالى﴿**وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** ﴾ راداً للوهم أن أداء الحقوق للأقربين والمساكين وأبناء السبيل على المعنى الأول، فإن الإستغراق والمبالغة في ترك الإساءة للوالدين لا يذم بحال، لكن الإحسان إلى هؤلاء قد يبلغ التبذير المنهي عنه، ثمّ إن هذا يبين الفرق بين الترك والأداء مع كونهما عمل على الصحيح عند الأصوليين، فإن الترك يقتضي الإجتناب على وجه التمام، وأما الأداء فإن المرء يفعله على وجه الإستطاعة وبلا تجاوز لحد العدل فيه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم((إذا نهيتكم عن أمر فانتهوا وإن أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))

،ذلك لأن الترك أهون من الأداء، فالترك صرف الإرادة، بخلاف الأداء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي((وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه)) فجعل أداء الأمر أعظم من ترك النهي، وهو الأحب إلى الله تعالى، ولذلك لا يمدح المرء بترك المعصية كما يمدح بفعل الطاعة، فلا يقال عن الصالح: لا يزني ولا يسرق ولا يشرب الخمر، لكن يقال: صائم ذاكر قائم لليل مجاهد في سبيل الله.

ثمّ إن هذه الآية حجة لمن قال إن الزيادة عن الأمور تذم حتى لو كانت من جنسه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أمور هي في الأصل من الطاعة لكن لما خرجت عن حد الإعتدال كانت مذمومة، ولا يجوز الإستدلال لهذا التجاوز بكون أصلها مستحب أو واجب، وهذا باب معروف في كتب أهل العلم، لكن هناك جهالات لبعض الفرق فيه، ولهم أتباع في كل زمان.

لكن ها هنا أمر يجب مراعاته في هذا الحكم، وهو أن التبذير لا يكون إلا عند الزيادة عن الحاجة، وعند الحاجة فإن الإنفاق لا يكون تبذيراً حتى لو استغرق مال المرء أو مال غيره، فلو أنفق منفق كل ماله على رجل يحتاج هذا المال أو إن حاجته تستوعبه ولا تقضى فإن هذا لا يسمى تبذيراً، بل هو أمر ممدوح وهو من الإحسان، ومثله الإنفاق على الجهاد، فإن انفاق المؤمن كل ماله للدين عند الإحتياج للجهاد وغيره أمر مشروع محبوب عند الله، ولا يجوز تسمية هذا تبذيراً، فإن التبذير عبث، وهو انفاق بلا طائل سوى إهلاك المال، وهذا ليس من جنسه أبداً؛ فلذلك فإن التبذير قد يتعلق حيناً بالكثرة والقلة، وقد يتعلق أخرى بما أنفق عليه دون اعتبار للكثرة والقلة، فلا ينبغي حمل التبذير على معنى واحد.

لكن انفاق المال في المعاصي هل يسمى تبذيراً؟! فالجواب أن التبذير يطلق في الأصل عما لا طائل تحته سوى العبث والإضاعة، وهو يقابل اللغو في اللفظ، فالإسراف والتبذير في المال واللغو في الكلام، وكما أن اللغو يطلق في المعصية كذلك كقوله تعالى﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ فإن سبب نزولها يدل على أن اللغو هنا معصية، فكذلك يطلق التبذير عما أنفق على المعاصي، لكن هذا من استعمال اللفظ على بعض وجوه ما يقع فيه من معنى، فإن الإنفاق في المعصية يقع فيه أمور؛ منها جناية الإثم، ومنها ذهاب ما يؤمل

في الإنفاق عادة ما لو أنفقت في بابها، وهذا فاته بانفاقه في المعصية، فكان هذا المعنى داخلاً في معنى التبذير، أي فوات المقصد الحسن في الإنفاق، فبذلك يمكن تسمية إنفاق المال في المعصية تبذيراً.

وقوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾

إن من قواعد الشرع التي تبنى عليها الأحكام هو مخالفة الشيطان، والذي هو إمام الشر في الوجود الإنساني، ومخالفة الشيطان علة من علل الأحكام، ونفاة الحكمة عن الأمر الإلهي يؤولون مثل هذه الآية على وجوه لا ترضي، ذلك لزعمهم أن الأمر الإلهي إن وقع لغرض دل على الإستكمال والحاجة، والله بريء منهما، وهذا الذي قالوه هو أساس ضلال نفاة الصفات، إذ يقولون إن كون الصفات غير الذات يعني أن الذات مفتقرة إلى غيرها، وهذا ممتنع، لكمال الذات على قولهم، ولذلك جعلوا الصفات هي عين الذات، وهذا نفي للصفات، وتعطيل الأمر الإلهي عن الحكمة جعلهم يجوزون الأمر وضده في شرع الله، فالحسن ليس وصفاً ذاتياً للأمر إنما ثم له صفة الحسن بعد الأمر، فلو أمر الله بالظلم والكذب عندهم لكان لها صفة الحسن، وتصور هذا القول يغني عن رده.

ففي هذه الآية نفّر الله عباده عن التبذير بكون هذا الفعل من عمل الشيطان، وفاعله هو أخو الشيطان، لأن الصِلاَت تكون بالنسب كما تكون بالمشاكلة كما قال الله تعالى﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ،فالمرء يكون شيطاناً باقترافه فعل الشيطان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المار بين يدي المصلي إنه شيطان وأمر بمقاتلته، ووجه الجمع بين المبذر والشيطان من وجوه منها أن المبذر كافر بالنعمة، إذ أن حقها أن يضعها موضعها وهو ليس كذلك، وشأن المبذر عدم الحمد على النعم، إذ كيف يحمد الله على أمر قد وضعه على غير وجهه، ثمّ في العاقبة، فإن المبذر مآله الفراغ والفاقة، واعتياده على أمر جرى عليه قبل الحاجة يدفعه لاجتناء المال من كل وجه بلا ضابط الحل والحرمة، والمعاصي بريد الكفر كما قال تعالى﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وقد تقدم في السورة حال المترفين، وأجلى صفة للترف هي التبذير على الشهوات والملذات، والتنافس في إعطاء المال على جهة الرياء والسمعة وطلب الصيت، وهؤلاء صفتهم عند الخطاب الشرعي معروفة كما تقدم في بابه.

ولذلك منع الله أصحاب الجد والمال من مقاربة صفة المترفين بمنعهم من أسبابها وهو التبذير، والتي تجعلهم إخواناً للشياطين، والله يقول﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ .

وهذه الآية تبين لك أن الفعل الشرعي يجب مراعاة حده مقداراً وحكماً، وتجاوزهما يؤدي إلى الشر بل إلى الكفر، أما تجاوز المقدار فبين من الآية، وأما تجاوز الحكم كمن تشدد في المستحب تشدد الواجب، أو أن يجعل المباح في منزلة المستحب أو الواجب ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: ((لا يجعل أحدكم للشيطان شيئاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ينصرف عن يساره)) وكذلك روي عن أنس رضي الله عنه عيبه على من يتوخى أو من يعمد الإنفتال عن يمينه.

والحديث عن التبذير وأثره في المجتمعات والأمم إنما تشتد آثاره حين يصبح سلوكاً اجتماعياً طاغياً، وتفاخراً بين الناس، فهو اذهاب لمقدرات هذه المجتمعات في التراب والفاسد، وهو دال على شذوذ الفطرة والسلوك، كما هو دال على مرض في القيم وتقديرات العقول، واضطراده في أمة من الأمم يعني صرف الهمم من البناء إلى الهدم، ومن همم من المعالي إلى بهيمية التنافس المذموم، وهذه خصال مجتمع ذاهب لا قوام له، وفساده يعود على أمرين؛ على وجودها المادي ووجودها القيمي، فهي مختلة في قيمها ومفسدة لمقدراتها.

وحملة هذه النفوس والممارسات هم في الوجود أطفال وصغار، وهؤلاء أبعد الناس عن استحقاق الحياة والمنافسة فيها، وليس لهم في عالم التدافع أي منزلة سوى منزلة الغثاء.

نهاية هم الشيطان كما تذكر سورة الأعراف هو الكشف عن سوأة الإنسان، وهي سوءات متعددة، منها ما هو في رغبته الغريزية للجنس، ومنها ما هو للطعام، وأخرى للخلود والملك، وأعظم سقوط في حبائل الشيطان أن تتكشف هذه العورات كما قال تعالى﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ وكشف السوأة يعني قدرة الشيطان على سوق الإنسان من خلالها، وترفع المرء عن هذه الشهوة يعني قطع حبائل الشيطان من سوقه بها، والتبذير هو من أقوى كواشف هذه العورات والسوءات، لأن التبذير ضعف أمام الشهوات، وانكشاف لهذا الضعف، وذلك

هو حبل من حبائل الشيطان لسوق الإنسان إلى مقاصده، وقد كان التبذير والبذخ الذي مارسته حكومات وسلاطين سبباً للديون التي كشفت الأمة أمام أعدائها فانبطحت وذلت أمام مطالبها فحق قوله تعالى﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ،ولقد علم أن هذه الديون كانت من أقوى عوامل تغيير الشرع في الدولة الرومية من بني عثمان، إذ أجبروا على وضع دساتير وتشريعات تخدم مقاصد أعدائهم في توحيد الأمة، فسهل بعد ذلك قلعهم من وجودهم الحضاري المدافع.

وهذا التبذير اليوم في الإنفاق في طبقات الأمة كلها هو الذي يحقق أسرها في قبضة أعدائها، فهم عوان أسراء لا بسبب نقص ما يحقق الكفاف في الطعام واللباس والمسكن، لكنهم أسراء للترف والتبذير والإسراف على ما هو فوق التحسينات، بل إن لم يكن في المعاصي، فالملايين تنفق على ما يخجل المرء ذكره، وهذا عند بعضهم من مصالح الأمة التي يجب أن تراعى عند بحث حكم الجهاد ودفع الصائل.

فالتبذير ليس سلوكاً فردياً تلحق آثاره على امرء دون مجتمع، بل هو جرثومة شر تصيب الأمة جميعها، وتعطلها عن حكمة وجودها في الشهادة على الخلق وإقامة الحجة عليهم، وأشد ما تكون آثاره حين يكون في قيادتها العلمية والعملية، ومن رأى لباس هاتين الطائفتين، وما عليه أمر بيوتهم ورياشهم، وما يتذاكرون به من التنافس على زهرة الدنيا وزينتها علم مقام هذه الأمة اليوم، وأن الفناء بها أولى، ولولا وجود عصابة الحق، وطائفة النصر من المجاهدين لما كان لهذه الأمة وجود ولا ذكر. ومحصّل التبذير في الأمم أن يتحول اقتصادها من منتج مثمر، تستغني الأمة بما عندها عن غيرها، فتخرج من التبعية والإنقياد، وتمتنع عن الأسر والإذلال إلى اقتصاد ريعي زبوني طفيلي يحيل المجتمع إلى بهائم متعة، ومتنافسين على المظاهر الخادعة، فمع ما يحقق هذا الواقع من خواء إنساني، وفراغ قيمي، كذلك يجعل حالة المجتمع والأمة رهيناً لغيرها في طعامها وشرابها وقوتها، فتؤسر وتخضع وتباد، وهذا في المجتمعات التي لا تحمل الرسالة، وليس من مقاصدها الشهادة على الخلق، فكيف إذا سرى هذا المرض في الأمة المسلمة، وهي التي أخرجت للناس لتقيم فيهم الحق والعدل والقيم؟!

ولذلك فإن التبذير دمار للقيم، وهو وسيلة الشيطان لجعل الأمة التي تتلبس به قرينة له وأخاً من إخوانه يشاكله ويعمل عمله في افساد الأرض، وهذا المعنى من أخوة الشيطان وهو الإفساد في الأرض، فإن المبذر لا يقتصر شره على نفسه بل هو جرثومة شر يتعدى فسادها إلى الآخرين.

فالتبذير والإسراف هو عنوان الأمم الذاهبة، ومن تأمل تاريخ الحضارات علم هذا حق اليقين، فإنه ما من أمة ذهبت وبادت إلا كانت قيادتها تعيش في أقصى حالات هذا المقام القذر، ولولا خوف الإطالة لذكرت لك أمثالاً من هذا الأمر، لكن تفكر قيادتها تعيش في أقصى حالات هذا المقام القذر، ولولا خوف الإطالة لذكرت لك أمثالاً من هذا الأمر، لكن تفكر بما آل إليه حكام الطوائف في الأندلس، واقرأ أشعار ما يقوله أهلها تعلم أن دولة الإسلام هناك ما أبادها أمر كما أبادها هذا المرض الخطير.

والعجب أن بعض أهل العمائم من المشايخ يمدحون بعض طواغيت الحكم بما يحققون لشعوبهم من الترف وما يفتحون لهم من أبواب التبذير، ويعدون هذا من محاسنهم التي توجب شكرهم وطاعتهم، فإن عرّضوا بالجهاد على معنى الشر والتنفير فإنهم يجعلونه سبباً لذهاب هذا الترف وإغلاقاً لأبواب التبذير وحالهم هذا كحال المنافقين الذين قال الله فيهم﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ**﴾ ،وهذا يدلك على معيارية الفتوى اليوم عند هؤلاء فيما يخص قضايا الأمة العامة.

قوله تعالى﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا**﴾

هذا من أعظم أبواب الإحسان في هذا الدين، ذلك بأنه يجعل لكل حال مقامه من الخير، ويشرح هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في الصحيحين((على كل مسلم صدقة)) قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: ((يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق)) قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: ((يعين ذا الحاجة الملهوف)) قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: ((يأمر بالمعروف أو الخير)) قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: ((يمسك عن الشر فإنها صدقة)) ،وهكذا فإن أدنى ما يقبل منه هو ترك الشر، فالشرع يطلب من المرء فعل الخير ويحضه عليه، ثم لا يتركه إلى اعتذاراته هملاً من كل خير، بل يدفعه إلى ما يستطيع، ثم يتنزل في الطلب إلى المنتهى وهو الترك، وهذا باب مضطرد في الدين، تجده في الكفارات، ككفارة القتل الخطأ، وكفارة الظهار وكفارة اليمين

المنعقدة، وتجده في الصلاة كقوله صلى الله عليه وسلم: ((صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب)) وحديث أبي موسى رضي الله عنه في الصدقات، وتجده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثله في الحديث قوله((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)) ،وكل ذلك حتى لا يخلو المرء من عمل الخير.

ففي هذه الآية لما أمر الله عباده بالإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل جعل لمن لم يستطع النفقة باباً من الخير وهو قوله﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ ،فلا يردوا بما يحزنهم أو ينفرهم بل بما يحقق مقصد الصلة، فإن الصلة بالمال تقضي الحاجة، وتزيل سخائم القلب، وتحصل المودة، فإن عدم المال فلا أقل من إزالة السخيمة وتحصيل المودة، والكلمة الطيبة تحقق هذا، فإن زيد عليها الوعد بالعطاء إن حصل الرزق وجاء كان هذا من أحسن القول وأبلغه، بل إن هذه لآية تبين بنصها أن القول الميسور هو الوعد كما قال جمع من المفسرين، ويدل على ذلك قوله تعالى فيها﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والرحمة هنا هي الرزق، والإعراض سببه قلة ما في اليد، فتعين أن القول الميسور هنا هو الوعد بالعطاء، وفي هذه الآية بيان خطأ ما يفعله البعض من الوعد وهو قادر على الأداء، فإن الوعد في هذه الحالة للسائل لا ينبغي إلا لمن عجز عن الأداء، أما أن يعده صرفاً له عن عطائه فهذا أشبه بالكذب إن لم يكن هو.

هذا الذي تقدم هو المروي عن السلف في تفسيرها، مع أن لفظها يحتمل معاني أخرى، ومن ذلك أن يكون إعراضه عنهم لا لقلة ذات اليد والحاجة ولكن لأمر شرعي آخر، كأن يأتيه سائل ويعرض عنه لأن القول الميسور الذي يقدمه له خيراً من العطاء، كمن أتاه يسأله مالاً فعلمه طرق الكسب ودله على بابه، وهذا فعله صلى الله عليه وسلم في رجل جاء يسأله فدله على التحطيب بعد أن باع له بعض متاعه واشترى له قدوماً، فكان الإعراض عن العطاء سببه الرحمة عليه، وكان له القول الميسور خيراً له من العطاء.

ومن ذلك تعليمه لابنته فاطمة رضي الله عنها أذكار النوم وقد جاءت تسأله خادماً يعينها، فكان الإعراض عن العطاء سببه الرحمة بها حيث قال لها:- ((هل أدلك على خير لك من خادم)) ،وهذا المعنى في هذه الآية هو الملائم لبناء المجتمعات، فإن إرشاد السائل إلى ما هو خير له من سؤاله إن كان الحال يسع هذا هو الذي يحقق النفع

الموصول، وهذا المعنى لا يقتصر على السائل المحتاج، بل هو في كل سؤال علمي أو عملي، فأم سليم رضي الله عنها والدة أنس بن مالك لما جاء أبو طلحة الأنصاري يخطبها جعلت مهرها إسلامه، وقد كان، ثم كان هذا الصحابي من خير رجال الأنصار كرماً وشجاعة وإخلاصاً، ومن تأمل جواب يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام للمسجونين في رؤياهما علم هذا المعنى، والقرآن يحقق هذا المعنى في جواب أسئلة المستفتين فإن الله قال﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ** ﴾ ،فهم قد سألوا عن ماهية الإنفاق أو مقدارها، فأجابهم عن مصارفها لأن هذا أهم وأولى، ثم أجابهم بعد آيات بقوله﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ** ﴾ ، وهذا كذلك في السؤال عن الأنفال، وقد شرح في غير هذا المكان.

فالقصد أن الممتلئ يمكن أن يعرض عن إعطاء السائل سؤاله الذي طلبه ويجيبه إلى ما هو خير منه، والآية تدل على هذا المعنى، بل الذي أظنه هو الأولى في المعنى لقوله تعالى﴿**قَوْلًا مَّيْسُورًا** ﴾ ،فإن الوعد وإن كان ميسوراً في الحال لأنه قول، إلا أن فيه التكليف والتحمل، والوعد وإن كان عند جمهور العلماء مستحب الأداء وعند بعضهم واجب الأداء وهو الصحيح إلا أنه أشبه بالدين عند الأكرمين، وهو عندهم ثقل، فتحقق القول الميسور إنما هو في الصورة الثانية التي تقدمت، واليسر فيه لا يعني أنه أقل أجراً، فإن للعلماء في هذه المسألة أقوال، فإن الأجور جعلها بعضهم مطلقاً تبعاً للمشقة، والصحيح أن هذا ليس بمضطرد، ويشهد لهذا حديث جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته)) ففاق الأقل كلفة الأكثر، ولذلك ليس من الدين تعمد المشقة إن أمكن الأيسر في تحقيق نفس الفعل لقوله صلى الله عليه وسلم((يسروا ولا تعسروا)) لكن إن لم يكن بد من المشقة لأداء الفعل ولم تكن المشقة مقصودة للمكلف فحينئذ يكون الأجر أعظم ما لو أديت في غير مشقة.

فالقصد أن القول ميسور، وهو لمن أراد الخير ورحمة الله لا يصير إليه هرباً من الفعل، بل يذهب إليه لأن فيه الخير ويحقق أفضل من مراد السائل.

قوله تعالى﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا** ﴾

لما ذكر الله تعالى العطاء وذكر خير مصارفه من البشر، جاء الختم بهذا الأمر الإلهي الذي يحقق مقصد الخير للمحتاج وغيره كما يحقق الخير للفاعل وصاحب الخير، فإن إقامة الخير في الآخرين بفوات الخير عن الفاعل شر يتبرأ منه العقلاء كما تأباه الشريعة، إذ مقصد المال والمصالح تحقيق النفع للذات ثم الأدنى فالأدنى، أما أن يتحول المتليء إلى محتاج يتكفف الناس فهذا عود على بدء وكأن لم يكن شيئاً، ولذلك فإن العطاء والإنفاق لا يستقيم إلا بهذه الآية، والأمر بالإنفاق في هذه الآيات إنما كان قبل الزكاة المفروضة، لأن الزكاة على الصحيح فرضت في مكة، وأما آية الأنعام فهي في الإنفاق العام ولو كان فيها لفظ الحق كما في هذه السورة في قوله﴿**وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ** ﴾ ، ومن تأمل حقيقة الزكاة رأى فيها هذا المعنى، وهو رعاية حال المنفق ورعاية حال المحتاج، فإن ابتغى المرء الإحسان فلابدّ من هذه القاعدة الربانية، وهو عدم المنع حتى يكون حال المرء كما وصفها الله﴿**مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ** ﴾ ،والغل قيد، فإن قيدت اليد في العنق لم يكن منها إنفاق ولا عطاء البتة، وإن أرسلها بالكلية بلا ضابط لم يستقم فيها شيء.

وقوله تعالى﴿**مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ أي ملوماً إن منعت، وحسيراً عاجزاً إن أنفقت فوق طاقتك وتجاوزت العدل.

وفي هذه الآية جعل الله أثر الفساد في سلوك البشر في باب المال هو نفس الأثر في فساد توحيدهم لربهم فقال هنا﴿**فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ وقال في الآية المتقدمة﴿**فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴾ ،فالشر موت للإرادات الصالحة، والظلم انبعاث الإرادات إلى الشر، فالأول لم ينشط للخير ابتداءً، والثاني نشط إلى الباطل، فكلاهما إلى حال واحد في عدم تحقيق الخير فحق عليهما وصف القعود، فلا فرق بين قاعد لم ينبعث وآخر آل أمره إلى القعود.

والحسير كالمخذول، فكلاهما كَلّ، والمذموم كالملوم فكلاهما معاتب أو معاقب، والمقابل لهما هو من قال الله فيه ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فيه أمور:-

- أن أفعال الله مما يقتدى بها إلا ما جاء الدليل بخصوصيته، وهو باب من الأصول، فالله عز وجل وهو الغني الذي لا تنضب يده، لكن من حكمته أن يعطي عطاء الخبير البصير، فيبسط ويقدر على وجه الحكمة، وعبيده وهم عرضة للفقر محتاجون لهذه الحكمة.
- ويمكن حملها على أن المعطي والمنفق لو أنفق كل ماله رحمة بالخلق ودفعاً للفقر والمسكنة والحاجة عنهم فلن يقدر، لأن القدر الإلهي جرى أن يكون هناك فقراء، والشرع يعلل بالقدر والكينونة، وليس هذا لغير نبي قبل الوقوع، فقد قتل الخضر عليه السلام الغلام لعلة قدرية كما في سورة الكهف والخضر نبي بلا مثنوية ولا تهتم للخلاف فيه فليس بشيء، وكما منع الرسول صلى الله عليه وسلم من قتل من اتهمه بالظلم وأمره جهلاً بالعدل تعريضاً بقسمته فقال((سيخرج من ضئضيء هذا قوم...الحديث)) ،كما منع من قتل ابن صياد لعلة قدرية، وهو امتناعه عن الموت إن كان هو الدجال، وإن لم يكن فلا علة للقتل، وقوله لعمر((دعه إن يكنه فلا تطيقه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله)) ومن فقه البخاري أن جعل هذا الحديث في كتاب القدر، وهذا كما تقدم خاص للنبي صلى الله عليه وسلم، إذ لا يجوز للقاضي والحاكم إلا أن يحكما بالدلائل الشرعية، لكن لأهل البصيرة أن يعللوا الوقائع بعد نزولها وحدوثها بالحِكَم التي يشهدونها دون سواهم لبصيرتهم وفراستهم، فكم من الشرور الظاهرة في نظر العامة يراها أهل العلم والبصيرة خيراً لعاقبتها كما قال الصحابة عند قدوم الأحزاب﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ .

فالمرء قد يسعى للإنفاق مع تجاوز الحد ظاناً أنه يمكن دفع الفقر، فيرد عليه القرآن أن هذا قدر لا يدفع، وإنما القصد القصد تبلغوا.

- لكن هذه الآية لا يجوز الإحتجاج بها على منع الإنفاق الواجب والمستحب كما قال الكافرون﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ففرق بين الأمرين، وهو احتجاج بالقدر ابتداءً وقد تقدم فساده، كما أنه معارضة للشرع وتعطيلاً له بالرأي الباطل والهوى.
- وهذه الآية تصح تعليلاً لقوله تعالى﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ للمعنى الذي تقدم، وهو أن خبرة المرء وبصره في الناس هي التي تحكم عطاءه ومنعه، فهذا يعطيه لحكمة، وآخر يمنعه لحكمة، وهذا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إنّي لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار)) وإنما يعطي هذا لمعنى، ويمنع غيره لمعنى، ومن ذلك إعطاء المؤلفة قلوبهم ومنع أقوام يكلهم إلى إيمانهم كما في الحديث، فالله عز وجل يعطي قوماً لأن العطاء خير لهم ولو منعوا لكفروا، ويمنع أقواماً لأن المنع خير لهم ولو أعطوا لبغوا، وفي ذلك أثر لا يصح رفعه.

وهذه الآيات من الأمر الإلهي لو تأملت زمن نزولها لرأيت أنها تحضيراً لمستقبل، لأن الحال زمن نزولها لم يكن فيه هذا الإمتلاء الذي ينهى فيه عن التبذير، ولم يكن فيه قدرة على عطاء أصلاً، فإن الصحابة رضي الله عنهم ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكد يخرجون من شعب أبي طالب والحصار الظالم فيه، فما الذي بأيديهم حتى يضبط أمره بهذه الأوامر، إذ الآيات تتحدث عن قيّم يدير شؤون العطاء، ويدبر أمر الأهل والفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فالأمر إذاً حديث عن زمن قادم يحصل فيه الإمتلاء والغنى، بل ويحصل فيه الإستقرار، لأن التبذير ليس حدثاً لفعل ثم انقضى، إنما هو سمة حياة يؤول أمرها إلى الملامة والحسرة، فهذا حديث يحضر أهله لمهمة قيادة الناس والأموال، وهو إعداد لهم لهذا الجانب المهم، وهي كذلك رد على من يتوهم أن الإمتلاء ووفرة المال يدخل في قوله تعالى﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ،فهؤلاء المؤمنون المخاطبون بهذه الآيات عندهم من المال ما لو أنفق على وجه الجهالة لسمي هذا الإنفاق تبذيراً، فالإمتلاء لا يناقض إرادة الآخرة بشروطه التي يعلمهم الله في هذه السورة بعضها، وليس هذا الإمتلاء هو الترف الذي ذمه الله وذم أهله، كما أنه ليس هو سبب الهلاك الذي وقع على الأمم، فهذه قيم إيمانية ربانية تجعل ورّاث الأرض على معنى غير المعنى الذي عليه

المجرمون، ولا عليك أن تربط هذه القيم الإيمانية المتعلقة بالمال مع قوله تعالى﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ .

قوله تعالى﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ هذه الآية كما هو بين خطاب لمتلئين، فهذا هو سياقها، وهذا هو بنيتها، ولذلك فهؤلاء يخشون الإملاق وهو الفقر، وذلك خلاف الآية التي في الأنعام وفيها﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ ،فهؤلاء حاضر فيهم الفقر، وقد جاءت هذه الآية –في الإسراء- بعد الآيات في الحض على الإنفاق وترشيده حتى لا يعدو قدره، ويقابله من يمتنع عن النفقة أو يسد أسبابها مخافة الفقر، فقوم فيهم جهالة في الإنفاق فيؤول أمرهم إلى الفقر، وقوم يخافون الفقر فيقعون في المحظور، ومنه هذا الذي كان يصنعه الجاهليون وهو قتل الأولاد؛ أي البنات، واليوم يوجد لهذا الواقع الجاهلي ما يشبهه، فإن ما يسميه البعض تحديد النسل للمعنى الذي كان يقتل الجاهلي ابنته وهو مخافة النفقة عليها هو دين جاهلي معاصر، وقد سرى في الناس حق دخل فيه أهل الدين أنفسهم، ولم يعد يعاب عندهم، ثم تولت كبره طوائف الحكم زعماً بعدم وجود الكفاية في الموارد، وهم كاذبون، والعجب أن هذه الدعوة لا تكاد توجد إلا في المجتمعات المسلمة، وأما غيرهم فيشجعون على النسل، بل إن بعض البلدان لتكافئ على كثرة النسل وتعد الأموال على هذه الكثرة، ولولا بقايا الفطرة في أمتنا وفي أمهاتنا من حب الأولاد لكان لهذه الدعوات أثر القتل والإفناء في هذه الأمة، وخاصة لشيوع أمراض أخرى كفشو الطلاق والتأخر في الزواج بل والزهد فيه عند بعضهم، وطوائف الحكم المرتدة الجاهلية تضيق على الناس حياتهم ليصيروا إلى ما رسم لهم من الخوف من الأولاد وكثرتهم، مع ما في الشرع من الحض على الزواج من الولود، وفضل من مات له من الولد، وفضل من ربى البنات، وفضل الوالد الصالح وأنه من الحسنة الجارية وفيه معنى الحض على كثرة الأولاد.

مسألة: إعلم إن بعض أهل العلم قديماً أفتى بجواز إسقاط الولد قبل ثلاثة أشهر، وأخذ هذه الفتوى بعض المعاصرين، فأجازوا للمرأة التي تخاف الولد على المعنى الجاهلي المتقدم أن تسقطه قبل ثلاثة أشهر،

وذلك لأن الروح تنفخ في الولد بعد هذه المدة للحديث الذي في الصحيحين من حديث ابن مسعود، وهذه فتوى غير صحيحة لأسباب:-

- إن المقصد الباطل الذي يريده المعاصرون من الإسقاط وهو مخافة الولد لتحصين المعيشة، ومخافة الفقر، يجعل الفعل حراماً، حتى لو كان فهمهم لحديث ابن مسعود الآتي فهماً صحيحاً، مع أن فهمهم له غير صحيح كما سيأتي.
- لقد اختلف أهل العلم في العزل إلى أربعة أقوال أو أكثر، وهو منع التلقيح ابتداءً، والأحاديث التي جاءت في حله عند من يقول بذلك علقت الحل على الأمر القدري، وهو أن العزل لا يمنع القدر وذلك في أحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم((إن الله إذا أراد أن يخلقه لم يمنعه)) وفي آخر((فإنها ليس نفس مخلوقة إلا الله خالقها)) وقوله للسائل عن العزل((اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها)) ذلك لأن العزل يمكن أن يحقق المنع ويمكن أن يفشل فيكون الولد حينئذ، ولهذا المعنى (والله أعلم) أكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود لما سموا العزل((الموؤودة الصغرى)) لأن الوأد فيه تحقق الإزالة، والعزل ليس فيه هذا. فواقعه على هذه الصورة يجعل فعله وتركه سواء في الأمر القدري وهو الولد، لكن الإسقاط والذي يسمونه الإجهاض هو على الضد من ذلك، إذ فيه فعل إزالة أصل الولد يقيناً، وهو منع له على وجه يقيني بعد وجود أصله، فهو إفساد لموجود، لا منعاً لمقدر على وجه الإحتمال، والفرق بينهما واضح ولا شك، فإن وجه الإختلاف في العزل وهو على المعنى المذكور فلا ينبغي الإختلاف بعد وجود أصل الولد وتخلقه، إذ إلحاق هذه الصورة بالقتل أولى، ولو سماه أحدهم وأداً لما أبعد.
- أما الإحتجاج بحديث ابن مسعود رضي الله عنه والذي هو في الصحيحين والسنن وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:- ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح)) فهذا الحديث إنما يتكلم عن الروح الإنسانية لا الحياة بمعناها المطلق، فعدم وجود الروح الإنسانية لا يعني غياب الحياة، فالخلية الحيوانية ومنها الإنسانية قد تكون حيّة بلا روح، بل إن كل الحيوانات غير الإنسان فيها الحياة ولا ندري من النص شيئاً عن وجود الروح فيها، لكن قطعاً ليست هي الروح الإنسانية، وما يقوله الفقهاء عن الروح السائلة

للمذبوح إنما يقصدون به الدم لا غير، والقرآن والسنة سميا النائم ميتاً لمفارقة الروح جسده على معنى من المعاني مع بقاء اسم الحياة عليه، بل ووجود نوع من التصرف له كالتنفس وغيره، فلذلك فإسقاط الجنين في أول تشكله هو اسقاط لإنسان فيه نوع حياة وإن كان لا يقال فيه: إزهاق لروحه، ولو جعل هؤلاء هذه المدة ضابطاً في دية الجنين إن سقط ميتاً وهو الغرة لأصابوا، أما إطلاق الحل كون الفعل ليس قتلاً لنفس إنسانية فهذا خطأ، لأن الحرمة لا تتعلق في هذا الباب كون الفعل قتلاً فقط، بل لدخول هذا المعنى فيه ولمعاني أخرى، فإن الشارع نهى عن قتل النحل لمنفعته فهل هذا الكائن أقل من ذلك ليقول هؤلاء بجواز اذهابه؟!.

والقصد أن الإسقاط مفسدة عظيمة يعدلها حكم الحرمة والسقوط في الإثم، فإن انضم إليه المقصد الباطل زادت الحرمة والإثم.

هذا مع ما علم من أن الإسقاط يترتب عليه ضرر على الأم، إن لم يصل إلى هلكتها كما يعرف في العادة والمشاهدة؛ ولو تذكر هؤلاء قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل أي الذنب أعظم فقال:- ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت(أي ابن مسعود رضي الله عنه) ثم : أي؟ ،قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) لعلموا أن هذا المعنى متحقق فيهم حين فعلوا هذا الأمر، وهو متحقق في من قال إنه يحدد النسل فقط حتى لو كان عن طريق العزل أو ما كان في معناه، وليتذكر هؤلاء الكتاب الأول الذي جرت به الأقلام وأن كل ميسر لما خلق الله.

قوله تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾

فهذا تدرج في ضبط نوازع الإنسان، إذ بدأ بضبط فطرته في حب المال، وما جرى من ذكر قتل الأولاد إنما جرى على هذا المعنى، وهو لحوقه بشهوة المال، لأن قتل الولد هذا سببه، وفي هذه الآية جاء ضابط شهوة الفرج، فقد حرم الله فيها الزنا، وهذا التدرج هو عينه الذي في الحديث، فقد تقدم حديث ابن مسعود رضي الله عنه وسؤاله عن أي الذنب أعظم:- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك، فقال ابن مسعود: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، فقال: ثم

أي؟:- قال: أن تزاني حليلة جارك)). وذكر الجار هنا لأمر قربه وسهولة الفاحشة، ولحرمته أكثر من حرمة غيره لحق الجوار، وإلا فالزنا حرمته معلومة من الدين بالضرورة.

وقوله تعالى﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ ،فهو تسمية للفعل وتسمية لأثره، فالزنا قذر بنفسه فهو فاحشة، كما أنه موصل للسوء والشر لما يترتب عليه من آثار، ولا يوجد أحد على الأرض يعلم آثار الزنا إلا المجتمعات التي تبيحه فإنهم يعانون من آثاره النفسية والإجتماعية والطبية أشد المعاناة، ومع ذلك لا يتوبون ولا يستغفرون، بل يرجونه في الآخرين، ويريدون فرضه على الشعوب الأخرى تحت الأسماء الباطلة كالحرية الشخصية والفردية، لما تقدم من سعيهم لتدمير البناء الإجتماعي في الأمم ليسهل قيادتها كالدواب، وهذا هو أحد صورة قوله تعالى﴿وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ فإن الزنا لا يفشو في قوم إلا وقد ماتت فيهم الغيرة الإنسانية التي تنتصر للقيم، فإن ماتت هذه الغيرة وصار الإنسان قواداً يرضى على أهله الخنا والفاحشة سقطت غيرته على دينه وقيمه بعد ذلك، فلم يعد أن يكون بهيمة لا تصرخ إلا بعد أن يمنع عنها طعامها، وأما القيم والدين والمبادئ فليس لها حضور في نفسها وحياتها.

ومن رأى حال المجتمعات التي أحلت الزنا رأى كيف تحول المجتمع إلى بهائم ووحوش لا ينتصر أحدهم لحق أبداً، وكيف ماتت قيم الأبوة والأمومة، إذ قلما يجزم أحدهم أن فلاناً هو أبوه، فلا أخوة بعد ذلك ولا ما يحقق عمدة الوجود الإنساني في قوله تعالى﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ ﴾ ،بل هي البهيمية في أقبح صورها وأقذرها من القوادة وعدم الإنتصار للعرض، والله عز وجل ينتقم منهم بالأمراض التي لم يعرفها الناس من قبل، فينفقون عليها جهودهم وأموالهم لعلاجها، وما أن يقدروا على واحد منها حتى يخرج لهم آخر، فهم في لهاث، مع علمهم أن أساس هذا البلاء هو الزنا، لكن غرورهم وغلبة الشيطان عليهم يمنعهم من الإعتراف والتراجع، خاصة أن الزنا صار تجارة يديرها متحكمون، فالزنا يبدأ باللباس وما في معناه مما يتجمل به الناس والنساء ثم يتغلغل في كل نواحي الحياة حتى يدخل في الكلمة والهمسة، ووسائل الترفيه، فحين يمنع الزنا فيجب منع أسبابه وأسبابه تمتد إلى يد المترفين من الملأ القذر الغالب بقوة المال، وهؤلاء لهم السيطرة على عقول الناس وأفكارهم، وعلى أصحاب القرار، فأي اقتراب من هذه الأسباب يشعل النار عليهم، والحق أن هذه المجتمعات لا يكاد يوجد فيها من يفكر على وجه الحق

في هذه الأبواب، حتى أتباع الأديان المحرفة كالقسيسين فهم قد ماتت غيرتهم وماتت قيمهم، والأمر لم يعد واقفاً عند هذا الحد من الحديث عن الزنا بل وصل إلى ما هو أعظم منه وأقبح وهو اللواط، إذ صار شريعة تحمى، ويضرب كل من يستقذرها أو يستهجنها وبالقانون الذي يديره هؤلاء المأبونون، وقد وصلت هذه المجتمعات إلى الترغيب في اللواط بسبب فتح باب الحل في الفروج إلى درجة النفور منها فصاروا إلى اللواط، وهم بعد ذلك يصيرون إلى غيرها، فقد بدأت فيهم وبقوة شهوة إتيان الأطفال الصغار من الذكور، وهذا قد سرى في علية القوم فيهم وخاصة القضاة، وهذا من أعجب الأمور وأغربها.

فالزنا كما قال الله ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ فهو بذاته قذر لا تفعله إلا النفوس القذرة، ولا يرضاه المرء لغيره إلا ورضيه لأهله وهذه هي القوادة التي تمنع دخول الجنان، ثم هو سبيل إلى الشر بل إلى شرور، وإن من قذارة المعادين للدين في بلادنا أنهم يسعون لجعل أمتنا كهؤلاء الدواب الذين سقطت غيرتهم، ولم يصلوا لهذا إلا وقد مسخت فطرتهم وصاروا مثل أسيادهم، يرى أحدهم الفاحشة على أهله وعرضه ولا ينتصر، وهو ربما في أول الطريق كان يجد غضاضة وألماً في نفسه، ثم لما كثرت استمرأها حتى طوعت نفسه لها فصارت جميلة ومرغوبة، وذلك لتشاكل النفس القذرة مع اختياراتها، ثم علم هؤلاء أن لا بقاء لهم في مناصبهم ولا في ترفهم إلا أن يسوقوا الأمة إلى ما هم عليه، فتحولوا إلى دعاة رذيلة، يستقبحون الخير ويستهزؤون به ويسمون أهله بأقبح الأوصاف، وقد بدأت معاركهم ضد لباس المرأة، فصار الخمار مستنكراً، ونصرهم عمائم نخرة، إذ جعلوه من العرف الفاسد أو الطارئ على المجتمعات، وهؤلاء المفتون –لا بارك الله فيهم– الذين يمنعون غطاء الوجه، ويكذبون على دين الله في نفي وجوده فيه هم المدافِعُ الأولى لتدمير حصون الأمة الأولى ضد غزاة الشر، ولو وقفوا وقفة الإيمان، ووقفة الصدق لما تجرأت الكلاب الناتجة بعد ذلك أن تدخل في الأمة وتعمل عملها، لكن إلى الله المشتكى، فوالله لو وقفت الأرض كلها ضد المسلمين لما قدرت عليهم بشيء، لكن البلاء كل البلاء حين يأتيك الشر من داخلك، ويكون أعظم ما يكون عندما يأتيك من الباب الذي هو حصنك الذي تؤمل فيه الحماية والمدافعة، ألا لعنة الله على الظالمين.

إن هذه المعركة، وهي معركة العرض والمرأة هي أعظم معارك المؤمنين اليوم تحت راية التوحيد، وخسرانها يعني خسران كل شيء، فلا دين لقواد، ولا نصر لمن لا ينتصر لأهله، فهما قضيتان في مهيع واحد؛ الدين والعرض، وأس مصدرهما مصدر واحد وهو الغيرة، فمن ماتت غيرته على دينه ماتت غيرته على عرضه، ومن ماتت غيرته على عرضه ماتت غيرته على دينه، ومن ماتت غيرته فهو والخنزير سواء، وبعدها يقال له﴿ **وَسَآءَ سَبِيلًا** ﴾ .

وقوله تعالى﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا** ﴾ نهي عن مقارفة أسباب الزنا، فإن الزنا لا يقع إلا بعد وقوع مقدماته كالنظرة واللمسة، ولذلك نهى الله المؤمنين والمؤمنات عن النظر، فقال سبحانه وتعالى﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾ وجعل النبي صلى الله عليه وسلم النظرة الأولى للمرء والثانية عليه، لأن الأولى تقع بلا قصد، وإن وقعت لقصد فلمقصد شرعي جائز كأن يتحقق هل هي من أهله أم لا، وإذا كان الشارع الحكيم سبحانه وتعالى قد نهى عن النظر فما هو أعلى منها معنى هو أشد نهياً، كالملامسة، ومن ذلك المصافحة، وعجبت لبعضهم كيف أجاز المصافحة أو جعلها مكروهة لتضعيفه الأحاديث الواردة فيها ولم ينتبه إلى معناها الأعلى من النظرة، فهي مع النظر من قياس الأولى كما هو بين، حتى لو لم يكن عند الناظر حديث صحيح في النهي عنها، وسبب نهي الشارع عن أسباب الزنا لأن شهوة الفرج حين تقع لا يملك المرء نفسه فيها، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها:- ((وأيكم يملك لإربه كما كان رسول الله يملكه)) ،فالشهوة قبل حدوثها يملك المرء أسباب منعها، فإن استحكمت فيه ملكته وانقاد لها، ولذلك نهى الشارع الحكيم برحمته عن مقارفة أسبابها حتى لا يصل لهذا الباب.

ومن النهي عن أسبابها نهي المرأة عن كشف عورتها أو التنبيه إلى زينتها، كما قال تعالى﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ** ﴾ فهذا نهي عن إظهار الزينة، ثم هو نهي عن التنبيه إلى وجودها،

وهذا لعظم هذا الباب وأهميته في حياة المرء والأسرة والمجتمع، ولأن مجرد فتح هذا الباب شر لا يمكن تداركه بعد ذلك، فإنه أشبه بالهوي من علٍّ، فإن بدأ فإنه لا ينتهي حتى يستقر إلى منتهاه.

قوله تعالى﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

هذا تقييد إلهي لشهوة الثأر، وهي تقرن في القرآن مع شهوة الفرج كما في هذا الموطن وفي سورة الأنعام من قوله تعالى﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ وفي الفرقان من قوله﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فشهوة الغضب وشهوة الرغبة قوتان في الإنسان لا تستقيم حياة المرء إلا بضبطهما على معنى الحق، فشهوة الرغبة تقيد بالزواج، وشهوة الغضب تقيد بالقصاص، وفي هذا التقييد تحصل كفاية الحق، فإن تجاوزهما المرء دخل في الشر ووقع في الفساد، فالحر عندهم ليس معنى واحداً، بل هناك الحر الوضيع والحر الشريف، وهناك الحر الغني والحر الفقير، فلو قتل حراً حراً وكان المقتول أعلى منزلة من القاتل فإن أولياء المقتول لا يقبلون قاعدة﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ ﴾ بل يسرفون في القتل، وكان هناك حروب حملتها أخبار التاريخ في هذا الباب تصل لدرجة الخرافة والأسطورة كقصة مقتل كليب على يد ابن عمه جساس، وما سعى أخو كليب المهلهل من إفناء أبناء عمومته انتقاماً لمقتل أخيه كليب، وقامت على أثرها الحروب التي دامت السنين وأريقت فيها الدماء.

فهذه قيم الجاهلية التي تفرض شريعتها الظالمة التي تغني المجتمعات وتدمرها، ولذلك نهى الشارع الحكيم عن هذا الأمر، وجعل قاعدة القصاص وهي ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ ثم جعل منافذ خير أخرى غير القصاص وهي الدية إن قبل أولياء المقتول أو العفو، وبذلك تزول سخيمة نفس الولي ويتحقق الأمان.

فقوله تعالى﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي أن يقتل القاتل فقط أو القتلة إن كانوا جماعة، وأما غير ذلك فهو الظلم، وهذه الآية لا دخل لها في غير هذا الحكم من قتل المرتد المفارق لدينه، ولا الزاني المحصن، لأنها آية مكية

ولم تزل هذه الأحكام بعد، ولذلك قال تعالى﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا**﴾ فصدر الآية كما هو بين من هذا السياق إنما يتحدث عن القصاص فقط.

وقانون الجاهلية الأولى هذا ما زال سارياً في الناس اليوم، بل هو قانون العلو اليهودي الذي نشهده، فإن الدول الغالبة في عصرنا لا تقيم شأناً لآلاف البشر من غير جنسها، فإن قتلت منهم الأعداد فلا شيء، لكن واحداً من أبنائها لا ترضى أن يمس بشيء، بل تنتصر له أشد الإنتصار، فلا يغرنك سبّ الزنادقة من المتكلمين بألسنتنا هذه الأيام لتاريخ العرب كله، ما قبل الإسلام وما بعده، وهم أشد هيماناً وعشقاً لما يأتي به الآخر من غير العرب، فإن ما يفعله مدّعي الحضارة الجاهلية المعاصرة اليوم هو أشد فساداً من كل تاريخ البشرية الماضي، لكن مجرد العطر الجديد، واللباس الفاتن، والرقص الشهواني هو الذي يجعل للحضارات سمات الإنسانية المحترمة عند هؤلاء، أمام عدد القتلى والمشردين والأرامل واليتامى فهذا من ضرورات نشر الإنسانية المزعومة.

فالقصد أن سنن الجاهلية الأولى في القيم التي تحكم الدماء ما زالت سارية في هذه الجاهلية المعاصرة، وكل دعاوى المساواة هي شعارات تطلق لترقص عليها القردة العميلة أو الجاهلة، وهذه القيم نفسها هي التي تحكم الدول في كل تجمعاتها التي يصنعونها ليحققوا بها قانون الحضارة المعاصر، فتأمل إن شئت حقوق الدول في ما يسمى بمجلس الأمن، وهو الذي يحكم الأرض ونزاعاتها وحروبها، كيف البشر فيه سادة وعبيد، وأقوياء وضعفاء، وأعزة وأذلة، وهو أمر جلي لا يخفى، لكن غبار الأكاذيب، ودخان السحرة أعمى العيون والقلوب، ولذلك فإن العالم كله هو الذي خسر قيم ومبادئ الإسلام حين انحطّ المسلمون وذهب سلطانهم حتى حق قوله تعالى في الوجود﴿ **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ** ﴾ ثم يأتي زنديق أو خبيث أو جاهل ليزعم أن العالم قد دخل في أعلى أطوار البشرية في القيم والمبادئ، وأن دعاة الإسلام يريدون العودة لعصور الظلام!! ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا** ﴾ . فهذا المبدأ الرباني الذي يرسي قاعدة العدل في الدماء، ويبني المسلم الصحابي الذي يعده ليقود العالم وينشر الخير فيه، يقيم حق القصاص بلا تجاوز، فلا يقتل إلا القاتل، وتجاوز هذا ظلم، وكما قتل القاتل فإن من تجاوز بالقتل يقتل لدخوله في مسمى القاتل ظلماً.

أما زعمهم أن القتل قصاصاً عقوبة ظالمة كما ينعق بذلك غربان الشر من دعاة الإنسانية كما يزعمون، فإن هؤلاء هم دعاة الشر، لأن ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كما يقول الله تعالى، ولا يحقق الأمان للأمم والشعوب والأفراد إلا بهذا التشريع الإلهي، فإن الله تعالى قال﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ،فمانعو القصاص إنما يريدون تحويل المجتمعات إلى مسخ بشرية قاتلة تستهين بالأرواح والدماء، وهذا واقع الشعوب اليوم، فإن السجون التي جعلوها بديلاً لكل مجرم دون النظر إلى حكم الله تعالى قد صارت مرتعاً لتخريج المجرمين، وصار من سمات هذه الحضارة إنشاء السجون، فهما علامتان بارزتان لها؛ كثرة المستشفيات وكثرة السجون، فالأول لمرضى الأبدان والثانية لمرضى القلوب، ولا علاج وقائي لذلك، كذلك لا عقوبة رادعة لجرائم أهل هذا العصر.

أما زعمهم أن القتل استهانة بالنفس البشرية، فهذا حق حين تكون مصانة غير متعدية، فإن ظلمت وقتلت صارت مهانة ولا عصمة لها، بل ولا زجر للآخرين من الإقتداء بها إلا بالقصاص، ولذلك سماه الله ﴿حَيَوٰةٌ﴾ ، إذ لا بقاء للمجتمعات إلا به، فإن تركه أهله صار المجتمع مرتعاً للجريمة والقتلة.

وفي هذه الآية من الإسراء لم يذكر الله تعالى الدية كذلك لم يذكر العقوبة بل ذكر القصاص فقط، بل قد منع من الإسراف في القتل، لأن هذا واقع الناس الذين نزل عليهم القرآن يومها من قريش، فقبول الدية عار، وكذلك لا يرون أحداً معادلاً لهم في مقامهم وشرفهم، فلذلك جاء النهي عن تجاوز الحق في القصاص.

وقوله تعالى﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ بيان أن الحق لا يثبت إلا بالشرع، ولا ثبوت للحوق بغيره، فالله هو الذي أعطى ولي المقتول السلطان، وبغير هذا فإنه لا يثبت له سلطان ولا حق، وهذا يدلك على معنى قوله صلى الله عليه وسلم عن النساء ((واستحللتم فروجهن بكلمة الله)) فإن كلمة الله هي الشرع لا العقد، وهي مصدر الأحكام كلها، ولا ثبوت للأحكام إلا بها حتى لو كانت في الدماء والأموال والفروج.

أما جعل بعض أهل العلم السلطان هنا بمعناه القدري فهو بعيد، حتى لو تأوله بعض الصحابة رضي الله عنهم على حادثة معينة، لأن الحياة تثبت عدم تحقق هذا السلطان بمعناه القدري، فكم من قتيل ذهب دمه هدراً ولم يحصل لأوليائه سلطاناً قدرياً لأخذ القصاص من قتله، أو لتحقق غلبتهم على خصومهم، لكن أن يفهم أحد العلماء عاقبة أمر قدري إعمالاً لآية شرعية فهذا جائز، وهو ما فعله ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية حين فهم أن المنصور في الخصومة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما هو معاوية لأنه ولي الدم، وهذا الفهم ليس نصاً، بل هو أشبه بتأويل الرؤى، أو بالسواغ التي يؤول الناس فيها أمراً لأمر على جهة الفراسة، حيث يشتركان فيما يشبه قياس الشبه، ذلك لأن علياً ليس القاتل، فلا سلطان لمعاوية عليه حتى لو كان ولي الدم، وتوجه معاوية لقتال علي يحقق معنى الإسراف في القتل، لأنه توجه إلى غير القاتل، وقد جاء في الحديث أن فئة معاوية هي الباغية، وسواء كان هذا اللفظ على معناه الظاهر كما قال بعضهم، أو على غير ذلك، فإنه يبين أن الحق كان مع علي، وعدم الإسراف شرط لتحقق النصر كما تنص الآية، ولو صح هذا القول من هؤلاء على تفسيرهم لفهم حبر القرآن رضي الله عنهما لجاز لكل ولي قتل وليه ثم منع من القصاص لسبب شرعي كما هو سبب علي ولا شك أن يقاتل الإمام وهو متيقن بالنصر إعمالاً لهذه الآية، وهذا لا يقوله هؤلاء البتة، بل لا يقوله عالم قط.

والقصد أن تأويل ابن عباس لهذه الآية على ما قال إنما هو على المعنى الذي تقدم، وقد شرحت هذه المسألة في غير هذا الموطن، وهي جواز الإستبشار بالقرآن على معاني، أو التيامن به، على أن لا يتخذ هذا الفعل سنة جارية كما يفعل بعض الجهلة فيما يسمونه الإستفتاح أو الإستخارة، فإنه إن أراد شيئاً فتح القرآن ثم وضع اصبعه على الصفحة المعينة ثم يقرأ الآية التي وقع عليها اصبعه ويجعلها كالإستخارة لفعله، وهذا وإن وقع من بعض كبار أهل العلم كما ذكر خادم ابن تيمة عنه في رسالة عنه فيما أذكر إلا أن جريان العادة به بدعة ولا شك، لكن الناس يستبشرون بما يسمعون عن إراداتهم الحاجات والقرآن أعظم ما يستبشر به، وحوادث هذا الباب في هذا المعنى كثيرة وكتب الأخبار طافحة بها، وقد وقعت مع كبار أئمة العلم والتفسير والفقه فلا تستنكر كما فعل بعض المعاصرين زعماً أن هذا حماية للقرآن من الإهانة أو اعماله في غير ما أنزل له، وذلك حين استبشر بعضهم بآيات من سورة التوبة وموقعها على حدث من الحوادث النوازل، وعلى كل فالقرآن الكريم كتاب الشرع وأحكامه، وأما القدر ونوازله فإن القرآن يتكلم

عن قواعدها استطراداً، وأما أعيانها فهو حديث مجمل ولمعاني تحقق الهداية واليقين كالوعود كما تقدم في هذه السورة، أو تنبه لأمر عظيم كعلامات الساعة كما في سورة النمل﴿ **وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ** ﴾ ،وكذكر يأجوج ومأجوج في سورة الكهف، أو تحدياً كقوله تعالى﴿ **غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** ﴾ ،وأما غير ذلك فهو مقصد ثانٍ تبعي، ويقع في القلب على ما يقع من الفراسة وتأويل الرؤى والتفاؤل، وكل ذلك رابطه مع الأصل بقياس الشبه ولا زيادة.

وقوله تعالى﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا** ﴾ هذا أمر شرعي بنصرة ولي المقتول حتى يصل إلى حقه، ولا يجوز نصرته إن تجاوز مسرفاً، بل جاء الشرع بردعه كما قال صلى الله عليه وسلم((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)) ونصرة الأخ الظالم كما بين الحديث أن يردع عن ظلمه، وهذا الأمر وإن جاء بصيغة الخبر إلا أنه أمر، وذلك لأهميته، ولمجيء الأمر به في غير هذا الباب، فإنه قلما أتى أمر بصيغة الخبر إلا وكان له مجيء من باب آخر علم أنه أمر أو قد سبق معرفته من قبل، وهذا بين بالإستقراء لمن درسه.

قوله تعالى﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا** ﴾

وهذا أمر بمنع شهوة التملك من التجاوز بسبب ضعف المقابل أو القدرة على الإستتار، فإن اليتيم ضعيف، كما أن القيم عليه قادر على الأخذ بسهولة وخفاء، ولذلك جاء الزجر بلفظ ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟** ﴾ ، ذلك لأن الأسباب حين تكون سهلة، أو يكون مقدوراً عليها، فإن النفس تهوي للفعل بيسر، ويحتاج منعها إلى طاقة واستطاعة، كما تقدم في باب الزنا، فإن الهويّ إلى القاع سهل إن أتى المرء أسبابه، وحال اليتيم سهل المنال فنهي عنه بنفس اللفظ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا۟** ﴾ .

وقوله تعالى﴿ **بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ فسرته آية سورة النساء بقوله تعالى ﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ ،فالمتقي لربه لا يأخذ من مال اليتيم إلا إن كان محتاجاً، ثم لا يأخذ منه إلا ما جرى به العرف مما تطيب له نفوس العقلاء من أمثاله، وبما يتلاءم مع ماله ومقداره.

وقوله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فسرته سورة النساء بقوله تعالى﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ .

وفي سورة النساء أبواب أخرى من منع التحايل في أخذ مال اليتيم، كالزواج من اليتيمة رجاء أخذ أموالها، ولتراجع هناك في مظانها، وهو باب يضطرد في منع التحايل مطلقاً في أكل مالهم بغير حق.

وقوله تعالى﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ هذا لأن أساس القوامة على مال اليتيم مبني على العهد، إذ يتعهد القيم بحفظ المال وصيانته، بل وتنميته، فجاء الأمر بالوفاء بالعهد متصلاً بالنهي عن أكل اليتيم، ثم هو أمر عام بالوفاء بالعهد مطلقاً، وهذه الآية دليل على أن الوعد ملزم كما هو قول بعض أهل العلم ومنهم الظاهرية وهوالصحيح، لكنها كذلك رد عليهم بقولهم أن الأصل في العقود المنع، فإن الآية أمرت بالوفاء بالعهد مطلقاً، فكل العهود يجب الوفاء بها إلا عهداً أحل حراماً أو حرم حلالاً، وهذا هو الصحيح في الباب.

وقوله تعالى﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ دليل على وجوب الوفاء بالعهد كما تقدم وما في معناه كالوعد لعدم الفارق المؤثر لأن الفرق بينهما أن الوعد من طرف والعهد من طرفين، ولا حجة لقولهم إن اللزوم لا يكون إلا في المعاوضات، وأما تفريقهم هنا بين الديانة والقضاء فلا وجه فيه، مع أنهم اضطربوا في بيان الفارق بين ما هو قضائي وما هو ديانة ولهم فيها صولات ليس هذا مكانها، والعهد في هذه الآية مسؤول قضاءً وديانة ولا فرق.

قوله تعالى﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

وهذا أمر بالوفاء على معنى آخر، وهو من توفية الحق لأهله، فإن الله أنزل الميزان ليقوم الناس بالقسط كما ذكر في سورة الحديد، وقد وضعه الله في الخلق رحمة بهم كما في سورة الرحمن في قوله تعالى﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ،ومن عدل الله ورحمته أن أمر بالعدل في الكيل، فأوجب أن يوفيه حقه ولا يبخس منه شيئاً كما قال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ وهذا من مقاصد بعثة

الأنبياء لأقوامهم إذ قال شعيب لقومه﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ وقال تعالى عنه﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ .

وهذا الأمر بالإيفاء هو قاعدة تحريم الربا، فإن الربا أكل مال الغير بغير حق، وهو ضد الميزان بالقسط، فإن الله قال﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ،وفي هذه الآية بيان أن أمور الناس تجري بمعنيين؛ الكيل والميزان، ولا يخرج الناس في معاوضاتهم عنها، فإن الشيء إما أن يكون مكيلاً أو يكون موزوناً، وقد أمر أهل الإيمان بإقامة الحق فيهما، أما ما هو مكيل وما هو موزون فهذا يعود لأعراف الناس، فقد يتناوبان على شيء واحد، وكم من شيء كان مكيلاً ثم صار موزوناً وكذلك العكس، ولا مشاقة في هذا الباب، ولا التفات لمن جعل ذلك ديناً لا دخل للعرف فيه، لكن يبقى ما عين الشارع فيه معنى فيجب أداءه على على هذا المعنى كمقدار صدقة الفطر، ونصاب النقدين؛ الذهب والفضة.

وقوله تعالى﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ وصف لذات الفعل، ووصف لعاقبته، فإن التأويل في القرآن على معنيين؛ أولاهما:- التفسير كقوله تعالى﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي تفسيرها، وثانيهما:- العاقبة بالفعل، ذلك كقوله تعالى عن يوسف عليه السلام:- ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ ﴾ أي واقعها، وكقوله تعالى﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي حقيقته، فقوله تعالى هنا﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ هو بالمعنى الثاني، فإن واقع وفاء الكيل والوزن بالقسطاس واقع العقد وحقيقته الكونية، وهو أحسن من الخيانة والبخس.

وقوله تعالى﴿ وَأَحْسَنُ ﴾ ليس من باب التفضيل على الفاضل، فإن البخس شر وظلم، لكن هذا من باب المبالغة في وصف حسن الفعل.

وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي عاقبته في الآخرة حق، وهو من باب التفسير ببعض حقائقه، لا قصراً عليها.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى قواعد العدل والعمل في المال والنفس جاء ذكر بيان قواعد الحق في العلم والشهادة، وهذا أمر قد اعتنى به القرآن أشد العناية، ومن تأمل سورة النجم رأى فيها قواعد الإسلام في هذا الباب، كما أن آيات أخرى في غيرها فيها ضوابط السداد والتوفيق لتحقيق العلم الصحيح، وأدائه على وجهه الملائم له، كما أنها اعتنت هناك بالأسماء والمصطلحات كذلك، لأنها وإن كانت ألفاظ إلا أنها قوالب المعاني وفسادها يعود على فساد المعنى كذلك.

في هذه الآية من سورة الإسراء يأمر الله عباده بعدم تصديق أو قبول أو قول ما لم يتحقق بطريق صحيح، فإن العلم الصحيح إنما يحصل بالسماع والبصر والإستقراء أو الإستنباط أي بعمل القلب بقواعد الفطرة والنظر، وهذه القواعد تكون خاصة لكل علم، فما يحصل بالإستقراء لا يجوز أخذه بالإستنباط، فإن علم التكوين لا يجوز أخذه بالقياس الصوري كما ساد في كل الأرض قبل الإسلام، بل إنما يؤخذ بالبحث والتجربة والإستقراء والملاحظة، وهذا كله من مقتضى كلمة ((العلم)) الواردة في هذه الآية، فإن أخذ العلم من غير طريقه يسلب عنه صفة العلم وهو بالجهل ألصق.

وقوله تعالى﴿ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ ﴾ دليل على أن العلم إنما يحصل بالإستقراء والملاحظة، ولا تأمل إلا بعد حقائق ما ينفذ منهما، أما إعمال الكليات الذهنية لتفسير الوقائع والكون فهو جهل يوناني سرى في الفلاسفة والمتكلمين، وعلماء الإسلام برءاء منه ولا يجوز نسبته للقرآن ولا للسنة النبوية.

وفي هذه الآية إنما تتحدث عن باب التكوين والشهادة عليه، سواء في الوقائع التي تقع فيها الحقوق أو الأحكام، كالشهادة في العقود والحدود وغيرهما، أو في ما هو خارج ذلك كتفسير الحوادث الإجتماعية أو الكونية، لكنها يمكن الإحتجاج بها في علوم الرواية والإستنباط أي الإجتهاد لأن هذه العلوم مدارها على السمع والبصر والفؤاد كذلك.

وقوله سبحانه﴿ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ دليل على أن العقلي الفطري دليل بذاته، كما أنه وسيلة لتحصيل الدليل، فالعقل الفطري له قدراته التي فطر عليها وصارت من يقينيات الوجود الإنساني، وكذلك فإن أعمال هذه المقررات في المسموع والمنظور يحقق وجود الدليل للآخر، لكن مع اعتبار أن كل علم له دليل وموارده.

ويقابل المسموع والمنظور ومقررات العقل الفطري التوهم والخيال، وهي معاني تقع في النفس بلاد دليل في معناها، وهذا باب لا ينقطع وليس له ساحل، وهو جهل مضطرد، بدءاً من الشرك إلى ما هو أدنى منه بكثير، وكل انسان له حظ منه لا يمكن أن يفوته، فإن الله عز وجل هو العليم، والله قضى على الإنسان بقوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: 72] ،والسعيد من هداه الله إلى الحق، واجتهد وسعه في رد الواردات التي تغزوه بلا دليل واعتبار.

على أن مقتل العلم ليس في أخذه من غير موطنه فقط، وإنما له موهن ومذهب آخر وهو الهوى، فإن المرء قد يبدو له العلم ويعرفه لكن لا يتبعه ولا يؤديه على وجهه اتباعاً للهوى، ولذلك جمع الله هذين في قوله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: 23].

وقوله تعالى ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ ،دليل على أن العلم عبادة، وأن إعمال القلب في النظر والفكر بالإستنباط والإستقراء عبادة كذلك، فإن المرء لا يسأل إلا على ما كلف به، فتعطيل ما كلف به، أو إعماله في غير بابه معصية يؤاخذ العبد عليها.

وإعمال هذه الآية في الأمة يقضي على الجهل، ويُذهب كثيراً من أخبار السوء، ويحقق السداد وبلوغ المقاصد من أبوابها بأسرع وقت وأدنى جهد، لكن لما صار العلم في الأمة هو الكشف الصوفي، وما في معناه مما يسمونه العلم اللدني كذباً على الله، وصار المجاذيب هم الأولياء، وصار متقن فن من الفنون يتكلم في كل الفنون، وصار في الأمة من ينظر في اللوح المحفوظ يتعلم الغيب ويعلم أسرار التكوين، وصار أهل البطالة ينفقون من خزائن الغيب لولايتهم، وصار من حق الفقيه أن يتكلم في كل علم كالطب وسواه، لأن الفقه أجل العلوم، وصار تأويل الرؤى حِمىً مستباحاً لكل مدع، وهو العلم الذي خص به نبي على وجه المدح له كما قال تعالى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف: 21]،وصار إخراج الشياطين من الأبدان بديلاً عن علم الطب، وصار الفتح الرباني الصمداني (زعموا) خيراً من حدثنا وأخبرنا، وصار هناك ظاهر وباطن، وعلم شريعة وعلم حقيقة، كل هذا وما في معناه لما صار في هذه الأمة فإنه قلب خيريتها إلى الضد، فصارت أهون الناس وأذل الناس وأجهل الناس، والعجب أن أعظم علوم الأرض وأشقها وأصعبها وهو التغيير، وهو العلم الذي يستبطن كل علوم الوجود صار أهون

العلوم عند أهل الإسلام، وصار يتحدث به كل أحد بلا ضابط، وكل يزعم أن وسيلته في التغيير هي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي التي تحقق العزة للمسلمين، ولو روجع أحدهم في فرع من فروع هذا الباب لبهت أن هذا علم له قواعده، فإن حققت في أصول هذا القائل لوجدت أن مجرد جمال الواردات هي الدليل الوحيد، لأن أغلب هؤلاء لم يعرفوا واقعهم، أي ما يقال له في أصول الفقه بتحقيق المناط، بل إن أحدهم ليمدح نفسه ويمدحه أتباعه بأنه لا يعمل سمعه وبصره في إدراك واقعه، بل هو ابن الكتاب لما مضى وانقضى، ثم إن قيل له كيف نعمل انطلق لسانه بلا ضابط سوى جمال الوارد وحسن الصياغة، ولو أن هؤلاء حققوا قوله تعالى﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾لما زاد أحدهم عن قوله: لا أدري، وهي مطية الصالحين حين لا يدرون.

قوله تعالى﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾[الإسراء: 37]

هذا نهي رباني للمؤمنين بعدم المشي مرحاً، فإن باعث هذا المشي إنما هو الغفلة عن العاقبة والإغترار بالنعمة، والمرح بطر وأشر، فإن دخل في المشي كان اختيالاً، وهي مشية يبغضها الله تعالى فإنه قال في الحديث القدسي((العزة إزاري والكبرياء ردائي من نازعني فيهما عذبته)) ،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي دجانة وقد تخايل بين الصفين ((إن هذه لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن)) أي القتال، والسلوك الظاهر دليل على الباطن وما في النفس والقلب، كما أن فعل الظاهر والجوارح يؤثر في القلب والنفس، فحالهما كحال الدم والقلب، كل واحد يمد الآخر بما معه، فلا يجوز مجرد المشي بالإختيال حتى لو زعم صاحبه أنه يفعله بلا كبر، فلو صدق فإن المشية تمد القلب بالكبر حتى لو لم يكن فيه ابتداءً، وهذا لمن تأمله علم صواب من منع الإسبال مطلقاً حتى لو كان بغير اختيال.

والآية هنا جعلت مشي المرح كأنه تمدٍ للأرض وترفعاً عليها، فذكّر الله الناس بأنهم أعجز في مشيهم مهما كان فيه الإختيال أن يخرق الأرض فيشقها، أو أن يبلغ في تيهه طول الجبال وارتفاعها.

فإن قيل إن هذه المشية تحقق مقصد صاحبها من التيه على الناس والترفع عليهم وقد يقصد إيذاء شانئيه وحاسديه، ولم يقصد الماشي شق الأرض ولا مطاولة الجبال؟ فيقال له إن الظواهر المدعاة خوادع، فيريد المرء بها أمراً ثم تأخذه إلى أزيد من مراده، حتى يبلغ به الوهم إلى اعتبار هذه الظواهر حقائق، وهذا معنى

ذكر هذا الأمر بعد قوله﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾فإن الهوى خادع، وهو على معنى إعمال الظواهر المدعاة حقائق تنتج عنها مراد صاحبها، فالمرء بعد بلوغ حاجته من هذه الأمراض الخبيثة تصبح الأمراض حاكمة عليه تسوقه ولا يسوقها، وهذا كشارب المخدرات، فإنه يشربها لمعنى، ثم تستحكم به وتسوقه فيغلب عليه المرض حتى ينقاد له كانقياد الكلب لمرض السعار، فبعد أن يحقق الماشي مرحاً مقصده في التيه والترفع والإيذاء يأخذه هذا المرض إلى أوهامه كما تأخذ الحشيشة صاحبها، فيتخيل أنه بلغ من القدرة ما يحقق به وهمه، وما هو إلا هو الذي كان عليه بصغره وضعفه وقلة حيلته، وهذا الذي وقع للمغرور لما تخيل أن يقتل إله السماء كما زعم، وهو الذي يقع ليأجوج ومأجوج حين يوجهون سهامهم إلى السماء، وهو شعار هذا العصر عندما قال أحدهم ممن يسمونهم بالفلاسفة ((مات الإله))، وهو الوهم الذي قاله تعالى عنهم﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾[يونس:24]،وما هو إلا مجرد وهم ومرض وخيال أطفال صغار، ولذلك قال الله لهذا الماشي أمراً سيقع فيه بسبب غروره وكبره، كما قال نمرود لابراهيم عليه السلام﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾[البقرة: 258]،وهذا الماشي مرحاً سيتوهم يوماً أن الأرض صغيرة أمامه، وأن الجبال متصاغرة لهامته، وهي أمراض العقل بعد سيطرة أمراض القلوب، فهذه الآية تنبيه إلى آثار المعاصي على الإنسان، فإن أول آثارها أنها ترتد على صاحبها بإفساد عقله، وهذا باب مضطرد في كل عطاء الله للبشر، فإنهم إن اغتروا به انقلب عليهم شراً ووبالاً، وكان مقتلهم من هذا الباب لا من غيره، وهذا بيّن في سقوط الأمم وانتشار الخراب.

والقصد أن الإنسان مهما بغلت قوته وعلمه فهو محكوم بالسنن، وها هو الإنسان في هذا الزمان وقد اغتر بما معه من قوى، وبما بلغ من معالجته سنن ربانية إلا أنه ما زال ضعيفاً أمام شق الأرض وأمام بركان الجبال، فلو أن الأرض مادت تحته قليلاً لما دفع عنه شرها كل آلاته وعلومه وقدراته، وكذلك لو ثار بركان من رأس جبل، لأدرك الإنسان صغره وضعفه، وأن الأرض التي زعم السيطرة عليها قد غلبته ووقع ما قال الله عن نمرود﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[البقرة: 258]،فالإنسان أسير لسنن الكون وليس حاكماً عليها ولا هي تحت سلطانه، ولكنه الوهم والغرور.

قوله تعالى﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[الإسراء: 38]

وهذا أعظم ما يردع المؤمن عن اقتراف الشر فإنه يكفيه أن يعلم أن هذا الفعل مكروه لله حتى يعرض عنه، وذلك دون المراجعة، لكن بعد التسليم والتصديق لا يمنع من البحث عن حكمة الأحكام وآثارها، وهذا مبلغ الراسخين في العلم، بل هو من أخص علومهم.

والآية جعلت لهذه القبائح وصفين؛ أنها سيئة في نفسها، وهي مكروهة لله تعالى، فصحيح الفطرة يدرك قبحها الذاتي ثم يجتمع مع هذا الشرع الذي بين كراهية الله تعالى لها، ولذلك لا يأتي هذه الأمور إلا منكوس الفطرة ومعرض عن الشرع، لكن لأن الفطرة أضعف الحجج، وأقل من أي وارد خارجي عليها فإن تغيرها سهل، ولذلك فحاجة البشرية للشرع لبيان هذه الأمور أمر ضروري، فالنبوة ضرورة للبشر ولا استغناء لهم عنها.

وقوله تعالى﴿مَكْرُوهًا﴾دل على أن هذا اللفظ في القرآن يعني التحريم، وهو استخدام الأوائل له كما قرر ذلك أهل الفن، فإن الكراهة في كلامهم لا تعني ما استقر عليه مصطلح الكراهة عند الأصوليين، وفي الحديث((إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال)) وهو لفظ متردد بين الحرمة وما هو أدنى منها مما يسمى الكراهة عند الفقهاء، ولذلك يحتاج إلى دليل خارجي لبيان درجته، ويقابل كلمة الكراهة في الحديث كلمة الحب وهي ككلمة الكراهة تحتاج دليل من خارجها ليحدد حكمها: الوجوب أم الإستحباب، هذا إذا كان الحب والكره ليسا في الأمور الجبلية وكقوله صلى الله عليه وسلم: ((إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر))[3]، وهذا دليل لك أن أحكام القرآن غائية وأحكام السنة غائية وسطية كما قال بعض أهل الأصول، وهو قول صحيح له شواهد كثيرة تبحث في مظانها، فلا يوجد في القرآن نفاق أصغر ولا كفر أصغر، بل كل نفاق فيه أكبر كما كل كفر فيه كذلك، وأما معنى كلمة ابن عباس((كفر دون كفر)) فلها موطن آخر من الشرح، إذ فهم الواقعة التي عليها الخلاف في إيقاع الآية بغائيتها أو بوسطيتها مهم لفهم كلمة حبر القرآن رضي الله عنه، ويدلك على المعنى المتقدم كذلك ما روي في الصحيح من حديث ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال((من حوسب عذب)) قالت عائشة((فسوف يحاسب

[3] هذا الحديث بهذا اللفظ عند الطبراني، وقد ورد هذا الحديث ومناسبته في مواطن متعددة وبصيغ مختلفة، فهو في الصحيحين عن أبي الجهيم بغير هذا اللفظ، وعند غيرهما عن غيرهما عند المهاجرين بن قنفذ وابن عمر وأبي هريرة وجابر، ومرة كانت كراهة السلام بسبب البول، ومرة بسبب عدم الوضوء، فانظر شراح البخاري في كتاب التيمم باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخاف فوت الصلاة.

حساباً يسيراً)) قالت: فقال صلى الله عليه وسلم((إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك)) ،فإن النبي صلى الله عليه وسلم فسّر الحساب اليسير بالعرض، وهو دليل على جواز تغيير لفظ القرآن في التفسير للإفهام فإنه صلى الله عليه وسلم فسر الحساب اليسير بالعرض، لكن المراد أنه لولا كلمة﴿يَسِيرًا﴾في القرآن كان معناها العذاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فاقتران الحساب بها يعني أنها ليست غائية، ولو خلت عنها لكانت كذلك، فإطلاق الألفاظ في القرآن يكسبها هذا المعنى بخلاف ما لو قيدت، وهذا بيّن في الحديث.

قوله تعالى﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴾ [الإسراء:39]

جعل الله سبحانه هذه الأحكام والنواهي من الحكمة، والحكمة في القرآن على معاني وليس على معنى واحد، فإنها تأتي بمعنى السنة كما في قوله تعالى﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾[الأحزاب: 34]، وكقوله﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾[النساء: 113]، وتطلق على العلم مطلقاً مع العمل به كقوله تعالى﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[البقرة: 269]، وتأتي بمعنى حسن القضاء وإدراك الحق في المنازعات كقوله عن داود عليه السلام ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾[البقرة: 251]، وتأتي بمعنى مطلق الفهم كقوله تعالى﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ﴾[النساء: 54].

والحكمة هنا هي الأمر الإلهي، وضد الحكمة السفاهة والطيش، وكفى بوصف الله تعالى لأوامره هذا الوصف العظيم ليعلم أن شرعه هو الحق وأن غيره إنما هو زبالات البشر وقذاراتهم.

وقوله تعالى﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴾تقدم أن هذه الحكمة الإلهية وضعت بين هذا الأمر بقوله تعالى﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾،وقد تقدم الفرق بين الأولى وهذه، فالأول قاعد عن الخير ولا إرادة له فيه، ثم العاقبة أن يرمى في جهنم ملقياً فيها بعيداً عن كل خير.

وقوله تعالى﴿مَلُومًا ﴾فإن الملائكة تلومهم وقد ذكر هذا مراراً في القرآن كما في سورة الأعراف والزمر والمؤمنون وحم وغافر.

ويلومهم الله تعالى كما في الأنعام.

ويلومهم شركاؤهم كما في الصافات والشعراء.

ويوم القيامة هو يوم التغابن كما سماه الله تعالى.

وهذه الأوامر الإلهية ﴿ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ إنما نزلت على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على الحال الذي علمت من البلاء والإمتحان، فلا مال عظيم يبذرونه، وحالهم ليس فيه ما يحقق المشي مرحاً، بل هم المستضعفون المستخفون، وقد قتل منهم سمية رضي الله عنها فلم تهتز شعرة لقاتلها، فماذا إذاً؟ ولماذا تنزل هذه الآيات في هذا الحال؟

هذا تأكيد لك على أنها وعد إلهي لهم بتبدل الحال، وهي إعداد لهم لهذا التبدل الذي هم على بعد خطوة منه، فسيأتي المال، وسيأتي السلطان، وستأتي القوامة على الآخرين، وهي حقائق لا تقع إلا بأمان واستقرار، وفي هذا الأمان والإستقرار يجب مراعاة ((الحكمة)) ليتحقق البقاء الذي يقوم مع هذه الفئة على رضى الله تعالى، فهذه عمد البقاء للأمم، وهي أسس تحقيق العبودية عند النصر والتمكين، فهي دستور المرء والجماعة، وهي مكونات الشخصية الفردية والجماعية لمجتمع الإيمان القادم.

إنها البناء العلمي والخلقي لوراث الأرض، وهي في صيغتها خطاب للفرد لكن حقائقها سارية في أمة، وهذا من خصائص الخطاب القرآني في مثل هذه الحكمة، إذ أن الخطاب للفرد يحقق الأثر في كل الظروف، ويشعر بالإلتزام دون تبرير للتنصل، فيدخل مع الفرد حيث كان، وعلى أي وجه من أحواله، ثمّ إن سريانها في هؤلاء الأفراد يحقق صبغة جماعية لمجتمع متكامل فتكون آثارها وعواقبها على الأمة وحضارتها، فهذا مجتمع يحمل أفراده التكليف، ويشعر كل فرد فيه أنه مسؤول مسؤولية مباشرة في أداء الحكم والحفاظ عليه ومراقبته، فليس هناك طبقة حكم وطبقة محكومين في أداء الأحكام الشرعية التي تحقق صبغة المجتمع ومسماه، فإن كان لابدّ من قائد لأمر لا يتحقق وجوده إلا بالجماعة فإنما هو مكلف من الجماعة لاستيفاء هذا الأمر وأدائه، لا لأنه هو المكلف به ابتداءً دون الجماعة، وحين يتأخر في الأداء ويقصر فيه يعود الأمر إلى المكلفين به أصالة لاستيفائه وتحقيقه، ولا يقولون:- ((هو المكلف لا نحن، وإثمه على نفسه لا علينا))، وحين ينقلب هذا المفهوم يسقط مفهوم الأمة وصبغتها الإسلامية ليصبح

الحديث عن دولة فقط، وهذا من أعظم الشر، وهو الذي وقع، فحين سطت الدول والحكومات على حقوق الأمة في هذا الباب، وانتشر الكسل الذي أشعر الأمة بالراحة لهذا السطو، لأن هذه الحقوق هي واجبات وتكاليف، فتلاشى مفهوم الأمة أمام تغول الدولة، حتى إذا سقطت الدولة كانت الأمة قد غابت قبل ذلك، فاحتاج الدعاة والعاملون لدين الله تعالى إلى إعادة مفهوم الأمة أولاً ليتحقق وجود الدولة، ومفهوم الأمة لا يتحقق إلا بالقيادة الحقيقة لها، وليسوا هم الحكام بل هم العلماء، وهؤلاء خلال حقب التاريخ الإسلامي قد ذهب سلطانهم على الأمة والدولة شيئاً فشيئاً أمام تغول وتمدد الدولة، مع دخول عوامل الفساد العلمي والخلقي والنفسي فيهم، فانكشف المسلمون عند محنة سقوط الدولة إلى أفراد لا قيادة لهم، بل سارعت قيادتهم العلمية إلى الإنضواء تحت السلطان الجديد دون نظر إلى صبغته الشرعية وهل هو ممثل للأمة في إقامة أحكام الشرع أم لا، فعم الفساد واندرس الدين ودخل الإسلام بحق في غربته الثانية.

وللخروج من هذه الغربة لابدّ من العودة للقرآن في طريقته لإعداد المسلم الصحابي الجديد، فالمسلم الصالح الذي يتحقق فيه هذا المعنى لابدّ أن يكون غريباً، وغربته تبدأ في رفض أعظم شر يراد منه، وهو أن يقبل أن يكون عضواً في مجتمع الجاهلية، وهذا يبدأ إعداده من فهم التوحيد على معناه القرآني الصحيح، ثم بالوعود القرآنية، فإن التوحيد لا يكون إلا برفض الآلهة الباطلة في كل وقائعها ومعانيها، وهذا يوجب العداء لكل الطواغيت في كل مستوياتها التي تقبع على سطح العالم وتسيطر عليه، وأما الوعود فهي في حقيقتها عمل للتغيير، وهي بمقدار عظمها فما هي إلا تحقيق للتوحيد الذي يحقق العداء لكل طواغيت الأرض، إذ أن جغرافية هذه الوعود ليست قطعة أرض بل الكون كله، فالوعود القرآنية هي التحقيق العملي لتوحيد المسلم حين يعلمه على وجهه القرآني، وحين يُفهم هذا يتبين لك خطأ الخطاب الوعظي الموجه للفرد المسلم اليوم، فإنه خطاب كسيح، يدفع المسلم إلى ذاتيته وداخله، ويعطل فيه المواجهة، وهي تكليف الله تعالى له ليتحقق به وراثة الأرض، فإن اجتمع مع هذا الخطاب الكسيح جهالة زائدة وهي إزالة شعور الغربة بالدعوة إلى أن تكون عضواً في مجتمع الجاهلية، لا خارجاً عنه، تحقق

في هذا الفرد فوق الكساح وجود فاعلية الشر في تحوله إلى عضو من أعضائه ومن حماته ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: 104].

ولذلك فتقطيع هذه الأوامر ﴿الْحِكْمَةِ﴾عن التوحيد، وفي أنها عبودية لله تعالى، ثم في إبعادها عن كونها صياغة لوارث موعود بالنصر والغلبة يحيلها إلى خطاب ميت لا يؤتي آثاره في إعداد المسلم المجاهد الذي يسعى لإزالة الغربة وتحقيق النصر، بل يسهل استخدامها في تطويع المسلم ليدخل عضواً مشذباً في مجتمع الجاهلية، ولذلك فهي لا تخيف الطواغيت كما أخاف التوحيد أسلافهم، بل هم يستخدمونها في خطابهم وحديثهم لصناعة هذا المسلم الكلّ المشذب الطائع لسلطانهم وجاهليتهم.

فعنوان المسلم في الغربة إنما هي الوعود؛ وعد الجنة والدخول في رضى الله، ووعد النصر والتمكين، وهما يحققان الصبر واليقين، ويتحققان بالصبر واليقين، وبهما تتحقق الإمامة، ثمّ بعد العنوان تستقيم الأحكام على معنى صحيح، لا يستخدم لباطل، ولا يذهب بلا آثار، ومن غير وجود هذا العنوان وهو الأصل الجامع فإن جماليات هذه الأحكام لا تحقق آثارها، بل لا تمنع استخدامها في تعميق سلطان الجاهلية.

فائدة آخرى في توجيه الخطاب إلى الأفراد، مع أن صبغتها صبغة أمة، وآثارها في الوجود الحضاري لهذه الأمة، أن الخطاب للفرد في هذه الفترة يدلك على أنه هو المقصود، وأنه اللبنة الأساسية للبناء، فالكمال الإنساني في الفرد مطلوب من الإبتداء، في نفسه وأصوله العلمية، بخلاف الجماعة وهي هيكل جامع لمشروع، فإن الجماعة التي تكتمل في الإبتداء على وجه الشذوذ بين قدراتها وواقعها يجعلها مع تعاقب الزمن تنقص ولا تزيد، أو إن أحسن حالاتها أن تبقى كما هي مع سرعة إنطلاق وتغير ما حولها، وهذا ما وقعت فيه الجماعات التي قام بها أصحابها لإحياء الخلافة، حيث كانت الجهود موجهة لصياغة الجماعة، وكان الفرد تابعاً لها، فآل الأمر بهم إلى فناء الفرد واضمحلاله داخل سطوة الجماعة، وتحولت الجماعة إلى هيكل متكلس ثابت لا فاعلية فيه، بل صارت العلاقة بين الفرد والجماعة علاقة شغل ووظيفة أكثر من كونها إطاراً لانطلاق الفرد في مجال علمه ونفسه، كما أن هذا الكمال المزعوم في البدايات جعلها تذوي في داخل المجتمع الجاهلي وتتماهى معه كجزء منه، أو أن تبتعد منه حتى يصبح وجودها كعدمه.

وهذا الفارق التكويني بين طوائف الجهاد وبين غيرها من الجماعات الأخرى، إذ أن الناظر يرى كيف تسير طوائف الجهاد ارتقاءً مع الأحداث، دون ارتكاس داخل الشعار أو الهيكل، بل نرى الأشخاص هم الأشخاص، يمضون بأصولهم الثابتة لكن مع الإطار المتغير الذي يستوعب الحدث، ولا يخضع للواقع بسبب عدم تقديس الهيكل، والذي يتحول الدفاع عنه في ظروف معينة إلى رهق وإلى حساب هذه الأصول، وبهذا يحصل التحول المكاني بسهولة ويسر، لأن المبدأ هو الجامع لا الهيكل ولا جغرافيته، وبهذا التحول يحصل الإرتقاء في فرض الوجود على الواقع البشري كله حتى لو كان الحدث محصوراً في مكان، ويُقابل هذا التكوين المهتدي لهذه الطوائف مع الطوائف الأخرى التي سارع أصحابها لتأسيس الهيكل على حساب الإنسان، إذ آلت هذه المؤسسات إلى سحق الفرد المبدع، ولو حاول أحدهم ذلك لجوبه ولوحق وطرد حفاظاً كما يزعمون على الهيكل المقدّس وهو الجماعة، وهذه الجماعات وإن بدأت ضخمة لكنها ارتكست إلى داخل الأقطار الفسيفسائية الصغرى، مع محاولتها الظهور بمظهر العملاق وليست كذلك، وتعطل دورها من التغيير إلى المشاركة، ومن تحقيق الوعود إلى إصلاح الموجود ضمن قواعده وأصوله.

كما أن توجيه الخطاب للفرد يجعل الولاء للمعنى، والتشديد على وجود الإطار على حساب البناء النفسي والعلمي للفرد يكرس الولاء للهيكل، فيتحول الإنسان المهتدي بالخطاب القرآني إلى صاحب قضية يعيش معها حيث تكون بلا ارتباط مع مكان أو إسار، وأما الآخرون فإن الزمن والأحداث تحولهم إلى أصحاب مؤسسة يعتنون بها حتى لو كان هذا الإعتناء على حساب المبدأ والقضية، وحينها يفقد خطابها شمولية المبدئية والوجودية، ليتقزم داخل هموم الهيكل وقضاياه.

وها هنا لابدّ من التنبيه إلى قضية، وهو أن الواقع ينبهنا إلى وجود أفراد يعيشون في أفكارهم وتصوراتهم وسلوكهم على وفق تلك الهياكل، إذ يهتم أحدهم في الصياغة النظرية لمراحل التغيير، ويرفع لها الشعارات، ويعيش وهم الجماعة حتى لو كان وحده، أو حوله بعض المريدين، وحين يدعى إلى قضية من قضايا الإسلام فإنه يتفاعل معها بمقدار وهم الجماعة التي يحياها في شعوره وخياله، والفارق بينه وبين تلك الجماعات أن هذه الجماعات لها قبائل وعوائل حقيقية لكن صاحبنا يعيشها وهماً فقط.

قوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: 40]

هذا بيان لنوع من أنواع شرك قريش، وهو قسمة الشر، وقسمة الشر لها صور شركية كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ﴾[الأنعام: 136] وقوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[النحل: 56-57] وقوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾[النحل:62] ،والشرك هذا مبتدؤه، حيث يصرف حق الله تعالى لغيره، كأسمائه الحسنى سبحانه وتعالى كما قال الله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾[الأعراف: 180]،والإلحاد هو الإمالة، وهو أخذ الشيء إلى غير مستحقه، وكصرف نوع من أنواع العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والنسك، أو كمنع حق الله في الحكم على بعض خلقه كقولهم ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[الأنعام: 138-140]وقوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[المائدة: 103]،فالشرك هو صرف حق الله إلى غيره.

وفي هذه الآية من سورة الإسراء ذكر الله شرك قريش، حيث عاب عليهم ما يقولونه من أن من حقوقهم الذكور وأن الله جعل الملائكة إناثاً مختصاً بهم، وهذا الشرك فيه سب على الله تعالى حيث اعتقادهم أن الإناث عار وضعف، فجعلوها لله على هذا المعنى، وهذا قد تكرر في القرآن بيانه ففي سورة الصافات قوله تعالى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الصافات: 149-157] وقد

ذكر هذا في سورة النحل عند قوله تعالى﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾[النحل:62] وفي سورة النجم﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾[النجم: 21-22].

ومن آثار هذا الشر تسمية الإناث بأسماء الملائكة، وهو أمر سار في الناس دون انتباه لهم لأصله الفاسد، مع أن الكثيرين يفعلونه على جهة التحبب لبناتهم ولكن هذا معصية لقوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾[النجم: 27] وقوله تعالى عن المشركين﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾[الزخرف: 19]كما أنه تشبه بالمشركين واعتقادهم مع ما فيه الكذب والقول على الله بلا علم.

وقسمة الشر هذه تتشكل في كل نفس معرضة عن الهدى، ولها صور متعددة في الأمم والمجتمعات الجاهلية، فإنهم ينسبون الخير لأنفسهم، ويجعلونه من فعلهم ومن ذكائهم ونشاطهم، فإن وقع ما يسوؤهم نسبوه إلى الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر: 49-51]،ومن قسمة الشر كما تقدم قسمة الحق الإلهي في الحكم والتشريع، فيجعلون لله حق الحكم في أمر، ثم لا يرضون حكمه في غيرها، وحالهم كما قال الله تعالى في أسلافهم﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[النور: 48.-50].

وهذه القسمة هي الشرك وهي أساسه ومصدره، ولا يفعلها أحد إلا وقد كفر وأشرك بالله تعالى، وهي داخلة في قوله تعالى﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾[الإسراء:39].

وهذه الآية تبين أن الناس في عبوديتهم لله ليس لهم الإختيار، وليس لهم الدعاوى الكاذبة، وليس لهم إحاطة العلم في ما غاب عنهم، كما أن هناك من الأقدار الإلهية ما يجب التسليم له، وإنزاله على وفق الشرع لا وفق الهوى والرغبة، فليس للناس حق رد وجود الذكر والأنثى، إذ كل من عند الله والواجب إعمال الشرع فيهما، لا إعمال الهوى والرغبة، والخير للوجود بوجود هذا التنوع القدري لا إزالته، ولو

أرادوا لما استطاعوا، إنما هو الفساد فقط على معنى قوله تعالى على لسان إبليس﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[النساء:119] ، فهي إعادة للإنسان إلى وجوده الحقيقي بلا خداع، ونهي عن تجاوز حده في كونه عبداً لله تعالى، فإن رام غير ذلك فهي الأكاذيب العريضة العظيمة.

ومراتب هذه المعصية كما جاءت في القرآن على ثلاثة مستويات:-

- فقد بدأت بتسمية الملائكة إناثاً.
- ثم جعلوا هذه الملائكة بنات لله.
- ثم عبدوها من دون الله.

هذا مع قوله تعالى عنهم﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[النحل:58].

وهذه المستويات تدلك على تدرج الشر، وكيف يبدأ من الاسم كما بدأت أول معصية في الوجود مع أبينا آدم عليه السلام حين سمى الشيطان له شجرة المعصية، شجرة الخلد وملك لا يبلى.

ثم بعد تثبيت الاسم واستقراره، والألفاظ قوالب المعاني، ذهبوا إلى مرتبة الإعتقاد على وجه التعظيم لا على وجه الإستيلاد، فسموا الملائكة بنات الله، وهم لا يقصدون إلا نسبة التعظيم لا على وجه الإستغلال بل على وجه التبعية كما قال أهل الكتاب﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[المائدة:118]، وهذا الإبتداء ثم تغيب هذه البدايات ليكون المعظّم له حق المنسوب إليه وهو العبادة، فيقع المحظور وتحصل العبادة، وهذا هو سبيل كل شرك في الوجود، فبهذا عبدت الأصنام، وعبدت القبور، وعبد عيسى عليه السلام، وعبد الصالحون، فإنه لا يوجد معبود من هؤلاء ويعتقد فيه العابد استقلال الربوبية، بل هم يعظمونهم لنسبتهم لله تعالى على معنى من المعاني، وبهذه النسبة يبررون لأنفسهم ما يصرفون لهم من أنواع النسك والخضوع، ويحاجون خصومهم بهذا القدر زاعمين أن الشرك لا يتحقق إلا بجعل الكفؤ لله في كل صفات الربوبية، أو صفة من صفات الربوبية على معنى الإستغراق، وهذا النوع من الشرك لا يكاد يوجد في أمة من الأمم قط، إذ أن الشريك في كل أديان الشرك إنما هو من أعطاه الله حقاً من حقوقه أو صفة من صفاته وجعل له إرادة العمل بها، وهذا هو ما ورده القرآن في آياته كقوله تعالى﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ

﴿...بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18] وقال سبحانه﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:45] والآية بينت أن المشركين قد زعموا أن عبادتهم لآلهتهم الباطلة مصدرها الله، فهو من أمرهم بصرف العبادة لآلهتهم، فدل هذا أن المشركين يعتقدون آلهتهم لا تستقل بالربوبية كما أن حق عبادتها مكتسب وليس أصلي لذاتها، حتى الذين يقولون بالولد فقولهم واضح على هذا المعنى.

والقصد أن هذا الأمر الإلهي هو إبراء لمجتمعات الإيمان من سلوك هذا السبيل الجاهل والذي محصلته الشرك، وإن كان ابتداؤه بالألفاظ والأسماء، ووسطه بالقياس الفاسد، وهو قياس الغائب على الشاهد، وخاتمته بالقول على الله بلا علم، وكل واحدة من هذه المراتب هي ضلال بنفسها، كما أنها سبيل لما هو أعظم منها من الضلال والشر.

قوله تعالى﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾[الإسراء: 41].

هذا وصف رباني لحال المتلقين لحكمة القرآن وآياته، فإن حال المؤمن معلوم معها وهو التذكر، وأما حال الكافر فهو على ما قال تعالى﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾هذا مع أن كل ما صرف فيه حق، فأحكامه هي الحكمة، ونذارته حق، وحججه لا مطعن فيها، إلا أنها النفوس حين يستحكم بها الشر والهوى.

والصرف بيان وتوضيح، لأن الصّرف تحسين وزيادة كما يقال ذلك للدراهم، ومقصد الحق في هذا الصرف لا يتحقق في نفوس المعرضين، بل لا يزيدهم إلا نفوراً، ومع ذلك لابدّ من فعل الحق لأنه كذلك، ولأنه يحقق مقاصد أخرى عير استجابة المعرضين، ذلك لوجود من يقبلها كما قال تعالى﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[الأنعام:89] ،ولأن من مقاصد الصرف إقامة الحجة لينقطع العذر، كما أن زيادة البيان التي تحقق زيادة النفور من هؤلاء تعجل العقوبة ويقع استحقاقها الذي يريده الله منهم.

وهذا المنهج القرآني في بيان الحق وتوضيحه وتحسينه يخالفه زاعموا الحكمة المعاصرة ممن يسترون الكثير من الحق زاعمين أنهم بهذا الستر يحققون حب الآخر لدين الله تعالى، وهو منهج خداع لا يتلاءم مع الحق، ولا يتلاءم مع

عزته، فإن الحق لم يأت ليوافق أهواء الناس، بل جاء لتقويمها، وجاء ليفصل بين الناس على شطيه وعدوتيه، فمحب متبع له، وكاره معرض عنه، وبهذا يتحقق مقصد الأنبياء، ثم تسير أحداث الحياة على وفق المدافعة بين هاتين العدوتين؛ عدوة الحق وعدوة الباطل، أما أن يقال: استروا، فهذا لا يحقق إلا المداهنة وإلا الإجتماع على الخبث والمكر والخداع.

والله عز وجل في هذه الآية يعلم أن توضيح الحق وبيانه وتفصيله سيزيدهم نفوراً، ومع ذلك لم يراع هذا ونهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن المداهنة فقال سبحانه وتعالى﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم:9] وقال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[المائدة: 49]، فهذا منهج القرآن، يدعو الناس إلى منارة هدى بينة واضحة، يأتي إليها من هداه الله، ثم لا يلبث عليه البلاء في الشهوات والشبهات حتى ينقى من كل معارضة تمنع تحقق العبودية التامة، فإن العبودية كالأرض المعبدة، وهي أرض لا يوجد فيها نتوء ولا عوارض، بل هي سهلة تمر عليها أحكام الله وأقداره فلا يكون إلا التسليم والرضى والقبول، ولا تنطق الألسنة إلا بما يرضي الله، ويقابل هؤلاء المعرضون، فإنهم يعرضون من أول الطريق، ثم لا يزال البيان يتوالى وهم يزدادون كفراً وإعراضاً حتى لا يكون لأحدهم عذر عند الله، ولا يكون له مقام يستحقه إلا جهنم وبئس المصير، فإن جاءت أحكام الله تعالى للمؤمنين بمعاداته ومقاتلته لم يكن لأحد من المؤمنين أن يؤجل ذلك زاعماً أن هناك منافذ من الخير لم تستوعب معه.

فإن تأملت ذلك علمت الفارق بين منهج القرآن في البيان والوضوح، وبين دعوات بعضهم ممن يطلق كلمة الحكمة على منهجه الذي صنعه من جهة نفسه ظاناً أنه يحقق مقاصد الإسلام بتحسينه في عين خصومه، وهو تحسين لو وقع إنما يقع على حساب الحق، حيث ألقى عليه ألواناً من الباطل التي تتلاءم مع باطل المعرض حتى حصل التوافق وبعض الرضى، وهذا المنهج الباطل قد غزا الناس اليوم وصار من قواعد فقههم ووعظهم وافتائهم.

والآية تبين أن مراد الله أن يذكروا، وواقع هؤلاء أن يزدادوا نفوراً، فهل يستطيع أحد أن يزعم أن سبب النفور هو عدم سلوك السبيل القويم – عياذاً بالله-، نعم، لا يوجد مسلم على ظهر الأرض يزعم هذا، لكن الكثيرين يزعمون أن بعض الأحكام الشرعية لو طبقت أو أعلنت لحققت هذا النفور، والحق أن الحالين واحد لمن تدبره،

لكن فهم الناس لما يقع منهم يوقعهم في مثل هذا التخبط، ويجعلهم في مقام الإستدراك على الله تعالى – عياذاً به جل في علاه–، ومن قرأ بحثي في كتابي –كسر الأصنام– قراءتان، علم كيف تقع القراءة الجاهلة اليوم لأحداث المجاهدين والدعاة والعاملين لدين الله تعالى.

قوله تعالى﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء-42-43].

هذا من باب التفضيل والصرف وبيان الحق، فإنه سبحانه وتعالى لما نهى عن الشرك، وبين آثاره في الدنيا والآخرة، فإنه جاء هنا في هذه الآية ليدلل على فساده من جهة نفسه، والإنتصار للتوحيد هو عماد القرآن، والشرك هو أعظم الظلم وأفسد معاصي الإنسان، ولا يهونه إلا من طمس الله قلبه، ومن قرأ سيرة الأنبياء والصحابة رضي الله عنهم علم شدة مقتهم للشرك وأهله، وعلم أن مدار حبهم وبغضهم إنما هو توحيد الله تعالى، ولا يهون الناس على الله إلا بعد انحطاطهم لهذا القذر، فإن الساعة لا تقوم وعلى الأرض رجل يقول: الله.

في هذه الآية يبين سبحانه أن ما يزعمه المشركون من آلهة إنما هم عباد لله، يخضعون له، ويبتغون رضاه، ويسعون إلى طاعته، وهذا معنى ما تقدم من أن الشرك لا يعني وجود المكافئ لله تعالى فقط، بل هؤلاء المشركون يعتقدون بحاجة هذه المعبودات الباطلة لله في وجودها وإمدادها، وأنها تسعى لله في الدعاء والعبادة والإخبات، فإذا كان هؤلاء المعبودون كذلك فلم يعبدهم هؤلاء الجهلة، وما العبادة إلا للإله الحق، وهو الله الصمد الذي لا يحتاج لأحد، بل يحتاج إليه كل أحد.

وبهذا يتبين لك أن اتخاذ الوسائط لله تعالى شرك، وأن المرء حين يصرف لهذه الوسائط أعمال النسك فإنه اتخذها آلهة من دون الله تعالى حتى لو جعلها خالية من معاني الربوبية كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرف، لكن يكون الشرك أعظم حين يزعم هذا العابد أن الله قد أسند لهذه الوسائط أفعال الربوبية كالخلق والرزق والتصرف، وهذا يوجد في مشركي العرب كما أنه يوجد في الفلاسفة الذين جعلوا للأفلاك القدرة على التصرف، كما أنه يوجد في الصوفية ومشركي العبّاد في هذه الأمة، ومن قرأ كتب هؤلاء رأى الشرك صريحاً عندهم، حيث يزعمون أن أولياءهم يتصرفون في الكون، وأن إرادتهم نافذة فيه، فإن حوججوا قالوا هذا من إسناد الله لهم، ظانين أنهم بهذا لا

يشركون، وهو عين الشرك وأعظمه كما ترى، والعجب أن الشرك مع فساده من جهة النظر والفكر إلا أن البراءة منه لا تكون إلا لأتباع الأنبياء، إذ ربما تجد المرء عالماً في الكونيات، بصيراً بالسنن الجارية في باب من الأبواب، لا يقبل شيئاً في الماديات إلا بدليله من الإستقراء والنظر، إلا أنه حين يأتي لهذا الباب تجده من أضل الخلق، فهو يعبد البقر، أو الصور، أو الأموات، أو الجن، وهذا جلي بيّن في زماننا.

وفي هذا دليل على أن العبادة أمر فطري، لا يقدر المرء على الخلوص منها، ولكنها دليل كذلك على فساد الخلق فيها من غير هداية الأنبياء والوحي، فلا يغرنك الزعم أن البشرية قد تطورت في براءتها من الشرك كما كتب بعضهم كعباس محمود العقاد في كتابه((الله)) وغيره، حيث زعموا أن الشرك قد بدأ في البشرية على وجه ساذج من عبادة الطوطم ثم ترقى الإنسان حتى وصل إلى التوحيد، والتوحيد عندهم ليس هو توحيد الأنبياء، فإن هؤلاء الكتاب يطلقون على النصرانية أنها ديانة توحيدية، وهي ليست كذلك، فالتوحيد ليس هو إثبات الخالق، ولا الزعم أن خلاصة كل عبادة لمعبود تؤول لواحد، بل التوحيد أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يصرف لغيره أي عمل من أعمال العبادة القلبية أو العملية.

فالبشرية في هذا الباب ما زالت على حالها الأول، يقع فيها الشرك بصورته التي وقع فيها قوم نوح عليه السلام لما قالوا له:- ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[نوح:23] ،فالأصنام والصور والخيالات ومعابد الشرك ما زالت قائمة، وعموم الخلق إلا أهل الإسلام مشركون يعبدون كما يعبد آباؤهم كما قال تعالى﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ ﴾[هود:109] ،ولذلك فإن الشرك هو خاتمة البشرية حين تقبض أرواح المسلمين الموحدين، وأما أن الشرك سيعود في هذه الأمة فنعم، هذا مع ما معهم من هدى القرآن والسنة، ووضوحها في النهي والتنفير عنه، لكن جهالة النفوس، وغلبة الشيطان سيؤديان إلى لحوق طوائف من هذه الأمة بالمشركين كما في الحديث((لن تقوم الساعة حتى تضطرب نساء دوس حول ذي الخلصة)).

والحال اليوم قبل حصول هذا تجد الشرك فاشياً في مجتمعات المسلمين، فمن رأى ما يقال لها الموالد وعلم اعتقاد أهلها فيها تبين له أنها لم تقم إلا على الشرك الصحيح، فمولد أحمد البدوي في مصر لا يقام على معنى الإحتفال

بمولده فيكون حكمه في باب الفقه، أحلال أم حرام، أجائز أم بدعة، بل إن إقامته كما في كتب أهله إنما تقوم على قواعد الشرك الصريح، وإن شئت شيئاً سريعاً في هذا الباب فاقرأ ترجمة أحمد البدوي في ((جامع كرامات الأولياء)) للقاضي يوسف النبهاني لترى هذا جلياً، فإنه يسميه بالغوث الكبير، وهذا لقب شركي لا شك في ذلك، كما يسميه القطب الشهير، ومعناه عندهم أن الله أوكل له حق التصرف في الكون، فإن الأقطاب عندهم أربعة، وكل واحد من هؤلاء قد أسند الله إليه حق إدارته الكون بإرادته ولذلك قول الشعراني فيه:- ((وأخباره ومجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج، وإغاثة الناس من قطاع الطريق، وحيلولته بينهم وبين من استنجد به لا تحويها الدفاتر)) ،هذا مع أنه لم يكن يصلي كما يذكر الكتاب نفسه، فقد ذكر أن الإمام تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله قد قال له:- ((إنك لا تصلي وما هذا من سنن الصالحين))، لكن الشعراني جعله يصلي في جزائر البحر حيث يطير إليها هناك، فالعجب كيف يرونه لا يصلي ثم هو يذهب إلى أماكن أخرى.

أما اعتقادهم في المولد فانظر إلى الشعراني ماذا يقول(تخلفت عن ميعاد حضوري للمولد سنة 948هـ (وفاة البدوي كانت سنة 675هـ) ،وكان هناك بعض الأولياء فأخبرني أن سيدي أحمد البدوي كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول: أبطأ عبد الوهاب (أي الشعراني)، ما جاء).

أما قصة فكاك الأسرى التي قالها الشعراني، فهي أن امرأة لجأت إلى قبره تستغيث به في فكاك ابنها من أسر الإفرنج فأحضره في قيوده.

وهذا الإعتقاد ليس للعوام فقط بل هو اعتقاد كبرائهم وقضاتهم ومفتيهم ومشايخهم، فيوسف النبهاني من خريجي الأزهر، وقد كان قاضياً لبيروت في محكمة الحقوق العليا، وأما الشعراني فيسمونه الكبريت الأحمر، وكتابه((الميزان الكبرى)) هو قاعدة أصول فقهائهم في تصويب المجتهدين وتفسير اختلاف الأئمة الفقهاء.

ولذلك فهذا باب لا يجوز التهوين منه، ولا يجوز قبول بعضهم أن الشرك هو سمة المجتمعات البائدة المتخلفة، وأما اليوم فلا يتصور وجوده أو يضَعَّف، وهذا الأمر قد وقع فيه بعض الفضلاء، أي التهوين من أمر شرك النسك، ولعل بعضهم له عذر حيث يطغى على بصره بعض أنواع الشرك الأخرى كشرك الحكم والقضاء، أو شرك الولاء والبراء، فلا يتصور هذا الشرك إلا في الزوايا المنسية أو البعيدة، ولكن واقع الحال أنه شرك منتشر في

كل المجتمعات حتى المدنية منها، بل هو سمة كل المجتمعات في الأرض إلا أهل الإسلام، ولكل قوم من هؤلاء آلهة من صور وأصنام وخيالات يخافون منها ويرجونها، فيلجؤون إليها في عبادتهم وفي حاجاتهم.

وقوله تعالى﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[الإسراء-42] هي كقوله تعالى عن عيسى عليه السلام﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 17] وكقوله﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: 172]وكقوله تعالى﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾[الرعد:16] ذلك لأن المعبودين مقهورون مخلوقون، وهم أنفسهم بحاجة لله تعالى، وهذا يعلمك أن الوهم خلاق، فإن المعبود إن كان صالحاً تبرأ من عابده في الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً رضي بهذه العبادة في الدنيا وكفر بها في الآخرة، فالمعبود يعلم ضعفه، وأنه محتاج ضعيف، وأنه عبد لله يلجأ إليه عند حاجاته، لكن المشكلة في العابد ووهمه، فإن وهمه وخياله هو من يخلق فيه اعتقاد ما لم يكن، فيعيش أسيراً لهذا الوهم الذي صنعه هو من داخله، وهذا حال الجهلة في كل وقت والأمر كما قال تعالى عن عبادة الجن﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: 6].

وقوله تعالى﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ينزه الله نفسه عن الشريك، فإنه سبحانه العزيز المتكبر، وهو أحد صمد، والكل عباد له، لا يقدرون على شيء إلا بإذنه، وهو سبحانه قيم عليهم، وهم محتاجون إليه.

أما زعم بعضهم أن الله أوكل حق التصرف في الكون لبعض خلقه فهذا من أعظم الظلم، فإنه سبحانه قال في الكتاب﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33]، ذلك لأن هذا التوكيل لا يقع إلا على جهة الضعف، فإن الموكّل يرسل الوكيل لعجزه من أن يحيط بكل شيء، ولذلك يتخذ الوكلاء، والله عز وجل محيط بكل شيء علماً وقدره، ثمّ إن الزعم أن بعض خلقه من الجن والإنس لا تجري إرادتهم إلا على وفق إرادة الله في التكوين هو كذب على الله وعلى خلقه، فالأنبياء هم أعظم البشر عند الله، وهم خير من الجن، بل الجن تبع لهم، إلا أنهم لهم إرادتهم التي يقع فيها ما يصوبّه الله لهم، كما وقع لرسولنا صلى الله عليه وسلم وهو خير خلق الله تعالى من تصويبه في قصة أسرى بدر، فكيف يكل الله لأحد من خلقه أن يدير الكون بإرادته على وجه الإستقلال، ولذلك لا يقع هذا

الإعتقاد إلا مع سوء ظن بالله كما يقول الملاحدة الذين ينازعون الله تعالى في تشريعه وحكمه، فهم يقرون لله تعالى أنه الخالق للكون وما فيه والإنسان، إلا أنهم يقولون إن الله قد ترك الخلق بعد ذلك لأنفسهم في أحكامهم وتشريعاتهم، وكثير منهم يقولون حتى في أقدارهم، فإرادة الله التشريعية وإرادته القدرية لا وجود لهما في الكون عند هؤلاء، وهذا عين ما يقوله الذين يزعمون وجود الأقطاب والأوتاد والغوث وما شابه ذلك، وهو شرك الأمم من نوح عليه السلام إلى يومنا هذا.

فالله عز وجل ينزه نفسه عن هذا الكذب، فهو نسبة النقص إليه والله عز وجل سبحانه أن يكون كذلك، ولذلك قال﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾والقول هنا بمعنى الإعتقاد، لأن الإعتقاد قول القلب.

وقوله تعالى﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي مالك العرش وربه، وذلك كقوله﴿وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وقوله﴿ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ فهذه نسبة الملك، ويعرف الفرق بين نسبة الملك ونسبة الصفة من النظر إلى المضاف إليه، فإن الصفة لا يتصور وجودها استقلالاً كقولك((ذو الحمرة)) أو كقوله تعالى﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ فهذه صفة، إذ لا يتصور وجود للقوة بلا قادر، أما إذا أمكن وجود المضاف إليه مستقلاً فتكون النسبة ملك كقوله تعالى﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ فإن للناقة وجود مستقل، فنسبتها لله نسبة ملك، ولكن هذه النسبة لا تكون إلا للتشريف إن نسبت لله تعالى.

فقوله تعالى﴿ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ أي مالك العرش، والعرش هو أعظم المخلوقات، وهو سقف الوجود المخلوق كله، وهو محيط بالوجود كله، ولذلك هو سقف الجنة.

وهذه النسبة هنا إنما ذكرت لاختصاص الله تعالى بها، إذ كل مخلوقاته تحت العرش، والعرش أعظم خلقاً منها جميعاً، فلا ينسب العرش العظيم الكريم إلا لله سبحانه وتعالى، ويرى بعض أهل العلم أنه أول المخلوقات، وهو محمول من الملائكة كما قال سبحانه وتعالى﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[غافر:7] ، وفي الحديث أن له قوائم، وقد جاء وصفه بالعظيم وبالكريم كما تقدم، فهو عظيم في خلقه كريم في رتبته.

والله عز وجل وإن كان فوق العرش إلا أن علمه وسمعه وبصره وقدرته محيطة بالعرش وما دونه سبحانه وتعالى، والعرش لم يذكر في القرآن إلا في مقام التعظيم لخالقه كقوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[الزمر:75] وكقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[غافر:7] وكقوله ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[غافر: 15] وكقوله ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[المؤمنون: 16].

وأما أن الله تعالى فوق العرش للآيات في قوله تعالى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والإستواء لا يكون إلا بالفوقية كما تقتضي اللغة.

قوله تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء:44]

فبعد أن سبح الله نفسه جل في علاه، ذكر أن الوجود كله مسبح له، والوجود هذا المقصود به غير الإنسان فإن في الإنسان كافر ومؤمن كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن:2] ولما ذكر الله سجود الخلق له كما في سورة الحج قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج:18]،ولا حاجة للخوض في تسبيح بدن الكافر وجلده وشعره فهذا من التكلف مع أن بعض أهل العلم قد خاض فيه، وضابط العلم الصحيح عن غيره هو في الأثر، كالجدال، فإن الجدال الممدوح ما أنتج علماً نافعاً، وكان من ورائه العمل، وأما غير ذلك فهو جدال مذموم.

فالله يخبر أن السموات السبع والأرض ومن فيهن من عمارهن يسبحون لله تعالى، بل إن كل الوجود يسبح لله تعالى، وهذا علم مثمر ولا شك، فإن المؤمن حين يسبح لربه يعلم أنه على نسق واحد مع الكون في ذكره وتمجيده لله، ووجود الغفلة في الآخرين من البشر لا تشعره بالغربة عن الوجود، بل هؤلاء الغافلون هم الغرباء عنه، وهم النشاز لا هو، كما أن هذا العلم يوجب تعظيماً لله تعالى، فإن علم المرء لهذا الأمر يلقي في قلبه عظمة الله تعالى،

فالكون بما فيه من عظمة وهيبة واتساع ومع ذلك هو يسبح لله تعالى، فإن تذكر أن من عمار السماء الملائكة ومنهم الروح الأمين جبريل وميكال واسرافيل علم عظم الرب وجلاله، كما أن النظر لهذه المخلوقات مع إدراكه أنها تسبح لله يذكره بأن يكون مسبحاً لله تعالى، فإن رؤية المؤمن للمسبح والذاكر تذكره بالتسبيح والذكر.

كما أن هذا العلم هام للغرباء، فإن المبتلى الغريب يحتاج إلى مؤنس، فإن ظن أن ما حوله ميت لا حياة فيه يزيده هذا الظن غربة، فإن علم أن الوجود حي وله إرادة، وأن إرادته مصروفة لذكر الله وتسبيحه حصل له الأنس بأي شيء يكون حوله، وهذا الأمر من أعظم ما يحقق الراحة والأنس للغريب والمبتلى، كما أن هذا من أعظم ما يحقق الألفة مع الكون والخلق، فما يقتل المرء ويتعبه شعور الغربة بلا أنس ولا عاقبة، وهذا لا وجود له في الإسلام، ولا مع القرآن، لكن هذه الغربة موجودة في غيره، وهو ما يؤدي بهم إلى المرض والجنون والإنتحار، لكن المؤمن القرآني المهتدي يشعر بالألفة مع الكائنات، فإن حصل له الغربة مع الإنسان بسبب إيمانه أو علمه، فإن هذه الغربة تتحول إلى طاقة وإرادة بسبب أنسه مع الوجود والكون وبسبب العاقبة التي يرجوها من هذه الغربة.

ولذلك لا عجب أن تأتي هذه الآية في الحالة التي وصفت لك سابقاً في مقدمات الإسراء حيث زاد البلاء واشتدت المحن حتى وصلت الذروة.

فالأنس لا يكون بالإنسان فقط، مع أن اسم الإنسان مشتق منه، إلا أن خلاف الدين والمقصد، وتفاوت العلم يحول هذا الأنس إلى ضده، فيفر الإنسان إلى شاكلته، وهذا مبعث الفكر المصاحب للذكر، فإن هذا الوجود المسبح لله لا يليق به إلا حال الجمال، وإنما يقع القبح بدخول الإرادات الفاسدة عليه، كعمل الإنسان فيه على غير وفق الشرع، أما الوجود في أصل وضعه، أو في وضعه على مراد الشرع فإنه متلائم في ظاهره مع معنى الجمال كما أنه مسبح لله تعالى تسبيحاً حقيقياً بمنطق له كما أن للإنسان منطقاً خاصاً به.

وفهم هذا على وجهه القرآني يعلمك مدى أفق الجمال في هذا الدين، وهو أفق تتحقق فيه متعة لا سفاهة فيها، لأنها متعة يلتقي فيها جمال الوجود مع جلال خالقها، فيحصل من ذلك هذه الكلمة العظيمة التي افتتحت بها هذه السورة وهي – سبحان الله-.

والجمال بغير هذا المعنى إنما هو سفاهة وخفة، يصير فيها الإنسان إلى منطقة اللهو الباطل، وهي منطقة غلبة بهيمية الشهوة لا غير، لكن الجمال في هذا الدين مع ما يحقق في النفس من لذة عظمى إلا أنه يحقق مقصد الوجود وهو تعظيم الله وتسبيحه وتطبيق شرعه وإقامة الحق في الوجود، وأقرب ما يدني لك هذا المعنى هو الزواج، فإن المرء يساق إلى الزواج بدافع الشهوة، وهي من لذائذ الوجود، بل هي أعظم لذائذ الإنسان السوي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم((حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء)) ،فهي لذة بدنية نفسية شعورية، وهي تتحقق للشاب الذي يأتيها أول مرة مع البكر دون الثيب لقوله صلى الله عليه وسلم لجابر: ((هلا بكراً تلاعبك وتلاعبها)) ،ومع ذلك فإنه قال لجابر رضي الله عنه لما ذكر له جابر علة زواجه من الثيب: ((الكيس)) ،أي عليك بالولد كما في الصحيح، فإن هذا الجمال يكون عبثاً لا قيمة له بغير الولد، لكنه مع الولد إنما هو الجمال المسؤول الهادف.

وإيمان المسلم أن الوجود مسبح لله يلقي في قلبه تقديراً لهذا الوجود مهما كان، فلا يفسده، ولا يحتقره، بل هو على أي وجه كان إنما يحقق في نفسه التفكر والإعتبار والتقدير، ومن رأى حياة الصحابة في هذا الباب علم إلى أي درجة من الذوق قد بلغوا، فإن رأفتهم بالدواب ورعايتهم لها وإحسانهم إليها يبلغ درجة لا يمكن فهمها إلا بعد هذا الإدراك من إيمانهم بهذه الآية ومثيلاتها من قوله تعالى﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم**﴾[الأنعام:38] وقوله تعالى عن النملة﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ**﴾[النمل:18] وهي الآية التي وقف عليها علماء البيان ليروا سحر كلمات هذه النملة البليغة الرحيمة بقومها، وكيف لا يتحقق في أنفسهم هذا المعنى من الجمال الذي يسبغ الرحمة على الوجود كما يسبغ التقدير والإحترام له وهم يعيشون مع إمام هذا الجمال وهذا التفكر والإعتبار وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يسمع رجلاً يلعن جملاً، فيأمره أن يحط عنه رحله ويتركه، إذ لا ينبغي لمن يلعن شيئاً أن ينتفع به، بل إن أدنى العقوبة له أن يحرم من منفعته، وهو الذي أمر أصحابه أن يردوا أفراخ الطائر له لما فزع من أخذها منه.

هذه المعاني العظيمة في نفوس ورّاث الأرض وبناة الأمة وحملة الرسالة، فهم لا يحرقون الأرض، ولا يفسدون فيها، ولا يبيدون دواب الأرض، ولا يهلكون الحرث والنسل، ولا يسممون الأنهار، ولا يغيرون خلق الله، ولا يفجرون الأرض فتختل حياة الناس كما يفعل الكفرة الفجرة من جنس أعداء الله وأعداء البشر والحجر والشجر،

ثم يأتي هؤلاء المجرمون ليجعلوا أنفسهم أهل الحضارة والرقي، ويجعلون المسلمين المفسدين في الأرض والمتخلفين، ألا لعنة الله على الظالمين.

إن المسلم الذي يرث الكثير من دينه من رواية رجل رقيق القلب حتى يبلغ اعتناؤه بهرته أن ينسب إليها فيقال له أبو هريرة ليرفض أن يؤذي شيئاً في الوجود إلا بإذن الله وأمره، ومع ذلك فإن قتلة البشر بالملايين، ومفسدي الوجود كله من سمائه وأرضه، ومسممي البحار والأنهار حتى ليقال إنه لا يوجد مكان فيهما لم يبلغه فسادهم، ليزعمون أنهم حملة حقوق البشر والدواب، ثم يوجد من زنادقة هذه الأمة من ينعق نعيقهم ويردد دجلهم فقط لمجرد وجود حرية الزنا الذي يسمونه حقوق الإنسان، وحرية الكفر الذي يسمونه حرية الفكر.

أما تاريخ الأمة وعبادها، وتاريخ رجالها ونفوسهم، وتاريخ ذوق نسائها العالمات العابدات، وتاريخ أخلاقها ومعاملاتها، فهذه كلها تطوى، ليصبح تاريخ الأمة كله يختزل في حوادث عارضة هي من أقدار الوجود البشري، ولا قدرة له على الإنفكاك منها.

هذه الآية من سورة الإسراء هي شعار الجمال الملتزم في هذا الدين، جمال يحقق الأنس كما يحقق النفع، فهي تعطي صفة الحياة للوجود كله، وهي حياة تدرك أعظم جلال وجمال؛ ألا وهو جمال وجلال الله، فهي تسبحه، وهي حيث تدرك هذا الجمال وهذا الجلال فإنها تمقت القبح والسوء، كما قال تعالى بعد قضائه على فرعون وجنده﴿**فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ**﴾[الدخان:29]، وبالمفهوم فإنهما يبكيان على فوات وذهاب إخوانهم وأخواتهم في التسبيح، فهو وجود شاعر، يبكي بكاء الحزن على فوات من يشاكله، ويفرح لقرب من يشاكله، كما وقع للشجرة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب عندها الجمعة، حتى إذا صنع له المنبر ووقف عليه بكت وحزنت لفوات الذكر الذي كان يقوم عندها، حين يتسقر في قلبك هذا المعنى ألق نظرك إلى الوجود، وتأمل كل ما فيه، تأمل ما تأكل فإنه يسبح لله كما سبح الطعام في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأمل الحجر الذي تراه أو تمر به فإنه يسبح لله كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع حجراً يرد عليه السلام في مكة، فإياك والغفلة، بل سبح لربك كما سبح الوجود، وعش مع هذا الوجود أنساً بلا غربة حتى لو قلاك البشر جميعاً، أو هجرك أهل الشقاوة في

المشرق والمغرب، فلست أنت الغريب بل هم الغرباء، ولست أنت من يفسد في الأرض بل هم المفسدون، ولست أنت من تلعنك السموات والأرض، بل هم الملعونين على كل لسان يسبح لله في ذرات هذا الوجود.

وبهذا يصبح التسبيح لا لرؤية الجلال والعظمة، بل لرؤية الجمال، وبهذا تعلم لم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح إن رأى شيئاً أعجبه، فهذا ليس تسبيحاً ينفي النقص فيحقق التزيه فقط، بل هو التسبيح الذي يحقق الحب والأمان، هذا الحب مبعثه جمال المحبوب ورحمته، وهذا الأمان مبعثه معنى اللواذ الذي يفعله الطفل وهو يأوي إلى أمه، وإن شئت فهمه فألق سمعك لقول الحبيب لمحبوبه((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك)).

بعد كل هذه المعاني العظيمة التي تلقي على مشاعر المؤمن أحاسيس الأنس والألفة والوعي يأتي الجاهلون ليقولوا أين فنون أهل الإسلام؛ يقولون هذا وأعينهم على تلك الأصنام التي أرهقت الإنسان في إيجادها ثم في الخضوع لها، وعلى ركام الحجارة التي هلك الآلاف من البشر وهم يحققون أحلام طواغيتهم في بنائها وتشييدها، وعلى صناعات الشهوة البهيمية التي تستفز الغرائز حتى يغدو المجتمع فيها بهيمة شهوة لا يفرق بين حلال وحرام، وعلى خيالات عمادها الشرك والوثنية، وتجسد الإله المزعوم الباطل، وصراعات هذه الآلهة مع البشر ومع غيره من الآلهة الباطلة، فهذه هي الفنون عندهم، وهذه هي أركان المتعة والأنس، وهي متع تدمر الغيرة، وتركس الإنسان إلى بهيمة، وتعطل ذوقه الذي يحقق الحياء من البشر والعبودية لرب البشر، والإنسان بدون غيرة وبدون حياء وبدون عبودية لله فإنه كما قال تعالى﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾[الأعراف: 179] ،ومثل هؤلاء هم وقود النار.

وقوله تعالى﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾دليل على أن هذا التسبيح حقيقي، وليس كما قال بعضهم إنما هو الدلالة على الله وصفاته، فإن هذا المعنى يفقهه الناس، ولكن تسبيح الخلائق إنما هو تسبيح حقيقي ولكن لا نفقهه، فإن أذن الله لبعض عباده بفقهه كما فقه سليمان عليه السلام منطق الطير والنمل وكما سمع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تسبيح الطعام، وكما سمع الصحابة أنين الشجرة فإنما هو من باب المعجزة أو ما في معناها، وهذا خروج عن سنن التكوين الجارية، يأذن بها الله تعالى لبيان قدرته، ولحكمة تحصل لأهلها ولمن يسمعها من بعدهم.

وقوله تعالى﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ هذا لأن التسبيح تعظيم، ولا يحصل في القلب ابتداءً إلا لوقوع الهيبة فيه، ووقوع الهيبة يعني الوجل بل ما هو أعظم من ذلك، ولذلك يقول الله تعالى عن الملائكة عند سماعهم كلام الله﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، فإن لسماعهم كلام الله يحصل لهم هذا المعنى، حتى ليُذهل رعداً، بل ويغشى عليه، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم)) فشهود الجلال يقتضي الغشي والذهاب، لكن لرحمة الله تعالى يكون مع هذا الشهود شهود الجمال، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم((أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)) ،ولهذا فإنه سبحانه وتعالى حليم بهذا الوجود، وحليم بمن شابهه في هذا المقام من التسبيح، فاقتضى ذكر الحلم مع التسبيح، أما المغفرة ففهمها في هذا السياق يحتاج إلى شرح مطول ولكن أحيل القارئ إلى ما ذكرته من معنى المغفرة قبل الذنب وذلك في قوله تعالى﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ﴾[التوبة: 117]، فيكون المعنى أن هداية التسبيح هي مغفرة من الله للعبد بأن منع عنه الغفلة والمعصية وهما بابان في الشرع يلزمهما المغفرة، كقول الخارج من الخلاء: غفرانك، والمستغفر بعد الذنب، كما أن التسبيح كما بُيّن في صدر هذه السورة إنما هو استغفار، يقوله العبد طالباً النجاة كقول يونس عليه السلام: سبحانك إني كنت من الظالمين، أي أستغفرك إني كنت من الظالمين.

ثمّ إن تسبيح الوجود هو ما يمنع اذهابه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تقوم الساعة وليس على الأرض رجل يقول: الله))، فإلهام الكون تسبيح الله تعالى إنما هو لبقائه ووجوده، وهذا من حلم الله تعالى ومغفرته. وقوله تعالى﴿يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾قال بعضهم القصد أنهم يسبحون ويحمدون فهما قطعتان وأظن أن هذا قول أبي عبيد القاسم بن سلام كما في الحديث: سبحان الله وبحمده، وقال آخرون: هما جملة واحدة، إذ التسبيح يكون لصفات الله الموجبة للحمد، والأمر بينهما قريب، ولا أرى فارقاً بينهما، إذ كلاهم يثبت لله التسبيح والتحميد،

ولكن الثاني يوجب رابطة بينهما وهو حق، والأول لا ينفيه، بل التلازم يدل عليه، ذلك لأن الوجود له معنيان؛ معنى يدل على صفات خالقه وهو يوجب التسبيح، ومعنى فيه رؤية النعم عليه لأن ما في الوجود مسخر له، وهذا يوجب الحمد.

قوله تعالى﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: 46-48].

بعد أن ذكر الله تسبيح الخلائق بحمده تعالى فإن لسائل أن يسأل فما للكافر معرض، وكيف لا يقع منه ما يقع من الجمادات والعجماوات وسائر الكون؟ فكان هذا بيان لحال الكافر مع الذكر، بل مع أعظم الذكر وهو كلام الله سبحانه وتعالى، فالكافر محجوب عن سماع كلام الله تعالى، وإنما الذكرى تكون بعد الحضور والشهود، وكذا التسبيح، فإن التسبيح إنفعال لما يرى ولما يسمع، فينطلق لسانه بالحمد والتسبيح فهذا حال العلم، فإن حجب ولم ير ولم يسمع تعطل انفعاله ولم يكن منه إلا الإعراض، وهذا حال الجهل، فلما كان الكافر مطروداً محجوباً عن سماع القرآن حصل منه الإعراض والكفر.

وهذا الحجاب هو حجاب القلب، ولا يكون إلا بسبب إرادة المحجوب أن لا يهتدي ولا يتابع الحق حتى لو ظهر له، فيعامله الله بقصده، ويزداد هذا الحجاب ثخانة بتكرر الجرم والإعراض، وقد وصف الله فعل هؤلاء عند تلاوة القرآن على أسماعهم بقوله﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[هود:5]، وفي سورة-فصلت- بيان لمراتب هذا الإعراض وأوله:- ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ثم يضطرد الإعراض إلى الإلحاد فيه كما قال سبحانه﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ والإلحاد هو تأويل آياته بالباطل والفساد، كما أنه على معنى تعطيل نوره وأحكامه وهدايته.

وعلة هذا الإعراض عن القرآن هو ما قاله سبحانه وتعالى﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾، وقد وصف الله المؤمنين به بقوله﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ،فهذا كتاب الآخرة، وعلى كل ما فيه من هدى إنما هي عبودية الله والرغبة في النجاة في الآخرة.

والله نسب جعل الحجاب إليه سبحانه وتعالى وذلك لعزة الكلام وكرامته، ولاستغنائه عن هؤلاء النوكى، فهم بجهلهم يظنون أنهم قد استغنوا عن القرآن، فيعرضون عنه استكباراً وغروراً، والله عز وجل لأنه العزيز المتكبر يعلم المؤمنين أن هؤلاء أدنى من يقع القرآن العظيم العزيز الكريم على آذانهم، ولذلك جعل الله لعزة هذا القرآن وكرامته، ولهوان الكافر وذلته حجاباً بينهم وبينه، فهذا هو حقيقة الحال، فإن الدرر هي التي تحجب عن غير مستحقها، فإن أعرض عنها امرؤ فليس لعزته ومنزلته ولكن لهوانه أن يراها أو يعيش بها.

وهذه الآية لا يصح أن يحتج بها محتج أن كفر الكافر هو حكم قدري حاكم عليه بدون إرادته كما قال بعضهم ممن ينسب للسنة، فرتب عليها نفي عذر الجهل في الأحكام والأوصاف، إذ أن الحكم القدري لا يصح حجة كما تقدم من قوله سبحانه وتعالى﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾، فمن غير الرسول لا يقع البلاغ، ومن غير البلاغ لا تكون الحجة، والآية هنا دليل بنصها على هذا المعنى وذلك لقوله﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ فهذه مقدمة الحجاب، وهي اختيار الإنسان بإرادته، فحين يكفر المرء بالآخرة يحصل الحجاب الذي يمنع السماع، وليس العكس كما ظن هؤلاء، إذ جعلوا الحكم القدري بعلم الله فيهم أن لا يهتدوا فيكون الحجاب ويمتنع السماع، والآية ليست على هذا المعنى، بل معناها أنهم طولبوا بالإيمان فكفروا فحصل الحجاب بينهم وبين القرآن.

ثمّ إن المقصود بحجب السماع هنا مراتب، فمن مراتبه أن يعرض هذا الكافر بالآخرة عن سماعه هرباً منه، أو أن يستغشي ثيابه كما في آية سورة هود المتقدمة، أو أن يشوش عليه، وكذلك من معانيها أن يسمع بأذنه ويمتنع عن متابعته، كما تقول لعاصي وقد علمته: أنت لا تسمع، والمقصود أنك لا تطيع، وهذا المعنى هو الذي تحقق في عتاة الكافرين كما قال الله عن آل فرعون﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وكما قال تعالى عن إدراك الكافر لحجج القرآن ومعرفته بأنه الحق﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

ٱلۡحَقُّ ﴾ ،فهؤلاء يسمعون سماع الظاهر، ويدركون حقائقه، وتحصل لهم معرفة الحق لكن لا يحصل لهم الإتباع ولا الهداية، لأنهم لا يسمعون سماع الإتباع، وسيأتي لك بعد ذلك الآيات الدالة على سماعهم الظاهر إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى﴿حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾ إنما هو حجاب ثخين عماده الجهل والكبر والكذب والهوى.

وقوله ﴿مَّسۡتُورٗا ﴾ أي ساتراً ومانعاً، وقيل محجوباً لا يرى.

وفي هذه الآية دليل على المعاصي حجاب بين المرء وبين فهم القرآن الداعي إلى الطاعة والمتابعة، فإن الكفر حجاب كلي عن متابعة القرآن، وأما بريد الكفر من المعاصي فهي حجب بمقدارها عن المتابعة، فكلما كانت موجودة كان الحجاب أقوى، وكلما حصلت التقوى والطاعة كان الفهم والإدراك، وأما حصول المعرفة من غير نور وهداية وطاعة فليست بشيء، فإن الكافر يعلم ما يدعو إليه القرآن من الإيمان لكنه ليس من أهله ولا يعدّ من العالمين به.

وقوله ﴿قَرَأۡتَ﴾ مراتب، فأولها القراءة بمعنى التلاوة، ولا يحصل ما بعدها من معاني إلا بها، ولذلك فإن من إعراض الله عن المرء أن يُصرف عن تلاوة القرآن والنظر فيه، وحصول هذا يمنعه من إدراك هداية نوره ومعانيه، فإن حصل الضيق من قراءة القرآن دل على ثخانة الحجاب، وكلما حصل القرب من الله كلما حصل الحب لكتابه وهو حب يجعل صاحبه من أهل القرآن تلاوة وتدبراً، ولذلك كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ((لو صفت قلوبنا ما مللنا كتاب الله))، ومن مراتب القراءة التدبر والتفكر واستخراج كنوزه، وهي مرتبة إيمانية لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس((اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين)) ،وهذا هو المقصود منه كما قال تعالى في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

وقد عاب الله على اليهود اقتصارهم في تلاوة كتابهم على الألفاظ دون التدبر فقال﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فسماهم أميون، وجعل عدم تدبرهم يؤول إلى علم باطل وهو الظن، والأماني كما في التفسير هي القراءة بلا تدبر.

وقوله تعالى﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ** ﴾ فهذا حجاب الفقه، فهم ابتداءً لا يسمعون، فإن سمعوا فإنهم لا يفقهوه، وفقه القلب هو الإتباع، والمقصود أنهم لا يرون فيه إلا ما ينفرهم، وأما الهدى والنور فهم في معزل عنه، وفي هذه الآيات بين الله إعراضهم عن سماعه كما في آية سورة فصلت﴿ **لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾، وفي سورة الأنعام بيّن احتمال سماعهم لكن لا يحصل لهم الفقه الذي يقع به الهداية فقال سبحانه ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا** ﴾ ،وذكر في سورة القتال أن المنافقين كذلك يسمعون لكنهم لا يفقهون لما طبع الله على قلوبهم فقال سبحانه ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ .

والمقصود بالفقه هنا ليس عدم فهم المراد، بل هم يفهمون المراد، لكنهم ينكرونه ويجحدونه، فالله وصفهم ووصف كتابه بقوله﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ ولذلك لم يرسل الله نبياً إلا بلسان قومه كما قال﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ فهم قد حصل لهم الفهم بهذا البيان، لكن أمر الفقه هنا كأمر السماع، فالأول هو سماع مع إعراض، وهذا فقه مع تكذيب وجحود.

ومن أنواع هذا الفقه السيّء أن لا يروا فيه إلا الخسارة، ولا يرون إلا الإبتلاء كما قال الله عنهم﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ ووجود الأكنة على القلب هي عقاب على إرادة وعمل وليست ابتداءً كما تقدم من أمر السماع، فإن هذا القرآن نور، ومع ذلك يحصل في قلوبهم الظلمة لأنهم يأتون إليه بمقاصد الشر وطلب الجدال لصرف الناس عنه، كما جاء في تمام آية الأنعام المتقدمة ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ** ﴾ .

ويشبه حال هؤلاء حال بعض من انتسب للعلم في زماننا حين يأتي للقرآن من أجل البحث عما يخدم باطلاً أو ضلالاً ليوافق به المشركين أو يرضيهم، فهو لا يسعى لإقرار الحق كما أنزله الله، لكنه يبحث عن شبهة توافق أهواء الأغيار، مع علمه أنه متكلف في تأويله، وأن ما يقوله هو كذب على الله وافتراء عليه، لكن لكثرة ترديده يحصل له اليقين على ما يقوله لما يحصل له في قلبه من الفساد والظلمة.

وقوله تعالى﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ والوقر هو الثقل الذي يمنع السماع، وهذا يبين أن حجب السماع منها ما هو خارجي وذلك في قوله﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ ومنها ما هو داخلي وهو قوله﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ فهما مانعان للسماع لا واحداً، ذلك أنهم في ظلمات بعضها فوق بعض، فهي ظلمة داخلية في نفس الإنسان، وظلمة خارجية بالخلان والأولياء وما في معناهم، فإن حصل خلوص من حجاب الخارج لما أصاب المراد بسبب وقر الداخل كما قال تعالى ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

وهذه الآيات تدلك على بعض معنى قوله سبحانه﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ وقد علمت أن المرء لا يكون مسؤولاً إلا على ما هو خاضع لإرادته لا ما هو مكره عليه أو فوق طاقته، فدل أن المرء بإرادته لو أراد لزال الحجال المستور وزال الوقر وزالت الأكنة.

والله عز وجل في هذه الآيات جعل الحجاب مفرداً، والوقر واحداً، وجعل الأكنة جمعاً، ذلك يدلك أن سماع الاتباع يحصل بنقلة واحدة لأن ما يقابله ليس كثيراً، فتخطيه يوجب الإسلام وهو مرتبة واحدة، لكن الفقه درجات، وهي فوق سماع الإتباع، ويتفاوت الناس فيها على درجة إزالة الأكنة، سواء كانت أكنة الجهل أو الهوى أو الشبهة، وبإزالة كل طبقة منها يحصل الفقه.

وقوله﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ ذلك لأن أشق شيء على نفوسهم إنما هو التوحيد، وهو الذي يوجب على العبد أن لا يعبد إلا إياه، ولا يخضع إلا لأمره، ولا ينقاد إلا لحكمه، ويكفر بما سواه من الآلهة الباطلة، وهذا هو العسير عليهم، فلو جعل شيئاً من الألوهية لغيره، وحصلت المساومة لأمكن القبول، بل سيأتي من الآيات في هذه السورة ما يدلك على أنه لو حصل من الداعي ذلك لوقع قوله تعالى﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾، فعائقهم قولهم﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ ،فكيف يكون كل شيء له؟! فماذا يبقى لهم ولطواغيتهم، ولأزواجهم، ولأوليائهم، ولشهواتهم؟! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾.

ولذلك قال تعالى عن أجدادهم في الكفر ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وفي هذه الآية بين بعض حالهم وهو الإعراض والتولي، وفي سورة الزمر بين اشمئزاز نفوسهم من ذلك فقال سبحانه﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ وهذا قد يكون بسبب اختلاف الأشخاص ومنازل كفرهم، وقد يكون بتغير الأحوال في الشخص الواحد، فإن بعضهم لخوفه من آلهته الباطلة أو لحبه الشديد لها إن سمع ذكر غيرها قام مولياً مخافة بطشها أو شفقته على أذنه أن تسمع ما يؤذي حبيبه، ثم إن تابع الداعي دعوته ولم يأبه لإعراضه صار يجلس مع كراهته ما يسمع واشمئزازه منه، ولكن الداعي يذكر الله وحده ويدعو إليه ولا يأبه لحال المقابل له وتقلبه في أنواع كفره، إذ قد ينتهي به هذا الحال إلى قبوله والدخول فيه، أو إلى معاداته أشد العداء حتى مقاتلته، وهذا مقصد الدعاة على كل حال تقدم مراراً.

وفي هذه الآية دليل على دعوة التوحيد، وأن هذا المبتدأ وإلى المنتهى، وهو دعوة القرآن، وأن الداعي لا يقبل الشرك في أي باب من أبوابه، وأن المداهنة في هذا الباب شرك وضلال، فعمل الأنبياء هو أن يدخلوا الناس في التوحيد، ويتبرؤوا من آلهتهم الباطلة، وأن يعلموا الناس أن هذه دعوة القرآن لا دعوتهم، وأن هذه كلمة الله منه سبحانه لا من جهتهم، ليحصل الفرز والإنحياز، فخصومة الأنبياء وأتباعهم مع خصومهم لا يجوز أن تتنزل عن هذا الأمر كما يريد المشركون حين يحولونها إلى معركة بين أشخاص لا علاقة لله ولا للقرآن بها، وهي لعبة تمارس اليوم وتتشكل في مظاهر متعددة، وقد قبل بعض العاملين للدين الدخول في ذلك، فيأنفون من جعل خصومتهم في الله، بل يرضون تسميتها وجهات نظر، أو اختلاف اخوان، فإن زادت فهي صراعات برامج حزبية ولا أكثر.

قوله تعالى﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾

فهم يسمعون إذاً، لكنه سماع على وجه مذموم، فالله يخبر ما في قلوبهم وما تمالؤوا عليه قبل السماع وما يتناجون به عنه، ذلك بأنهم جاؤوا إليك وقد قرروا أنه السحر، وأن التالي له مسحور، وهذا تبييت للحكم قبل التبين، فما يقع عليهم من القرآن سيجد المحل المنكر المستهزئ، وبهذا لا يحصل الإنتفاع، ولا ينتفع المحل

بهداية الوارد عليه، ذلك بأن الفعل لا يقع إلا بموافقة الوارد للمحل، فإن تنافرا لم يقع الفعل، وكذا الهداية، فإنها لا تقع إلا بورود الهدي على قلب يسعى إليها ويحبها، فإن تخلف أحدهما لم تقع.

والله عز وجل يخبر في هذه الآية مكنونات صدورهم، وما يسترون من حديثهم، وما يقولون في نجواهم، وهم لا ينكرون ذلك، ولا يدعون خلافه، بل يسلمون أن هذا حق، ومع ذلك ما يزيدهم هذا العلم إلا تكذيباً وجحوداً وإعراضاً.

وتسمية النبي صلى الله عليه وسلم بالسّاحر أمر مضطرد عند هؤلاء قديماً، وعند أبنائهم وفراخهم حديثاً، فالسحر عند الأقدمين على معاني، ومن يقع عليه السحر هو مجنون مضطرب العقل والفعل، وكذا يسمى المهتدي اليوم، إذ يوصف المؤمنون بوعد الله والقائمون بالحق بهذه الأوصاف، فينسبون لهم الخبل العقلي، والإضطراب النفسي، والإنفصال عن الواقع، والعيش في الأوهام، وحيناً يزيدون في أئمتهم بوصفهم ألقاباً تشتق من الجنون كوصفهم بجنون العظمة، وإدعاء الطهر، والقوامة على الخلق بلا دليل سوى الإحساس بولاية الله على وجه الإختصاص، وهي ألقاب وأوصاف تلتقي على هذا المعنى القديم من وصف الأنبياء بالسحر، لكن اختلاف ثقافة الناس تؤدي إلى اختلاف الألفاظ والأوصاف.

وفي هذه الآية تعليم للمؤمنين أن يبرؤوا السماع من الهوى والأحكام المسبقة، وينزهوه عن الغمز والهذيان لحظة النظر، حتى لو كان المسموع يلقى لأول مرة على خلاف ما استقر في ثقافة الناس ومفاهيمهم، فالغرابة والجدة ليستا سمة الخطأ، وظن بعض الناس هذا يمنعهم من الهدى والإنتفاع والتفكر، وما طامة الناس إلا من هذا الباب حيث تنكر السنن ويرد الحق ويعادى الدعاة والمصلحون والمهتدون، وأساس الرفض يقوم على قاعدة الجهل ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ،ولا يجوز لهؤلاء التمسك بألفاظ قيلت من الصحابة والتابعين وتابعيهم في رد الجديد، لأن الجديد في الدين يومئذ لا يكون إلا بدعة، فإن السنة ما زالت طرية، وهي الحاكمة بين الناس، فالجديد في الدين بدعة محدث طارئ ينكره الذين شهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم أو شهود الصحابة، أما وقد تغير الأمر، فهناك سنن قد غابت، وشرور قد استقرت، فكم من حق

رفع، وكم من باطل وضع، فلا يقال اليوم ولا ما بعده هكذا كنا وهكذا سنبقى، فهذا هو أس الضلال الذي يؤدي إلى غمط الحق ورده.

وقوله تعالى﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ذلك بأنهم بهذا السماع قد حصل لهم الضلال، ولم يحصل لهم الهداية.

والأمثال هي وسائل الشر في رد الحق، ومنه القياس الفاسد، ومنه الألقاب السيئة، فتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالساحر بجامع أن كلا منهما يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وولده تشبيه بالباطل، فالفرقة ليست مذمومة إلا إذا كانت قائمة على الباطل، أما الفرقة على الحق، وتنوع الناس بين متبع له ومعرض عنه فلا يذم، بل يذم المعرض، وهذا المثل من الشر هو دافع الناس اليوم في تسمية الحق بأسماء الباطل، فإن الدعاة والمجاهدين يتهمون بهذه التهمة، وهي تفريق الناس على أساس الدين، والإقتتال حول آخيته، وهم يريدون الجمع على وفق الجاهلية ومعانيها وقيمها، ولذلك فهؤلاء الدعاة والمجاهدون هم مفسدون، ولولا أن ثقافة هؤلاء الزنادقة ترفض كلمة السحر لادعائهم العلن لوصف هؤلاء الدعاة والمجاهدون بالسحرة كما وقع من أسلافهم.

ومن الأمثال المعاصرة لرد الحق إدعاء اختلاف الحال على وجه الباطل، دون تغير في العلل المؤثرة، فدعاة تغيير الشريعة يتعلقون بهذه العلة، ودعاة تحليل الحرام وتحريم الحلال هم كذلك، وهي فتنة دخلت على الكثيرين حتى دخلت على المفتين وقادة المسلمين وعلمائهم في أبواب متعددة، مع أن العلل التي أقيمت لها الأحكام عند نزول القرآن هي العلل اليوم سواءً بسواء.

وقوله:- ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ،أي صارت أمثالهم هذه، وهي أمثال الباطل مانعاً لهم من سلوك سبيل الحق، وهذا تعليم لأهل الإيمان أن لا يقربوا موانع اتباع الحق من جهة معناه، كاتخاذ الألفاظ الباطلة، إذ أن هذه الألفاظ (وهي أمثال) منعت الكثيرين قديماً وحديثاً من الإهتداء بالقرآن، وكذلك لا يجوز وضع القيود التي تمنع دلالة القرآن، كمن وضع الدليل العقلي فوق الشرعي زاعمًا أن أحكام العقل يقينية وأحكام القرآن لأنه بيان ظنية، أو من زعم أن القياس هو الأصل وأنه ضابط لقبول الحكم الشرعي، فيرد كل نص خالف

القياس كما يزعم، إذ واجب الإيمان يقتضي الإمتثال لقوله كما قال تعالى﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

قوله تعالى﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

هذا هو العماد الثاني من عمد الدعوة بعد التوحيد، وهو عماد وركن الإيمان بالآخرة، وأهل الشرك يجادلون فيه كجدالهم في التوحيد، والقرآن جعل الكفر بالآخرة هو معنى الكفر بالله، وهو معنى الشرك كما قال تعالى في الرعد﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، ذلك بأن الإيمان بالله لا يصح على وجه صحيح إلا بالإيمان بالآخرة، ولذلك عامة الكفر والشرك إنما منشؤهما الكفر بالآخرة، إذ عامة الشرك يقوم على الظن السيء بالله، وإلى اتهام الله في حكمته وعدله، وهذا الإتهام إنما منشؤه الكفر بالآخرة، فكل مقادير الوجود، وكل شرائع الله تعالى إنما تفهم وتدرك على وجه الحكمة فيها بعد الإيمان بالآخرة، ولذلك ربط الله العبث في الوجود وأقداره إن لم يكن هناك آخرة فقال سبحانه وتعالى﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ،فالوجود عبث وسفه إن لم يكن هناك آخرة، والله عز وجل سبحانه حكيم عليم في أقداره وشرعه، ولذلك تجد عامة شرك المشركين وإلحاد الملحدين يقوم لعجزهم عن إدراك الألم أو المصائب، كما يرون البلاء في المؤمنين أكثر من غيرهم، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة يرتد جهلهم اتهاماً لله في كماله وحكمته فيشركون ويلحدون، إما طمعاً في الهروب من الآلام والبلاء، وإما ليتحقق لهم دفع هذه الآلام عن طريق هذه الآلهة الباطلة، فالحب والخوف هما آخيتا التعبد، فيذهبون لغير الله حباً بهم خوفاً من فعل الله بهم؛ أي فعل أقداره، وإما يذهبون إليهم خوفاً منهم لوهمهم أن لهم الإستقلال في إيقاع هذا الضرر، وهكذا ينشأ الشرك لعدم إدراك القدر ووقائعه، وهو لا يدرك على وجه صحيح إلا بفهم الجزاء الأخروي، وينشأ كذلك في عدم إدراك حكمة التشريع، وقد علم أن أعظم مقاصده هو تحقيق رضى الله ودخول الجنان والهرب من النار.

ولذلك لا يصح التوحيد على معناه القرآني إلا بالإيمان بالآخرة، وهذا هو أساس بناء المسلم قبل كل شيء، أي بناء التوحيد والإيمان بالدار الآخرة، لا على معنى العلم بهما فقط، ولكن على معنى الإيمان واليقين، وهما لا يحصلان إلا بالبلاء والوقائع والإمتحان.

كما أن من أسس إنكار المشرك للدار الآخرة هو الشك في قدرة الله، وهذا كفر بالله تعالى، وهذا تكرر في القرآن كثيراً كما في هذه الآية من سورة الإسراء، وكما في آية أخرى ستأتي منها وهي قوله﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ والآية من سورة يس﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ إلى آخر السورة وآيات أخرى تبين هذا المعنى في سورة الروم، ولظنهم في الله وصفاته الباطل يجعلون له الشركاء، فارتد هذا الظن إلى الشرك وإلى الكفر بلقاء الله تعالى وقدرته على إحياء الموتى وهو الذي يقول في سورة الروم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

كما أن عدم الإيمان بالآخرة يلقي في نفس الكافر القدرة على إنكار طاعته والرد على أوامره، فالنفس البشرية في عمومها لا تنساق إلا بالخوف، بخلاف أهل القلوب الصالحة فإن الحب قرين الخوف عندهم، بل والشكر كذلك، فلما يخلو القلب من خوف لقاء الله تعالى يعني أن يفعل ويختار ما يشاء راداً على الله أمره، وعلى رسله رسالتهم، فيصبح في خروجه عن عبودية الله تعالى عبداً لغيره لزوماً لأن صفة العبودية في الإنسان فطرة لازمة له وليست اختياراً، كالفقر، إذ أن الإنسان لا يقوم بذاته بل يقوم بغيره في الوجود والإمداد، فيكون الكفر بالآخرة طريقاً للشرك والكفر في رد أمره وشرعه، وهذا هو أول كفر في الوجود؛ أي كفر إبليس، وهذا كفر أغلب البشر المعرضين عن دين المسلمين، فإن الكثير منهم يعتقد بوجود الخالق، لكن لا يقر له بالأمر، فلا ينقاد لحكمه ولا لطاعته، ولا يرى أن للرسل حق التصديق والإتباع، وهذا كفر كبرائهم من مفكريهم وما يسمونهم بالفلاسفة وأهل الفكر، وهو عينه كفر عوامهم وبهائمهم، وهو نفس كفر الزنادقة المعاصرين في هذه الأمة، وعمدة هذا الكفر هو الكفر باليوم الآخر.

ففي هذه الآية من سورة الإسراء بعد أن رد الله على المشركين شركهم في باب التوحيد، وذلك بطريقة قرآنية تقرر الحقائق، ولا تتبع طرق المجادلات العقيمة التي تقيم أهمية لشبهات الهوى، ذلك بأن الله رد على

المشركين شركهم بذكر حقيقة اقرار الكون كله بقدوسيته، وخضوع الوجود كله للعبودية بالتسبيح والتحميد، وهذه الطريقة قد تقدم وصف بعض خصائصها، إذ إنها لا تكون إلا لقادر، ولا تصيب في المقابل إلا إن وقعت على حقائق ما في نفسه حتى لو جحدها ظاهراً، فالله قادر على خلق ما قال، وهو عليم بما حدث في نفوس المشركين من إقرار لما قال، وبهذا حصلت الحجة التي تحقق إقامة الشرع عليهم في الدنيا، وإقامة العذاب عليهم في الآخرة، أما مسألة أن يعلنوا حقائق قلوبهم على ألسنتهم فهذه ليست من شروط الحق عند الحجاج بين البشر وهم لا يعلمون ما في القلوب، فكيف تكون شرطاً لإقامة الحجة في خطاب من يعلم ما في نفوسهم؟!

فبين الله عزته بتسبيح الوجود كله، وبين حال المعرضين عن موافقة هذا الوجود في التسبيح وما هم فيه من المقام، ثم جاء الخطاب إلى أمر المآل في الآخرة بذكر حال المشركين مع هذا المآل فقال سبحانه وتعالى﴿**وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا**﴾.

وقد تقدم أن هذا الإنكار إنما مبناه على الظن الجاهل بالله، فحيث يصير الإنسان إلى تحلل جسده، فيكون عظاماً مجردة، ويذوب غيرها إلى تراب فهل له عود جديد إلى ما كان عليه؟

وفي الحديث أن الإنسان يذوب منه كل شيء ولا يبقى إلا عجب الذنب، ومنه ينبت للحساب بعد أن ينزل على هذا العجب ماءٌ من السماء، فينبت كما ينبت البقل، ثم تخرج الأرواح إلى الأجساد فتقع الحياة ليحشر الناس إلى رب العالمين، ومن عجائب المنكرين للبعث أنهم يقرون أن الله خلق الوجود من عدم، ومن هذا الوجود الإنسان، ثم ينكرون أن يخلق من جديد وقد علموا أن مادة إحيائه موجودة، وهذه الإعادة ﴿**أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ**﴾ كما قال تعالى من الإيجاد الأول، هذا مع ما يرون من الخلق الحادث في كل وقت، فإن الله يوجد الإنسان، كل انسان حيث يوجد من ماءٍ مهين، ولم يكن قبل ذلك شيئاً، فالله يوجد هذا الماء، ويجعل فيه خاصية التخصيب ثم التحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى ما ذكر الله تعالى في سورتي الحج والمؤمنون.

وهم كذلك يرون كيف ينبت النبات، فتصير الحبة شجرة كبيرة فيها الثمار والنماء والحياة، وهذا كله خلق من العدم، والروح تنفخ ولم تكن، فدورة الإحياء والإماتة تقع أمام أعينهم كما قال تعالى في ذلك﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي**

يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ وقال سبحانه﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴾ فهذا مثال يبصرونه في حياتهم، لكن جريان السنن تمنع التفكر والإعتبار إلا عند الذاكرين لربهم، ولذلك رد الله على سؤالهم المنكر للبعث بقوله﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴾.

فهب أنكم حجارة ثم ذابت وتحللت، وهب أنكم حديد متماسك ثم صار زبراً، فما يمنع عودة ما تحلل إلى التشكل والتجميع؟ هذا مع أنكم لستم كذلك.

وقوله﴿ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ ﴾ هو من قوله تعالى﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي فهب أنكم كالسموات والأرض عظماً، وهي كبيرة في نفوسكم، فهل تمتنعون عليه سبحانه وتعالى وهي لم تمتنع عليه؟!

وهذا كله من الله سبحانه لعبيده ليتفكروا، وليبصروا بقلوبهم ما يرونه بأعينهم وهم يمرون عليه، وهذه الأمثال مع وضوحها إلا أنهم لا يرونها على معناها من العبرة، فإن ذكروا بها استهزؤوا بها بدل التعجب من غفلتهم، ولذلك قال تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴾ ذلك وإن كانت البعوضة عند الناس محتقرة صغيرة، إلا أنها عظيمة في خلقها وفي دلالتها وحكمتها، بل تحدى الله بالذباب فقال سبحانه﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، فالأمثال في القرآن ليست مركبة تركيب التعقيد، لكنها عظيمة الدلالة وبليغة المعنى، ولذلك يحصل للمهتدي بها خير العلوم وأزكاها، ويحصل بها اليقين والرضى، وأما الذين قال الله فيهم﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ فيتكبرون عليها ويقولون كما قال الله عنهم﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ ﴾، وكم من أمور العلم مطروحة بينة، يصل إليها الطالب بأدنى جهد، ولكن ادعاء البعض خصوصية الفهم والرتبة تدفعهم لطلبها بأشق الطرق وأصعبها، وقد تتيه بهم

الطريق لوعورة مسلكهم، فإن وصلوا جعلوا الطريق الموصلة هدفاً دون اعتناء بالمقصد، وهذا ما وقع به الكثيرون، وذلك كمن اتخذ علوم الآلة مقصداً وقعد عليها يشقق ويعقد، ثم كسل عن مرادها في فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، أما من جعل بعض علوم الآخرين كالمنطق والفلسفة وسيلة لفهم كتاب الله فهؤلاء أضل سبيلاً، حيث تاهت بهم الطرق، ولم يقعوا على اليقين، ولم يصيبوا مقصد الكتاب والسنة، بل تجدهم أجهل الناس بهما.

وحال الأدب المعاصر اليوم مما يسمونه أدب الحداثة هو على هذا المعنى، أي أن يكون فاقداً للمعنى في نفسه، فليس هو وسيلة لإبانة، بل كلما كان ذاهباً عن المعاني القريبة كان عند أصحابه أدباً رائعاً، ولذلك فكبراء هذا المذهب إنما تحصل لهم (الإيحاءات) لأدبهم وهم في لحظات الصرع أو ما في معناه كشرب الحشيش والمخدرات، فالهذيان هو معيار أدبهم لا غير، وهذا ليس اتهاماً كما يزعم البعض، بل هو الحقيقة، فهم يقولون ليس النص للدلالة، ولا للمعاني، بل النصّ لذاته، فلا يعبر عن شيء خارجي قط لا في المعاني ولا غيرها، بل يعبر عن ذاته، فلا يطلب منه معنى دلالاته، وهذا إن لم يكن الصرع والهذيان فليس للصرع والهذيان وجود.

وأصحاب العلوم مهووسون في تعقيد علومهم لزعم الإختصاص وعدم الإبتذال، وهو داء دخل على علوم الإسلام بسبب منطق اليونان وعلومهم، وهو المنطق الذي دخل في أغلب علوم الآلة كعلم الأصول وعلم الحديث والنحو، وهذا بيّن لمن تأمله وقد أقر به محققو هذه العلوم، بل إن بعض أهل العلم يرى أن منطق اليونان دخل في صياغة الفقه نفسه؛ ولو اتبع هؤلاء طريقة القرآن في تقريب العلوم والمراد لما وصل حال علوم هذه الأمة إلى هذا الحال من إعراض الناس عنها مخافة من صعوبتها واتقاءً لخشونتها، ولذلك فمن مهمات العاملين لدين الله من العلماء تقريب هذه العلوم بتجريدها أولاً من الأجنبي عنها، سواء كان هذا الأجنبي بموضوعه أو بلفظه.

وههنا مسألة مهمة، وهو أن المعاني تكون سهلة بمقدار أهميتها، وإنما تصبح شاقة عندما تقل هذه الأهمية، فأمر العلوم المهمة كالهواء والماء، فهما مبذولان للناس، ولما كان أمر الهواء أكثر أهمية كان بذله أكثر من الماء، والماء أكثر أهمية من الطعام، فهو مبذول أكثر، وهكذا شأن العلوم، فإن علم التوحيد علم فطري لا يحتاج إلى النظر أو النظر إلى النظر كما يزعم المتكلمون، بل إن المرء لو سئل عن دلائل التوحيد لتوقف كما يتوقف عندما

يسأل عن دليل وجود الهواء، لأن هذا من العلم الضروري، والعلم الضروري ما لم يكن دفعه، ولا يحتاج إلى غيره لإثباته، وكذلك العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، والإيمان باليوم الآخر، فإنها من علوم الفطرة، فإن أنكر منكر فإنما يحتج عليه بالقريب، والقريب من الأدلة ما يحتاج إلى الإشارة ليس أكثر، ولا يحتاج إلى التركيب.

وبسبب ادعاء الخصوصية من أرباب العلوم، وهي التي أدت إلى تعقيدها كما تقدم، حصل غرور عند هؤلاء أن العلوم لا تحصل إلا من خلال طرقهم، وهذا يظهر عند الحجاج، فأحدهم يسأل آخر ليثبت له جهله: من المجنون؟ ولو أجبته بكل لفظ لحكم بخطئك لأنك لم تصب ما ركب من ألفاظ للتعريف به، مع أن خاتمة المطاف أن علمه بتعريف المجنون لن يزيده في التفريق بين المجنون والعاقل أكثر من هذا المسكين الذي لم يقدر على تركيب ألفاظ هذا السائل، ولذلك كان عند أهل الإسلام التعريف بالمثال هو الصحيح لا التعريف بالألفاظ، وذلك أخذاَ من قوله صلى الله عليه وسلم: ((صلوا كما رأيتموني أصلي)) ومن قوله صلى الله عليه وسلم: ((خذوا عني مناسككم)) ،ولذلك قد صدق من قال إن المنطق قد دخل أيضاً في صياغة علم الفقه، وهو العلم الذي ينبغي أن يكون أقرب إلى القرآن والسنة، لأنك لو نظرت إلى تعريفاتهم لرأيت هذا جلياً.

أما دخول المنطق وعلم الكلام في علم التوحيد، وهو أجل العلوم وأعظمها وأقربها منالاً في الكتاب والسنة لرأيت العجب العجاب، فهو العلم الذي لا يصدر المرء عنه إلا منهكاً بعد أن يدرك مراد واضعيه في المصطلحات لا في المعاني، وأني لأذكر أستاذاً لنا وقف على جملة لا تزيد عن سطر ونصف في كتاب فقهي في كتاب النفقات فما خرج منها حتى انتهى الدرس وهو يقلب وجهها ظهراً لبطن ليعرف مراد صاحبها، ثم لم ينته إلى وجه يجزم به.

إضاءة:- يقع في قلب المؤمن معاني فوق التصديق، فيسعى لتحقيقها، وهو باب مشروع ولا ينكر، ولا يدل حب رؤية هذه المعاني على الشك أو ضعف اليقين كما وقع لإبراهيم عليه السلام من طلبه في قوله تعالى عنه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فمن أحق بالشك من ابراهيم)) وتسمية طلب ابراهيم عليه السلام بالشك هو من

باب تسمية الشيء بآثره، فإن أثر الشك حين يزول بالعلم حصول اليقين، وأثر طلب ابراهيم عليه السلام حصول الإطمئنان، وهو مرتبة فوق اليقين، وهذا باب يمدح المرء بطلبه لمرتبة بأثره، وذلك كطلب العلم، وهذا الطلب لا ينشأ من الإستكبار والتعنت كطلب المشركين من رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات، بل منشؤه الثقة بحقيقة قبل وقوعه، ورغبة بأثره في علو المرتبة، وهذا كطلب موسى عليه السلام أن يرى ربه، فمنشؤه طلب القرب والإختصاص بهذه المنزلة.

هذا وقد أعطي عيسى عليه السلام معجزة إحياء الموتى، فكانت دليلاً على بركته وكرامته عند ربه، وليس كما قال اليهود فيه من اتهام مريم الصديقة عليها السلام، ثم صارت هذه الكرامة فتنة للنصارى بأن قالوا فيه ما قالوا من الكفر.

قوله تعالى﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ وهذا من تعنتهم، وتماديهم في الباطل، فإن أمر البلاغ لهم أنهم سيحيون يوم القيامة كان مبتدؤه أن الله فاعله، لكن هذا من باب التطويل الفاجر، وهو دليل الإنقطاع في الحجة، فرد الله عليهم:-

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والفطر هو الخلق من العدم، ومعناه الأصل والمبتدأ، ومنه أخذت الفطرة؛ أي أصل الخلقة، فالله سبحانه وتعالى هو الفاطر كما قال سبحانه﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ،والفرق بين فاطر وخالق، أن الأولى تتوجه إلى الشيء وحقيقته ابتداءً، والخلق تتوجه إلى صورته ابتداءً، ولذلك يقال للمصور خالق كما في الحديث القدسي: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) أي صور ما صورت، مع تضمن الصفتين صفة الإيجاد، مع الجزم أن الفطر لا تكون إلا للإبتداء، مع احتمال هذا في صفة الخلق وليس لزومه، ولذلك قال الله تعالى﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾، فنسب لهم صفة الخلق وليس هم أول من فعله.

أما إن قيل ما الفرق بين الخالق والمصور، فإن صفة الخلق تتضمن الإيجاد من العدم، إذ القول إنها تتوجه إلى الصورة ابتداءً لا يعني خلوها عن معنى آخر، لكنها عند المقارنة بينها وبين صفة الفطر يحصل هذا المعنى، وحين الإطلاق تتضمن المعنيين، وهذا الفرق في معنى الكلمات بين الإطلاق وبين المقارنة يجب استحضاره

دائماً، لأن الإطلاق لا يحقق الفرق، بل الذي يحقق الفرق هو المقارنة، وحينها تكون صفة المصور معلومة المعنى، مع أن التصوير خلق كما تقدم في الحديث، لكنها تتأخر هذه الصفة وتصبح تبعية حين وضعها مع صفة الخلق، وهذا يجب مراعاته عند البحث عن معاني أسماء الله وصفاته.

فإن قيل:- إن الفطر لا يكون إلا لما يقع أول مرة كما يفيد المعنى فلماذا قيل ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في هذه الآية؟ فيقال إن أمرها كقوله تعالى﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ والصراط لا يكون إلا مستقيماً.

وقوله تعالى﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي سينغضونها استهزاءً وانكاراً، وهذا دليل على انقطاع الحجة، فخرست ألسنتهم، وتعطل البيان عن نجدتهم، فلم يكن لهم إلا هذه الحركة، وهي حركة اليائس من الجواب في هذا الموطن، فإنه لو كان عنده حجة لنطق وصرخ بها، وإذ لم يكن كان منه هذا، وهي حركة لا جواب عليها لأنها موقف بلا دليل، وتعنت بلا برهان، واستكبار عن الحق وقد بان.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ وهذا دليل آخر على التعنت وانقطاع الحجة، وتحول المقابل والمناظر من الهجوم إلى السؤال دليل على ذلك، فإن الأمر لم يعد في تحقق الوقوع والقدرة عليه، بل انتقل سؤال المتعنت إلى الزمان، مع أنه في الإبتداء قد تم البلاغ أن أمرها؛ أي الساعة مخفي عن كل أحد، ولا يعلمه إلا الله وحده، فلا يعلم زمانها ملك ولا نبي، لكن وقوع هذا السؤال فيه معنى ما يقوله الكفار عند الإستخفاف والإستهزاء بنذارة الأنبياء لهم بوقوع العذاب كما قال الله عن قوم لوط﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وكقول الله عن عاد﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا كثير في القرآن الكريم.

ولما كان الله هو الصبور، وكان ما يقع من فعله سبحانه وتعالى على هذا المعنى وعلى معنى الحكمة فإن تحديهم لا يؤخر ولا يقدم شيئاً، بل كل شيء بمقدار، ثمّ إن الموت هو القيامة الصغرى للإنسان، إذ بعده يرى الإنسان حقائق ما بلغ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذلك قال تعالى﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ والقيامة الكبرى لم تكن بعيدة حتى عن الأمم السابقة، فإن هذه الدنيا ليست طويلة لمن كان اليوم عنده سبحانه وتعالى ألف

سنة مما نعد، وإذا كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم – من دلائل يوم القيامة، فما معنى استعباد الكفرة ليوم القيامة؟!

وقد تقدم أن ﴿عَسَىٰٓ﴾ واجبة كما قال حبر القرآن ومن بعده من الأئمة كالشافعي، إلا أنه قد نبّه في موطن سابق أن إجراء القرآن هذا اللفظ على وفق كلام العرب يدل على معنى مما يريدونه، وقد تقدم أن ﴿عسى﴾ تستخدم في القرآن ترتيباً على فعل وأمر، وهي على هذا المعنى هنا، فإن الساعة قريبة، لكن زمن وقوعها مجهول، فكما أن﴿عَسَىٰٓ﴾ التي رتبت على فعل شرعي تبقى معلقة بشرطه، فيبقى خوف العامل من تخلف الشرط، كذلك هي هنا، فإن وقوعها قريب ولاشك، لكن الزمان مجهول، فخوف المؤمن من وقوعها في كل لحظة وعدم معرفته بزمانها يجعل كلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ موافقة لهذا الحال، وسيأتي مزيد شرح عند كلمة (ظن) في قوله ((وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً))إن شاء الله تعالى.

والخوف من يوم القيامة لم يكن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حيث هم من تقوم عليهم السّاعة، بل كل المؤمنين من لدن آدم عليه السلام يقع منهم هذا الخوف، لأن أحداثها ستقع على البشر جميعاً، وأهوالها من المحشر والصراط والميزان سيشهدها كل الناس، ولذلك يقع منهم الخوف كما قال تعالى﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾.

وقد اعترض بعض المعاصرين على أحاديث دلائل القيامة بحجة مخالفتها فجائية الساعة كما قال تعالى عنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ وقوله تعالى﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ ،وهذا الإعتراض باطل فإن علم الناس باقترابها لا يعني انتفاء الفجأة، كعلم المرء أنه ميت لا يعني نفي جهله بوقت الموت ومكانه، وأهل الإسلام يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم من دلائلها، ولم يعن هذا أبداً نفي اعتقادهم أنها فجأة، ثم لم يعلم هؤلاء أن القرآن قد ذكر بعض هذه الدلائل كيأجوج ومأجوج وخروج الدابة، ومنهج أمثال هؤلاء منهج ليس من العلم في شيء، وهو منهج أسلافهم من أهل البدعة والإنحراف.

قوله تعالى﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وهذا من صفة القيامة وأحداثها، فإن حال الناس يومها أن يلبوا أمر الله تعالى بأن يقومون له أحياء من قبورهم وموتهم، فيتم اجتماعهم إلى أرض المحشر حتى يكونون في صعيد واحد، والإستجابة من الموت والقبور هو الذي يتحقق به الحساب ثم الجزاء، وهو ما يجادل به الملحدون والمشركون، فإنه لا يضرهم أن تهلك الأرض وأهلها، لكن قيام الناس لرب العالمين إحياء بعد موتهم هو ما تكفر به قلوبهم.

وقوله تعالى﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ فسرها البعض بأمره وقوله، وآخرون بطاعته وعلمه، وجعلها بعضهم على معنى حصول الحمد يوم القيامة كقوله تعالى﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ ،وهذا كله حق، وذكر الحمد هنا بدل القول والعلم والدعاء لأن الحمد شكر وثناء كما هو معلوم، إذ يقع على الجميل الإختياري وغير الإختياري، فمن أوقعه على الجميل غير الإختياري يوم القيامة إنما يوقعه على الجزاء الذي يؤديه إليه كما يقولون يوم القيامة﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، وأما من أوقعها على الجميل الإختياري فلأن يوم القيامة فيه كل معنى حقائق الصفات الحسنى كالحكمة والعدل والعلم، وهذا ما سيشهد به البشر جميعاً يوم القيامة، وسيحصل لهم شهودها بلا إنكار، فسيكون حمده على كل لسان، فأما المؤمن فحمد الثناء والشكر، وأما الكافر فحمد الثناء، هذا وقد علم أن أعظم الألوية يوم القيامة هو لواء الحمد، وهو اللواء الذي يحمله الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثمّ قد علم أنه لا يسكن غضب الرب ذلك اليوم إلا المحامد، وهي التي يحمدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قبول الشفاعة العظمى من طلب الناس واعتذار الأنبياء، فيوم القيامة هو يوم الحمد، على لسان الخلق، لأنه موجب الثناء والشكر.

وقوله تعالى﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا المعنى قد أتى كثيراً في القرآن، فقد أتى في سورة طه والنازعات والمؤمنون والروم، وفي سورة (المؤمنون) جاء تأييد قولهم بقوله تعالى﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، مع أنهم كذبوا في المقدار حين قالوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ هذا إذا حمل معنى اللبث على ما في الحياة الدنيا كما قال بعض المفسرين، وقال بعضهم إن اللبث المقصود به لبث القبور، وهذا إنما يكون لمن لا يعذب في قبره، ذلك لأنه على الصحيح أن الناس مراتب في القبور، فمنهم من يحق عليه قوله تعالى﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فهؤلاء كانت القبور لهم مراقد ينامون فيها بعد السؤال

الأول، ومنهم من قال الله فيهم كقوم فرعون﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ،وهذه آية بينة في عذاب القبر، وقد صحت في أحاديث، فلا ينكره إلا جاهل، ولقد قرأت لعبد الجبار المعتزلي قول فرقته بعذاب القبر مستدلاً بهذه الآية فلم يبق على إنكاره إلا من زاد ضلالاً على قول المعتزلة في أبواب العقائد، وهذا في العذاب أما في النعيم فكذلك فإن الأنبياء أحياء في قبورهم كما صح في الحديث، وتبلغ رسولنا صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه، وقد حرمت أجسادهم على الأرض، وفي البيهقي وصححه ووافقه ابن حجر في الفتح أن الأنبياء يصلون في قبورهم، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره، وقد ذكر الله حياة الشهداء، لكن لم يتعين أنها حياة القبور، بل الذي في القرآن ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ،وفي بعض الأحاديث أن المؤمن ينام في قبره نومة العروس.

فإن قيل: لم يستخدم في القرآن كلمة (الظن) على معنى الجزم وأصل إيقاعها عما فيه شك سواء كان قليلاً أو كثيراً، والقول في هذا كالقول في ﴿عَسَىٰٓ ﴾ فإن القرآن لا يجري الكلمات إلا على وفق كلام العرب، لكن خطأ بعضهم في حصر جريان هذه الألفاظ على جهة هو ما يدفعهم لرفع ما فيها من هذا الإختصاص وجعلها بديلاً لألفاظ أخرى، وقد تبين لك في ﴿عَسَىٰٓ ﴾ أنها واجبة، لكن تخلف ما بعدها محتمل لتخلف موجبها كما إذا علقت على أمر، ثم تبين لك أن عدم حصول العلم بوقتها وتخوف المؤمن من وقوعها فجأة وفي كل آن هو ما حقق التردد وليس في الوقوع نفسه، ولذلك تحقق استخدام ﴿عَسَىٰٓ ﴾ في محله، وها هنا نفس الأمر، فـ(الظن) لا يجب حمله على مقدار مرتبة العلم في القلب للموضوع ذاته دائماً، بل قد يحمل على أمر خارجي، فقد ورد في القرآن لفظ الظن في مرتبة يقين العلم في المقدار كقوله تعالى﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ لكن عدم العلم بزمان اللقاء يجعل لكلمة الظن مقاماً لا يلغى، ولذلك كان حضورها أولى من حضور لفظ آخر يقتصر على يقين العلم ولا يحقق الأمر الخارجي وهو الزمان ووقته، لكن إن كان الظن وصفاً لمقدار مرتبة العلوم ذاته في القلب فحينئذ يكون مذموماً إن اتخذه سبيلاً لما هو يقيني أو اتخذه منهجاً للإيمان والتصديق كقوله تعالى في الحالة الأولى﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ ،وكقوله في الحالة الثانية﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ،وعلى هذا يجب النظر إلى الأمور الخارجية عن

الموضوع لإدراك مراد القرآن من وقوع هذه الألفاظ، وهذا كما ترى أمر بياني يوسع دائرة فقه القرآن وإدراك تأويله، أي وقائعه في الخارج، وفهم هذا يفيد جداً في مسألة التناوب في حروف الجر وغيرها من حروف المعاني، ويجعل قول النافين للتناوب هو الأولى بالإتباع، وما فسروه من زعم التناوب هو ما فسرته هنا في تناوب الألفاظ كذلك، ولا أدري أسبقت بهذا أم لا والله أعلم.

قوله تعالى﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

هذا أمر إلهي يتعلق باللحمة بين المؤمنين، وهو يعني أن العلاقة بينهم بناء قرآني وليس أمراً ذاتياً، فحين ينهى القرآن عن فتح باب الشيطان بين المؤمنين يعني أن الواجب هو تقوية الصلة بينهم وإمدادها بأسباب البقاء والنماء، وهذا يفيده المفهوم.

وأمر هذا البناء يتعلق ابتداءً بالقول كما في هذه الآية، ثم جاء في آيات أخرى تالية في النزول أوامر تتعلق بالظن والتجسس وغير ذلك من موهنات البناء الإيماني لوحدة الجماعة، والقول الأحسن هو منفذ صلة القلوب، وهو قاطع الطريق على الشيطان ومنافذه، وهذا القول الأحسن منه ما يتعلق بالمعنى ومنع ما يتعلق باللفظ، فمن جماليات الإسلام الملتزم، ومن بناء القرآن والسنة لهذا المؤمن هو ترقية درجة الذوق والإحساس، بدءاً من العبودية وانتهاءً إلى كل جوانب الوجود والمعاني، فانظر إلى هذا الذوق الرائع العظيم في قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير الإحسان بقوله((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) وهي درجة لا تتعلق بالخوف فقط كما نشط لهذا الباب بعض الشراح، لكن الأمر أعظم من ذلك بكثير، فإن الإحساس والشعور بالمنعم الحبيب، والحسن الجميل، والعظيم الكبير مراقباً ومرافقاً تصنع في نفس المرء حياءً وذكراً وحضوراً، فيفيض منها الكمال الإنساني المهتدي، وتأمل إن شئت هذا الحديث لتعلم معاني هذا الذوق الجميل الجليل، وذلك حين يُسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإغتسال عارياً فيقول:- ((والله أحق أن يستحيى منه)) ،مع علم العبد أن الله لا يحجب بصره ثياب ولا غيرها، لكن الحياء لا يتبعض، وحين يغزو القلب فإنه يجريه على كل عين تراه وعلى معنى واحد، فحين كان الحيّي لا يرضى العري أمام عين الإنسان، كان هذا الحياء بمعناه أمام عين الله تعالى.

ثم انظر حياء النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعطي من يسأله ولا يرده حتى مع علمه بأن السائل قد تجاوز حقه فيقول صلى الله عليه وسلم((إنهم خيّروني أن يسألوني بالفحش فأعطيهم أو يبخلوني ولست بباخل)) ذلك أن هذا الفعل وهو العطاء على هذه الصورة لا ينفك عن جهتين؛ إما العطاء مع عدم الإستحقاق، وإما الإتهام بالبخل، فكان اختيار النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطي بغير استحقاق ولا يتهم بالبخل، وهذا من رقي النفس وذوقها في اجتناب أوصاف السوء، فإن اتهام السوء سمة قبح يستحيي منها العظماء ولا يرضونها بحال، ولذلك كان أشد ما يقع على الرسول هو الإتهام بالسوء كالكذب والسحر، ونفسه الشريفة تأبى ذلك وتتألم منه، وهذا يدلك على هذا المقام من الذوق الرائع الجميل.

ومن هذا الباب أمر الألفاظ وحسنها، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب اللفظ الحسن، والاسم الحسن، ويستبشر بهما، فهذا من باب قوله تعالى﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

وأما باب المعاني، فإن النفوس تنقاد للمعاني الحسنة، وتنفعل بها، فتنشط بعدها للعفو والسماحة والإنبساط ومكارم الأخلاق، ولهذا المعنى فقد شرع في الإسلام وجود الوكلاء والشفعاء، وهم لا يكونون كذلك ولا يتحقق بهم القصد إلا بملكتهم في هذا الأمر.

ولذلك أمر الله عباده هنا بالقول الأحسن، إذ به يتحقق الخير ودفع الشر، فإن فات كان ضده هو مطية الشيطان في التفريق والإفساد كما قال تعالى﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ ،فعلم منها أن قبح القول هو سهم الشيطان وعدته في التفريق بين المؤمنين.

وهذه الآية هي عنوان قوله صلى الله عليه وسلم ((إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب ولكن التحريش بينكم)) ،وقوله صلى الله عليه وسلم:- ((لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)) ،فالشرك هو أكبر مراتب المعاصي ومقصد الشيطان، فإن عجز عنه ذهب إلى أول درجة لتحصيله وهو التحريش، حتى يحصل القتال والذي عنوانه الكفر، فهو من معانيه ولذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم كفراً، وهو كفر أصغر كما هو معلوم، والمعاصي هي بريد الكفر.

وقوله تعالى﴿ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ يحتمل معنيين؛ أن يتحقق النزغ بكلام السوء، أو أن النزغ يحصل قبلاً بالوهم أو بالوقائع فيكون القول الأحسن طريقاً لجبر هذا النزغ فيحصل الصلاح.

وقوله﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ دل على تعدد مراتب الحسن في القول، وهذا معلوم بالضرورة في لغة العرب، والقرآن شهد بهذا وخاطبهم بمعاييرهم في معرفة هذه المراتب، وقد يدخل في الحسن والأحسن العرف لا مجرد اللغة فقط.

وقوله تعالى﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وهذه حقيقة يؤكدها القرآن كثيراً، وما تعدد قصة أبينا آدم عليه السلام في إغواء الشيطان له إلا لتأكيد هذا المعنى، وهو عداوة الشيطان وطرق تحقيق هذه العداوة، ولذلك قال تعالى﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وقال سبحانه معلماً آدم عن الشيطان﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ ،وقال تعالى﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وقال سبحانه﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ وقال سبحانه﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ،وسبب هذه العداوة إنما هو الحسد، وهو أس عداوة البشر فيما بينهم، بل هو من أسباب الكفر، إذ أن بعض أسباب الكفر بالمرسلين إنما هو الحسد.

وإدراك المرء أنه في حالة عداء، وأن المعصية هي انتصار العدو على فاعلها تدفعه للهروب منها والنجاة من فعلها، لأن الإنسان مرتب على أنفة قبول الهزيمة ووقوعها عليه، بل هو محب ساع للإنتصار والفوز، ولو استحضر المرء أن المعصية والغفلة هزيمة لأنف منها من جهة نفسه قبل أن يتركها تحقيقاً للعبودية، ولذلك كان من كلام حكماء هذه الأمة أن المعصية ذلة وخسة، لأن أول معنى من معانيها هو الهزيمة أمام العدو، ويقابلها أن الطاعة عزة لأنها انتصار على العدو، فإن علم أموراً زائدة عن هذا العدو، كفرحه عند الإنتصار بهزيمة عدوه الإنسان، بل وتوزيعه الجوائز على جنوده، ثم إن علم أن هذا العدو سيتبرأ منه يوم القيامة ازداد بعداً عن المعاصي من هذه الجهة، لكن من مكر هذا العدو أنه يجري وسوسته في نفس الإنسان على معنى أنها من داخله هو لا من الشيطان، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول((**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق**))، فإن اختلطت هذه الوسوسة بشهوات الإنسان وهواه ازداد خفاؤها عليه، ولم يعلم أن هذا

من مكر عدوه به، فإن ارتفع أمر هذه المعاني إلى التشريع صار أمرها ليس من جهة الهوى فقط، وهي جهة تلتقي مع وسوسة الشيطان ويحصل بينهما الإشتباه، بل تبدو لهذا العاصي أنها من جهته جزماً بل ومن مقررات عقله، ولذلك بعد أن ذكر الله قصة آدم مع ابليس، وأن معصية آدم وقعت من وسوسته ونزغه، جاء الحديث إلى احتجاج الأبناء بعد ذلك على معاصيهم، فلم ينسبوها للشيطان بل قال الله عنهم ﴿ **وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** ﴾.

وعلم الناس أن المعاصي هي من وسوسة الشيطان، وأن هذا العدو هو من أخرج أبويه من الجنة ازداد بغضاً له، فإن الإنسان العاقل يقيم علاقاته في الوجود لما يعيش ولما يستقبل من خلال خبرته لما مضى، وتاريخ الإنسان مع الشيطان وخاصة فيما جرى في السماء قبل النزول إلى الأرض يهديه إلى النفور من هذا العدو، ومخالفته في كل صغير وكبير، ولابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره نكتة رائعة، وهو أن الله جعل سبلاً لرد عداء الإنسان للإنسان منها قوله﴿ **وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ فجعل الله الأحسن سبيلاً لدفع شر الإنسان، لكن كلما ذكر الشيطان وعداوته في القرآن لم يذكر سبيل قط يدفع شره سوى الإستعاذة، كما في موطن الآية المقتدمة من سورة فصلت﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ ،ذلك بأن هذا العدو لا يمكن تغير عداوته إلى مودة أبداً، بل هو عدو إلى يوم القيامة، وكذلك لا يمكن أن يأتي منه خير قط.

والحق أن بعض الخلق في عدائهم للمؤمنين كذلك؛ أي كالشيطان، ومن جرّب تجربتي علم هذا ولم يشك أبداً، وهم الذين قال الله فيهم﴿ **وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ ،ولذلك قال الله تعالى﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ فعلمنا القرآن أن بعض شياطين الإنس هو أكثر مكراً وكفراً من شياطين الجن، بل هم يعلمونهم طرق الشر ويبصرونهم بها.

ولعلك الآن لا تحتاج إلى التذكير أن هذه الآية التي تحمي لحمة الإيمان في المجتمع المؤمن تذكرك أنها تحضير لمجتمع قادم، يقوم على الإيمان، ويتحقق فيه وشائج الإيمان وصلاته، فهي تأهيل لهذه الفئة الوارثة وهي على أعتاب النصر وتحقيق التمكين، فهي بشرى لوعد، وبناء لوارث، وتمتين لكيان، فحين تقوم قائمة الإيمان في الجزيرة وييأس الشيطان أن يعبد فيها، فسدّوا عليه منافذه، لا بالعمل فقط، بل باللفظ والكلمة، فلا يكفي أن يكون البناء متيناً، بل يجب أن يكون طلاؤه وصبغته جميلة وحسنة وحامية كذلك.

ومن تأمل مجتمعات الجاهلية رأى أن صبغتها في ألفاظها توافق حقيقة بنائها، فهي قذرة في جوفها وجوهرها، وهي قذرة في ألفاظها وكلماتها، وهذا نراه اليوم واضحاً جلياً، فترى كلمات السب الفاحشة هي خاتمة كل جملة، بل ولا يعبر عن الأشياء إلا بألفاظ السوء القذرة والتي يستحيي منها الأسوياء، ومن خلال هذه الألفاظ وانتشارها تستطيع أن تقيم باطن وجوهر الإنسان ومجتمعه، بل وبينه وأبيه وأمه، ولا تحسبن أن انتشار هذه الكلمات في مجتمع من المجتمعات يسقط أثرها في تفكيكه وتدميره، بل هي في الحقيقة مظهر لهذا التدمير وهي تزيده تدميراً فوق ما هو عليه، والزنادقة في هذه الأمة يريدون هذا في البيئة المسلمة، إذ بدؤوا ينشرونه في كتبهم من رواية وشعر وما شابه ذلك، ويتسترون في نشر هذه الألفاظ بستار الأدب والإبداع، وهو في الحقيقة انحطاط وخسة وسفالة، لا يرضى بسماعها بله قوله إلا قذر النفس والقلب ومنشؤ هذا قلة الحياء وسوء التربية وانحطاط القيم.

قوله تعالى﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

هذه الآية وما بعدها تدلك على أن بنية هذه السورة بنية واحدة، فإن الحديث كله ما زال على قواعد وسنن البناء والبقاء، بناء الإنسان القرآني والأمة المؤمنة والحضارة الوارثة، وبقاء هذا كله ما استطاع الوراث محافظته ورعايته، مع ما سيأتي أن هناك أقداراً حاكماً لا تتخلف بأن يقع تداول الأمم والحضارات، لأن عنصر الزمن يحمل عوامل تحقق التعرية والإضعاف والإزالة.

في هذه الآية ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ ﴾ أمور تتعلق بالبقاء، وهي مقدمة لقوله سبحانه الآتي﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴾، فهي تبين أن البقاء له أمد، ثم لابدّ أن يلحقه إزالة وإذهاب، ولن يحول من هذا الجريان وسريانه مانع قط.

وهذا البقاء والإزالة له قدره الذي قدره الله، وهو يجري بحكمه ومشيئته، وقد علمت مراراً أن الحكم القدري لا يقع إلا لحكمة، ولا يقع إلا بأسبابه، فهما شرطان لجريان القدر، وهذا من تمام عدل الله، وهو القائل﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ،مع علمنا بأنه سبحانه﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ لكن ربنا القدوس الحكم العدل، وقد بينت هذه الآية هذا الأمر وذلك في قوله﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ ﴾ فكان عمل الإنسان هو الذي يجري على وفق ما قال الله بعدها في قوله تعالى﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ ﴾.

وقوله تعالى﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ ﴾ دليل على أن البقاء منة إلهية تجري على وفق الرحمة لا مجرد العدل فقط، لأن الله تعالى قال﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ ،ثم دلت على أن العطاء في البقاء أعظم من الأسباب الموجبة للبقاء، وهذا هو ميزان سنة الله في الخلق جميعاً ومع المؤمنين خصوصاً.

أما العذاب فهو الخروج من رحمة الله لعدم وجود موجبها كما قال تعالى﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ ،وفي هذا دليل على أن الإذهاب لا يكون إلا بوقوع أمرين هما: موجب العذاب أولاً ثم موافقة القدر المكتوب، فقد علم في آيات كثيرة أن موجب العذاب من الكفر والمعصية قد تحقق لكن امتنع نزوله بسبب عدم وجود الأمر القدري كقوله تعالى﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

وقوله تعالى﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ لقد تبين في آيات أخرى أن وجود الرسول صلى الله عليه وسلم مانع من نزول عذاب الإستئصال كقوله تعالى﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾ ،وجاء في الحديث أن من رحمة الله بالأمم أن يقبض نبيها قبلها، وهذا ما تحقق لهذه الأمة المرحومة، فدل قوله تعالى﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ

﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أنّ أمر البقاء القدري ليس موكولاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يجري منهم من موجبات العذاب والإزالة لن تمنعه، وما سيجري عليهم من جريان ذلك القدر فليس موكولاً إليك.

وفي هذا بيان أن الأنبياء لهم بيان الشرع، فهي مهمتهم، فهم رسل الأحكام والمعاني، أما أمر القدري فليس لهم، ولا هو من مهماتهم، ولذلك كان من غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لأصحابه رضي الله عنهم سلوني؟ فسأله أحدهم من أبي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبوك فلان، فجثا الفاروق بين يديه يقول: (رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) فسكن غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يخبر به الرسول من الأقدار إنما هو للدلائل على صدقه، أو لما يحقق معنى من معاني الشرع، كإخباره بما يجب على المصلين حين يطول اليوم زمن الدجال، أو مدحه لابنه الحسن بن علي رضي الله عنهما في إصلاحه بين طائفتين من المؤمنين، أو بيانه أن عمار رضي الله عنه تقتله الفئة الباغية، فكل ذلك له صلة بالشرع كما ترى، أما الأقدار ووقائعها فليست للأنبياء، بل رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول: ((والله لا أدري ما يفعل بي ولا بكم وأنا رسول الله)).

فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس وكيلاً على أعمال الخلق، وليس له سلطة قاهرة على إرادتهم بل الأمر كما قال تعالى﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ ،ثم هو ليس وكيلاً على ما يقع بهم من أقدار يحبونها أو يكرهونها، ولكن المنافقين كانوا يرون أن تطبيق الشرع يوقع بهم البلاء، كما قال المنافقون عن الجهاد﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ وهذه سنة الكافرين كما قال آل فرعون لموسى عليه السلام﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، وهذا هو سبيل المجرمين في كل وقت، يمنعون إقامة الحق مخافة آثاره التي تصيب أهواءهم وشهواتهم، وهذا الأمر قد شرح في تفسير الآيات النازلة في موقعة أحد في سورة آل عمران، وفي شرح حديث الغلام المسمى(درك الهدى في اتباع سبيل الفتى).

ثمّ في هذه الآية تعليم لأهل الإيمان أن لا يعلقوا الأقدار على الأشخاص، بل على الأعمال والوقائع، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعله الله وكيلاً على أقدار الآخرين فكيف بغيره من الخلق.

قوله تعالى﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ وهذا بيان لإحاطة علم الله لكل الوجود، وسياق الآية يدل على أن المعلوم هنا هو أفعال سكان السموات والأرض من الطاعات، وأفعال سكان الأرض من المعاصي كما قال سبحانه﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ،وذكر فيها أن الأنبياء مراتب، فهناك أولي العزم من الرسل وهناك من هم دونهم، وهناك من كلم الله كما قال تعالى﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ والتفضيل في الخلق أمر وجودي قدري وأمر شرعي، فالله قال عن صوت الحمير﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وقال عن بيت العنكبوت﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ ،وفضل أماكن على أخرى وأزمنة على أزمنة، والله عز وجل قال﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ وقال سبحانه﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فهناك من هو مفضّل في أصل خلقته، وهناك من هو مفضّل في هدايته، والشرع في هذا الباب متناسب مع القدر، فحيث يفضل أمر من جهة القدر يتم تفضيله من جهة الشرع، وقد تقدم شرح هذا في هذه السورة.

وقوله﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ هذا من باب التفضيل في باب، وهو تفضيل لا يقتضي التفضيل في الإجمال، فإن داود عليه السلام ليس من أولي العزم من الرسل مع ما ذكر الله من إعطائه الزبور، وقوله عنه﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وقوله سبحانه عنه وعن ابنه سليمان﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ ،وما ذكر الله عنهما في سورة الأنبياء كذلك.

ولكن التفضيل في باب لا يعني التفضيل في الجملة، فقد يسبق امرؤ آخر في أمر ولكن يكون المسبوق في هذا الأمر هو الأفضل جملة، ومنه تستطيع فهم تقدمة مهاجري الحبشة على مهاجري المدينة في هذا الباب، وما وقع من التنازع بين عمر الفاروق رضي الله عنه وفاطمة بنت قيس، إذ ظن بعض من طمس الله بصيرته أن عمر الفاروق رضي الله عنه مفضول المرتبة بهذا الحديث، مع أن التنافس على باب من العمل وهو السبق في الهجرة لا غير، ولو صحت قاعدتهم لكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفضول أمام من سبقه بالهجرة إلى المدينة، وبهذا يحل مشكل حديث الغرباء آخر الزمان وأن لهم أجر خمسين

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله((إنكم تجدون على الحق أنصاراً وهم لا يجدون)) ،فهو للمقارنة بين الصحابة الذين صاروا للإسلام بعد عزته، لا الذين سبقوا وحصل لهم بلاء العذاب والمحن، ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم ميز بين أصحابه رضي الله عنهم حين قال للتالين منهم((دعوا لي أصحابي))، وهو يقول هذا لمن لهم صفة الصحبة، لكن الصحبة درجات، ثم إن الحديث يفضل أجر التابعين في بلاء الغربة الثانية على أجر السابقين من لاصحابة لمن لم يقع لهم هذا البلاء، في هذا الباب دون غيره من الأبواب، وإلا ففضل الصحبة لا يدرك أبداً، لكن قد يحصل السبق للمتأخر في أمر، مع بقاء فضل الأول جملة.

والذي أظنّه أن ذكر الأنبياء هنا إنما هو لبيان مراتب أممهم، وقد علم أن أعظم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ثم ابراهيم لأنه أبو الأنبياء ثم موسى عليه السلام وأمته هي أعظم الأمم بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله صلى الله عليه وسلم((عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي:- انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك)).

وذكر داود عليه السلام هنا لما حصل له من الملك بعد وقعة الإيمان بين طالوت وجالوت كما قال تعالى﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ ،ذلك لأن ملكه قد دام له، ثم ورثه ابنه سليمان عليه السلام، ومع هذا الملك العظيم إلا أنه جرى عليه بعدهما ما جرى من السنن والأقدار.

قوله تعالى﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

وهذا من التحدي الذي يقوله القرآن للمشركين لبيان عجز آلهتهم كقوله تعالى﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وكقوله تعالى﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ فإنه حين نزول

البلاء، والعذاب لا يلجأ المشرك للآلهة الباطلة بل يلجأ إلى الله تعالى كما قال سبحانه﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ ،وآيات أخرى.

فالله يقول لهؤلاء: حين نزول البلاء بالإزالة والإذهاب لن تمنعكم آلهتكم التي تعبدونها شيئاً، ولن تحول بينكم وبينه، كما أنها لا تملك رفعه بعد نزوله.

قوله تعالى﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا** ﴾

وهذه الآية كقوله تعالى فيما مضى﴿**قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا**﴾ ،فهؤلاء المعبودون من دون الله تعالى هم أنفسهم يدعون الله ويلتجؤون إليه، وسبب نزول هذه الآية يدل على ذلك فقد روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:- كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجنيون واستمسك الآخرون بعبادتهم فأنزل الله تعالى﴿ **قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا** ﴾ ودلت الآية أن البشر من المؤمنين مراتب، كما أن الأنبياء كلهم مراتب كما تقدم، فكذلك أتباعهم، وهذا القرب لا يكون إلا بالعبادات والقرب، لا بأمر آخر، فلا نسب بين الناس وبين الله تعالى فيما يزعمه البعض ويتطاول بهذا النسب على البشر، ثم يزعم أن له سنناً خاصة يجريها الله له دون سنن الخلق الآخرين كما قالت اليهود والنصارى﴿**نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ** ﴾.

هذا وقد علم أن الوسائل لا تعلم إلا من جهة صاحب الشرع، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله تعالى إلا من جهته، وأما الرأي والقياس الفاسد فهما أساس البدع والمحدثات التي يأتيها العبّاد زاعمين أنها تقربهم إلى الله تعالى.

وفي هذه الآية دليل على أن القرب والوسائل منشؤها قوله تعالى﴿**أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ**﴾ فرجاء القرب هو الحب، وهو أعلى مراتب المعاني في العبادات، وهذا الحب على معنى هاتين القاعدتين:-

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ ،أي الخوف والرجاء، وهما يدخلان في الطاعة واجتناب المعصية، فالمرء يطيع ربه رجاء رحمته ومخافة عذابه، ويجتنب المعاصي من أجل ذلك كذلك، فهما قوتان للفعل والترك لا أن رجاء الرحمة يختص بفعل الطاعة ومخافة العذاب يختص بترك المعصية.

والرحمة والعذاب شاملان لما يقع في الدنيا، ولما سيقع في الآخرة، وإن كان السياق والسباق إنما يقصد به ما تقدم من البقاء والإزالة، ويشهد لهذا الآية التالية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وهذه الآية تحذر من الإطمئنان الخادع والغفلة، فإن أكثر ما يفسد الخلق هو الركون إلى الوهم، والإطمئنان للحال، والغفلة عن العواقب، وهذه تمنع الإصلاح، وتعمي عن النقائص، وتجري على الذنوب، وتستخف بالأعداء والمتربصين من الشيطان وجنده، فالحذر هو سمة العقلاء، ومخافة الصغائر يحمي من الكبائر، والتوبة والإصلاح يمنعان من التراكم، ولذلك فالمرء والأمم يجب أن يعتقدا أنهما محاطان بالأعداء، وأن مجرد الزمن وتعاقبه كاف أن يحقق الوهن والإضعاف كما في الآية التالية، ولذلك يجب الحذر من العوارض قبل حصولها، وفوات الحذر يحقق الهلاك والإفساد.

وهذا الأمر يعلمك أن الحياة جد كلها، فإن كان فيها سعة للهو فهو هامش يسير بعد أداء الواجبات والمستحبات، فإن تحولت الحياة إلى لهو ومتع، يعني أن العاقبة بالهلاك والزوال قد تحققت، وهذا يقال في الأمم القائمة المستقرة، فكيف إن كان اللهو واللعب هو سمة الأمم الذاهبة الضعيفة؟! فهل هذه أمم تستحق الوجود ابتداءً؟! أم أنها أمم الغثاء الذاهب، والذي لا وزن له ولا إرادة خاصة بعد تقوده؟!

إن الله عز وجل قال﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وقال﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وقال سبحانه ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ومع كل هذا الإرشاد، ومع كل هذا التاريخ إلا أن الامة المسلمة اليوم هي أكثر الناس إعراضاً عن هذا السبيل، وأكثر الناس سقوطاً في هذه المخالفة إنما هم قادة العمل الإسلامي فيها، فهم ما أن يبذر لهم الحبّ حتى يتساقطوا عليه ليلتقطوه، فيقعوا في الفخاخ مرة بعد مرة، فيقع عليهم العذاب، والذي هو سنة الله في الغافلين، سواء في الغفلة عن سنن تحقيق الآخرة أو سنن تحقيق النصر

في الدنيا، ولا فرق بينهما في أمور متعددة، إذ سنن تحقيق النصر في الدنيا هي من سنن تحقيق دخول الجنان كذلك، ولا عجب أن يكون التاريخ المعاصر أكبر شاهد على هذه الغفلة إذ الأحداث تبين أن كثيراً من مقاصد الكافرين إنما تقع بأيدي المغفلين من المسلمين، بل إن هناك طوائف كثيرة من أهل الإسلام هم أسلحة الكفر ضد الإسلام وأهله﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾.

قوله تعالى﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

هذه سنة إلهية حاكمة، وهي تساق هنا لأنها من موجبات الحذر الذي أمر الله عباده به، فإنها سنة التداول وجريان الأقدار على البشر والأمم والحضارات، فالقرى مهما ارتفعت وعلت، ومهما كانت قوتها، فإن مآلها إلى الزوال، وهذا الزوال إما أن يقع بموجب المعاصي؛ أي مخالفة القيم والمعاني فيتم العذاب، وإما يقع بموجب الزمن؛ أي تعرية وضعف المقومات من جهته قدرية فيقع الهلاك وهو الزوال، فبناء الأمم إنما يقع بعاملين؛ العامل القدري والعامل القيمي، وهما شرطان للبقاء، فقد تندفع الأمم بقوة العامل القدري التكويني مع ضعف العامل القيمي أو تخلفه فيلحقها العذاب والإستئصال، وإما أن تقوم بالعامل القدري التكويني مع وجود قيم كافية لتحقيق البقاء وخاصة العدل، فيبدأ الزمن عمله في تقويض العامل القدري حتى تسقط وتذهب، وهذا الأمر هو من أثر صفة الله المتكبر، فإن الله سبحانه يجري من الأقدار ليتحقق في الوجود عجز خلقه وقهره على عباده، وهذا ما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث سبق ناقته، فإنها كانت لا تسبق، حتى جاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: ((ما ارتفع شيء إلا كان حقاً على الله أن يضعه))، وكان من فقه السنة النبوية وفقه الصحابة لهذا الأمر القدري الحاكم اعتقاد وقوع الفتن بعد تمام البناء، فالحضارات والأمم ليست حلقة واحدة، بل الحضارة الواحدة حلقات متعددة، يمر فيها هذا التنوع القدري من الإرتفاع والهبوط، ليتحقق في الختم بعد البلوغ الزوال، ذلك لأن البناء مراحل وكذلك الزوال، فالحضارات تعيش أسواقاً

زمانية، فيقام لها سوق النفع، ثم يذهب هذا السوق وتبقى آثاره التي تحقق التعب والرهق، فتميل الحضارة إلى النكوص والتراجع، ثم يحصل لها سوق آخر، وتتكرر هذه الحلقات، وكل سوق يحقق فيها وهن داخلي مع تحقيق صحوة تحييها، ومجموع هذه الحلقات والأسواق تحقق في النهاية الزوال الأخير، وهذا الأمر هو عينه هو ما يجري في الصعود لتحقيق الغاية في الوجود والغلبة والتمكين وذلك لقاعدة القرآن السننية﴿**كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ**﴾، فإن البناء هو ضد الهدم، فكما أن البناء حلقات ومراحل وأسواق فكذلك الهدم والإفناء، ولو طبقنا هذا على الأمة الإسلامية وحضارتها لرأينا هذا جلياً، فلقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً قبل وفاته بقليل وقال: ((إني أرى الفتن تتخلل بيوتكم تخلل القطر)) ،ولما سأل عمر الفاروق الصحابة وقال:- أيكم يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا، كما قاله، فقال الفاروق: إنك عليه لجريء، قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي. قال عمر:- ليس هذا ما أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر. قال: إذاً لا يغلق أبداً، قلنا(أي شقيق راوي الحديث عن حذيفة): أكان عمر يعلم الباب؟ قال حذيفة: نعم، كما أن دون الغد الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط، فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقاً فسأله، فقال: الباب عمر. فهذه أمة الإسلام وهي أعظم أمم التاريخ، وحضارتها حققت وجوداً لم يكن لغيرها لا في الزمان ولا في المكان ولا في الأثرن ولكن قد حصل فيها عوامل الإذهاب مبكراً بقتل الفاروق رضي الله عنه، مع أن قتله لم يحدث فتنة، بل كانت الفتنة بقتل عثمان ذي النورين رضي الله عنه، لكن قتل الفاروق رضي الله عنه فتح الباب لما بعده، ثم كان في هذه الأمة صعود وهبوط، فبعد الفتنة بين علي ومعاوية حصل الصلح وتحققت الصحوة، لكن مجرد الفتن ووجودها موهن للبناء، بل إن الإنتصارات في الحروب بعد بلوغ البناء لرد المعتدين أو تحقيق المكاسب الزائدة يتحقق منها التوهين، وقد ذكر عن أحدهم أنه انتصر في معركة بعد أن قتل نصف جنوده، فلما هنؤوه بالنصر قال لهم:- انتصار آخر كهذا الإنتصار يذهب كل جنودي، والقصد أن ذهاب الحضارات أمر قدري لا يمكن منعه ولا النجاة منه حتى لو لم يتحقق في الأمة موجب العذاب والإستئصال، فإن مجرد الوجود القدري

المحكوم بسنن الوجود من التدافع وتعاقب الزمن يعني أن يعرض لهذه الأمم عوارض كل حي من الموت والزوال.

وعلى هذا المعنى فإن ما وقع على هذه الأمة ليس أمراً خاصاً بها كما يزعم الملاحدة والزنادقة، فإن واقع الحال أن الخصوصية لهذه الأمة ليس في زوال حضارتها وذهاب وجودها الغالب بل أن تكون في زمن ضعفها وذهاب حضارتها يدَ الله تعالى التي يتحقق بها زوال الأمم وحضارتهم، فلو تأملنا الكثير من الحضارات والأمم الوارثة بعد ذهاب غلبة هذه الأمة لوجدنا أن أقوى عامل في إزالة هذه الحضارات كان مدافعة هذه الأمة من خلال طوائف الجهاد والغرباء لهذه الحضارات والأمم، وهذا دليل صدق تكويني على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق)) ،ثم هذا دليل على أن نواة هذه الأمة مقدر لها أن لا تموت، فهي كعجب ذنب الإنسان ما أن تستثار حتى تنمو وتنبعث وتحقق النصر على قدر المساحة التي تعيشها وتشغلها، فهي طائفة قليلة لأنهم غرباء، وهذا من موجبات معنى الغربة؛ أي القلة.

أما قول الزنادقة والملاحدة أن هذه الأمة ليس فيها عوامل المدافعة، ولا عوامل الإحياء والوراثة فهذا كله من الكفر بالله وبوعده للمؤمنين والغرباء، ويزداد الكفر والإلحاد حين يشترط هؤلاء لتحقق الإحياء أن تتخلى الأمة عن قيمها التي تحقق لها النسبة للإسلام ودين الأنبياء وخصوصية القيم، ومقصدهم في هذا أن تلتحق الأمة بالتبعية لأمم الجاهلية، لأنهم لا يؤمنون بالوراثة التي يقررها القرآن ويبني نفوس اتباعه عليها.

ووجود الزنادقة والملاحدة في هذا الشق من عدوة العداء للإسلام لا يعني إلا مزيد عوارض هامشية وخارجية للوراثة، لكن العوارض الأصلية والفاعلة هي ما كانت في بنية العاملين للدين، أول فساد في هؤلاء هو غياب مفهوم الوراثة من نفوسهم، فيسبغ هذا الغياب على برامجهم وتربيتهم الكثير من الجهل والفساد، وأول مظاهر هذا الجهل والفساد هو القبول بالمشاركة تحت مظلة الجاهلية، وتصورهم تحقيق الإصلاح من خلال هياكل الجاهلية وعمدها، تحت مزاعم كثيرة منها زعم المرحلية أو فقه الإستضعاف، وهم يعلمون أن تقرير هذه البرامج لم استثناءً عن فقه الوراثة الغالبة، بل هو إرساء لفقه جديد على وجه الأصالة والإنتهاء، لأن من شروط الجاهلية هو تحقيق هذا الأمر وقد استجابوا هم له، وصار كبراء هؤلاء يرونه الأصلن ويعيبون أي بناء خارجهن حتى لو كان استثناءً، مع أن هذا الإستثناء المستنكر هو الأصل كما هو في دين الله تعالى،

والعجب أن هذا الإستثناء الذي يزعمونه أي فقه الإستضعاف والمرحلية قد عاد على الأصل وهو فقه الوراثة والتمكين بالإبطال، وقد علم من أصول الفقه وأصول العقلاء عدم اعتبار الفرع إن عاد على الأصل بالإبطال، بل إن هؤلاء لم يعد للتوحيد عندهم وهو أس الإسلام اهتمام في بناء الإنسان والجماعة.

ما تفيده هذه الآية بالنسبة للغرباء والطائفة المنصورة هو وجوب التحضير للوراثةن ليس عن طريق الإنتظار كما يظن البعض، بل عن طريقة مدافعة الخصم، وهناك فرق بين المنهجين؛ وهو فرق بين في واقعنا بين طوائف الجهاد المدافعة والتي تحقق وقائع حقيقية لحصول الوراثة عند الزوال أو لاضعف الجزئي، وبين آخرين يسلكون سبلاً أخرى يسمونها تربوية يزعمون أنها تحقق القاعدة اللازمة لحصول الوراثة ما لو حصل الفراغ، وقد تبين أن هؤلاء إن طال عليهم الزمن وقوع الذهاب والضعف قبل تحقيق المأمول، مع أن منهجهم لا يلتقي مع القرآن وسنن الأنبياء في شيءن كما أنه ليس من سنن التاريخ والتوارث، فإن هناك فرق بين تداول الأمم والحضارات وبين المحافظة على الأفكار والمذاهب، فطريقتهم وإن حققت الحفاظ على (العلم) وعدم ذهابه، إلا أنها ليست سبيلاً في تحقيق التداول، لأن التداول بناء قدري تكوني لا يقع إلا من خلال التدافع، فإن شكر عملهم فهو في جانب الحفاظ على القيم و(العلم) لا في تحقيق وراثة الأرض وتحقيق النبوءات والوعود القرآنية، والإسلام ليس أحدهما، بل الإسلام عند الله هو الدين والوراثة كذلك، وهؤلاء تخلوا في سعيهم للحفاظ على وجودهم الضعيف الهش عن بعض الدين الذي يحقق المواجهة مع الجاهليةن بل قد ذهب بعضهم لسبه والنفير منه حفاظاً على مؤسساته (العلمية) والمساندة، لانها قد صارت أصلاً لطول عهده معها، زاعماً أن هذا التدافع يفسد عليه خطته وعمله، وواقع الأمر أنه قد صار جزءاً من هياكل الجاهلية ومأسوراً في داخلها، لا يقدر أن يمتد إلا بإذنها وسلطانها، وهذا ليس من الوراثة في شيء.

ونحن هنا لا نتكلم عن أفعال هؤلاء من جهة شرعية فهذا له مكان آخر، لكن الحديث هنا عن السنن القدرية في البناء الوارث بحسب هذه الآية التي تعلمنا أن هياكل الجاهلية المعاصرة مهما بلغت فإنها إلى زوال، وأن علو اليهود لا محالة زائل على يد الطائفة المنصورة المجاهدة، وأن هذا الزوال لا يتحقق بوسيلة الطفرة كما يريد زعماء مذهب التربية بعيداً عن التدافع، بل يتحقق بسنن التدافع من خلال فعل الطائفة المنصورة في التهيئة والإمتداد الغالب من خلال حلقات صغيرة من الإنتصارات المتكررة ليتحقق النصر الجامع لها بالغلبة

والتمكين وإزالة الخصم، وهي الحلقات نفسها التي توهن الخصم في تمكنه القائم؛ حلقات يسميها يوماً نصراً، لكنه على شاكلة النصر الذي تقدم وصفه، أي نصر التوهين والإضعاف، وحلقات أخرى تحقق الإمتداد لتزول الغربة شيئاً فشيئاً، ويخرج امر التدافع من كونه ظاهرة طائفة منصورة تحقق نصراً موضعياً، إلى كونه ظاهرة أمة ترث ويتحقق لها الوجود الحضاري الغالب.

سقوط الأمم والحضارات لا يعني وجود الفراغ، بل يعني الوراثة، فلا تزول ظاهرة أمة غالبة إلا بصعود أخرى، لأن هذا مقتضى سنة الداول﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ** ﴾، وهذا التداول سيقع سواء كان سقوط الأمم بالتسليط، أي بغلبة غيرها عليها، أو بسقوطها الذاتي لدخول عوامل الوهن في داخلها، مع أن أغلب الحضارات قد ذهبت بسبب العوامل الداخلية، لكن الشجرة الكبيرة الهرمة عندما تُنخر من داخلها فإنها تحتاج إلى نسمة خارجية ليتحقق السقوط، وأمة الإسلام في هذا لأنها أمة وارثة، وهي تصارع الأمم في أوج قوتها، كما حققت النصر على فارس والروم مع قوتهم وغلبتهم، فإن النصر الموعود بالنسبة لها لا يكون في استغلال سقوط الآخر، بل إنما يكون تحقيق واقع النصر الموعود بالغلبة مع القلة والضعف كما قال تعالى﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ ،هذا ليتحقق في الوجود معنى الإيمان وأثره في النصر والوراثة، ولذلك فعمل المجاهدين في زمن الإستضعاف هو من معاني تحقيق النصر في منع الإستئصال الذي يتحقق في الأمم الأخرى عند غلبتها، ولأن في جهادهم تحقيق معاني قوله﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ لأن حمل هذه الآية على معنى واحد وصورة واحدة خطأ في التفسير، وهذه الصورة الواحدة هي أن يقع إفناء الفئة الكثيرة الكافرة عن طريق سحق الجيوش للجيوش، وهذه الصورة الواحدة وإن كانت من معاني هذه الآية لكنها ليست الوحيدة، بل واقع هذه الآية أن الغلبة تقع على وجه سنني؛ أي أن يتحقق نصر بمقدار واقع المعركة وجغرافيتها وسعتها، فالله سمى بدر ﴿**يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ**﴾ ولم يتحقق فيها السحق الكامل لقريش، وغزوة الحديبية سماها الله ﴿**فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ ولم يدخلوا مكة بعد، لكن هذه الأسماء القرآنية العظيمة إنما تفهم على معنيين؛ معنى الأثر الذي تحقق بالفعل، وكذلك على

النتيجة المباشرة لحجم المعركة ومقاصدها، فقتل كعب بن الأشرف معركة عظمى لأنها حققت كل مقصدها، وكان لها أثر عظيم لما بعدهان وهكذا تقيم المعارك والنزالات، وعلى وفق هذا تكون الغلبة والهزيمة.

ولذلك فوجود الطائفة المنصورة المجاهدة في وقت الإستضعاف واجب قدري كما أنه واجب شرعين وقولنا واجب شرعي لا يعني أنه من فروض الكفايات، بل هو من فروض الأعيان، لكن هذه الطائفة هي وحدها من يخرج من الإثم بقيامها بهذا الواجب، ويبقى الإثم على المقصرين والمعرضين، ويرتفع الإثم بالإستضعاف وقلة الحيلةن مع بقاء واجب الدعاء والنصرة لهذه الطائفة قدر المستطاع كما قال تعالى﴿ **لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

فوجود هذه الطائفة يحقق الوعود وآيات القرآن في زمن الإستضعاف، وهذا مقصد قرآنين كما أنه يمثل شعلة الوقود والإطار المهيّأ لحركة الأمة نحو الوراثة عند سقوط الأمم الكافرة الغالبة، ومن تأمل واقع الأمة اليوم رأى هذا عياناً، فإنه ما لو تم سقوط لهذه الأمم الكافرة فإن الوراثة لن تكون للمسلمين قط إلا في الأماكن التي فيها حضور للطائفة المنصورة المجاهدة، وهذا هو معيار الوراثة، فلا كثرة الدعاة، ولا كثرة العباد تحقق هذا المعنى قط.

وقوله تعالى﴿**وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا**﴾ الآية تدل على أن الساعة تقوم على أوباش ومتوحشين، إذ من معاني هذه الآية أن لا تقوم الساعة وفي الأرض كيان يجمع أمة من الأمم، بل سيصير الناس إلى التوحش بلا مدن ولا أطر جامعة، فكل القرى والأمم ستهلك أطرها ويصير الناس إلى توحش غالب لا يحتكم الناس فيه إلا إلى هوى الفرد وشهواته، وقد علم أن لاساعة تقوم وليس فيها مسلم موحد لله تعالى، بل لا يكون فيها إلا شرار الخلق، وغياب الإسلام يعني غياب التداول، وغياب معاني القرآن كما تقدم ذكره، والوجود إنما خلق ليتحقق فيه مقاصد الله في التدافع، وآيات الله في أثر الإيمان، وانتهاء المقاصد مؤذن بالزوال، وها أنت ترى أن الحديث النبوي يتحدث عن ذهاب كلمة الله من أفواه الخلق وذلك في قوله(تقوم الساعة وليس على الأرض رجل يقول الله) ،والقرآن

في هذه الآية يتحدث عن الأمم والقرى، فدل هذا على أن الوجود الذي يحقق مقاصد الخلق لا يكون بوجود المسلم الواحد المنكفئ على نفسه، بل لابد من وجود المسلم الذي يسعى لتحقيق الأمة المسلمة، فوجود الطائفة المنصورة مقصد من مقاصد الله في الخلق، فهم من موانع الإهلاك كما قال تعالى﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ ، ولم يقل صالحون.

قوله تعالى﴿**وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾

كانت الآية السابقة وهي نازلة في مكة مؤذنة بذهاب تلك القرية، أي سلطان أهلها الكافر، وقد علمت أن هذا السلطان قد ذهب من رحلة الجهاد النبوية ضدها، وهي رحلة امتدت ما يقارب ثمانية أعوام من الجهاد حتى كان الفتح الأعظم، ولذلك لما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في سورة القتال﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** ﴾ كان إهلاك هذه القرية؛ أي سلطان أهلها إنما كان بالقتال والجهاد لا بغير ذلك، وفي هذه الآية﴿**وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾ دليل على تغير سنن الإهلاك والإستئصال، فإن الآيات العظمى كناقة صالح عليه السلام لقومه ثمود كانت لإقامة الحجة من أجل الإستئصال الكلي، مع بيان عدم انتفاع الكافرين بها، بل كفروا وكذبوا، وكان في تغير الوسيلة تغييراً في طريقة الإزالة، فالأوائل بالفناء والإستئصال عن طريق العذاب الكوني القاهر، ومع الآخرين عن طريق آخر، دل واقعه أنه الجهاد في سبيل الله تعالى.

ويشرح هذا بوضوح آيات سورة الصافات وهي سورة مكية في قوله تعالى﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾فإذا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ**﴾ فهذه الآيات إن قرأت دون واقع العذاب الذي حل بقريش وأمثالها من القرى حملت على عذاب الإستئصال الذي حل في الأمم السابقة، وكان في هذا الإستئصال

الذي تحقق لعباده المرسلين، لكن وقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم نادى وهو يدخل خيبر((إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)) تبين أن العذاب الذي كان ينزل في الأمم السابقة قد استبدل بعذاب المؤمنين لهم عن طريق الجهاد، ولذلك آقام رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه في هذا الحديث مقام العذاب في قوله تعالى﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

فحين تفقه هذا يتبين لك أن ما أخبر الله به قريش من هلاك سلطانهم أو إذهابه بالعذاب فلن يكون على وفق ما وقع من العذاب الواقع في الأمم الخالية كعاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين، بل هو عذاب آخر، بدلالة أن الله لن يعطيهم آيات كبرى يتحقق في تكذيبها الإستئصال التام.

فهذه الآية إذاً اخبار أن قدراً جديداً سيتحقق في إذهاب سلطان قريش، وهذا القدر سيكون بالجهاد كما تبين من واقع الحال، وهو القدر الذي ستقوم به هذه الأمة بعده في وراثة الأرض وإذهاب سلطان الأمم الكافرة، فإن عقلت هذا علمت أن هذه الآية تحضير لسنة قادمة في جريان قاعدة الإستبدال والوراثة، وسيرورة التاريخ بعد ذلك تثبت أن القرى الكافرة لما سلط الله عليها الصحابة ووراثهم في الجهاد قد تحقق فيها قوله تعالى﴿مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾، وهو من سنن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله((إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)) ،وهو تحقيق لاسم النبي صلى الله عليه وسلم: الماحي؛ أي الذي يمحي الله به الكفر.

إذاً ليس هناك من آيات كونية على غير وفق السنن، وليس هناك إهلاك عن طريق الإستئصال، بل هي سنن المدافعة التي وصفها ابو سفيان لهرقل:(نغلبه يوماً ويغلبنا يوماً) وكما قالوا: ((يوماً نساء ويوماً نسر)) وهذا هو قاعدة المداولة والتبديل ولكن العاقبة للمتقين.

فهي آية تمثل مسيرة الدعوة إذ تتحقق بإرادة المؤمنين، وتسير على وفق قواعد سنن المدافعة، وهي لأهل هذه الغربة الثانية مرشدة لهم إلى هذا الطريق دون سواه، معرضين عن آراء الرجال وتصوراتهم الجمالية في أفق الألفاظ والخيالات.

وقوله تعالى﴿مَنَعَنَآ﴾ من المعلوم أن الله عز وجل لا معقب لحكمه، وأنه سبحانه(يقضي ولا يقضى عليه) ،وفي هذا اللفظ القرآني ما يدل أن الله سبحانه وتعالى مُنع سبحانه وتعال من إرسال الآيات الكونية القاهرة، وهذا المنع سببه كما بين تكذيب الناس لها مما يعجل لهم العذاب والإستئصال، فما معنى المنع هنا؟

ابتداءً لابدّ أن تعلم أن الحِكَم الإلهية تتدافع وذلك مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي((ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)) وقد عُلم أن التردد هنا معناه تدافع الحكم فهي تدافع بين قضائه الكوني وبين حبه سبحانه وتعالى، فهو قد قضى أن تموت كل النفوس، وهو يحب أن لا يساء العبد المؤمن، فهما إرادتان في نفس الرب سبحانه وتعالى، ليس منشؤها عدم العلم كما توحي كلمة (التردد) ابتداءً، ذلك لأن التردد إنما منشؤه عدم العلم وجهل العاقبة، وهذا غير مراد هنا لأن الله سبحانه العليم، ومن علمه علم الغيب جل في علاه، فالتردد إذاً هو تنازع الإرادتان بين ما يحب وبين ما قضى، وهذا هنا على هذا الإجراء، فإن الله كانت إرادته فيما مضى من الأمم أن يرسل الآيات، فلما جرت هذه الإرادة وتبين للخق جميعاً أن طلبهم الآيات كان للتعنت فقط لا للإهتداء للحق الذي جهلوه، فلما بان هذا للأنبياء عليهم السلام فلم يعودوا إلى طلبه، وبان هذا للمؤمنين فلم يعودوا إلى سؤال أنبياهم لعل أقوامهم تؤمن، تغيرت هذه السنة، فكان تحقيق مراد الله مانعاً من وقوع إرادة الله بحدوثه، فهي تنازع إرادة مع حكمة، إذا وقعت الحكمة امتنعت الإرادة، ولما لم تكن الحكمة كانت الإرادة، فهذا هو معنى قوله (معناه) ،أي امتناع الإرادة بتحقق الحكمة، وهذا ليس أمراً خارجاً عن الله من خلقه يمنعه، بل هما في نفس الرب جل في علاه، ذلك بأن المنع المذموم هو ما كان بسبب الضعف أو قدرة آخر عليه، وهذا ليس هنا في المعنى قط، وهذه الآية دليل على الحكمة والتعليل في أفعال الله سبحانه وتشريعه، وأن الحكمة هي الغالبة إن تنازعت في نفس الرب مع غيرها، فوقوع القدر بموت الولي المؤمن هو الحكمة، فغلبت حبه سبحانه أن يساء حبيبهن وهي هنا منعت إرادته السابقة من أن يجري على الأمم بعد موسى عليه السلام.

هذا مع التنبيه أن التردد والمنع إنما هما من علم الله وإحاطته، ولكنّ هذا تعليم للمسلمين بعظمة الله جل في علاه، وأن الله عز وجل ذو الحكمة البالغة فيما يقدر ويشرع.

لكن لو سأل سائل:- أما وقد علم الله أن الآيات لن تنفع في إيمان المشركين المعرضينن فلم استجاب لهم وأعطاهم إياها؟ فالجواب:- إن الله يحب العذر، ففي إعطائهم الآيات التي سألوها قطعاً لإعذارهم وإقامة للحجة عليهم، وذلك كقوله تعالى﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ فلما قطعت الأعذار، وبان للخلق أن هذه أسئلة المتعنتين لم يستجب الله لهم.

وبقيت مسألة: هل لهذا مثيل في تغير فعل الرب وشرعه بعد أن تمت الحكمة منه؟ فالجواب: نعم، ومن قرأ حديث الإسراء والمعراج وكيف شرعت الصلاة ابتداءً، وأنها خمسون صلاة، ثم ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجع الله حتى قال سبحانه((هن خمس ولا يبدل القول لدي)) علم أن هذا على وفق هذا المعنى، ومنه حديث آخر أهل الجنة دخولاً، فإن هذا العبد لا يزال يراجع ربه في سؤاله حتى يدخل الجنة، مع علم الله أن هذه العواقب هي الكائنة، لكنه يجريها على هذا الأمر لتحقيق معاني وحكم، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم((لا يرد القضاء إلا الدعاء)) ،فمراجعة الله تعالى على معنى السؤال والتذلل تحقق مراد العبد في صرف ما قدره الله، مع أن الدعاء من القدر، لكن الوجود قائم على منازعة القدر للقدر كما قال الفاروق رضي الله عنه: نفر من قدر الله إلى قدر الله، وكما قال الجيلاني:- ((نازعت أقدار الحق بالحق للحق)).

وقوله تعالى﴿مُبْصِرَةً ﴾ أي بينة، وذلك كقوله في هذه السورة على لسان موسى لفرعون﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ ،وهي دليل على أن الحق بين للكافرين ولكنهم يجحدونه استكباراً وإباءً.

وقوله تعالى﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كفروا، وهذا من تسمية الكفر بالظلم كما قال تعالى﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وكقوله تعالى﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ،وظلمهم هنا هو قتلهم إياها، وقتل ناقة ظلماً لا يكون كفراً، بل هو معصية، لكن لما كانت هذه الناقة على معنى آخر وذلك في كونها آية كان قتلها كفراً، لأن قتلها هو رد لأمر الله تعالى وتكذيباً لرسله، وهذا يبين لك أن هناك أفعالاً لا تحمل حكماً واحداً، بل لها أحكام متعددة لتعدد الدلالات، فسب رجل من المسلمين لا يكون كفراً بل كما قال صلى الله عليه وسلم ((سباب المسلم فسوق)) ،لكن سب الصحابة كفر، لأن هذا السب دليل على معنى الكفر، وهو أن المتأخر لا يسب صحابي إلا لمعنى إيماني في الصحابي، فسب الصحابي سب لهذا المعنى وهو كفر وهذه القاعدة إنما تعمل في الأمور المحتملة للمعاني، أما ما سماه الله كفراً فهو

كفر بذاته لا لكونه دليلاً على الكفر، فقد قال الله عن أقوام﴿**وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ** ﴾ فهي بذاتها كفر لا دليلاً عليه، وما يؤسف له أن بعضهم لا يفرق بينهما ويجعلهما شيئاً واحداً، فيستخدم أمثال أحدهما لنفي الآخر، وهو انحراف عن القرآن والسنة يؤدي إلى طرفي الباطل؛ أي إلى افراط وتفريط.

وقوله تعالى﴿**وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا**﴾ لقد طلب الناس الآيات دلالة على صدق الرسول، ثم لما جاءتهم لم يزدادوا إلا كفراً، وهذا في علم الله السابق أنه سيكون، فالآيات إذاً في حقيقتها ليست زيادة برهان على الصدق، لأن البرهان قد وقع ابتداءً بالحق الذي جاء به الرسول، ولو كانت الآيات هي برهان ودليل الصدق لأرسلها الله ولم يمنعها بقوله﴿**وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ** ﴾ ،إنما الآيات ترسل تخويفاً من العقاب، لأن الكفر بها مؤذن بالإستئصال والإهلاك، وهذا هو الذي قاله الله تعالى لعيسى عليه السلام لما طلب منه المائدة التي طلبها الحواريون، إذ قال الله تعالى﴿ **فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين**﴾ ولذلك كان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم الفزع إلى الصلاة حين وقوع بعض الآيات كالخسوف والكسوف، وفي الحديث((فإذا رأيتم ذلك –أي الكسوف- فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره)) ومثل هذا المعنى عند المرور على قرى الظالمين، فإنها آيات تذكر المرء بعذاب الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم((إذا مررتم بديار الذين ظلموا أنفسهم فمروا باكين))وفي حديث: ((إذا مررتم بأرض قد أهلكت بها أمة من الأمم فأغذوا السير))،وقد ذكر في غير هذا الموطن آن الآيات على هذا المعنى لا تتوقف، كما ذكر أن زعم الملحدين أن زمن المعجزات قد ولى هو على معنى انتهاء الشريعة، لأنهم يزعمون أن النصر الذي كان يقع للأنبياء لم يكن يقع على وجه سنني، إنما كان يقع على وجه المعجزة، وحيث انتهت المعجزة يعني استحالة نصر المؤمنين مع قلتهم ضد الكافرين وسلطانهم، وهذا القول الكافر مركب على مقدمة باطلة جاهلة، فإن النصر الذي كان يتحقق للأنبياء في جهادهم إنما كان يقع على وجه سنني، ولذلك كانوا يغلبون ويغلبون كما قال هرقل لأبي سفيان، وأصدق منه قوله تعالى﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ** ﴾ ،وقد وقع هذا لرسولنا صلى الله عليه وسلم في أحد، فالآيات بنصر المؤمنين لم تتوقف بل هي باقية حيث بقي الإيمان والجهاد.

وهؤلاء الزنادقة والملحدون مقاصد عدة في قولهم هذا لا حاجة لبسطه هنا، لكن العجب أن ييأس أهل الإسلام من نصر الله لهم، فيميلوا إلى مداهنة المشركين، وتموت وعود القرآن في نفوسهم، ويصبح كل همهم أن يقبل بهم مشاركين للجاهلية في سلطانها، وتنطلق ألسنتهم استهزاءً بالضعفاء والقلة من الطائفة المنصورة المجاهدة حين ينطلقون مؤسسين لأمة الإسلام وسلطانها الذي وعد الله عباده بتحقيقه.

قوله تعالى﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾.

وهذا مثال لحال تكذيب الناس بالآيات، فإن الله سبحانه وتعالى أسرى بك يا محمد، وقد أخبرت قريشاً بذلك، وقام الدليل على صدقك في ما أخبرتهم به، حيث وصفت لهم بيت المقدس كما علموه تماماً، ووصفت لهم بعض الوقائع التي تبين لهم صدقها، ثم ها هم كذبوك، وهذه الرؤيا كانت فتنة للناس، لأن الفتنة هي التفريق، فيقال لمن فرق بين اثنين فتنهم، ويقال لمن فرق بين المرء والحق فتنة، ويقال لفرز الذهب عن الشوائب فتنة، وهكذا فالفتنة هي التفريق، وهكذا كان من شأن الإسراء وما رأيت فيه فتنة للناس، حيث افترق الناس فيهم إلى مؤمن مصدق وكافر مكذب.

وكما كان شأن الإسراء كان شأن الشجرة الملعونة التي رأيتها وأخبرت الناس بها، إذ وقع بها التفريق، فآمن قوم وكفر واستهزأ آخرون.

فهذه الوقائع دليل على أن الله محيط بالناس، يعلمهم ويعلم حالهم ومتقلبهم، وما سيصيرون إليه من الإيمان والتكذيب.

أما ما تقدم من الله لا يرسل بالآيات إلا تخويفاً، فقد تبين أن هذا التخويف بهذه الآيات لم يزد هؤلاء القوم من الكافرين إلا كفراً فوق كفرهم، واستهزاءً فوق جحودهم.

وفي هذه الآية ذكر للإسراء، وكذلك لأمر من أمور المعراج إلى السماء، وهو رؤية شجرة الزقوم، وقد ذكر قطعة من أمور المعراج في سورة النجم.

وقوله ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ هي شجرة العذاب التي سيأكل منها أهل النار عند دخولها، وتسميتها بالملعونة على معنى أن ما فيها هو العذاب، وأن آكلها هو المطرود من رحمة الله تعالى، لا أن لها إرادة اختيار بين أمرين فاختارت موجب اللعن وهو المعصية، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النار قد شكت من نوع سكانها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم((احتجت الجنة والنار فقال النار: في الجبارون والمتكبرون، وقال الجنة: في ضعفاء الناس ومساكينهم فقضى الله بينهما، إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء وإنك النار أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليّ ملؤهما)).

وقوله تعالى﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ وهذا لتذكيبهم بتخويف القرآن، وقد كان تكذيبهم على معنى الإستهزاء بالعذاب، وهذا هو واقع الزنادقة اليوم، فإنهم ينشؤون الطرائف وما يضحك الناس على النار حتى يسقط أثر الوعيد من قلوب الناس، فيستهينوا بالمعاصي، وهذا الإستهزاء كفر بالله تعالى، ولو كان الله في قلوب هؤلاء على معنى الحكام من السلطان والقدرة لكانوا أخوف الناس من عذاب الله، فإن أحدهم ليرتجف هلعاً وخوفاً إن خوّف بالسلطان أو الحاكم أو زبانيته، لكن الله جل في علاه هان في قلوب هؤلاء القوم فاستحقوا العذاب.

قوله تعالى﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾

لما ذكر الله أمر الناس مع التخويف، وجهلهم وفساد اختيارهم، جاء سبحانه لذكر واقع هذا الإختيار، وأنه اتّباع للشيطان الذي سبق بيان عداوته للإنسان، وأن هذا الإختيار هو على وفق اختيار ابليس في الكبر والإباء، وقصة حدوث العداء في السماء بين الإنسان والشيطان، كما قصة كفر الشيطان تحتاجان إلى شرح مستقل، فإن فيها من الفوائد العظام التي يحتاجها الإنسان في وجوده واختياراته، ولأهميتها فقد تعدد ذكرها في القرآن مراراً، وفي كل موطن من الفوائد ما ليس في الموطن الآخر، بل إن هذا الذي جرى في السماء ليرسم سيرة الوجود الإنساني كله، كما يرسم مداخل الشيطان وأساليبه، ومداخل الضعف الإنساني، وحجج النفوس الإنسانية في اتباع الهوى والشيطان، فآيات هذا الحديث جديرة بالعناية واستنباط المعاني منها، كما أن سياقها في الآيات إنما هو لمعاني خاصة بهذا السياق مما يجعل في مجمل القصة فوائد غير الفوائد التي يجنيها القارئ لألفاظ القصة.

ففي هذه الآيات من سورة الإسراء يبين الله تعالى:-

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾ ،وهذا إنما وقع بعد أن بين الله للملائكة ما جهلوه من حكمة خلق آدم، فعلمه الأسماء ثم امتحنهم في هذا، فعلم الملائكة أن هذا الإنسان هو وعاء العلم، كما علمتنا الآيات هناك أن وعاء العلم إنما هي الأسماء، ثم تبين أن الفساد والمعصية إنما يقعان بسبب تخلف العلم عن طريف انحراف الأسماء.

وهذا السجود هو سجود الإحترام والتقدير، لا سجود العبادة، لأن السجود على معنى العبادة لا يكون إلا لله، وهذا يدل على أن السجود أمر محتمل، ولذلك كان في الأمم السابقة كما قال الله عن يوسف وأبويه عليهم السلام﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ ،ثم نسخ في هذه الأمة، فلا يجوز السجود في شرع النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلا لله لقوله صلى الله عليه وسلم((لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)) ،بل قد نهي عن سجود العبادة لله إن وافق في صورته سجود المشركين لنهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأن هذا وقت سجود المشركين لها، ولأنها تطلع وتغرب في قرني شيطان، فمن سجد لغير الله احتراماً وتقديراً فقد عصى، ومن سجد لغير الله عبادة فقد أشرك، ذلك لأن السجود محتمل للأمرين، وعدم فهم هذا أوقع بعض المفسرين والشرح في ضبط كثير.

لكن مما يجدر التنبيه عليه أن هناك من صور السجود ما لا تقع إلا على معنى العبادة فتكون شركاً دون سؤال فاعلها عن قصده، فإن السجود للأصنام والأوثان ليس لها إلا معنى التعبد، وكل تأويل لهذا المعنى هو تأويل بالمحال لعدم وجوده، فمنذا الذي يسجد لصنم أو وثن ويقصد مجرد الإحترام والتقدير؟! ومثله السجود للقبر، فإن صورته المضطردة أن يسجد المرء لها طالباً مستغيثاً، أو خائفاً متقياً، وهذا سجود العبادة، فلا يقال هنا: سلوه عن قصده، كما أن الداخلين على الملوك الظلمة إن دخلوا عليهم أمروا بالسجود فيسجدون، فهذا سجود التحية والتعظيم لا غير، فيقال له معصية إلا أن يكره، ولا يسأل: أقصدت العبادة أم لا، لعدم وجود الإحتمال.

ومن خطأ بعض المفسرين والشراح أن جعلوا هذا السجود على معنى اتخاذ آدم قبلة، كما يسجد المسلم لله متوجهاً للكعبة، وذلك لظنهم أن السجود لا يكون إلا على معنى العبادة، وهي لا تجوز إلا لله، وعبادة غير الله تعالى لا يجوز القول فيها بالنسخ، وهذا خطأ، فإن الآية تدل أنهم أمروا بالسجود لآدم، ولم يقل سبحانه((إلى آدم)) ليكون المقصود جهة، ثمّ لو صح هنا لما امتنع ابليس من السجود إلى جهته، ولما قال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾ أو قوله﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾.

- وقوله تعالى﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وهو من الجن كما في سورة الكهف﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ ،وقول بعض أهل العلم أنه من الملائكة، وحمل معنى كلمة﴿ٱلۡجِنِّ﴾ على الخفاء، لأن حرف الجيم إن كان مع النون دل على الخفاء كالجن، وجنّ الليل، وجَنان، وجِنان، وجَنّة، وغير ذلك، أقول: هذا غلط، لأن ابليس قال عن نفسه﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ ﴾ والملائكة قد خلقوا من نور، والذين خلقوا من نار إنما هم الجن لقوله تعالى﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾، ومن قرآ سورة الحجر من قوله تعالى﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ وما بعدها علم أن تقدمة ذكر خلق الجن والإنس ثم ذكر خبر استكبار ابليس عن السجود، علم أن ابليس من الجن الذين خلقوا من نار.

لكن قد يقال:- كيف توجه الخطاب إلى إبليس وهو من الجن مع أن الآيات تقول إنه توجه للملائكة؟ وهذا قد قيل في بيانه أقوال، وأقربها هو أن الخطاب للأعلى وهم الملائكة كان متضمناً خطاباً للأدنى وهم الجن، والله أعلم.

- ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ وهذا هو سبب رفض ابليس، فإنه استكبر على أصل آدم الذي خلق منه، ودل ما بعدها على أن هذا التحقير لآدم سببه ضعفه، واعتقاد ابليس أنه قادر على قيادته وإفساده.

وقد ذكر في غير هذا الموطن أن جنس الملائكة خير من جنس بني آدم للآية من هذه السورة﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ مع أن بعضهم استدل بها على الضد، لكن يقال لهؤلاء: فمن هؤلاء الذين لم يفضل الله عليهم البشر من خلقه إن لم يكونوا هم الملائكة؟ فقوله تعالى﴿كَثِيرٍ﴾ دل على عدم العموم، وأن هناك من خلق الله من هم أفضل من البشر.

- وقوله ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ هو سؤال يستنكر فيه أمر الله، وهذا من الكفر، وفرق بين هذا السؤال وبين قول زوجة ابراهيم عليه السلام﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ فإن هذا سؤال تعجب لا استنكار، ولذلك قالت لها الملائكة﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومثله سؤال زكريا عليه السلام لما بشر بيحيى عليه السلام، وسؤال مريم لما بشرت بعيسى عليه السلام.

- وقوله تعالى﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ فدل على أن السجود كان تكريماً لآدم من قبل الساجدين، فآدم عليه السلام أكرم من ساجديه من الملائكة والجن، وهذا لا ينفي ما تقدم من تفضيل جنس الملائكة على جنس البشر، ففرق بين التفضيل العام والخاص.

وقول ابليس هذا من الكفر والتمادي فيه، فإنه لكفره وغروره ذهب في إثبات إبائه ورده أمر الله تعالى، وهذا مع ما فيه من بيان غلظ كفر ابليس، إلا أن فيه التحذير منه، وفيه بيان علم ابليس أن في هذا الضعف الإنساني منافذ لتحقيق أدلة صدقه كما قال سبحانه﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،وقد تقدم أن الوسيلة هي الخطاب وما فيه من تغيير دلالة الأسماء، وأن الموضوع هو ﴿الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ ،وهو منفذ النفس للخروج من ضعفها.

- وقوله تعالى﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي يقودهم لمراده جميعاً(استئصالاً) إلا قليلاً، وقوله ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ دليل على أن التابعين للشيطان هم في تمام الأسر له، وحالهم كحال من ربط من حنكه كما يفعل بالدابة فتؤسر لقائدها، وهي دليل كذلك على خبرة ابليس بهذا الإنسان، فإنه لن يقول هذا القول إلا وهو يعلم مواطن ضعفه التي سيؤسر منها، ومن تفكر في هذا وعلم أن المعاصي هذا شأنها، وأنه بفعلها يكون كالدابة المقادة من حنكها نفرت نفسه منها إن كان ذو نفس أبية، ولم يقبل بها إلا ذليل خانع، وهذا حال أهل المعاصي، فإنهم في أنفسهم أشد ما يكونوا في ذلة وهوان، فلا تغرنك الظواهر، فإنما هي حجب، إذ تجد المرء الكبير منهم لا يمنع عرضه، بل هو ديوث حقير، وانظر إلى قول عزيز مصر لامرأته وقد تبين له فجورها ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ ،ثم لم يغير شيئاً ولم يقدر على ذلك، وذلك لهوانه في نفسه، ولذل المعصية التي ركبته، وهذا حال كل من ترونهم، وهو أمر مجرب معلوم، فهو وإن رأيته مالكاً لنفسه فيما تظن، لكن حقيقته أن كل طاغية منهم يخضع لطاغية آخر، كالدواب يسوق بعضها بعضاً فإن رأيت إلى إمامهم منهم لم يعد أن يكون خنزيراً لا ينتصر لعرض، أو حماراً لا يدري ما يدور حوله، وأنا أخص باب الدياثة بالذكر في موضوع الذلة لأن هذا هو أوسع الأبواب هنا، وهو الذي حذر الله منه كما قال سبحانه﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾ ،وإن سقطت مروءة المرء في باب العرض، وصار يبتسم كالخنزير ديوثاً وهو يرى عرضه معروضاً للناس فيفرح لذلك ويبش له، فما الذي يمكن أن ينتصر له بعد ذلك، وأي قيمة من قيم الوجود يمكن أن يفهم معناها، إنما شأنه أن يضع خرطومه كالخنزير في القاذورات يأكل ويشرب ولا غير.

والقصد أن كل معصية ذلة، وأن المرء حين يعلم ذلك تنفر نفسه منها، ولا يرضى أن يربط كالدابة في يد الشيطان، فأعظم الناس حرية هم عبيد الله والأولياء الذين يصلون أنفسهم به، ويقطعون حبال الشيطان، فهؤلاء هم اهل العزة مع ضعفهمن وأسرهم، وقلة حيلتهم، والشيطان وجنوده يعلمون ذلك، ولذلك من أسباب بغضهم لهؤلاء المؤمنين معرفتهم أن هؤلاء لم يسقطوا في ما سقطوا فيه من الدياثة، فوقع في قلوبهم الحسد، كيف سقطوا وكيف نجا هؤلاء، فتمتلئ القلوب حسداً وحقداً، وهذا ما يصيب الشيطان

لما يرى المؤمن يسجد لربه، فإنه يبغضه لأن هذا أطاع في السجود وهو قد عصى، ومن تساءل عن سر بغض المرتدين والزنادقة للمسلمين والمجاهدين والشباب المؤمن فهذا هو كشفه، إذ الواحد منهم يذهب إلى بيته فلا يقدر أن يمنع عرضه، وتراه يتذلل لكل كلاب الأرض طمعاً ببعض زبالاتها، ثم هو يرى هذا الشاب وقد كفر بكل طواغيت الأرض، وترفع عن كل دناياها، وباع نفسه لله، فبدل أن يتوب ويرجع، يذهب مع حبل الشيطان القابض على حنكه إلى عداء هؤلاء الشباب وبغضهم والتنكيل بهم، ولذلك فاعلم أنه كلما ازداد الإيذاء يعني أنهم يتألمون كما قال تعالى﴿**إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ** ﴾ وهذا لا تظنه في باب القتال فقط، بل هو شامل لكل الحياة التي فيها مدافعة بين الحق والباطل.

تذكر هذه الآية كلما نازعتك نفسك والشيطان إلى معصية، هل أنت من هؤلاء الذين احتنكهم الشيطان وجنوده أم أنت من القليل في قوله تعالى﴿**إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ ،فإن قبلت بأن تقاد كالدابة فاعلم أن ما بين جنبيك ليس نفساً أبية ولا شريفة، فابك على نفسك لأنك ممن قال الله فيهم﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾.

وقوله تعالى ﴿ **قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا** ﴾

قوله ﴿**ٱذْهَبْ** ﴾إنما جاء تفسيره في آيات أخرى بالطرد والإخراج كقوله تعالى﴿**ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ولكن لما كان المقصود هنا في هذه الآية ليس حالة طرد إبليس، بل مآل التابعين له من البشر فقال الله ﴿**ٱذْهَبْ** ﴾.

وأما مآلهم فهو ﴿**جَهَنَّمَ**﴾ كما قال تعالى، وههنا بيان أن التابع لم يعذر بإغواء المتبوع وكيده له، وهذا العذرمقطوع وغير مرضي في سور كثيرة، وقد ذكر هذا الأمر في غير هذا الموطن، وهو رد على الذين يعذرون التابعين بحجة جهلهم أو غفلتهم، أو بحجة اتباعهم لمجرد الرزق دون الرضى القلبي، وهي حجج تروج اليوم على ألسنة المشايخ في إعذار المجرمين من بهائم البشر ، ولو جاز هذا العذر لجاز عذر البشر جميعاً لما يقعوا به، إذ أن كل ما يقعون به من المعاصي إنما هو من إغواء الشيطان ، ولكن قرر القرآن أن هذا الإغواء لم يكن ليقع إلا بسبب كفر التابعين بيوم القيامة كما قال تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى**

شَكِّ ﴾ ثم بين القرآن أن هؤلاء التابعين كانوا يتمتعون بهذا الإغواء ويفرحون به كما قال تعالى عنهم ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ولذلك من حق الشيطان أن يقول لهم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فالتابعون من بهائم البشر يذهبون إلى أئمتهم من الطواغيت لا لاعتقادهم فيهم، لكن من أجل المتعة وتحصيل العاجلة، وهذا من تمام حجة الله عليهم بوقوع العذاب واستحقاقهم له.

وقوله تعالى﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ يخلع القلب لو كانت القلوب تعقل لكن كما قال تعالى ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

وقوله تعالى ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾فهذا من أول ما أعطي الشيطان من أساليب في دعوته للشر والمعصية، وذلك أن يجلبه بالنداء، وأن يقيمه إلى متابعته بالكلام، وقد قيل الكثير عن معاني هذا الصوت مما حرم من الأصوات، ولكن مما يقطع به أن الإستفزاز لا يكون إلا بالغضب أو الفرح الشديدين، فإنهما يقيمان المرء إلى الفعل، وهما؛ أي الغضب والفرح، منفذان للشر عن خروجهما عن حد الإعتدال، لأنهما يفقدان المرء إرادته العاقلة، فيسهل قيادته وأسره، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغضب، وجاء في القرآن ذم المرح ، وهو الخفة بالفرح الخارج عن حد الإعتدال كما قال تعالى عن العصاة وسبب دخولهم جنهم:- ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ،وإدخال اللعب في مواطن الجد من سمة أهل الضلال كما قال تعالى﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ فاللعب والمرح والفرح من حواجز الإدراك وموانعه، ولذلك قال الكافرون من الأسياد لأتباعهم من البهائم﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ،ولذلك فكل دواعي الغضب بالباطل كالإنتصار للآباء، وكل تهييج لغضب على غير الحق إنما هو سبيل لغلبة الشيطان على الإنسان، وكذلك كل تهييج الفرح أو لعب على باطل إنما هو من أدوات الشيطان على الإنسان، والذي يمنع ذلك إنما هو السكينة، وهي ما حض عليه الشرع وعلمه المؤمنين سواء عند قراءة القرآن أو الصلاة أو الذكر. ومما يجدر التنبيه عليه أن من صوت الشيطان الذي يستفز أتباعه؛ إنّما هو صوت التخويف، وهذا بيّن في القرآن فمن قوله تعالى﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وقوله

تعالى﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ ﴾ فالخوف من الموت أو الفقر أو المرض هي من أصوات الشيطان في داخل الإنسان، ولا يستجيب لها إلا من قال الله عنهم في هذه الآية﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾.

وحقيقة فعل الشيطان إنما هو الدعوة كما سيقول لأتباعه يوم القيامة﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾ وهذا يدل على قوله تعالى﴿ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ فهو لا يملك سلطاناً على البشر، لكن هم من يسلمون له القيادة كما تقدم من قوله ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾، وقد أعطي المسلم من الخير كالذكر والدعاء ما يمنعه من الشيطان، لكن الإنسان هو من يتابع ويرغب.

- وقوله تعالى﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ،فجنود إبليس راجل وراكب، وكذلك السائرون إلى المعاصي راجل وراكب.

- وأنت ترى في هذه الآية كيف جاءت الكلمات القرآني في قوله﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ و﴿بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ لتعلم أن واقع الحال بين الإنسان والشيطان إنما هو واقع قتال، فهناك من يصرخ مستفزاً بصوته أتباعه، ثم يدعو للحمل على الخصوم رجالاً وركباناً، وقد تقدم أن هذا إن هو إلا عدو مبين، وهذا هو فقه الحال بي المؤمن والشيطان، وبين المؤمنين وجنود إبليس، فهؤلاء الأعداء الذين وصفهم الله بقوله﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ علموا أن هذه معركة، ثمّ هذا الإنسان بجهله ينام قرير العين، ويعيش في غفلة عما يجري فيه ومن حوله، وقد لا يفيق حتى يأتي اليقين.

ثم في هذه الآيات دليل أن إبليس سيد أتباعه، إذ هذه أفعال الإمام والقائد، هذا وقد نسب الجنود له فهم أتباعه.

- وقوله تعالى﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ وذلك بأن يكون له نصيب منها، وهذا له صور كثيرة ذكرت في كتب التفسير، منها ترك التسمية على الأكل وعند الجماع، فهنا تتحقق مشاركة حقيقية في المال والأولاد كما جاءت بذلك الأخبار، ومنها أن يصرفهما على وجه الشرك بما كان يفعله مشركو قريش كما في سورة الأنعام في قوله﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ

إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾، أو صرفها على وجوه المعصية كبذلها فيها، ومنها تحريم ما أحل الله منها، فكل هذه صور لمشاركة إبليس في الأموال والأولاد.

وهذا اللفظ ﴿وَشَارِكۡهُمۡ﴾ دل أن مراد الشيطان هو الدخول ليحقق شيئاً له، وذلك فوق ما أراد لما زعم من الإغواء والإضلال، فالإغواء كان سبيلاً لأخذ بعض ما لدى الإنسان ليكون له، وهذا حين يعلمه العاقل يزداد بغضاً له، لأن هذا من السلب والسرقة، والمرء يأنف من أن يخاتل ليؤخذ منه ماله وولده، ولذلك يسارع إلى تحصين نفسه من هذا اللص، وهذا لا يعلمه إلا من هدي القرآن والسنة، فإن سدّ منافذ هذا المخلوق الغيبي وجنوده لا يستطيع الخلق إدراكه إلا من جهة عالم الغيب سبحانه وتعالى، وهذا من ضروريات إرسال الرسل والأنبياء، وهو من رحمة الله بالخلق أن يعطيهم الأسلحة والحصون التي يحصل بها الدفع والمنعة من هذا العدو الخفي، ومن ذلك تعليمه التسمية في شأنه كله ومنه حين دخول البيت والأكل، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:- ((إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان:- لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء)).

- وقوله تعالى﴿وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وذلك دليل على أن من أقوى المنافذ في الإنسان لتنشيطه وإيجاد إرادته هي الوعود، فأولياء الشيطان ينطلقون لوعوده، وأولياء الرحمن يقومون لوعوده، وفرق بين وعود الشيطان ووعود الرحمن، فوعد الرحمن هو الحق في الدنيا والآخرة، ووعد الشيطان هو كما قال عن نفسه وعن وعد الله لأصحاب النار يوم القيامة﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ

وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ ، وأما المؤمنون فيقولون في الجنة﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ ، وحينها فإنهم يفخرون بهذا النعيم على أهل النار كما قال تعالى﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وأول وعد قدمه الشيطان لأبينا آدم عليه السلام هو تحقيق الخلد والملك الذي لا يبلى، فلم يجن منه عليه السلام إلا الندم والخروج من الجنة بعد أن كشفت سوأته.

ووعودالشيطان تحلى في أعين أتباعه وألسنتهم بالقليل من العاجلة، وبقليل من الذوق كما قال الله عن أبينا آدم وحواء﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ ،فهو مجرد الذوق القليل، وهذا شأن كل لذائذ الدنيا، فهي مجرد ذوق ثم ينتهي ، فإما يعقبها الكسل أو الرهق، كلذة النكاح والطعام، هذا إن أتيا من حلال، وأما إن أتيا من حرام فهو الرهق وخبث النفس وسواد القلب وسوء العاقبة وغضب الله وفرح الشيطان.

وأعظم وعود الشيطان لأتباعه هو أن لا آخرة، ولا حساب ولا عذاب، وهذا هو أعظم منافذه لولوج كل المعاصي والذنوب، ثم تنزل هذه الوعود إلى ما هو أدنى منها ليحقق أقصى ما يقدر عليه، كإيعاده أن سيتوب بعد هذه المعصية كما قال أخوة يوسف عليه السلام﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ ،أو كإيعاده بطول الأمل وبعد الموت، أو كإيعاده بالفقر كما قال تعالى﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾.

وفي الخاتمة يتبين في كل وعد أنه كاذب، وأن وعوده هي الغرور كما وقع لكفار قريش في بدر لما قال لهم﴿ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وهو أمر سيتكرر في كل وعد على معصية كما قال سبحانه وتعالى﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وهذه الصفة؛ أي إخلاف الوعود من قبل إبليس،هي شأن أتباعه من الإنس، فإنهم يدفعون البهائم لمتابعتهم رجاء الوعود، وحين الملمات يخلون بينهم وبين المصائب كما قال تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

والعجب ممن يعلم هذا من القرآن، ويتلوه وهو بيّن له ثم بعد ذلك يتابع الشيطان وجنده، ومن تأمل واقع المسلمين منذ سقوط الخلافة إلى يومنا هذا علم أن اعظم منافذ جند الشيطان في استخدام المسلمين أسلحة لهم إنما هي الوعود الكاذبة، إذ يخدع بها المغفّلون، فينساقون وراءها بلا إدراك لفقه القرآن، وهو فقه يعادل فقه مسائل الأحكام التي ينشط لها أهل العلم فيؤلفون فيها المصنفات، ثم بعد ظهور النتائج يتبين لهم أنهم كانوا مطايا لأعداء الأمة، وهذه الغفلة لا عذر لهم فيها في في القديم ولا في الحديث، لأنه ما من حادثة خداع وقع فيها المسلمون إلا كان حكم القرآن بيناً فيها، وأنه لا يجيزها، كما أن استقراء هذه الوقائع يدلك على أنه ما من حادثة إلا وكان فيها من هؤلاء المطايا من مغفلي المسلمين المعاصي البيئة، وكان الهوى وطلب العاجلة، فكم حادثة كانت فيها الوعود وكان سبيلها هو التحالف ضد المسلمين رجاء الحكم أو الإصلاح كما يزعمون، فيخوضون المعارك الكبرى تحت راية الكفر وضد المسلمين، حتى إذا انقشعت المعركة حار هؤلاء الكفرة ضد حلفائهم فأبادوهم، مع أنهم في إبادتهم هذه سيجدون مغفلين ومطايا جديدة لتحقيق مآربهم في هذه الإبادة، وهذا الحال قديماً كما هو الحال اليوم، إذ أن كثيراً من الجماعات التي تعمل للإسلام برأيها وهواها تغفل هذا، وهي تظن لجهلها أنها تستخدم الشيطان وجنوده للوصول إلى مقاصدها، وواقع التاريخ والحال يدل على خلاف هذا تماماً، وهو أمر نجده في الجماعات كما نجده في الأفراد من الدعاة وطلبة العلم وغيرهم، بل لو قال قائل ما من موقعة في تاريخ الإسلام المعاصر إلا هي على هذه الشاكلة لما أبعد، والمحقق يستطيع بأدنى تفكر أن يضرب مئات بل الآلاف من الأمثلة على هذا النوع من اتباع وعود الشيطان والتي هي الغرور، فهذا طالب علم أوخطيب يظن بغفلته أنه إن قال شراً عن أخيه ليسقطه أن سيكون له الأمرن بوعد من الشيطان ووسوسته أو بوعد من جند الشيطان واغراءاتهم، فينشط لذلك تحت دعوى المصلحة، ولو حقق قليلاً لعلم أنه الهوى والمصلحة الشهوانية لا

غير، فيذهب لسوء القول، والإتهام بالباطل، ونشر الفاحشة، بل ربما ألف الكتب في ذلك، حتى إذا انتهى منه أعطي بعض العظام كالكلب المسعور ثم ألقي بعيداً.

وهذه جماعة يحصل لها بعض التمكين في أرض الله، فيشتد لهاثها أن يقبل بها العالم دولة، فيبتسمون بلاهة أن الكفرة وكبار المجرمين يجلسون لهم ويحاورونهم، وتكون الصفقة على دماء إخوان لهم، يخالفونهم في أمر أو أمور، فينطلقون لوعود الشيطان وجنده على دماء وأعراض إخوانهم، وحين الفراغ لا يجدون إلا غروراً، ولا ينالون إلا غضب الله ودعاء المظلومين.

وأخرى وأخرى، وكلها من هذا السبيل؛ أي اتباع وعود الشيطان وجنده، والناس يقولون:- ((لا يتبع الكاذب إلا أهل الطمع)) ،فهذا واقع هذه الأحوال، وهو أن طمع هؤلاء في بلوغ مزايا يعميهم عن إدراك فقه القرآن، ويدفعهم سعارهم إلى اتباع أكاذيب الشيطان وجنوده ووعودهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:- ((لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين)) فشرط الإيمان هو الكفر بوعود الشيطان، والبراءة من الطمع لقوله صلى الله عليه وسلم((ما ذئبان جائعان بأفسد من حرص الرجل على المال والشرف لدينه)).

قوله تعالى﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا** ﴾.

من قرآن الآية السابقة دون هذه الآية ظن أن أمر الشيطان لا يدفع، فهو بصوته يستفز المدعو لمراده، ومن لم يستجب بالصوت فبالإرهاب والتخويف وبإجلاب الخيل والراجلة، فإن دفع إرهابه استميل بالوعود المحلاة الكاذبة، فهو محيط بهذا الإنسان من كل جانب كما قال هو عن نفسه كما قال تعالى﴿ **لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ لكن حين تأتي هذه الآية يعلم المؤمن أن هذا الكيد ليس بشيء، وأن دفعه له سبيل واحد؛ أي أن يكون المرء عبداً لله، فإن دخل المرء في عبودية الله بالطاعة والإنابة واللجوء والإستعاذة فإن كل ما يأتي به الشيطان لا يحقق أي سلطان عليه، وهذا قد أكد في سور متعددة، وقد علمه الشيطان نفسه وقاله كما قال الله تعالى عنه في سورة الحجر﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ فقال الله عقبها﴿ **قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ**

﴿ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ،وفي سورة ص قال الله عز وجل﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

فآل أمر الشيطان إلى خسة وصغار، وضعف وهوان، فليس هو بشيء مع طاعة الله، ولذلك لما شكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ما يجدون من الوسوسة فقال صلى الله عليه وسلم((الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة)) ،وذلك بأن الشيطان إنما يعظم عند أهله حتى غنه كان يظهر للمشركين على صورة رجل نجدين وهو سيظهر لشرار الخلق قبل يوم القيامة وسيضلهم لعبادة الأصنام، وكلما زادت الطاعة قل أمر الشيطان كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر الفاروق رضي الله عنه: ((ما سلك عمر وادياً إلا وسلك الشيطان وادياً آخر)) وإن الشيطان ليفر من عمر، فإن قال قائل: كيف يفر من الفاروق عمر رضي الله عنه ثم هو يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهب من نار وهم قائم يصلي في صلاته، فالجواب:- إن أمر الشيطان إلى صغار وضعف وهروب من الطاعة والعبادة والإستعاذة والتسمية والذكر كما يفر من سماع الأذان وله حصاص كما صح من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، لكن نفس الشيطان يأخذها الغضب إلى درجة الذهول، وهو أشد أنواع الغضب، وهذا الغضب يعمي صاحبه عن رؤية الحقائق وعن إدراك العواقب، كمن يقتحم النار غضباً ليصيب من عدوه الذي امتلأ عليه، وهذا ما وقع فيه الشيطان، فإنه يهرب من الفاروق لما يتأذى منه مما مع الفاروق من الحق والإيمان، وهو على هذه الحال يملك نفسه وغضبه، لكن شدة غضبه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعمته عن ألمه فاقتحم بلا إدراك لسوق الغضب المغلق عليه، فكان ما كان من قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾، وقد جاء عند مسلم عن أبي الدرداء بلفظ آخر، ولعلها واقعة أخرى، لأن فيها؛ أي التي عند مسلم عن أبي الدرداء أن الصحابة شهدوها وسمعوا النبي صلى الله

عليه وسلم يقول: ((أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله))، وهي عند عبد الرزاق في مصنفه أن الشيطان على شكل هرة.

والقصد أن كيد الشيطان ضعيفن وأن العبد المؤمن يتقي منه بالقليل من الخير كالإستعاذة والتسمية، ولذلك قال تعالى﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ أي بما أعطوا من الخير الذي يحول بينك وبينهم، وبما أعطوا من الذكر الذي يؤذيك فتهرب منه.

كما أن الله تعالى جعل للمؤمنين أوقاتاً يحميهم فيها من مردة الشياطين، كما يحصل في رمضان من تصفيدهم.

وقوله تعالى﴿سُلْطَانٌ﴾ يشمل سلطان الشهوة وسلطان الشبهة، فهذه قوى الشيطان على الإنسان، والمؤمن محفوظ من هذين الأمرين، فإن وسوس بشبهة قمعها العالم بالعلم، وإن وسوس بشهوة قمعها العابد بالذكر، وهذا معناه أن العابد لا يستحق هذا الوصف إلا بهذين الأمرين أي العلم والعمل به، فكم من عالم يرد على الشيطان وجنوده شبههم لكنه أسير للشهوة وتابع للشيطان فيها، فهو تحت سلطانه من بابها، وكم من عابد يرد على الشيطان سلطانه في الشهوة لكنه أسير له في الشبهات يقوده إلى البدع ومعانيها، فلا يحصل الخلاص من سلطان الشيطان إلا بالعلم والعبادة، وهي سمة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولا معنى لافتراقها في العصور المتأخرة، وهو من الإفتراق النكر الذي لا يجوز بحال من الأحوال، ومن معاني هذا الإفتراق اليوم التفريق بين الداعي والعالم، وبين قائد العمل الإسلامي والعلمن ذلك لأن الدعوة عبادة وهي لا تقوم إلا بالعلم، وكذلك العمل الإسلامي العام هو من العبادة ولا يصح وجهه إلا بالعلم، فالعلم هو القاسم المشترك لكل جوانب العبادة، كما أن الإخبات والإخلاص والإنابة هي شرط لوصف العلم في القرآن والسنة.

وقوله تعالى﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي حسيباً في تحقيق هذا الوعد، فإن الله عز وجل ولي المؤمن إن أخذ بشرعه أن يحميه من الشيطان ويقطع عنه سلطانه، وهذا دليل على أمر أمر الشيطان لا يرد إلا بالعبادة وطاعة الله، فإدراك منافذ الشيطان وجنده أمر كوني يدرك بالمتابعة والنظر مع دخوله كله في عمومات

القرآن، لكن رد هذه المنافذ لا يكون إلا بالشرع، وكفى حصانة لهذا الشرع أن الله تكفل في تحقيق عاقبة الفوز والنصر لفاعله.

فائدة:- من تأمل بالركوع والسجود في القرآن رآهما مطلقين كقوله﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ ،وأما القيام ففيه قوله تعالى﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ ،وسبب ذلك أن السجود والركوع فيهما معنى العبادة ابتداءً، فمجرد وجودهما يعني أن الفاعل عابد لمن سجد وركع له، وأما القيام فإنه فعل مجرد، ليس فيه هذا المعنى ابتداءً، فاحتاج إلى التنبيه لفعله على وجه العبادة فقال تعالى﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ ،وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بأن يصلوا قعوداً إن صلى إمامهم قاعداً فقد علله كما عند أبي داود في سننه بأن هذا اقتداءً بالعجم في القيام لعظمائهم لا لأن منه معنى العبادة وفيه عن جابر رضي الله عنه((ولا تفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها)) وهو عند مسلم بقوله((إن كدتم آنفاً تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود))، ثم إن هذا القيام على هذا الوجه، أي قيام الناس لعظمائهم وهم قعود صورة مخصوصة من القيامة وليست القيام المجرد، والله أعلم.

قوله تعالى﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

وهذا من تذكير العباد بهذا الرب الذي قطع الوعد على نفسه أن يمنع بين المؤمن وبين الشيطان، فهو رب رحيم بهذا الإنسان، وقد أعطاه وسائل راحته، ووسائل معيشته، فما أعطيه المؤمن من شرع إنما هو من رحمة الله تعالى به، كما أعطي الإنسان من أقدار إنما هي من رحمته، ولذلك قال تعالى﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فلذلك جاءت هذه الآية لتبين صراط الله تعالى في قدره وشرعه مع الخلق، فحيث يحمى من عدوه المبين بالشرع هو من رحمته، وحيث يعطى من وسائل قدريه لتحقيق مبتغاه هي من رحمته سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ،أي هو ربكم سبحانه وتعالى الذي قال سبحانه﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ فحيث هو الذي يعطيكم من غير سؤال في تسهيل الوصول لمبتغاكم، فكيف لا يعطيكم وقد سألتموه فاستغثتم واستعنتم به؟!

فالله عز وجل هو ربكم الذي يدفع لكم السفن في البحار لتصلوا إلى مبتغاكم في الوصول إلى مقصدكم مما هو بعيد عنكم، وهذا امر من عجائب السنن لو تفكر الأمر فيه، فإن الماء من صفته الإغراق لكن رحمة الله بالإنسان جعلته وسيلة للنجاة، بل ولقضاء الحوائج، ولكن جهالات الناس بالنظر إلى السنن دون النظر لخالقها تحجبهم عن حمد الله تعالى وشكره، ورؤيةيده ونعمته سبحانه وتعالى.

وهذه الآية، وهي جريان الفلك في البحار وقد تكررت في القرآن، ولكن ظن الإنسان أنه اهتدى إليها بعقله دون هداية الله، وظنه أن هذا من طبائع الأشياء التي تحكم القدر، ولا حاكم لها من غيرها هو الذي يعميهم عن الحق فيها.

والقرآن نبه كثيراً إلى الآيات والعجائب في الخلق، حيث يخرج الشيء من ضده كقوله تعالى﴿ **يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** ﴾ وقوله تعالى﴿ **أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ**﴾ أي المسافرين، فهذه الأشجار التي فيها الثمار يكون فيها النار ليتحقق منها النفع من وجه آخر هو على الضد من الثمار التي تخرج منها، وكل هذا دليل على قدرة الله تعالى وعلى رحمته بعباده.

قوله تعالى﴿**مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا** ﴾ ومن آيات الله في الكون أن يقع البلاء حيث لا دافع له إلا الإلتجاء إلى الله، وهذا قاسم مشترك في البشر جميعاً، فحيث يقع البلاء ويدرك المرء أنه أسير له كما يقع في الزلازل والبراكين والفيضانات فإنهم يتوجهون إلى الله يسألونه اللطف والرحمة، وهذا الفطرة التي جبل عليها الخلق، وها هنا فإن الإنسان وهوسائر في مركبته في البحر فيقع البلاء فحينها ينسون ما يدعون الآلهة الباطلة، ويدركون ضعف قواهم في دفع هذا البلاء فيسألون الله وحده دون سواه.

وقوله تعالى﴿**ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ** ﴾ دل على أن الآلهة الباطلة والإغترار بالنفس أوهام عارضة لا تصمد أمام المحن، بخلاف الفطرة التي هي أصل الخلق، فإنها تظهر على فلتات اللسان وعند الملمات، فذهاب ما

في قلوب العابدين من أثر لمعبوداتهم دل أن هذه المعبودات إفكاً كاذباً يتلبس به هؤلاء على وجه الزخرف الكاذب الخادع.

وقوله﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ فهذا حال هؤلاء، يلجؤون عند الحاجة إلى الله ليعطيهم وينجيهم ثم إن حصل لهم مطلوبهم كفروا وأعرضوا، وهذا الحق قد تأكد كثيراً في القرآن الكريم.

وقوله تعالى﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ فهذا هو الإنسان، وهذه خصاله، حيث يبغي وينسى عند حلول النعم، ولا يشكر المنعم ولا ينب الفضل لأهله، إلا القليل من الخلق كما قال تعالى﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

وقوله تعالى هذا لا ينبغي أن هذا إقراراً للناس على ما هم عليه، فإن كان الإنسان كذلك فلم يعاقب إذاً على أمر هو من معدنه؟ وهذا يدلك على أن الشرع جاء لتقويم الإنسان لا لموافقته، إذ إدراك الإنسان نفسه لا يعني أن توضع الشرائع على وفق ما هو عليه، بل توضع الشرائع على وفق الحق، وما يحقق الخير للوجود، ومن هذا كانت العبادة تحتاج إلى الصبر كما قال تعالى﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ ،ومدافعة الإنسان هواه هو الخير له، أما الشر فهو متابعة النفس والهوى.

ومما ينبغي أن يعلم أن الله يحب من عبده أن يعبده ويرجوه في حال الرخاء، وهذا مما يحقق الإجابة عند البلاء فقد وصف الله زكريا وأهله بقوله﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم((تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة)).

قوله تعالى﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾.

وهذا تذكير من الله للعبد أنه في غفلة إن ظن أن العجز عن وقع البلاء إنما يكون في البحر، لكنها الغفلة، فيقول الله تعالى له: إن في اليابسة من البلاء ما لو وقع فلن يدفعه عنكم دافع، فلو وقع عليكم الخسف وهو مما يقع من الزلازل وأشباهها مما تعلمونه وترونه، أو وقع عليكم الرجم بالحجارة، لأن الحصب هو الرمي بالحجارة، وهو أمر وقع على أمم سابقة كقوم لوط، كما أن البراكين يكون فيها هذا حين تنفجر، كما أن الإنهيارات هي على هذا المعنى، فهل هناك من يمنعكم من هذا البلاء؟!

قوله تعالى﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾.

ذلك بأنكم تحتاجون لهذه النعمة من ركوب الفلك في البحر، ولذلك ستعودون له، فما الذي يضمن لكم أن لا يحدث هذا فيرل الله عليكم قصف الرياح فيغرقكم، وتسمية الله فعل الريح قصفاً تنبيه أن الريح التي يزجي الله بها الفلك في البحر فتوصلكم لمقاصدكم هي من يجعلها الله سبباً لكسر سفنكم وتحقيق الهلاك بكم.

وقوله تعالى﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أي جزاء بما فعلتم في سابق أمركم، لكن لا تعني أبداً أن الفرق في البحر لهذه العلة فقط، فقد جاء في الحديث أن الغريق شهيد، ولم يأت في القرآن ذكر الشهيد على معنى الإصطلاح إلا بمن قتل في سبيل الله تعالى، ولكم وسع الحديث دائرة الشهادة في الآخرة، وقد كتب في الشهداء غير القتلى في سبيل الله تعالى، ولكن وسع الحديث دائرة الشهادة في الآخرة، وقد كتب في الشهداء غير القتلى في سبيل الله كتباً منها ما كتبه السيوطي، وقد عدهم الأجهوري المالكي إلى ستين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ أي من يتبع ما يزهق من نفوسكم من الأولياء والأنصار فيكون دمكم وأرواحكم بهذا الإغراق ترة على من وراءكم بلا ثأر، وهذا من أعظم القهر الذي يقع في النفوس، فإن الثأر يطفئ النفوس ويشفي غليلها، لكن الموت على هذا الوجه من الغرق أو ما كان في معناه لا يجعل للولي منفذاً لثأر، وبغير الإيمان والصبر والإحتساب يعني أنكم هباءً لا قيمة لكم، وأن أولياءكم أهون من أن يطفؤوا ثأرهم من قاتل أبنائهم وهذا ما يحقق قول الفاروق عمر رضي الله عنه حين قال: الحمد لله الذي قهر عباده بالموت.

هذا وإن العرب ليسمون ما لا يؤخذ له الثأر قتيل الله كما قال عمر رضي الله عنه لأولياء مقتول قتلة رجل دفعاً عن عرضه فقال عمر: هذا قتيل الله، لا أوديه أبداً، وكذلك كانوا يسمون من مات حتف أنف من ذوات الأرواح ولذلك قال ابن عباس:- ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم فكلوه.

وهذه الآيات في ذكر أحوال الإنسان مع الرخاء والشدة لتبين أن الناس في حال الشدة يلتجؤون إليه جميعاً، لكن المؤمن هو من يلتجئ إليه في كل حال؛ أي في الشدة والرخاء، وهذا تنبيه إلى مسمى العباد الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ،ثم دل هذا أن الشيطان إنما يقوى صوته في حال الرخاء والنعيم والفرح والمرح، إذ في هذا الحال تنطلق لنفسه إلى دعوة الشيطان، ولذلك كان من دأب الصالحين أن يخافوا هذه اللحظات لأنها لحظات غفلة عن الشكر والذكر.

وقوله تعالى﴿يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ تحتمل أن يحل بهم الإغراق وهم على البر بما يسلط عليهم من المياه فيحصل لهم الغرق وهم في البر دون العودة للبحر.

قوله تعالى﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾.

انظر إلى هذا العطاء الإلهي، وما قابله من فعل الإنسان وقوله الله عنه﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ مع ما تقدم من قوله تعالى﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ،ذلك لتعلم أن العبد المؤمن إنما يحقق مراد الله منه، وأن عبادته هي أحب العبادات إلى الله، فإن هذا العبد المؤمن باختياره الطاعة يكون قد خرج من كل هذه القيود ليحقق شكر نعمة الله عليه، وهي قيود النفس والهوى والغفلة، وإغواء الشيطان ومكره به.

فالله عز وجل كرم آدم وذريته، مع ما ذكر عن أصل خلقه من ماء مهين، لكن كان الإكرام بالنعم التي حصلت له، وبالشرائع التي نزلت عليه، وبالجزاء الذي سيجنيه بإيمانه، وبتسخير ما في السموات وما في الأرض له.

ومما يشاهد من خصائص الإنسان أنه المخلوق الوحيد على الأرض الذي يمشي قائماً منتصباً على رجلين، ولا يعتمد على يديه في المشي، كما أنه أكثر المخلوقات احتياجاً للزمن حتى يقف منتصباً ماشياً، فإن عامة الدواب لا تحتاج إلا لمدة يسيرة حتى تمشي على أربع، بل إن بعضها بعد ولادتها بقليل، وكذلك إعداد الإنسان للإستقلال في تحصيل حاجاته هو أكثر المخلوقات احتياجاً للزمن، وهذا لما يحضر له

الإنسان وما تحضر له سائر الدواب، فإن الدواب نفعها في جسمها فقط، بخلاف الإنسان فإن نفعه في إرادته العالمة، ولذلك فما أسرع ما ينتهي تحصير الدواب لحاجتها، أما إرادة الإنسان فتحتاج لوقت طويل حتى تصبح هذه الإرادة مسؤولة، ولذلك لا يستقل الإنسان بهذه الإرادة إلا بعد البلوغ كما قال تعالى﴿ **وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ** ﴾، فجعل البلوغ والرشد شرطين لتحقيق استقلال الإرادة، وهذا الزمن قد يكون هو أطول عمر تبلغه بعض الدواب بل قد يكون ضعفها، ذلك لما يحضر له الإنسان ثم إن خلقته تتلاءم مع الشرع الذي يتوجه لهذه الإرادة تحقيقاً لقوله تعالى﴿ **ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ فعامة الدواب لها ذيل يستر عورتها بخلاف الإنسان، فإنه مأمور هو بستر سوأته، فتلاءم جمال الخلق وحسنه مع تكليف الإرادة بالشرع، وهذا تراه مضطرداً في تلائم خلقه الحسن مع الشرع المنزل.

ومن أعظم ما كرم به أن سخر الله له كل المخلوقات، فبعضها للأكل وبعضها للبس وبعضها للحمل، ومن قرأ سورة النحل علم شيئاً كثيراً من هذا الباب، فهي سورة تكاد تكون مخصوصة لذكر النعم القدرية على الإنسان، وكذلك سورة الروم فهي على هذا الأمر من ذكر النعم.

وقد يسأل سائل كيف يكون الإنسان مكرماً بهذه الإرادة المستقلة التي تحقق له الإنتفاع بالخلق وهي سبب التكليف ونزول الشرائع مع قوله تعالى عنه في هذا الباب﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ ،ذلك لأن عامة السلف يجعلون الأمانة هي الطاعة والفرائض، ولا تخرج أقوالهم عن معنى التكليف، فإذا كان قبول حمل التكليف ظلماً وجهلاً، فكيف هي سبب كرامته على بقية الخلق ممن أبين هذا التكليف؟

فالجواب أن وصف الظلم والجهل كان بسبب عدم إدراك الإنسان لثقل هذه الأمانة وعاقبتها، لكن لما حصل منه القبول فإن كرّم في أقداره كخلقه وما سخر له من اجل تحقيق هذا الحمل على خير وجه، فلم يكن التكريم نافياً للوصف الذي قاله الله عنه﴿ **ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ لكنه كان من أجل القيام بهذه الأمانة على وجهها، ثم يعلم اتصافه بهذه الأوصاف لما قال الله تعالى﴿ **وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾ وقوله تعالى﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ** ﴾ ،ولذلك فعامة أوصاف القرآن للإنسان إنما هي لغالبه، ويخرج منها أهل الطاعة

والعبادة كقوله تعالى﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

وفي هذه الآية ذكر ما كرم الله بني آدم من حملهم في البر على الدواب وغيرها مما قال تعالى﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ،فإن الله قال في سورة النحل﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ،وقال في سورة المؤمنون﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، وآيات أخرى في هذا المعنى.

وأما حملهم في البحر فعلى الفلك كما تقدم ذكره.

وقوله تعالى﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي من المطعوم والملبوس وغير ذلك كالمشروب والمشوم، وكل ذلك مع ما فيه من رزق في قضاء حوائجهم ودفع الضر عنهم إلا أنها كذلك من المتع فهي من ﴿ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ ،ولا تكون كذلك إلا لما يتحقق فيها من راحة النفس وطمأنينتها، وهذا يجده البشر في أنفسهم، حيث لا يتحقق لهم نفع في شيء مما خلقه الله على وجهة الطبع إلا وهو محبوب ومشتهى من النفوس السوية، فإن المرء لا ينتفع من هذه الأرزاق فقط، ولكنه يلتذ بها ويسعد بها، كما قال تعالى عن الأنعام﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وكما قال عن النساء للرجال والرجال للنساء﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ،وكما قال عن البيوت﴿۝٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ وقال عن جلود الأنعام وما عليها﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ،ولذلك فهذه النعم تجمع بين وصف الرزق وبين وصف الطيبة، وأما المحرم فقليل كما قال تعالى﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا

ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾ ولذلك فلا يذكر في كتب الفقه المباحات لأنها الأصل، إنما تذكر المحرمات والنجاسات لأنها قليلة محصورة ويمكن استقصاؤها وعدها.

وقوله تعالى﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ تقدم الخلاف فيها حول أفضلية جنس البشر على الملائكة أو العكس، والذي أظنه أن جنس الملائكة أفضل من جنس البشر والله أعلم، وهي من مسائل التصور التي لا ينبني عليها كثير أمر فلا ينشط لها.

قوله تعالى﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۢ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾

هذا عود إلى ما كان الحديث فيه قوله تعالى﴿ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ففي هذه الآية بين الله تعالى فيها ميزان الحساب والجزاء يوم القيامةن ذلك بأنه يدعى كل أحد بكتابه الذي قدمه، كما قال الله في ما تقدم من هذه السورة﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ،وقالوا معاني أخرى، أي أن الناس يدعون بكبريائهم وأئمتهم الذين اتبعوهم، وكل ذلك تحتمله الآية ويدل عليه القرآن في آيات أخرى، ولذلك من أحكام هذه الدنيا أن يلحق الأتباع بأتباعهم، ويلحق حكم الدار بأحكام قادتها وساداتها، كما أن المذاهب إنما تعرف بأقوال متبوعيها من أئمتها، وهذا يعلم أهل الإيمان أن لا يقبلوا الدخول في طوائف البدعة والضلال حتى لو استقلوا عنها بأقوال، لأن الدخول في الطائفة تجعل حكم أفرادها بحكم القادة والكبراء فيها، وهذا لما كان لا يدركه البعض فإنه يستخف في الدخول في الطوائف التي لها شارات أهل البدع واختياراتهم ثم يزعم أنه ليس على ما يقولونه من هذه الإختيارات والمذاهب، وهذا جهل سرى في الكثيرين ممن يعلم السنة في أبواب ويتابع أهل البدع في الإنتظام والإنتساب.

وقوله تعالى﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾، وهذا السياق يرجح أن المقصود بالإمام هو الكتاب، وهي تدل على أن الصحف تعطى للمؤمنين في أيمانهم، وهذا

جاءت فيه آيات كثيرة، فإن أعطي المرء كتاباً قرأه، وإن كان مما يغضبه ويحزنه نبذه ولم يقبل عليه، ثم يكون الجزاء على أعمالهم بالعدل بل بالرحمة كما جاءت بذلك الآيات، وقارن بين هذا الوعد في العطاء تاماً بلا نقص وبين قوله تعالى في الكافرين كما تقدم﴿ **فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا** ﴾.

ومما يدل على ما قدمنا من فرح المؤمن بكتابه فيقرؤه، وأما الآخر فيبغض كتابه ويعرض عنه قوله تعالى﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ** ﴾.

قوله تعالى﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾

وهذا مقابل إقبال المؤمنين على قراءة كتبهم فرحاً، فإن هؤلاء يحشرون عمياً وعلى وجوههم، فأنى لهم أن يقرؤوا كتبهم، وهذه الآية على النوع من تحول المعاني يوم القيامة إلى أجساد ترى، وذلك كإتيان الموت في سورة كبش يذبح بين الجنة والنار، وتحول الحسنات والسيئات وهي من عالم المعاني في الدنيا إلى أهرام لها أوزان، وهكذا تأتي سورة البقرة وآل عمران غمامتان ولهما لسان تحاجان عن صحابهما، ففي هذه الآية حيث يأتي أعمى البصيرة في الدنيا، وهو من عالم المعاني أعمى العين يوم القيامة، وهذا من العدل الإلهي في الجزاء، فإن حال المرء في الدنيا هو ما يجده يوم القيامة كحال المنافقين في قوله تعالى﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ** ﴾ وهذا هو حالهم في الدنيا في افتراق ظاهرهم عن باطنهم، وكذلك قوله تعالى عن مانعي الزكاة: ﴿ **يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا (أي كنوزهم) فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ** ﴾ إذ هذا حالهم في منع الزكاة عن مستحقيها حيث يسؤلوها، فتعرض جباههم وتتمعر، ثم يديرون جنوبهم ثم ظهورهم فهؤلاء عميان البصيرة في الدنيا، وعميان القلوب يحشرون يوم القيامة عمياناً في أبصارهم، ويحصل لهم الضلال والتيه كما كان يحصل الضلال عن الحق والتيه عنه يوم القيامة.

وإطلاق صفة العمى على الضالين في الدنيا ليس من باب المجاز كما يريده البعض، بل هو على الحقيقة، فإن العمى إنما يحصل بسبب عدم الرؤية، ورؤية القلب أن يحصل له إدراك الحق ومتابعته، وعماه هو

الضد من ذلك، وهذا من باب الحقائق، فليس عمى العين بأولى في هذا الأمر من عمى القلب ليكون هو الأصل وعمى القلب مجازاً كما يقولون.

فقد قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ،ويبقى القول: هل هذا كناية أم لا؟ والجواب كذلك: لا، وأنا أشرح لك المجاز والكناية كما هي عندهم في كتبهم، وكما شرحها إمامهم في هذا الباب وهو الزمخشري.

فالمجاز عندهم هو إخراج اللفظ عن معناه الموضوع له بالكلية واستعماله في غير هذا المعنى، فيحصل بالمجاز أمران:- إخراج اللفظ عن معناه، واستعماله في غير الموضوع له.

أما الكناية فهي جزء من المجاز عندهم، فهي لا تخرج اللفظ عن معناه، ولكن يستعمل في غير هذا المعنى.

وأما ما يترتب عليهما فإنّه بالكناية يتحقق المعنى الموضوع له دون الخروج عن معنى اللفظ ابتداءً، بخلاف المجاز فإنه لا يتحقق إلا بالخروج عن المعنى الموضوع له.

فقوله تعالى هنا﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ لم يتحقق بها أحد الأمرين، إذ لم يخرج اللفظ عن معناه أصلاً حتى ننظر أحصل الثاني أم لا، فليست هذه الآية من باب الكنايات، ولا هي من المجاز.

واعلم أن أسماء المعاني عند النحاة قديماً إما أن تكون لأجساد وإما أن تكون لأفعال، وقولهم لأجساد إنما هو لما يطلق على عالم الشهادة، ثم اعترفوا بأن أسماء الأفعال غير مدركة بالبصر، فمن أين لمدعي المجاز الزعم أن الأسماء حقائق على ما هو شاهد، ومجاز عما هو من عالم الغيب أو عالم المعاني غير المدرك بالبصر؟!، ولذلك فالأصل أن أسماء المعاني حقائق إلا إذا أطلقت على مشهد يتبين لنا عدم الحقيقة فنضطر للقول بالكناية، وإن شاء البعض الإصرار على تسمية هذا مجازاً فليكن، مع أن علماء البيان لا يرضون منهم هذا، وقد يقع في كلام بعضهم التخليط بين الكنابة والمجاز كما ذكر الزمخشري نفسه، فما أخبرنا الله عنه من عالم الغيب من أسماء هي حقائق، ويتعلق بها معاني كما يتعلق بحقائق عالم الشهادة، فالعمى القلبي حقيقة، ويتعلق به عدم رؤية المعاني، كما أن عمى العين حقيقة، ويتعلق به عدم رؤية الأشياء.

ولذلك فإننا نثبت لله ما أثبته لنفسه من حقائق كالعين واليد، ونثبت لها ما تعلق بها من معنى، فالعين ترى وتبصر، واليد تعطي وتبطش، فإن فسّر أحدهم الاسم بمقتضاه دون نفي الحقيقة جاز، فقوله تعالى- ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ تعني بحفظنا، وكذلك قوله تعالى﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي نصرة الله معهم ومعينة لهم لأن هذا مقتضى العين واليد، مع إثبات حقيقة وجودهما لله تعالى بما يليق بأسمائه وصفاته.

وعنوان المدافعة بين الفريقين، ولو زعم حملة الدين أنهم على هذا المعنى لكذبهم خصومهم بالأدلة الجلية، وذلك بما قبلتم سابقاً التنازل عنه، فكل ما عندكم هو بضاعة تصلح للعرض والطلب، فكم من مرة زعمتم أن هذا من أصول دعوتكم ثم ما لبثتم أن جعلتموه اجتهاداً مضى وجاء غيره، وكم شنعتم على مخالف في أمر ثم صرتم من أهله، وهكذا هي مسيرة كل دعوتكم، تقولون فيها شيئاً على الله وتنسبونه إليه ثم ترمونه وتعيبون من بقي عليه، ولذلك يمجد لمخالفيكم أن يقولوا أنكم لستم أصحاب مبادئ، ولا رجال دعوة بل أنتم كغيركم تساومون، فإن عرضت عليكم أثمان بضاعتكم بعتموها بثمن بخس حقير.

مسيرة الدعوة هي مسيرة الثبات على القيم والمبادئ، ترفض فيها الإشتراك والمساومة، لأنها تسعى أن يقرر الحق جلياً في نفوس أتباعها وخصومها على السواء، لكن انظر إلى هؤلاء اليوم، فما هو الشيء الذي لم يساوموا عليه؟! وما هو الأمر الذي كانوا عليه وبقي عندهم؟! لقد رفعوا راية الجهاد ثم ندموا على تاريخهم فيه، ودعوا إلى إسقاط دين الجاهلية حتى يكون الدين كله لله ثم آل أمرهم إلى أن يكون رجالهم هم أزلام هذه النظم والعاملين فيها، وزعموا أنهم رجال الوعود القرآنية فانقلبوا إلى موانع ضدها يعادون أهلها مع عدوة أهل الباطل في كل البلاد، فأي دين هذا الذي يستظلون به ويزعمون أنهم حماته؟! أنهم ليسوا إلا جزءاً من هذه البضائع في سوق العرض والطلب وسوق المساومات من أجل مصالح القادة والحزب، ووقودها أولئك المغفلون من الأتباع ممن دفعتهم الشعارات لدفع الثمن في جيوب الملأ منهم.

في هذه الآيات يبين الله تعالى أعظم فتنة مرت فيها دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي التي قال الله عنها﴿ وَإِن كَادُوا۟﴾ مع أن الآيات القرآنية الأخرى تبين أن ميل الرسول صلى الله عليه وسلم لموافقتهم

إنما رجاء إسلامهم وقبولهم الدين كما قال تعالى عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهده﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ وقال تعالى﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ،ولم يكن هذا المقصد الحسن عذراً في دخول أفق المساومات على الدعوة وقيمها ومبادئها، بل ولا حتى على رجالها وذلك حين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعزل الفقراء منهم عنهم فأنزل الله تعالى﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ،ولعمر الحق كان هذا الثبات مكلفاً جداً، إذ كان يزيد بغض الكافرين للدين وأهله، وكان يزيد عداءهم وإيذاءهم، لكن هذا كان وقود النصر الآتي، وهو سبيل الإرتقاء إلى درجة المحنة العليا حتى يتحقق الوعد الغائب خلق هذه اللحظة الشديدة، أما هؤلاء فقد تشتت بهم السبل، وحققوا بعض المنافع من فتات الطريق زعموا أنها هي النصر وسبيل التمكين مع أنهم حالهم يدل أنهم صاروا في أحشاء الجاهلية وتحت سلطانها ورجالاً من أزلامها وأركانها، وقد حققوا بهذا ما قال الله هنا﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ فقد صاروا أولياء وأصفياء للطواغيت، يجالسونهم مجالسة الناصحين لا بالحق ولكن كيف يدوم سلطانهم وتتجذر أركان ممالكهم، ويزعمون أن هذا القرب وهذه الخلة هي من حكمة الدعوة ونتائج التخلي عن المواجهة والصدع بالحق، ويندمون على تاريخهم الماضي حيث كانوا من أهل هذه المواجهة التي آلت بهم إلى السجون والقتل والتشريد، فيا لله كم انقلبت المفاهيم في نفوس الناس اليوم، وصار طريق القرآن وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم معيباً عندهم، وصار أتباعه يقذفون بكل النقائض والعيوب، فهم المتشددون وهم الشباب المتهور، وهم من يزيد بغض الأعداء للإسلام بأفعالهم وصدعهم بالحق، أما هم فقد ارتقت بهم حكمتهم المزعومة إلى أن يُسمع لهم من فرعون وهامات وقارون، بل اتخذوا مستشارين ونصحة، فها هي مؤسساتهم وقادتهم يدخلون على الطواغيت فيسمع لهم، ولو سئل أحدهم أي حق لله قد قلته لاستهزأ بك وعابك، إذ يرى أن مصالح الدعوة ومصالح شؤون الناس أولى بأن يخاطب بها هؤلاء، أما الحكم بغير ما أنزل الله، وموالاة أعداء الله، والدخول في طوائف الشرك في المشرق والمغرب فهي من التوابع لا

الأصول، فهي ليست مطالبهم في الإبتداء، وإن كان لها دور فستأتي بعد أمور هي الأهم في حياة الحزب والشعب وبهائم البشر.

وقوله تعالى﴿ **وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ** ﴾

هذه المقاربة تقدم أن وسيلتها النية الصالحة لتجقيق هداية القوم أو دفع شرهم، ووجودها يدل على قوة أثر هذا العرض، وقد علم أن النبي صلى الله عليه وسلم أوذي في الله ما لم يؤذ أحد ولم يكن هذا الإيذاء دافعاً لهذه المقاربة، لكن عرض الفتنة هو التزيين في ترك الحق من أجل الإلتقاء في منتصف الطريق، يقولون له:- أنت تشتم آباءنا وتسب آلهتنا وتعيب ديننا، وهذا أمر غير مقبول في الإبتداء، بل هو حاجز بيننا وبين أن نسمع لك فقط فكيف تريد منا اتباعك، فهلا توقفت عن هذا، حينها سنسمع لك، وبعد الإستماع يكون الخير لنا ولك.

اكتم عنا قوله تعالى﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ ،واكتم هنا﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ** ﴾ واكتم عنا ﴿ **مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ** ﴾ واكتم عنا﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ ودعك من كلمة كفر وكافرين، فإنما هو رأي ورأي، ودعك من أحكام الغيب وقضاء السماء، لنلتق نحن وإياك على كلمة سواء غير كلمة الله وهي كلمة الناس نحتكم إليها، وكلمة المصالح فتفصل بيننا.

ألا فاعلم أن هذا من الإفتراء على الله، فما أنت إلا رسول تبلغ ما يوحى إليك، وتخبر الناس كلمة الله تعالى لا كلمتك، وتعلمهم حكم الله لا حكمك، وهكذا على كل أحد انتسب إلى الرب وصار ربانياً، وكل داع إلى الله فإنه يبلغ ما أنزل الله، رضي الناس أم غضبوا، أقبلوا عليه أم كرهوه، فهذا أمر بيد الله تعالى﴿**يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ** ﴾ وأما ما سيقع عليك وعلى أتباعك من العذاب فهذا قدر هذا الدين وهو قدر أتباعه، وبهذا البلاء يحصل النصر وتتحقق الوعود.

لقد سمى الله أعمال الرأي مقابل منهج الله فتنة، فإما وحي كما قال﴿**ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ** ﴾ وإما ضلالات الفتن كما قال تعالى﴿**لَيَفْتِنُونَكَ** ﴾،وكل اسباغ كلمات الجمال على القاذورات لا تغير حقائقها،

واعلم يا عبد الله أن هذا لم يكن في قضايا الأحكام من الحلال والحرام لكنها كانت تدور على منهج العمل، وما يتعرض له من عروض، عروض تكون من أجل التخلي عن بعض الحق، حتى يتحقق القرب والخلة، ومن تأمل أس دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وجدها تقوم على التوحيد وأن يكون الدين كلهن وذلك بأن يسلم الناس أفراداً وجماعات أمرهم له ولحكمه، ويعرضوا عن معبوداتهم التي يلتجؤون إليها في نسكهم وعباداتهم، ويكفروا بكل قيمهم من جهة مصدر الحق فيها ليكون مصدرها هو الخالق للخلق وحده لا شريك له، وكانت المساومة على هذين الأمرين، فقد طلبوا منه أن يعبد يوماً آلهتهم ويعبدون الله يوماً آخر، وطلبوا منه أن لا يحكم على أشخاصهم وآباءهم وسلوكهم، وكانت تدور المحن حولهما، واليوم الحال هو الحالن يريدون جعل الداعي إلى الله والعامل لدينه يعرض عن جعل القضية بينه وبين الآخرين في الله، وكما يقولون لا يريدون جعل القضية دينية بين اسلام وغير اسلام((هم يرفضون حتى في الألفاظ القول بين اسلام وكفر وقد استجاب لهم هؤلاء))، وهذا في كل قضايا الخلاف بين الدعاة إلى الله وبين أعدائهم من الطواغيت والزنادقة، ومما يؤسف له أنه قد تحقق لهم حتى في قضايا الأمة العظمى كقضية فلسطين وغيرها، فإن المفتونين قد استجابوا لهم وأعرضوا عن جعل خصومهم مع الآخرين في الله وعلى دينهم، ولذلك تحقق ما قال الله﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ ولم يبق إلا الشعث الغبر الذين نبذهم النا ورموهم عن قوس واحدة، وهؤلاء هم أهل الوعد القرآني بإذن الله ومشيئته.

وعظم هذه الفتنة ليس بالهين، فلا تعجب فيها من كثرة الهالكين، بل اعجب أن ينجو منها أحد، لأنها تتزيى بكل زي، وتدخل تحت الشعارات الجميلة كحكمة الدعوة ومصلحتها، وتتلفع بستار المرحلية، وقد آل أمر المعاصرين فيها أن غاب الدين كله عن ارض المعركة مع خصوم الإسلام، ولم يبق إلا النزاع عمن يزرع الأرض أفضل، ومن يبني المستشفيات أكثر، وهي صور حققت الأمان لهؤلاء، وهو بعض ما يطلبون على حساب المواجهة بالحق والصدع به، وصار المرء فيهم يمدح بمقدار ارتفاعه في سلم الجاهلية ودرجاتها، وبمقدار هذا الإرتفاع يكون له الشأن في هذه الأحزاب والتجمعات، فآل هيكلها إلى سطوة الملأ المترف، وإلى قيادتهم لمفاصلها، فصار القائل بالحق عدواً لهم قبل أن يكون عدواً للطواغيت والزنادقة، لأن في هذا الصدع وهذه المواجهة تذهب أمور تحققت بهذه الفتنة وهذا السقوط، ولذلك

فميزان هذه الجماعات في الحلم على مخالفيهم من أهل الجهاد والدعوة إلى الله هو ميزان الملأ المترف، والذي معياره في ذلك هو الترف والسلطان والجاه والمنزلة، وحين يصبح حملة الدعوة محكومين بهؤلاء وبقيمهم ومعياريتهم في الوقائع والأعمال فلا تعجب أن ينحازوا للباطل ضد حملة القرآن والجهاد والصدع بالحق، ولا يغرنك مزاعمهم في الحفاظ على الدعوة ومكتسباتها، ولا دعواهم أن أفعال الشعث الغبر خارجة عن إطار الحكمة، فكل هذه شقشقات ألسنة ليس لها في واقع الأمر شيئاً.

واعلم أنه ما من إذن يعطي لعامل لدين الله من قبل الجاهلية في إنشاء مؤسسة أو بناء عمل ظاهر إلا وراءه ثمن يدفعه هذا العامل مقابل هذا الإذن، إذ لابدّ أن يتنازل عن حق في مواجهة طاغية هذه الحلقة من حلقات الجاهلية، أو يداهن في أمر من أمورها، أو تتخذ هذه المؤسسة أو المشروع ظانين أنهم قد استطاعوا افتراق الجاهلية وتحقيق هطوة متقدمة للعمل الإسلامي، والجاهلية وطواغيتها يبتسمون لأنهم يعلمون أين مستقرها ومستودعها، وما هو مدى حركتها، ويقبلون ابتداءً بالرضى أن مجرد وجود هذه المؤسسات هو رهان على عدم عدائهم للدعاة والعاملين لدين الله، وبتضخم هذه المؤسسات والمشاريع تصبح رهقاً على هؤلاء العاملين وغيرهم، لأنها تصبح العصا التي يهدد بها إن خرجوا عن خطهم وأطرهم المأذون لها والمسموح بها، وبتضخمها تصبح المساومة أكثر تأثيراً عند العرض والطلب، ثم من قدر هذه المؤسسات أن تصبح هي خط المواجهة الأولى للمجاهدين والصادعين بالحق، لأن ذهابها أو اضعافها عند هؤلاء هو المعيار في الحكم على الجهاد وغيره، وهذا ما تحقق للجاهلية بهؤلاء، فأنت ترى وتسمع من هؤلاء أن الجهاد مفسدة، وعلة هذا الحكم أن هذه المؤسسات والمشاريع والأبنية قد تضررت، مع أن قاعدة الشرع أن الفرع غير معتبر إن عاد على الأصل بالإبطال كما يقول أهل الأصول، وأهل الأصول لهذا الدين أن يجاهد في سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هي العليا، وغير ذلك فرع وتابع له، لكن هؤلاء لما صاروا على وفق حال الملأ في قيادتهم لهذه المؤسسات، يكتسبون منها، ومترفون بها صارت أحكامهم على الجهاد وأهله نفس أحكام النلأ في رفض الحق والإعراض عنه، ولعمر الله إن هذا هو أعظم الفتن التي أدت بهم إلى الإفتراء على دين الله تعالى حيث صاروا مع أهل الجاهلية في كره الطائفة المنصورة.

إن أعظم الإفتراء على الله من هؤلاء المفتونين هو ترك تسمية الطواغيت بالحكم الشرعي الصريح، وكتمهم حكم الله تعالى فيهم وفي أمثالهم، مع ما يرون فيهم من الكفر الظاهر الصريح من التشريع على خلاف حكم الله، ومن الدخول في أحكام الكفار وطوائفهم، ومن موالاتهم للكافرين، ثم هم يزعمون أن هذا من يسير الأمر الذي لا يخرج صاحبه من دين الله تعالى.

وإن من أعظم الإفتراء على الله تعالى من هؤلاء المفتونين هو دخولهم في دين الجاهلية وقبولهم بأحكامها وقيمها في طلبهم الإذن بالوجود والعمل لدين الله تعالى، فالسياسي منهم يقر ويعترف أنه رضي بحكم الجاهلية في عرض أحكام الله على أهواء الناس، ولا يعلّمون الأمة أن قبول حكم الجاهلية مقابل حكم الله هو الكفر الأكبر الصريح، ثم أين في دعوتهم أن واضع هذا المعيار هو كافر مرتد ليس له في الإسلام نصيب.

إن هذا ليس من بعض الدين، ولا هو مما يقول الله فيه﴿شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ بل هو أصل الدين، ولا قوام للإسلام إلا به، ثم يزعمون أن هذا الأمر من مسائل الإجتهاد التي يجوز فيها الخلاف بين المسلمين.

وقوله تعالى﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ هذا الذي يحذر الله منه ويجعل مطعناً في الداعي إليه يجعل اليوم أهل الحكمة المزعومة من منجزات الدعوة ومكتسباتها، ويجعلون ذكاء الداعي هو من يحقق هذه المنزلة.

إن الداعي القريب من الله هو من يجمع الناس على الحق، ويفترق مع الناس عليه، أما أن يكون الداعي المصيب هو من يداهن ويسكت فتأتلف عليه قلوب العصاة والمرتدين والمشركين فهذا هو الكاذب المفترين على الله تعالى، والناس يدركون اليوم بفطرهم كيف يتحق القرب من الطواغيت والعصارة والمشركين، إنهم أولئك الذين لا يجيبون إلا ما يوجه لهم من سؤال من هؤلاء لتوهين المجاهدين والعاملين لدين الله بالحق، ولو طلب منهم أن يقولوا في هؤلاء ما يقول الله فيهم لوجدوا ألف سبيل لكتمه أو تأويله، فهم إن سمعوا مثلبة لمجاهد أو محب لهم نشروها على الملأ وأعلنوا بها على رؤوس الأشهاد تحت زعم النصيحة وتبرأة دين الله من الخطأ، أما هذا الشر الساكن مع خلانهم وأصدقائهم من الطواغيت فهو من يسير الأمر الذي لا يؤثر في دينهم وإخلاصهم، ولذلك هم أهل خلة لهم، يبشون لهم

إن جالسوهم، وأغدقوا عليهم من فتات الدنيا وزخرفها، ومهدوا لهم السبل ليظهروا للناس على وجه العلم وأهله، وهم مع ذلك يحكمون القياد فما أن يقول أحدهم كلمة في حق هذا الطاغوت حتى ينبذ نبذ النواة، ويضيق عليه في العيش، ويجرد من شارة العلم ورسمه، ويقص من مناصب الإفتاء والدعوة، والطواغيت بهذا يحققون قول فرعون﴿ **مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ** ﴾ فإن رأى هذا الطاغوت أمراً خطب له على المنابر، وسفه مخالفه في صيغ لو قيلت في خلفاء المسلمين لكانت عيباً، فكيف وهي تقال في هؤلاء المجرمين، ويذهب هؤلاء المفتونين في سب المنكرين عليهم أنهم تركوا سبيل الحكمة، وعرضوا أنفسهم للشر والبلاء بلا موجب، أمامهم فهم في مداهنتهم وفتنتهم أهل حكمة وبصيرة، والحق أن حكمتهم إنما هي الخوف من غضب هذا الطاغوت عليهم وذهاب جنياهم وشهواتهم ومناصبهم.

هكذا القرآن يحقق أن قبول عرض المشركين يحقق الخلة لهم، والصدع بالحق يحقق العداء لهم كقوله تعالى﴿ **وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ** ﴾ فاقرأ هذا بيناً وقارن بينه وبين موازين الخلق اليوم تعلم حينها لِمَ لَمْ يتحقق النصر على أيدي هؤلاء، بل قد طال الطريق وتعمق الشر واستفحل أمره، وتأمل كيف تبدأ الدعوة إلى الله بالقليل والضعف ثم تنمو سيراً واضطراداً إلى مقاصدها من النصر والتمكين، وكيف بدأت دعوة هؤلاء قوة وكثرة ثم آل أمرها أن تصبح جزءاً من الجاهلية وعضواً من أعضائها، فلا يغرنك الكثير، وإياك أن تحسد آخر على قربه من الطواغيت وتذكر قوله تعالى﴿ **قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾.

ثمّ اعلم أن مقدار الموافقة لهم هي معيار الخلة، فكلما كان المفتون موافقاً لهم، معطياً لهم ما يريدون من إفساد الحق ومعاداة أهله كلما كان قريباً منهم خليلاً لهم، وكلما ازداد اظهاراً للحق وكشفاً للباطل كلما كان عدواً لهم مبغوضاً في قلوبهم، وهذا أمر تراه جلياً في زمانك بيناً لا يخفى عليك، والمفتونون يعلمون ذلك، ولذلك كلما أراد أحدهم خلة هؤلاء رفع عقيرته في سب أعداء الطواغيت والإنكار عليهم ومنابذتهم في كل الصعد.

وقوله تعالى﴿ **وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا** ﴾

وهذا يعلمك شدة هذه الفتنة وقوتهان وأن لا عاصم منها إلا الله، وإلا فالهلكى كثر، كلهم يميل ذات اليمين وذات الشمال رجاء الهروب من المحن والبلاء، وهي فتنة ملازمة للدعوة، وأهم ما فيها أن المفتونين يظنون أنهم بأخذ هذا السبيل يتحقق لهم بعض النصر وبعض المصالح، وفرق بين من انشغل في الطريق يلتقط الحب الذي ينثر له ليشغله عن هدفه الأعظم ومبتغاه الأكبر، وبين من يشد الخطا إليهما دون أن يعبأ بهذا الفتات، لأن هذا الحبَّ المنثور وراءه الشباك، وضياع الوقت، وسقوط الهمم، وأعظم ما فيه سقوط مفهوم الحق وجلائه من نفوس الأتباع والخصوم، ولكن العجب أن هؤلاء المفتونين يظنون أن هذه العروض من قبل الخصوم دليل على لين جانب هؤلاء الخصوم، فيحسنون بهم الظن، وقد تنشأ عندهم المقارنة بين هؤلاء الناثرين للحبّ والفتات وبين آخرين لا يتقنون هذه الألاعيب ويذهبون مذهب كسرى في تمزيق المفتونين مدحاً لسبيل هؤلاء الماكرين، حيث يجعلون من مناقبهم قدرتهم على استعياب ما يسمونه الحركة الإسلامية، وتشريع وجودها، وفرضها على خارطة العمل في داخل هيكل الجاهلية، فأي عقل هذه الله لوعود القرآن ومقاصد الشريعة ثم يذهب داخلاً في سبيل المجرمين؟!

وقوله تعالى﴿**شَيْـًٔا قَلِيلًا** ﴾ يعلمك أن فتنة هؤلاء لا تساوم على كل ما معك، بل هي مساومة على شيء قليل كما جاءت بذلك الآيات الأخرى المخذرة من هذا السبيل كقوله تعالى﴿**وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ وسمى الله الذاهب لهذا البعض مرتداً فقال سبحانه في سورة محمد عن المرتدين وسبب ردتهم﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ** ﴾ ،والعجب أن كثيراً من العمائم وأصحاب الشارات العلمية ينكرون تسمية حكم الردة على من أطاع الكافرين في كل الأمر من علاقات وقوانين وأحكام، ولكن هذا هو واقع الأمر، فطواغيت الحكم في أرض الإسلام دخلوا كلياً في طاعة الكارهين لما أنزل الله، وأما المفتونون من حملة هذا الدين فقد ركنوا شيئاً، ووالله إنه اليوم ليس بالقليل ولكنه الكثير، إلى هؤلاء الطواغيت، فأعطوهم الكثير مما سألوه منهم، وأحسنهم حالاً هو من ينكر عليهم فسادهم وضلالهم وكفرهم، ولكنه طويل اللسان على خصومهم من المجاهدين والصادعين بالحق.

إن هؤلاء الطواغيت أذكى من أن يقولوا لهؤلاء الدعاة اكفروا، أو غيروا دينكم، ولكنهم يملؤون أفواههم ليسكنوا، ويثقلون جيوبهم ليقعدوا، ويرفعونهم إلى مرتبة المترفين والملأ لتصبح موازينهم في الأعمال والوقائع موازين الملأ وأهل الترف، ويكسبونهم الدنيا ليصبح تهديدها خطراً عليهم ينازعون فاعله ويسبونه باسم القرآن والسنة، فتصبح المصلحة وهي بابهم الواسع في التحريم والتحليل هي مصلحة طبقتهم التي يسمعون لها ويجالسونها ويخادنونها في مطعمهم ومشربهم ولهوهم، أما مصلحة الدين وإقامة حكم الله في الأرض ودخول الناس في دين الله تعالى شرعاً وقدراً فهذا مما لا يعنيهم كثيراً.

لقد دخلوا في هذا السبيل، وهو سبيل له تبعاته، ويُرسم الداخلون فيه على نهج لا يلتقي مع قواعد الطائفة المنصورة التي لا تأبه لكل مصالح المترفين في سبيل الوصول لوعد القرآن بالتمكين والنصر، وإن شئت أن ترى هذه الركون على هؤلاء المفتونين فانظر كيف يحكمون على أفعال المجاهدين، وكيف يرطنون برطن الجاهلية كالوحدة الوطنية، والسلم الأهلي، ومصلحة الوطن، ومصلحة الشعب، وهم يعلمون أن الشعب الذي يزعمون الإنتصار له هو منهم براء، فهم لا يحسون بآلامه، ولا ينتصرون للضعفاء منهم، ولا يعرفون قول الله في هؤلاء وهو يقول﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا**﴾ وهؤلاء المستضعفون هم المؤمنون الذين يسامون من الطواغيت سوء العذاب، حيث يؤسر معيلهم، ويرمى في السجون السنين في العذاب والقيد والفتنة، ثم لا تجد من هؤلاء المفتونين من يقول فيهم كلمة إنصاف، بل هم عليهم ضغثاً على إبالة، وشراً فوق شر.

هؤلاء قد ركنوا للباطل شيئاً كثيراً، بل هم اليوم الحصن الأكبر لهؤلاء المجرمين من الطواغيت، وفتنتهم للأمة أشد من فتنة العذاب والجوع والفقر، وهم أشد الناس إيلاماً لأهل الوعود القرآنية، وما من صاحب فتنة إلا وهو يتقي بهم، وهم الذين جعلوا للكافرين على المؤمنين سبيلاً في التفريق بين مسلم معتدل ومسلم متشدد، حتى صار المحافظ على صلاته وعرضه، وصاحب الإقتداء بالهدي الظاهر يوسم بهذه السمات القبيحة المنفرة، والعجب منهم أنهم هم كذلك يرطنون بهذه الجهالات في التفريق بين المسلمين، وذلك من خلال عرضهم أنفسهم لأعداء الدين ليقربوهم ويأذنون لهم بالعمل، لأنهم كما

يزعمون هم الأقدر على صد المجاهدين والعاملين لدين الله تعالى، فانظر إلى درجة من الحسنة قد أوبقوا أنفسهم فيها.

وقوله تعالى﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ إنما هذا يقع في النفس لشدة حيلة المجرمين وخبرتهم في هذا الباب ومكرهم الذي استمرؤوه، ومن خبر أمرهم عرض هذا، وكذلك لقبول مقدمات عروضهم، فإن المؤمن يرجو بقربه منهم أن يقتربوا من الحق، وهو لحسن ظنه لا يدري مكرهم وما خططوا له، وإن كان قد تعب من الطريق فلأن العرض يريحه من آلامها، وإن كان صاحب هوى يرضى بعروض الدنيا وجد هذا العرض فيه هواه، فهو عرض محيط بشره من كل الجوانب ولا ينجو منه إلا من كان على بصيرة من ربه.

وقوله تعالى﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

هو أشد ما يهدد به وينذر به نبي، عليهم الصلاة والسلام جميعاً، فإن عظم المعصية إنما تكون لأسباب غير مقامها بين المعاصي، كما يفرق بين الصغائر والكبائر، ولكن قد تعظم المعاصي لمعاني غير هذا، ومنه أن تصدر في مكان معظم مقدس كما قال تعالى عن البيت الحرام﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقد تعظم المعصية بسبب مقام صاحبها عند الله تعالى كما وقع مع يونس عليه السلام حيث قال الله عنه﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ،وتعظم المعصية إن نسبت لله تعالى إذ جعل الله أعظم المعاصي في الوجود هي القول عليه بغير علم كما في سورة الأعراف من قوله تعالى﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ،وهذا هنا في معنى ذلك، وهو نذارة للدعاة والمفتين والعاملين لدين الله تعالى، حيث يظن بهم الناظر أنهم يقولون ويفعلون ديناً، فإن ضلوا نسب الناس هذا الضلال لله تعالى، ولهذا جاء هذا الإنذار الإلهي لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يدل على مقام النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، وكذلك مقام التبليغ عنه جل في علاه فالله يقول له: لو وقع منك هذا الميل القليل

لعذبناك ضعف عذاب الحياة الدنيا يعذب العصارة، وضعف عذاب الآخرة مما يعذب أهلها يوم القيامة، هذا مع ما تقدم من النية الصالحة لرسول الله وحبيب رب العالمين بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

ومما تعنيه هذه الآية –والله أعلم– أن المرء يبتغي في معصيته معنى وهو الشهوة واللذة، ولكن هذه المعصية إن كان فيها هذا المعنى من راحة النفس ورغبتها إلا أن فيها معصية أخرى وهي القول على الله سبحانه وتعالى ولذلك استحقت عذابين من الله تعالى، وهي تعني كذلك أن مبتغاك فيما أملت من الركون لهم والميل إلى طلبهم لن يحصل، بل سيكون العذاب، ولن تجني شيئاً مما أملت وظننت، وواقع المفتونين بالركون للمجرمين يدل على هذا، فهم على هذا الحال سنين طويلة، يبتسم لهم الطاغوت فينشرحون ويظنون أن الأمر قد دنا واقترب، ثم يكشر لهم عن أنيابه فتضيق نفوسهم ويعذبون، والمجاهدون والصادعون بالحق يموتون موتة واحدة، وهم في هذا على مقام قوله تعالى﴿**إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ ،لكن هؤلاء المفتونين هم الذين يتألمون، وخصوم الحق والطواغيت ينامون منهم باطمئنان وأمان، فالحبل الذي في أعناقهم في أيديهم، هم يطلقونه إن شاؤوا وهم يشدونه كذلك، ومن رأى حال هؤلاء المفتونين على ما هم عليه من لاعذاب حين يشد الحبل عليهم، أو يهددوا وينذروا، فلا مقام لهم في هذه الدنيا إلا الألم، وهو مقام أهل الهوان، وأما مقام المجاهدين فهو الألم والإيلام، وهو مقام الأنبياء وأتباعهم ومقام من قال الله فيهم﴿**فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾.

إن هذا هو حال كل من ركن إلى شيء من الدنيا حيث يعذب به مرات ومرات، ويذوق ألمه كلما جاء أو ذهب، ولن يعيش حق العيش عزيزاً إلا من انتصر بالله، حتى وهو في البلاء.

وقوله تعالى﴿**ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ قلب فيها نظرك، وتأمل فيها حق التأمل تعلم أنها بشرى النّصر المرتقب كما حدثتك من قبل، فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبته الله، وأعرض عن كل عروضهم ومساومتهم، فالنتيجة إذاً هي النصر، كالصاعد إلى القمة يتألم ويعاني، ويعرض عن كل عروض الباطل ثم إذا انتهى قابلته هذه الآية وهي تقول له بمعناها:– الآن لك عندنا النصر، وأنت أهل له، ولو ملت إليهم لكنت منهم

ولن ينصرك أحد من عذابنا، والآن وقد بلغت هنا بثبات فلن يمنع أحد نصرنا عنك، وهذا تراه بيناً في قوله﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ** ﴾ ،فجاء نصر الهجرة إلى أرض التمكين والعزة.

ثم تفكر في هذه الآية لتعلم أن الثبات على الحق هو النصر، وأن الميل عنه هو الخذلان من الله ولو صرت خليلاً لكل طواغيت الأرض، فما كان يعيشه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثبات كان مع كل آلام الطريق وابتلاءاتها إنما هو النصر، فهو يحتف به ويحيطه، إذ كل لحظة ثبات هي نصر حقيقي وخطوة إلى النصر النهائي الآتي بالتمكين، ولذلك لم يكن هذا الزمن تأخراً عن النصر، بل كان سيراً له، وأما المفتونون فهم الواهمون أن التقاطهم الحب والفتات الملقى لهم شيئاً، فخاب رجاهم وعاشوا في العذاب تلو العذاب، وطالت بهم الطريق، وهم من نكوص إلى نكوص، ولا يحصل لهم المسير إلى الأمام إلا عندما تشتد المحن عليهم، ويضيق الطاغوت عليهم سبلهم فيرفعون حينها رايات الجهاد، واستحضار معاني الإبتلاء والصبر، لكنها للأسف شعارات مرحلية لا تلبث إلا أن تزول بعد أن يهش في وجوههم، ويعود الطاغوت إلى إلقاء الحب والفتات، فيعودون لما نهوا عنه من قبل، ولم تفدهم التجارب شيئاً.

واعلم أن واقع هذه الآية من حياة النبي صلى الله عليه وسلم يدل على البلاء والامتحان الذي يعيشهما هو وأصحابه، وأصحابه رضي الله عنهم يسألونه الدعاء بأن ينتصر لهم، ويصرف عنهم شر قومهم المشركين، وفي هذا البلاء كان هناك أمر ظاهر وأمر خفي، فأما الظاهر فهو اليد الممدودة من الأعداء بأن يعطيهم بعض مطالبهم، ويحقق لهم ولو خطوة نحوهم تحقق اللقاء الذي سيتحول إلى خلة ومحبة ورضى، فيرفع البلاء، وأما الأمر الخفي فهو النصر الإلهي المحفوف بهم، وهو نصر مستور بالبلاء والألم والمحن، فهذا واقع مدافعة بين غيب وشهود، وفقه القرآن أن تنحاز للغيب، وتترفع عن عروض الشهادة الحاضرة المرئية، وأما فقه القائلون بأن المصالح مشهودة وحاضرة، فأقبل عليها وتعلل بها، لأن هذا من الحزم والتقاط الفرص، ودع الغيب لرجاله الآتين، فإنما نحن أهل هذه المرحلة، ولكل مرحلة رجالها، ففي الضعف نقبل هذه العروض، وهو من باب التيسير على الناس، ودرء المفاسد، فإن تغير الحال في زمن آت، وصرنا إلى غير ما نحن فيه أعرضنا عنها، ولم نقبلها، فهذا هو فقههم، ولم يعلموا أن الزمن المرجو لن يكون مع هذا السقوط، وإن أتى فليسوا هم رجاله، إنما رجاله الذين كفروا

بعروض الحاضر الذليلة، وصبروا، فهؤلاء من يتحقق بهم الوعد المستور بالبلاء، وأما من هرب من البلاء بهذا العذر فسيهرب منه الوعد ولن يكون من أهله.

إن هذا الحزم والذكاء الذي يزعمه المعاصرون في قبولهم العروض المرحلية، والتخلي عن قيم الإسلام بأن يكون الدين كله، والقبول بالمشاركة والوجود دون الوراثة والنصر والتمكين، هي عين الفتنة المهلكة كما يسميها القرآن، وهي سبب العذاب في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** ﴾

مضى عرض الفتنة ووعد الخلة والقرب وترك العداء، وثبت الرسول صلى الله عليه وسلم بتثبيت الله تعالى له، وجاء عرض المحنة والبلاء، ونزل منهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم كالجبال الثقال، وكان من عروضهم فيما بين أنفسهم أن يخرج عنهم كما قال تعالى﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ﴾ وكذلك كان من فعلهم أن اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج مهاجراً إلى المدينة التي تنورت بقدومه عليها، فقد فشلت محاولة الفتنة، وتحققت هذه المحاولة، وهي وإن كانت بعض مرادهم، أو هي من ضمن اختيارهم إلا أنها كانت نصراً من الله تعالى كما قال سبحانه﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ وهكذا كان مرادهم داخلاً في قدر الله في تحقيق النصر، وهذا ما تحقق مع موسى عليه السلام، وحوادث التاريخ في هذا الباب كثيرة، حيث يظن الخصم أنه حقق في عدوه المراد، ويكون هذا المراد هو قدر الله في صعود هذا الخصم وتحقق الغلبة له، وهذا من تمام مكر الله تعالى بأعدائه، حيث يسيرون إلى مستقرهم بأيديهم واختيارهم كما قال سبحانه عن أموالهم﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ ،وبعض من يجهل هذه السنة يذهب متهماً الدعاة والمجاهدين أنهم أداة بيد الكفرة، فيسبغ عليهم صفات الجهل السياسي، وعدم إدراك خطط الجاهليةن وهذا قد يكون له وقائع صحيحة تشهد له، لكن تحقق النصر الإلهي من خلال مكر الأعداء قدر يكاد يكون مضطرداً، وهو أمر يحتاج إلى تفكر وإعمال الشرع، فإن إعمال الحكم الشرعي، وطاعة الله

على وجه الإخلاص هو الذي يحققه ويؤتي ثماره إلى صالح الإسلام وأهله، وهذا كما تراه ليس تحالفاً مع الجاهلية، ولا التقاءً معها على وجه الإتفاق والمقايضة، بل ينشأ من خلال استقلال الإرادة في تحقيق الخير والأفضل للإسلام وأهله، فيكون التقاءً قدرياً مع مراد عدو مقابل، تحقيقاً لسنة المدافعة، فحينئذ يتحقق النصر المرجو لأهل الإسلام.

وبالجمع بين هذه الآية قوله تعالى﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾، وما تقدم من القول فيها تعلم معنى قوله تعالى﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ،فليس هو الإستئصال بالعذاب، إنما هو بالوراثة والإستخلاف، وهذا ما وقعن وهو ما فسره به ابن كثير حيث جعل معناها قد تحقق في معركة بدر الكبرى، وستعلم بعد قليل أن هذا الخروج من مكة قد سماه الله تعالى مخرج صدق، وأن الدخول للمدينة هو مدخل صدق.

وبهذا تعلم أن عرض المحنة هو عرض النصر، مهما بدا في ظاهره أنه مؤلم ومرهق، ومهما ظن الظان أنه لن ينقضي وسيدوم، فإن هذا هو شأن النصر الإلهي، فيه ابتلاء صدق الإيمان، وفيه محنة التصديق بالوعيد، حيث يتخفى الوعد بالبلاء والمحن، فيكون النصر محتفاً بالمرء ما دام سالكاً سبيل الصدع بالحق ومواجهة الباطلن فإن هادن أو داهن أو ستر رجاء ارتفاع المحن فقد تخلى عنه النصر وحق الوعيد، وذهب الوعد.

وقوله تعالى﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هكذا هي كل متع الحياة، وهكذا هي كل أيام الإبتلاء، مهما طالت فهي في الدهر قليل، ومانع إدراك هذا القليل هو الإستعجال، والمرء لا يعد أيام نعيمه مهما طالت، لكنه لما ركب فيه من الضعف يعد أيام بؤسه، فيظنها طويلة وكأنها غير مقضية، حتى إذا ذهبت صارت كأنها الحلم الذي كان للحظة ثم انقضى، وهذا يدركه من عاش هذا الأمر وعاناهن واللحظة الراهنة لحظة قلقلة، يسقط فيها الكثيرون حيث تخدعهم أنها غير مقضية، وأنها للأبد، ولو تفكر المرء بسنة اليسر بعد العسر، والنجاة بعد البلاء، والفرج بعد الشدة لهان عليه الأمر، بل لو علم أن ما أعده الله لأه البلاء لفرح بما يقع عليه، فكيف إذا زاد عليه بأن يعلم أن الله سيهلك عدوه، وأن هذا البلاء واحتساب أجره عند الله مما يحقق الحجة على العصارة والكفرة المجرمين ليكون عذاب الله تعالى عليهم بيناً شديداً.

وقوله تعالى﴿ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ وذلك أنه لم يخرج قوم رسولهم حتى نزل عليهم العذاب، وهذا العذاب يكون مناسباً بما تحقق من غزوات النبي صلى الله عليه ولم، وهي سنة ماضية ليوم القيامة، حيث لا

يعادى الدعاة إلى الله، ولا يعادى أهل الحق إلا وسلط الله عليهم من العذاب، ودارسو نشوء الأمم وسقوطها لا ينظرون في هذا الباب ولا يعلنونه، ومنه أخذ الحديث القدسي((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)) ،والنظر إلى عالم الشهادة دون عالم الغيب مفسد للنظر والبحث، فإن الدعاء والإستغفار والإنابة إلى الله لها آثارها في عالم الوجود، ولا تدرك هذه الآثار إلا من جهة الوحي، ولذلك لا ينبغي لأهل البحث في هذا الباب أن يقعوا في أسر التفسير المادي للتاريخ، ومن آثار هذه الأسر أن يغفل أثر الإيمان وأعماله في تحقيق النصر ومقاصد الدين، لكن كذلك يجب الحذر من التفسير الغنوصي للتاريخ، وهو تفسير الصوفية وأشباههم ممن يجعلون لنفوس بعض الأشخاص آثاراً في لوجود، فإن الله قال سبحانه﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ،والناس اليوم على فرقتين في هذا الباب، والسعيد من أجرى الأمور على وجه السنن وتعلم من الشرع أثر الطاعة والمعصية في الوجود، دون إخلال بسنن الله في التكوين والقدر.

وتفكرك في هذه الآية وكيف جرت على أرض الواقع من ذهاب سلطان قريش تباعاً حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وآلت إلى دار اسلام يعلمك أن السنن ثابتة لكن صور وقوعها ليس على وجه واحد، وتفكر في قوله تعالى في سورة التوبة عند ذكر حنين فإن الله بعد أن ذكر نصره لرسوله صلى الله عليه وسلم وإنزال الملائكة وما جرى من تعذيب الكافرين قال عقبها﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهي كما قال أهل التفسير وكما بين الواقع كانت في إسلام هوازن، فكان هذا صورة من صور تحقق النصر بسبب الثبات على الحق والصبر على البلاء، فلا تظن أن باب النصر محصور في صورة من الصور تغلب على ذهنك فتبحث عنها في واقعة فلا تجدها، فإن الثبات على الحق هو نصر بذاته، وهو وسيلة لنصر متعدد يوقعه الله بإرادته، ولعل هذا الوهم هو الذي يجعل البعض يشك في هذا الطريق حيث يلتفت إلى النصر كما يتخيله فلا يجده، فيذهب متحيراً في البحث عن سبل أخرى غير سبيل الحق، ثم يلتفت حوله، فيرى أن الأغيار قد حصل لهم بعض العاجلة، ولو علم أن الصبر على الحق هو النصر، وأن النصر لو صور متعددة في القرآن الكريم وغيرها في التاريخ والوقائع لازداد ثباتاً على الحق وصبراً على البلاء، فلا تغفل عن هذا فتكون هذه الغفلة سبباً لدخول الشيطان عليك كما دخل كثيرين قبلك.

قوله تعالى﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

هذه عدّة الصابرين، وهي محطات تقوية الثبات، حيث تعرف نوع الصبغة التي ينبغي أن تعرف بها، وعماد الشخصية التي تحقق مراد الله تعالى، فأنت عبد لله سلوكك كله، وفي سعيك كله، ولن يتحقق لك هذا المعنى إلا بالإخبات والإنابة، ورأس أعمال الطاعات والعبودية إنما هو الصلاة، فجاء هذا الأمر بها في بيان أوقاتها، فالصلاة كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم كالنهر الجاري يغتسل المرء فيه في كل خمس مرات، والذنوب هي الثقل على النفس والعقل والقلب، فهي حاجبة الرحمة، ومانعة الفهم، ومعطلة الإرادة، وحين تحمى وتسقط يصبح المرء نشيطاً طيب النفس، ذاهباً إلى الحق من غير ثقل، داعياً للأمر من غير عي، وهي الأمر التي أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركه كفر.

هذه الآية هي سادس آية في القرآن يذكر فيها مواقيت الصلاة فيما أعلم:-

- ففي سورة هود قوله تعالى﴿ **وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**﴾
- وفي سورة الروم قوله تعالى﴿ **وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون**﴾
- وفي سورة النور قوله تعالى﴿ **ومن بعد صلاة العشاء**﴾ وقوله﴿ **ومن قبل صلاة الفجر**﴾
- وفي سورة ق قوله تعالى﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ**﴾
- وفي طه﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ**﴾.

وهذه الأوقات التي عناها الله بقوله في سورة الفرقان﴿**ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾

وهذه الآيات غير آية سورة النور كلها مكية وتحتوي على خمس صلوات لمن تأملها، وهي تحقيق لقوله تعالى﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا** ﴾ ،ومن أجل يسير من البسط أذكر لك وجه الدلالة على ما تقدم من تفصيل الأوقات في هذه الآيات:-

- فالآية من سورة الإسراء بدأ الله فيها بصلاة الظهر وهي قوله تعالى﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ ،وهو أقوى الأقوال، وحديث جبريل عليه السلام في المواقيت بدئ فيه بصلاة الظهر كهذه الآية فانظر إليه في مظانه إذ هو أصل المواقيت، ثم أجملت الصلوات الأخرى في الفجر بقوله﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ وغسقه هو ظلامه، فتكون أربع صلوات مذكورة في ابتدائها إلى نهايتها، ثم خصت الفجر للذكر لطول القيام ولشهود الملائكة لها كما في الأحاديث ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه((تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر)) وهو في الصحيحين، هذا من جهة فضلها، وأما من جهة وقتها فهي طرف عن بقية الصلوات المذكورة في الآية.

وذكر الطرفين في هذه الآية لا يعني صلاتين فقط كما يحتج بذلك أهل البدع، بل قد ذكر امتداد الصلاة بين طرفين فلا يمنع من وجود صلاة بينهما، إذ الآية هي: أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، ولم يقل: أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل.

وأما الآية في سورة هود فقد بدأت بصلاة الفجر في قوله﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ والطرف الآخر هو المغرب، فدخل فيها الظهر والعصر، وقال آخرون إن الطرف الآخر هو العصر، فكون الظهر داخلة بينهما، وقوله تعالى﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ إنما هو المغرب والعشاءن إن كان القول الثاني في الطرف الثاني هو العصر لا المغرب وأما الآية في سورة طه فقوله تعالى﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ هو الفجر، وقبل غروبها هو العصر، وهذا ما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي أنه قال((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوه، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية)).

وقوله تعالى﴿وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ﴾ أي المغرب والعشاء، وقيل المقصود بآناء الليل هو قيامه.

- وأما الآية في سورة ق فهي على وفق ما في سورة طه إلا ما ذكر في طه من أطراف النهار.
- وأما الآية في سورة الروم، فقد ذكر التسبيح في العشي وهو الظلام، وذكر التسبيح﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾

فأنت ترى أن الفجر قد ذكر في الإسراء وهود وطه والنور، وذكر الظهر في الروم والإسراءن والعصر في هود وطه، والمغرب في الروم وهود والعشاء في الإسراء، وذكر مستقلاً في النور والحمد لله رب العالمين، فلا تلتفت إلى أهل البدع والضلالة المشككين في الصوات الخمس وجعلها ثلاثة على الدوام حيث يجمعون بلا عذر المغرب والعشاء، والظهر والعصر، فتمضي حياتهم رداً وإعراضاً عن قوله تعالى﴿**إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا** ﴾ ،والأحاديث لمن كان من أتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم مفسرة ومفصلة للمواقيت خير تفسير وتفصيل.

قوله تعالى﴿ **وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا** ﴾

وهذه يفسرها قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)) فقد مضى ذكر الصلوات المفروضة على وجه الأمر، ولكن هنا لما ذكر النفل والتطوع ذكر فضله وما يبلغه فاعله من المنزلة،وهي هنا خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذكر المقام المحمود، والتهجد على الصحيح هو ما يكون بعد نوم، وهو خير القيام وما جرت به سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد تقدم مقام قوله تعالى﴿**عَسَىٰٓ**﴾ هنا، فهي واجبة، ولكن تقدم ارتباطها بالعمل والشرط، والرسول أحق بها وأهلها، فقد قام حتى تفرت قدماه، وهو في مقام الشكر لا مقام الإستغفار بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى يوم القيامة، فهو صاحبها، وهو مقام لا يبلغه أحد من الأنبياء، وقد جاء في الأحاديث كيف يعتذر عنها الأنبياء ثم يقدم لها إمامهم صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر في غير هذا الموطن مقام التهج وقيام الليل وأثره في حياة الداعي، إذ هو الحصن الذي يحقق التفكر في كتاب الله تعالى، حتى قيل: لا يحفظ كتاب الله من لا يقوم الليل، وهو دأب الصالحين وسمتهم، إذ لا يعرف عن مصلح ومجدد سبق إلا وله من الليل نصيب يخلو فيه مع ربه ودعائه وقراءته، والتنويه بقيام الليل إنما جاء

كثيراً في السور المكية كهذه السورة وغيرها كالإنسان والمزمل والفرقان، وقد جاء في كل موطن من هذه المواطن على معنى من المدح والأثر، فقد ذكرت هنا قرينة لحصول المقام المحمود، وذكرت في سورة المزمل لتعين في شؤون الدعوة والصبر عليها في النهار، وجاءت في سورة الفرقان باعتبارها صفة من صفات عباد الرحمن، وهكذا فإن المرء ليكاد يجزم أن إدراك المعاني للقرآن في شأن دعوته وجهاده لا يكاد يتحقق إلا بقيام الليل، وإن الصبر على البلاء والمحن ليس له معين مثل قيام الليل.

ثمّ ها هنا تراه في هذه الورة بين مقام الإبتلاء في الشبهات، والإبتلاء في المحن والألم، وبين مقام الوعد في الآخرة والوعد في الدنيا كما في الآية التالية كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وبهذا تعلم أن الوعود الربانية لا تتحقق إلا على سمت من الإنتصاب بين يديه، وعلى رجال يخلون إليه في جوف الليل كما يخلو الخليل إلى خليله، وهذا ما تكاد تغيب معالمه وفهمه من نفوس الناس إلا قليلاً ممن هم حملة للعلم والدين والجهاد، ولقد خبرت أكثر الطرق وأهلها، وكان لي شغف بمعرفة شؤون أهلها، وأخبار عبادتهم وأعمالهم فوالله رب العزة والجلال ما رأيت على هذه السمت وهذا المعنى إلا هؤلاء الشعث الغبر، إذ أكاد أجزم أن كبراءهم وقادتهم هم أنقى من قواعدهم، وأعبد من مرؤوسهم، وذلك بخلاف ما خبرت من الطرق الأخرى، إذ تجد الأمور معكوسة، فحيث قلت مرتبة المرء فيهم كان فيه سمت التعبد والحرص على الصالحات، وحيث ارتفعت مرتبته في طائفته قلت عنايته في هذا الباب إلا القليل القليل، وهذا يعطيك شيئاً من الأمارات في نوع الرجال وأثر مناهج طوائفهم عليهم.

قوله تعالى﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾

وهكذا بدأت معالم النور بالنصر تلوح، وأفق التمكين تزهر، إذ تكاد تنتهي فترة الرحلة الأولى، رحلة الصبر والبلاء فقط، ورحلة تمكين اليقين على الوعود، ورحلة الثبات على المبادئ أمام التهديد والترغيب، وأهلت تباشير الفرج بالهجرة كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا**

نَّصِيرًا ﴾ ،فهو دعاء الوقوف على أعتاب الرحلة الجديدة كدعاء موسى لما وضع قدمه على أعتاب الرحلة إلى مدين فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ لكن شتان بين معنى هذا ومعنى هذا، فهذا مدخل الصدق ومخرج الصدق الذي يتحقق به النصر والسلطان، ومقام موسى عليه السلام هو مقام تحقق فيه قول الرجل الصالح: ﴿ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

والقرآن إذ يسمي المدينة مدخل صدق، لأنها أرض الأنصار، والأرض التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ((المحيا محياكم والمات مماتكم، والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار)) ،كذلك مكة تسمى مخرج الصدق، فسيزول عنها الشرك، وستعود أرض إسلام كما خط ابراهيم عليه السلام أول أمرها ومعه ابنه اسماعيل عليه السلام، فهو وعد إلهي يتأكد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيزول الشرك ويدخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً وللخروج مخرج صدق معنى آخر سيأتي، ولما كان هذا كله لا يتم إلا بالسلطان، ولا يقع إلا بنصير من الله تعالى فإنه سيكون لك، بل قد قال الحسن البصري: إنه وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم، وهكذا سيمتد النصر بعد الصبر، وستتحقق الوعود بعد مقدماتها.

ومجيء هذه الوعود على صيغة الدعاء له معاني عظيمة، منها أن هذه الوعود هي عطايا ومنن ربانية، وتعطى على جهة المن، فلست أنت إلا أدواتها، تصبر وتتيقن فيملأ الله يديك بها، فإن وقعت علمت أن الله عز وجل ربهان وأن الحمد له في الأولى حيث علمك وصبرك وثبتك، وأن الحمد له في الآخرة حيث أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، فأنت في كل مقام تحت عين الله، فهو راعيك، فأدم الإستعانة به، والمراقبة له.

وهذه سيرة الدعوة، وسيرة العمل مع الله فهي محفوفة بالدعاء من أولها، وفي كل مراحلها، لا يسير فيها العبد مزهواً أنه فيه شيء، أو منه شيء، بل كل خير من الله تعالى، لأن هذه دعوة الله، وهذا دينه، وإنما يعز المرء وينصر لأنه يقترن بالعزيز.

ثم إن وقوع الوعد على صيغة الدعاء يعلمك أن هذا الأمر دين، وأن مسيرة الداعي فيه هي عبادة محضة، يراقب المرء فيها ربه كما يراقبه في صلواته ونسكه، ولا يقول أهل الجهالة إن هذا أمر لا دخل للدين فيه، وليس

هو من سبيل القرآن ولا من فقهه، فيذهبون ذات اليمين وذات الشمال بعيداً عن صراط الله وعن هدي القرآن وعن سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكذلك يعلمك حقيقة الدعاء المستجاب، فإن الدعاء ليس كسلاً، ولا سبيل أهل البطالة، فتحقق الإستجابة أن تكون على طريق ما تدعو ربك به، وأن تسلك سبيله، وأن تعمل عمله، وإلا فأنت من أهل العدوان في الدعاء، والله عز وجل لا يقبل دعاء المعتدين، فما تراه من دعاء أهل المساجد بنصر الإسلام وخزي الكافرين إنما أغلبه على هذا الحال، ثم يتساءلون لِمَ لَمْ يُجب دعاؤنا؟ والعيب منهم، وفي صنيعهم، فإن الوعد هنا مجيؤه على صيغة الدعاء يدلك أن الإجابة يقيناً واقعه، فهي على معنى ما تقدم من كلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ ،وهذا حال الصحابة مع الدعاء، حتى لو قالوا: لم نشغل بهمّ الإجابة إنما شغلنا بهمّ الدعاء، وقصدهم حيث وقع الدعاء وقعت الإجابة، لكن لكل عمل شروط، فإن غابت فهو كالمفقود سواء، أي كأن لم يكن.

وقوله تعالى﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يدلك على أن مدخل الصدق بالنصر لا يكون حتى يكون المخرج كذلك مخرج صدق، فإن تذكر قصة يونس عليه السلام لما خرج من قريته على معنى ما قال الله تعالى﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فكان من أمره ما تعلمه من كتاب الله تعالى حتى قال تعالى﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ،فإن المرء لا يخرج خروج المبغض لما عليه من العمل، فيكون الخروج منه تخلصاً وتركاً للواجب من أدء دين الله تعالى، فهذا خروج مبطل تعب يائس، وهو خروج باطل وليس خروج الصدق، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة لم تكن تخففاً من تكليف تعب منه، ولا تركاً لواجب أو رهق نفسه، بل هو فراغ من أمر وقيام بآخر كما قال تعالى له﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ فكان خروج الصدق بعد أداء الأمانة والصبر عليها، ثم الدخول مع هذه الأمانة في طريق المدخل الجديد من الجهاد وتبليغ دين الله وإقامة حكم الله.

واعلم أن مخرج الصدق لا يكون كذلك حتى يتم أمره زمناً وقدراً، فإن استعجل قضاؤه كان كالحمل الكاذب كما يسمونه، لا ينتهي أمره إلى مدخل صدق، بل إلى سقط ميت لا حياة فيه، هذا يعلمك أن لكل أجل كتاب يجب عليه أن تستوفيه ولا تستعجله، فإن الدعاء لا يستجاب حتى يأتي قدره الملائم له، وهذا يحتاج إلى

تدبير الكون كله له، لكن لضعف الإنسان وقلة علمه بجريان المقادير وسننها فإنه يظن أن مجرد وجود الشيء يمكن تحققه حتى لو لم يكن الظرف القدري ملائم له، وهذا إن وقع فلن يكون إلا عدماً لا فائدة فيه، فانظر كيف دبر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الكون كله، وجرت الأمور في فارس والروم والميدنة، إذ كلها يجري ليتحقق الوعد ومخرج الصدق ومدخل الصدق، فلم تكن تلك السنون الماضية بلا تدبير، ولم تكن لتمضي لمجرد جريان الزمان، لكنها كانت تجري بأقدارها ليتحقق الظرف الذي يقع فيه الوعد على معنى الحياة والبقاء والنصر، فالله عز وجل قادر أن يهدي أهل المدينة من السنة الأولى للبعثة، لكن جرت سنته أن يقضي على رؤوس الكفر في يثرب من الأوس والخزرج في معركة بعاث، فذهبوا ولم يبق إلا الفتيان، وهم عصبة الحق، ومعدن قبوله ورجاله كما قال الله تعالى لموسى﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾ ،فهم الذريةن وهم من استجاب لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ها هي الأمور تجري في علم الله، وفي سر عن الداعي نفسه في فارس والروم على أقدار لو تأملها الناس بعد انتصار الدين لعلموا أنها تدبير إلهي ليتوافق مع الزمن الذي يتحقق فيه المخرج والمدخل، فيصح عليها قوله جل في علاه وصف الصدق، وهذا هو شأن تدبير الله مع أنبيائه وأوليائه، فتفكر في قصة يوسف عليه السلا، كيف جرى بها القدر إلى مستقرها ليتحقق الوعد الإلهي ليوسف عليه السلام في تأويل رؤياه، وأبوه يعقوب عليه السلام قد أدرك منذ أن وقع الأمر أنه يحتاج غلى الصبر الجميل فقال كلمته العظيمة﴿ فَصَبۡرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثمّ لما بانت علائم الفرج والإجتماع قال كلمته الأخرى﴿ فَصَبۡرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ فهكذا مضى الأمر في أوله على الصبر وحده مع الإستعانة على ظلم الظالمين، ولما كاد ينقضي مضى على الدعاء بتحثث الوعد في الإجتماع، فهل تظن أن يعقوب عليه السلام لم يكن يدعو ربه منذ أول يوم من فقدان يوسف عليه السلام أن يعيده؟! إن شئت أن تعلم الجواب فانظر إلى قوله تعالى فيه﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ،فهو دعاء متواصل منذ أول لحظة، لكن لكل أجل كتاب، وهو كتاب للعبّاد والصالحين والمجاهدين كتاب جميلن لأن عاقبته هي النصر والتأييد واليسر وبلوغ المآرب، وهو على غيرهم وإن مضى مع السنين على لهو وفرح لكن عاقبته الشر عليهم وعلى سلطانهم.

إنه الدعاء المستمر طوال هذه السنين بيقين أنّه سيحققه مهما طال فإنه كما قال يعقوب عليه السلام ﴿ **يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ** ﴾.

هكذا يتحقق مدخل الصدق حين يكون قدره الملائم له بالنصر، وهكذا يتحقق فرج الصدق بعد أن يبلغ الكتاب أجله، لتقع الأقدار كما يدبرها الله لعباده المؤمنين، فلا استعجال قبل الأوان، ولا يأس مع طول الطريق، ولا سؤال التكذيب: أين الوعود؟ فما عليك أن تسير مع الطاعة على أي وجه كانت، أفي الصبر في القيد في الشّعب أم في المسير راجياً أن تكون الهجرة إلى الطائف أم إلى غيرها، وحين تلتقي الوعود مع أقدارها تكون الموافقة، فهذا هو الصدق الذي يتحقق به النفع والبقاء.

فإن فلت كيف يكون مخرج صدق وقد أخرج صلى الله عليه وسلم من مكة، فيقال لك:- هكذا تقع أفعال الأعداء على معنى النصر للمؤمنين، وهكذا يظن الخصوم أنهم يجرون فيك مرادهم، وإنما هم يجرون تدبير الله لك في النصر، فهذا موسى عليه السلام خرج خائفاً يترقب كما قال تعالى عنه، ثم كان في خروجه الذي التجأ إليه التجاءً مخافة القتل أن حصل له ما قال هو عليه السلام من قوله تعالى﴿ **فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ** ﴾ وهذا يوسف عليه السلام يبعده اخوانه عن أبيه ليحصل لهم ما قالوا﴿ **يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ** ﴾ ،فكان في خروجه ما قال الله﴿ **وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ** ﴾ وليتحقق ما قال الله عنه﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ** ﴾، فهذا هو مخرج الصدق الذي يتحقق من تدبير الله تعالى، حتى لو كان صورته الظاهرة من مكر الأعداء، ثم إن الله تعالى سمى المدخل قبل المخرج، وكل مدخل يتحقق فيه المراد مع الطاعة يكون المخرج الذي أدى إليه حسناً كما قال تعالى﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ** ﴾.

وقوله تعالى﴿ **وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا** ﴾ فقد أطلق السلطان النصير ليعم، فقد كان معه هذا في كل أمره صلى الله عليه وسلم في هجرته، وفي أرض هجرته حيث تحقق له الأنصار، وهم أعظم النصر والسلطان، فبهم تحقق نصر الدين وتحقيق الأمان له.

قوله تعالى﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

هكذا تنصب الوعود حين يصل الأمر إلى مستقره، بعد مرحلة الإبتلاء والصبر، فهجرة وتمكين، ثم فتح للأرض التي أخرجتك، فسيزول الباطل، وسيحق الحق كلمته فيها، فلا يكون فيها إلا كلمة الله تعالى.

هذا وقد مضى أمر الهجرة على صيغة الدعاء لأنها بداية رحلة جديدة، وجاء هذا الوعد على صيغة التقرير والإعلان، لأنها ستكون بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمة الرحلة كما قال تعالى﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ ،وهذا ما سيتحقق عندما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وهو يقول﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ،وهو وعد خبيء السنين بعد الهجرة، لكنه يعلن به كأنه اليوم، فإنه إذا حصل شرط الوعد لم يكن للوعد مانع إلا وقوع الزمن المقدر له عند الله، فقد فتحت مكة بمجرد الهجرة، وكان كل فعل بعدها حجراً يرسى ليحقق كمال الفتح بانهيار جدر الباطل كلها.

وإن سأل سائل: ألم يكن الحق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وهو يدعو قريش له، فَلِمَ لَمْ يكن يزهق الباطل بالحق الذي معه؟ فيقال لك:- إن الحق لا يكتمل له هذا الوصف حتى يكون معه ما تقدم من قوله تعالى﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ ،فهذا هو الحق في وصفه الكامل، وإن كان خالياً عن ذلك لم يتحقق للصواب قوته في إزالة الباطل، فإن الباطل ليس فكراً مجرداً في العقول والقلوب، بل هو مجسد في واقع له جنوده وممالكه وسلطانه، ومثل هذا الباطل لا يزيله دعوة بالكلمات فقط، حتى لو كانت هذه الكلمات هي كلمات الأنبياء، بل لابدّ لإزالته من مكافئ له؛ أي سلطان وجنود وقوة، فهذا هو الحق إن جاء زهق الباطل، فإن خلا الحق عن هذا الأمر لم يكن فيه قوة الإزهاق، ولا سلطان الإذهاب، والباطل وإن كان زهوقاً ذاهباً لا روح له إلا أن ظلمته لا تزول إلا بمعادل له في قوته، لأن هذا هو سنن الوجود، وقواعد المدافعة بينهما، فالنصر ليس في كون الحق معلوماً، ولا في كون الحق ظاهراً في ساحات البيان والدعوة والمناظرة، لكن مجيء الحق الذي يزهق الباطل أن يكون له عدة النصر الملائمة لسنن القدر والخلق.

ولذلك فالحق هنا في هذه الآية ليس بمعناه العلمي فقط، لكن بمعناه العلمي المحتف بالجيوش والرجال والأنصار، وبالحق الذي ركن إلى أرض تنصره وتحميه وتؤيده، وواقع السيرة النبوية يؤيد هذا ويبينه، فما أبعد الناس عن كتاب الله تعالى إن لم يقرؤوه من غير معرفة وقائعه في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وحين تعلم هذا ترى كيف صار الحق رجالاً وسلاحاً، وكيف صار الباطل رجالاً وسلاحاً، فقد التصق وصف المعاني برجال وأرض ومال وقوة، ولم تعد مجرد مثل في النفوس والقلوب، فكان إزالة رجال الباطل وماله وسلاحه وأرضه هو إزالة للباطل في معناه القيمي، فإياك أن تقع في خداع المفرقين بين المعاني وسلاحها، كقول الجاهلين: تكلم عن الحق والباطل في أفقهما المعنوي، ولا تتعرض للرجال، إذ أن هذا هو أحد مساومات قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ذكره، فهي فتنة لا يجوز للداعي أن يسقط فيها، فمن الفقه الذي يؤدي إلى تصاعد المدافعة بين الحق والباطل ليتحقق النصر أن يسمى رجال الباطل، فإن ذكر ما هو الباطل كان هؤلاء الرجال هم الجواب، وكذلك الحق، فإن سئل عن الحق كان الرجال هم الجواب، وتعيينهما ليس من القول على الله بلا علم، بل إغفال التضييق سبيل إماتة الحق وضياع معالمه، فإن تاريخ الإسلام شاهد على هذا المعنى حيث كان في كل عصر رجال هم الحق، يعرف بهم حين تغزو الناس الفتن وتدلهم الظلمات، وهذا لا يقال له هنا كلمة علي المرتضى رضي الله عنه: يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، فإن هذا لا يقال في ما هو إسلام وكفر، ولا في ما هو إيمان وزندقة، بل هو في أمور أدنى من ذلك بكثير، ثمّ إن الحق بعد أن يعلمه المرء، ويعلم الباطل، فإنه يبحث عن رجالهما، فإن علم رجال كل فريق لم يعد متردداً في معاداة أهل الباطل والتصريح بهذه المعاداة، ولم يعد متردداً في مناظرة أهل الحق بأسمائهم وطوائفهم، أما إبقاء أمر الحق والباطل في عالم المعاني دون الواقع فهو سبيل لإماتة الحق وتحوله إلى مثل معنوية لا حقائق لها، وسبب هذا المنهج الباطل وكثرة الدعاة إليه هو سعيهم لتجنب البلاء والمواجهة، وهو أمر قد تبين لك من قبل فساده، وأما تسميته بالحكمة فهذا من الباطل الذي يتقنه أهل التبرير وإسباغ الشرع على كل شر تأتي به الأهواء.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ يدل على أن هذا أمره من حيث هو، لكن إنما يوجد لضعف أهل الحق وتخليهم عنه، فتنشأ للباطل صولةن وتقام له الجنود والممالك، ويحتف به زخرف القول وصرخات الشيطان،

فيهاب ويخشى منه، حتى ليخال الجاهل أن لا ذهاب له، وأن أمره مستقر، حتى إذا قام الموقنون بوعد الله تبين خواؤه، وأنه باطل لا روح له، فيذهب على ما وصف الله تعالى بقوله﴿**زَهُوقًا**﴾ ،فلم يعد إلا إلى غلافه بلا جوف، فيعلم الناس حينها أنّ ضخامته هواء.

قوله تعالى﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾

أما فهو ما يزيله الله تعالى من نفوس المؤمنين بكتابه من أمراض النفس والقلب عموماً، وأما نوع الأمراض هنا فالمناسب هو ما يكون في نفس المبتلى في سبيله من أمور تتعلق بواقع الحال، فالمبتلى ضعيف، وهو يرجو النجاة، وتغزو نفسه ملمات من خوف الباطل وبطشه، فتأتي الوعود القرآنية المتقدمة لتشفي كل هذا وتذهبه، إذ تأتي عزة الإيمان فتذهب ضعف الحال، ويزداد يقيناً على الوعود فيرقب النجاة بصبر ثبات، وتضمحل صورة الباطل أمام عينيه فلا تعود إلا زخارف وبهارج كاذبة، فيحصل الصبر واليقين، وهذا أعظم الشفاء، وهو المناسب لحال النازل هذا القرآن في هذا الظرف، هذا مع أن القرآن، وهو كلام الله تعالى هو شفاء لكل أمراض القلوب والنفوس، فليس هناك من شبهة في منازعة الحق إلا وهو راد عليها كما قال تعالى﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾، ولا من شهوة تعترض سبيل السالكين للحق إلا وهو مكشوفة ذاهبة.

وأما أنه رحمة للمؤمنين، فإن الوعود في الآجلة وفي العاجلة هي أعظم ما في هذا الكتاب من رحمة، ثما ما يحصل في القلب والنفس والبدن من معاني وآثار، وما يحصل في البدن من آثار عند سماعه وتلاوته هي من الرحمة التي تتنزل مع القرآن.

ثم إن الشفاء هو إزالة الداء وأسبابه، والرحمة هي ما يحصل بعد إزالة الداء من فضل وعطاء، فيحصل بهذا القرآن الدواء الغذاء، ولا يكون هذا إلا للمؤمنين، إذ هذا هو سمة كل دواء وغذاء، فلا يحصل الفائدة منهما إلا مع وجود المقابل الملائم لهما، فإن تنافرا لم يحصل آثارهما، وهذا القرآن لا تحصل آثاره إلا مع الإيمان وأما

مع غيره من الكافرين فهو على ما قال تعالى﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ،فليس لهم فيه دواء، بل هو عليهم عمى كما قال تعالى في سورة فصلت، ولا يزيدهم إلا رجساً فوق رجسهم كما قال تعالى في سورة التوبة.

وهذه الآية تدلك على أن البلاء لا يكشف، وأن النجاة لا تكون، إلا بالقرآن، وبهدي القرآن، فالذين يسعون لتحقيق العزة وإعادة التمكين ليس لهم إلا القرآن، فقد فصل هذا خير تفصيل، وإياك ورطانة القائلين بأن القرآن عمومات لا تكفي، أو أن الزمان قد تغير فلابدّ من تغير المعاني، فكل هذا من تلبيس الشياطين على الدعاة والعاملين، وكل ما تراه من عدم التوفيق، وذهاب الجهود، وانسداد الطرق إنما سببه ضلالة السبل التي سلكها هؤلاء، فلم توصلهم لا إلى شفاء الواقع، ولا إلى مدد القوة في إذهاب الباطل، لأن هذه الطرق ليست من القرآن في شيء ولا هي من هديه.

وتذكر أن شأن الشفاء لا يكون إلا بيناً، وليس عمومات يملؤها كل أحد بما يشتهي ويرى، ثم يزعم أن هذا هو الموافق لكتاب الله تعالى، فحصول هذا يدل على خلاف المراد من تحقيق الشفاء، ولذلك فأول الباب هو العلم؛ أي العلم بكتاب الله تعالى، والناس اليوم نشطوا لأخذ فقههم من الكتاب والسنة في مسائل الأحكام، وأقصد بالناس هم الأفراد الذين أرادوا تحقيق الهداية في حياتهم وسلوكهم، لكن تأمل كم هي العناية بكتاب الله تعالى في تحقيق إزالة الغربة وتحقيق النصر والتمكين، وكم هم الدارسون له على وجه التدبر من أجل شفاء هذا الواقع المرير، وإن من مرارته أن الناس قد قبلوا تجزأة الإجتهاد، وصاروا إلى هذا الأمر، ثم يريدون بعد ذلك أن يضبط فقه النصر والتمكين والدعوة والعمل لدين الله تعالى من لا بصر له إلا في بعض أبواب العلم الأخرى مما هي خارجة عن هذا الباب، وحال هؤلاء أنهم أبعد الناس عن واقع الأمة وواقع أعدائهان فلا يعرفون مراتب الوجود، بل إن أحدهم ليجهل كفر أبي جهل وأبي لهب المعاصرين له، ويسمي فرعون باسم أمير المؤمنين، ويرى أن الخارج عن دين فرعون وهامان وقارون هو المفسد في الأرض، فهو فقيه مسألة في العالم يظن أنها هي كل الحياو، وأن البصر بها كاف في تحقيق البصر في الوجود الكوني والحكم الشرعي، فهذه المرارة هي أشد ما وقع من تعطيل النظر في كتاب الله تعالى للخروج من الغربة التي نعيش.

ثمّ إن الشفاء يكون لما يعينه العامل من البلاء، والرحمة ما يحقق النصر على الأعداء، ففيه قوتان للعامل من هذا الباب، كما أنه شفاء لأعراض الطريق في السير إلى الله، ورحمة لتحقيق المزيد من الهدى كما قال تعالى﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ** ﴾ ،والمرء في هذه الدنيا بين واقع يحتاج غلى مجاهدته ومعالجته، وبين أمل يتطلع إليه ويرجوه، ففي القرآن تحقيق الطرق للوصول إلى هذين في كل باب من أبواب الوجود الإنساني، ثم اعلم أن لاشفاء لا يكون إلا بعد كشف المرض وبيان نوعه وأثره، وهذا يعلمك أن القرآن يهدي العامل لدين الله غلى معرفة أحكام الواقع وصفاته، ولذلك مما يتعلق من أحداث ورجال، ففي القرآن مرايا تكشف حقائق الناس كلهم، وتعرفك مراتبهم عند الله تعالى، فهذا على طريق خير، وهذا على طريق ضلال، وهذا على سبيل هدى، وآخر على سبيل غي، وإياك الدخول في سبيل الإصلاح دون أن تعرف هذه المراتب وحقائقها في القرآن والواقع، فإن هذه أول منزلة من منازل تحقيق الشفاء، وتركها يجعل السالك في هذا السبيل على طريق إفساد لا إصلاح، فهو زائد للظلمة لا كاشف لها، ولذلك من الواجب معرفة أحكام الناس، فتكفير الملحدين واجب من واجبات الدين، والتفريق بين الناس على أساس الدين والإيمان والإسلام هو سبيل القرآن، فتعلم فقه هذه المصطلحات من القرآن، وما هي شروطها وأركانها وواجباتها، ثم انظر إلى وقائعها في الأرض، حينها ستعرف أن فرعون وقارون وهامان ليسوا ماضياً لا حاضر له، وأن أباب لهب له أشباه وأمثال، وأن المنافقين في ازدياد، وأن المخذلين هم أعلى الناس صوتاً، وأن القائلين ﴿**لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ** ﴾ صاروا أصحاب عمائم ولحى وشارات علمية، وأن دعاة﴿ **هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ وهم من يخطب على المنابر ويرسم برسم الفقه، فإن أدركت هذا كما يجب علمت بعد ذلك من القرآن كيف تسلك سبيل الإصلاح، وعلمت أي السبل هي الحق التي تحقق رضى الله والنصر والتمكين، فلم تغرك بعد ذلك دعاوى الحكمة المزعومة الكاذبة، ولا شارات العلم المزورة، ولا تشقيات الألفاظ الجميلة الخادعة، بل تكون حينئذ صيرفي رجال ومال، تميز بين الغث والسمين، فهذا هو الفقه الذي يتحقق به الشفاء قبل وقوعك في المرض، وهو أعظم الشفاء، حين تتحقق فيك في زمن الفتن وغلبة الأهواء موانع اتباع الباطل، وشرائط اتباع الحق، فأنعم عيناً واحمد الله أن نجاك حيث كثر الهالكون وقل الناجحون.

إن أعظم شفاء يحققه الفرد أن يموت على الإيمان فيلحق بالجنان، وهو أعظم رحمة له كذلك، لكن أعظم شفاء للأمة هو أن تعيش في عزة ومهابة، وأن تحقق مراد الله في إقامة أحكام شرعه في الأرض وأن يقع قوله تعالى﴿ **وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ** ﴾، فانظر كيف قصر الناس الشفاء والرحمة على الأولى، وأكثروا فيه الكلام، ثم لم يتكلموا إلا اليسير في شفاء هذا القرآن لواقع الأمة إن أصابها الإنتكاسة وذهبت عنها عزتها، وإن رأيت واقع العاملين رأيت مذاهب تنسب لأشخاص، ثم إن دققت في أصولهم علمت أن القرآن أضعف الحجج عندهم في هذا الباب.

ومما ينبغي مراعاته في الطب الذي يحقق الشفاء أنه على نوعين، فنوع من الأدوية هي الشفاء بذاتها حيث تحقق المراد كما هو شأن المشروبات والمطعومات من الأدوية، وأدوية هي آلة يمارسها عامل عليها كالمشرك في البدن إذ لابدّ له من طبيب حاذق يعمله في البدن، وهاذان النوعان في القرآن، فأمراض في النفس والقلب والعقل تشفى بمجرد القراءة والتلاوة والإستماع، وأمراض لابدّ لها من عاملين بالقرآن وآياته ليتحقق الشفاء، ولذلك قال بعض أهل العلم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)) قال: المقصود بها الكلمات الكونية، إذ هي التي يحصل بها دفع الشر كالدواء والسلاح والطعام والشراب واللباس، مع أن الأمر محتمل، إذ هناك شر لا يدفع إلا بكلمات الله الشرعية وهو القرآن وأذكار السنة، وهذه الإستعاذة على معنى قوله صلى الله عليه وسلم((أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك)) فلرضاه أقدار كما أن لسخطه أقدار، ولمعافاته أقدار كما أن لعقوبته أقدار، فهو يفر من قدر الله إلى قدره، وكلها من كلمات الله تعالى، ولا يقصد أن يستعيذ المسلم بالمخلوق، إنما يستعيذ بالله وكلماته، وبهذه الإستعاذة يدخل في القدر الذي يحقق له الخير ودفع الشر.

والقصد أن الشفاء قد يحصل بمجرد القراءة والإستماع، وهذا لأمراض تناسبه كما قال الله تعالى﴿**وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ**﴾وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكما حصل من اتخاذ القرآن رقية للملدوغ والمريض، وهناك أمراض إنما يتخذ ها العاملون آيات الله هدى في تحقيق شفاء المرض، وهي أمراض لا تزول إلا بعمل قدري وبأدوات كونية، ولا يجوز دفعها بما تدفع به الأمراض الأخرى ولذلك

قال تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ،فهذا مرض لم يدفع بالذكر إنما دفع بهدي القرآن والعمل به، فالذكر لاذهاب أمراض النفوس من الجبن الخذلان ونوازع الشيطان، والثبات لدفع رجال الكفر وأسلحتهم ومكرهم، فكل واحد حقق الشفاء الملائم له، وكل هذا من القرآن، فلا ينبغي الذهاب لأحدهما دون الآخر، لأن كثيراً من الناس اهتموا بالجانب القدري دون القلبي، وآخرون نظروا للجانب الشرعي دون القدري، وكلاهما مخطئ ولا يحقق الشفاء الكامل لمطلوبه.

وإدراك هذا يعلمك أن هناك أدوية في القرآن لا تتحقق إلا على أيدي رجال القدر، وأعني بهم أهل الإتقان للباب المطلوب، ومثال ذلك في الآية المتقدمة في قوله تعالى﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ فإن هذا الهدي والشفاء لا يتحقق إلا على يد قوم يحققون معناها في القدر ممن يتقن هذا العلم في الحياة، وإلا فإن معنى الثبات لا يتحقق في ما جرت به سنة الله تعالى، وذهابها يؤدي إلى ضد المراد، وهو الهزيمة.

ولذلك فالنهوض بالأمة ليس أمراً شرعياً فقط، بل هو أمر قدري كذلك، فالشرع يعرفك الرجال والحال، ويهديك للأحكام، ثم يأتي أهل الإتقان والبصيرة في سنن القدر فيسلكون مع هذا الدواء كالمشارط في إزالة الأمراض وتحقيق الشفاء.

وقوله تعالى﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ له معاني منها:-

- أنه كلما تحقق الشفاء والرحمة للمؤمنين كلما كان على حساب الظالمين وسلطانهم، فتحقق الخسران عليهم بما تحقق للمؤمنين من النصر، سواء كان هذا في الأمور العلمية أو القدرية كما تقدم.
- ومنها أن الظالمين مبغضون للحق والهدى لقبح نفوسهم، فكلما ازداد الحق بياناً ووضوحاً كلما ازداد بغض أهل الباطل له، فتحقق لهم زيادة الخسارة بزيادة البغض، وعلى هذا المعنى يكون طلب ارضاء الباطل على حساب الحق ضرباً من الجهل والضلالة كما يفعله البعض.
- ومنها أن زيادة أدلة الحق شرعاً وقدراً تعني مزيد الحجة على المنكرين، وزيادة الحجة توجب زيادة العذاب، فهذه خسارتهم.

قوله تعالى﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾.

ذكر هذا الحال من الإنسان كان بعد ذكر شفاء القرآن، مما يدل على أن الإنسان في أصل خلقته محتاج لهذا الشفاء، فهو على حال من النقص والضعف والمرض، والقرآن يذهب هذا ويمنع آثاره، والذي ينبغي الإعتناء به هنا هو النظر إلى الأمة وأحوالها، وإلى الداعي وظروفه، فإن هذا ألصق ما يكون في هذه الآية، فإن تقلبات الأمم بين إنعام وبأس، وبين صعود وهبوط ، وبين نصر وابتلاء هو المعنى بهذه الآية حسب سياقها أكثر من النظر إلى الإبتلاءات اللاحقة بالإنسان في غناه وفقره، وصحته ومرضه، وإن شئت قلت: إن هذه الآية في هذا السياق– مع مجيء آيات كثيرة في معناها في مواطن أخرى من القرآن إنما هي تنبيه لما سيقع من الرحلة القادمة بعد الهجرة، وواقع النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته يشهد لهذا، فقد حصلت النعماء في بدر، وحصلت الضراء في أحد، وكان حال المدينة من الجهد والبلاء، والغنائم والإنعام، وبين حال الحصار والفتوح كلها تدل على هذه الآية، فهي تنبيه إلى الواجب اتباعه حينئذ وهو قوله﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾، وذلك بأخذ بهدى القرآن، فإن نعم الفتح والإنتصار توجب الحمد والشكر، وبأس البلاء والحصار يوجب الثبات والصبر، فهذا هو سبيل المهتدين، وهو من أدوية القرآن في علاج الظروف والوقائع.

وهذه الآية تدلك على أن تقلب الأحوال سنة جارية على البشر جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، حتى الرسل منهم، فلابدّ من البأساء والنعماء، وذلك لاختبار المرء فيهما، والهدى فيهما هو الأخذ بطريق القرآن، وهو الشكر والصبر كما تكرر في القرآن كثيراً﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ ﴾ أي عن شكر المنعم سبحانه وتعالى، وقوله﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي إن سؤاله غير مخبت له بدوام الفقر والسؤال، فالإعراض هو كقوله تعالى﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ إذ نسبوا فضل النعمة لغيره، ثم صرفت لهذا الغير المزعوم، وقوله﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ هو كقوله تعالى﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ ،فهذا شأن الظالمين عند سؤالهم من غيرهم، فإن حصل لهم النعم لم يشكروا منعمهم، ثم ذهبوا عنه

غير محتاجين له لما حصل لهم من النعم، ولذلك جاء في الحديث((تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة)) لأن الرخاء ينسي ما عليه من الفقر الذاتي الملازم له.

وقوله تعالى﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي من ذهاب البلاء عنه، كما قال تعالى عنه في فصلت﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ ،ولذلك فاليأس من رحمة الله كفر كما قال يعقوب عليه السلام لأولاده﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وهذا الأمر كما تقدم في بيان حال الأمم وما يصيبها هو أفسد ما يمنع من إعمال النعم في محلها، أو إعمال الإرادة في كشف البلاء عنها ودفع الهوان والضعف.

وقوله تعالى﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ فهما طريقان إما أن يعمل المرء ما هو عليه من الفساد بما ذكر من أمره من قوله تعالى﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ وإما أن يعمل على شفاء نفسه بالقرآن، فهما شاكلتان، أي سبيلان وناحيتان، فالسبيل الأول بين حدين إما بطر وإعراض، وإما يأس من غير تغيير، والآخر بين شكر وصبر، وهما يؤديان إلى ما له الخير في دنياه وعاقبته.

وقوله تعالى﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ وطريق الهدى هو الموصل للمراد من الخير، وقد تقدم أن العلم كثيراً ما ينسب في القرآن على جهة القضاء والقدرة كقوله تعالى﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ ذلك لأن إحاطة العلم بالبصر والسمع والخبرة توجب إحاطة القدر للمسموع والمرئي والمعلوم، وها هنا على هذا المعنى؛ أي إن الله سيجزي المهتدين بصبرهم وشكرهم عاقبة ما يحبون ويريدون، من زيادة الخير بالشكر لقوله تعالى﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ ورفع البلاء بالصبر.

وكلمة الهدى كما ترى قد تكررت في هذه السورة في مواطن كقوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ وقوله تعالى﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ ﴾ وستأتي في قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ وقوله في بداية السورة﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾، وقوله تعالى﴿(٩٦)وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ ﴾ فتأمل مواضعها تجدها تبين مصدر الهدى، وعاقبته، ونفي الهدى من غير طريق الله، وحاجة الناس إليه، موانع اتباعه.

قوله تعالى﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

هذا تعليم من الله تعالى في رد الأسئلة التي لا يستطيع المرء إدراك كنه حقائق المسؤول عنه، فإن عالم الشهادة يمكن تصوره وإدراك تأويله وحقائقه، لكن عالم الغيب لما كان مجراه على سنن أخرى غير سنن الشهادة كان ما فيه فوق تصور الإنسان وإدراكه، فلو خوطب فيه لما ازداد علماً، إذ أقصى ما يمكن أن يدركه هو أن يشبهه بشيء يراه ويعلمه من عالم الشهادة، ولذلك لا يجاب عنه، فالروح وإن كانت حقيقة من حقائق الخلق، يجب على المؤمن أن يصدق بوجودها، وهو يدرك هذا الوجود بآثاره، إلا أنها لما كانت من عالم الغيب كان لها حقيقة لا يستطيع المرء تصورها فكان هذا الجواب الإلهي﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾.

والإعراض عن الأسئلة له أسباب: هذا منها، وهو أن يضيق عقل السامع عن إدراك الجواب، فلا يتصوره، ومنها أن لا يكون فيه فائدة كجواب القرآن عن سؤال عدد أصحاب الكهف فإن القرآن قال﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ وذلك لقلة جدواه، ولابن كثير في مقدمة تفسيره فوائد في فقه آية سورة الكهف فراجعه، ومن أسباب الإعراض عن الأسئلة عدم استحقاق السائل لجلال المعلوم وعظمته كقوله تعالى﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ وكقوله تعالى﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ ومنها ما يترتب على الجواب من الفتنة أو الحرج كقوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾، وأمور أخرى يعلمها طالب العلم في حياته وتقلبه.

والذي أظنه في قوله تعالى﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ هو بيان وسائل العلم، لا بيان قلة ما عند الإنسان من العلم، فإن قلة علم الإنسان أمر مقرر لا ينكره أحد، إنما من الجهالات أن يظن الإنسان أنه قادر على إدراك كل معلوم لو خوطب به، واليهود السائلون لهذا السؤال لم يكونوا على علم بما هي الروح، فسألوه ليختبروا علمه بها كما سألوه عن أمور أخرى علموا الجواب فيها فكان سؤال اختبار، إنما سألوه هنا على سبيل

التعجيز يقيناً، إذ ليس عندهم عن الروح شيئاً إلا وجودها واسمها وآثارها كما عند الآخرين، وسواء كان قوله تعالى﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ هو تبكيت لليهود، أو هو تعليم للناس، فإنما مراده نفي قوة أدوات العلم عند الإنسان عن إدراك كل معلوم، ووسائط العلم وأدواته المقصود بها اللغة وقوة التصور والإدراك، وعالم الغيب وإن خوطب الإنسان به بلغته إلا أن تصوره غير ممكن ولذلك جاء في الحديث عن الجنة((فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) ،ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما عن ثمار الجنة((ليس في الدنيا من الجنة إلا الأسماء))، هذا مع أن هذه الأسماء حقائق، وكذلك يقال لعالم الغيب كله، فالله عز وجل له الأسماء والصفات وهي حقائق، ويجب الإيمان بها والله يقول: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾.

ثمّ العجب أن يكون هذا جواب القرآن عن الروح ثم تجد من يتعب نفسه في البحث عن ماهية الروح، وكيف هي، ويبذل وسعه في تقريبها على وجه التشبيه لما يرى كقولهم: ذات لطيفة كالهواء، أو ما شابه من الأقوال، وكلها ضرب من التخيل وليس بشيء.

أما الكلام عن آثارها ففيه خلط كثير مع بعض الصحيح التي جاءت بها النصوص الصحيحة، أما الإعتماد على المنامات وغيرها فليست إلا من قبيل التطلع للغيب، وهو رجم من بعيد، ثم لو نظرت إلى آثار هذا الكلام لما وجدت شيئاً من الحق، بل ستجد الكثير من الباطل كقولهم بتصرف الأرواح في عالم الشهادة بعد موتها، وهذا هو منْبت الشرك وأصله في كثير من الأمم وفي هذه الأمة.

والإعتناء بأمر الروح وماهيتها ليس قاصراً على هذه الأمة، بل هو شأن قديم حديث، تجد فيه عجائب التصورات، وهو جزء من أبحاث الفلسفة، وكثير منهم يغلق الألفاظ لا لعلمه بل لأنه لا يدرك جيداً الشيء في تصوره فيخبط في الألفاظ تعقيداً، حتى يظن الناظر أن وراء الشحم لحماً، وما هو إلا سراب، وقد حاول ابن طفيل الفيلسوف حل مشكلتها كما تخيل في قصة (حي بن يقظان) ،فأتى بما يكذبه الطب والتشريح، وهذا شأن أغلب من تكلم فيها فإنه اضطر إلى ولوج عالم القدر وإذهاب حقائقه مقابل اثبات معناها على شيء من القياس لهذا العالم المشهود.

هذا واعلم أن هناك عالماً آخر غير عالم الغيب والشهادة وهو عالم المثال، وهو عالم يجمع بين المعاني والحقائق، لكن لا تكون في الحقائق إلا للأنبياء، وأما بقية البشر فإنه قاصر عندهم على المعاني، وذلك كالرؤى في المنام، فإنها من عالم المثال، وهو قاصر هنا على المعاني، فإن المرء يرى في المنام مُثلاً لأمور كما هو شأن المقروء والمسموع ثم يكون تأويله، أي حقيقته بعد ذلك، أي تفسيره ومعناه، ولذلك لا يمكن وقوع هذا العلم تحت بصر الإنسان العادي إلا الأنبياء، وذلك لما يطلعهم الله تعالى على الغيب ففي حديث الإسراء أن بيت المقدس رفع له فوصفه لقريش، وكذلك ما جاء في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم:- ((لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار ممتثلات في قبلة هذا الجدار، فلم أر كاليوم في الخير والشر)) ،وقد ذكرت هذا لأن الناس يسمون شيئاً بعالم الأرواح، ويقصدون به هذا؛ أي عالم المثال، ومن جهالاتهم فيه أنهم ينسبون للبشر من غير الأنبياء ما يحصل للأنبياء من هذا الباب، وهذا كثير في الصوفية وغيرهم من أصحاب المذهب الغنوصي، حتى إن الصوفية المنتسبين للإسلام ليذهبون أبعد من ذلك، حيث يزعمون أنهم يرون بأعينهم حقائق لا مثل، فيزعمون اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم عياناً، وبعضهم يزعمون رؤية العرش والكرسي والملائكة والأموات، وهذا من الجنون ولا شك، وقولي إنه جنون ليس إلا على الحقيقة، ذلك إن حقيقة ما يكون بسبب الإجهاد في الرقص والسهر والجوع أن يحصل لهم ما يحصل للمخدر وشارب المخدرات، إذ يعيش عالماً من التخيل الذي لا حقيقة له، وكل متخيل إنما يذهب إلى ما هو من ثقافتهوعلمه، فالمجنون يذهب إلى خيالاته الخاصة، والصوفي يذهب إلى خيالاته الدينية، فيحصل له خيال رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم والإجتماع به والملائكة والعرش وأمثال هذا، فالعاقل منهم، وهم قلة، يسمي هذا عالم الأرواح وليس إلا المجنون، والكثيرون يزعمون هذا حقيقة، وهو جنون فوق الجنون.

والقصد أن لا وجود لهذا العالم على ما يقولونه، ومن تأمل كتاب ابن القيم عن الروح على ما يعرف عنه التمسك بالسنة إلا أنه لم يجد لهذا العالم دليلاً إلا المنامات وما أشبهها، فاصرف نظرك، فإن الكثير من الداخلين في هذا الباب قد زلت أقدامهم وذهبوا إلى جهالات عدم النظر لسنن القدر والتكوين فصاروا أشبه بالمجنونين، حتى إن بعضهم ليتوهم أن يحصّل أموراً سننية من خلال صلته بهذا العالم أو إدراك سننه،

والقصص في هذا الباب كثيرة، وقد امتلأت بها الكتب التي تنتسب للإسلام وهو منها براء، وضاقت بها مجالس المتحدثين لقوم لهم انتساب للسنة والدين.

ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم من بعده علم أن لا وجود لهذه الخيالات والاوهام عندهم، لكن لما يكثر الجهل، وتضعف الإرادة، وتتعطل قدرات المرء في إدراك سنن الكون تذهب نفسه إلى الخيال ليملأ نفسه بما عجز عن تحقيقه في عالم الشهادة، فتتضخم هذه الأوهام حتى تصبح رهناً يسيطر عليه، فينساق لها، مع شعور باللذة والرضى بها، وهذا ما وقع مع هؤلاء، حتى صار المجنون هو الولي، والمعتوه هو من يعلم الغيب ويطلع على الأسرار والغائبون عن عالم الشهادة هم أهل الأرواح العلوية، وهكذا اضطرب العقل وزال، وهذا الأمر ليس قاصراً على الصوفية فقط، بل إن الحديث عن عالم الأرواح المزعوم هذا وأثره في عالم الشهادة لتجد آثاره في غيرهم ممن انتسب للعلم مع ما يعلمون من حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات، أي الرؤيا الصالحة، فهي الباب الوحيد لإدراك عالم الغيب، وغالم الغيب هنا بمعناه المطلق أو النسبي، فالمطلق ما كان غيباً على البشر جميعاً كالملائكة والجن، وعالم ما في غد، وأما النسبي فقد يحضره البعض ويغيب عنه آخرون، فالرؤيا الصالحة يحصل بها بعض هذا العلم، حيث يرى المرء في عالم المثال معاني تطلعه على أمر غاب عنه من هذين العالمين، وأما غير ذلك فهو كذب وجهل، ودعك من عالم الأرواح هذا فلو ضربت أكباد الإبل ليلاً ونهاراً على أن تظفر بما ينجدك فيه من الكتاب والسنة فلن تجد، فصدق بوجود الروح ثم قف، وكفاك بهذا علماً، فإن كنت صاحب عزيمة فعليك بعلم الشرع وفقه الكتاب والسنة، ثم عليك بعلم سنن الخلق والنظر تكن أعلم الناس وأبصر الناس في الوصول لمرادك في الدنيا والآخرة.

ولما تقدم من ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى فإنه فسر الروح هنا بمعنى جبريل عليه السلام لقوله تعالى﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ وقال بأن الروح المدبرة للبدن لم تطلق في القرآن إلا باسم النفس، والإعتماد على هذه الحجة غير وجيه منه، لأن الآية جاءت على ذكر سؤال اليهود، وهو سؤال وجه في مكة كما عند أحمد في مسنده، ووجه في المدينة كذلك كما في الصحيح، فَذُكر في هذه الآية السؤال كما كان، ثمّ إن النفس في القرآن أثر من آثار الروح لا هي، إذ هي متعلق من متعلقات اجتماع الروح بالبدن، ولذلك هي مكلفة كما قال

تعالى﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ ،ثم قد جاء في الحديث لفظ ﴿ٱلرُّوحُ﴾ في مواطن منها حديث ابن مسعود في القدر وكيفية خلق ابن آدم في بطن أمه وقد ذكر سابقاً، وفيه ((ثم ينفخ فيه الروح))، ثم إن السؤال متوجه إلى معرفة حقيقة الروح، وجبريل عليه السلام علم أنه من الملائكة، فما هو نوع التعجيز في السؤال عنه؟!

وقوله تعالى﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رآه بعضهم جواباً، وهم بعض المتأخرين كالغزالي، والحق أنه بكتبهم، وهذا ما وقع عليهم بعد تلاوة القرآن عليهم فقد قالوا: ((قد قلنا لكم لا تسألوه))،ونفي العلم عنهم هنا يدل على أنهم لا خبر لهم بها في كتبهم، وأن الروح هي سر من أسرار الله تعالى، وأمر من أمور الغيب قد كتمت عن الإنسان.

قوله تعالى﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

هذا من جنس ما تقدم من ذكر فضل الله على رسوله في تثبيته أمام أمام إغراء الكفر، فهنا بيان دوام الفضل العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم في بقاء الوحي والقرآن في صدره، ثم هو متصل في بيان فضل هذا القرآن في ما تقدم من وصفه بالشفاء والرحمة، وهي تدل على أن بقاء هذا القرآن في صدر النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو برحمة الله تعالى وأن هذا من الفضل العظيم.

ومجيء هذا الخبر بقوله تعالى﴿ وَلَئِن شِئْنَا ﴾ يدل على أن هذه المشيئة ستقع مستقلاً كما فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه بقوله((يطرق الناس ريح حمراء يعني في آخر الزمان من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾، ووقوع هذا الأمر يدل على نزع الهدى والصلاح من الناس فلا يبقى إلى شرار الخلق، فهي على هذا المعنى الذي تقدم اخبار بما سيكون آخر هذا الأمر، فحيث يكون القرآن يكون الهدى، وحيث ينزع القرآن ينزع الهدى، وكل ذلك بقدر.

ثمّ إن تعليق عدم وقوع المشيئة على رسوله صلى الله عليه وسلم برحمة الله تعالى دلّ أن هذه أمة مرحومة، وهذا ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله((أمتي مرحومة)) وقوله في الحديث((أمتي كالمطر لا يدري أولها خير أم آخرها)) وبالمعنى أرجو تحقيق للفظ، يدلك على أن الرحمة لا تقع عليها إلا عند عودة أهلها للقرآن، فيأخذوه لدينهم ودنياهم، وإني لأسأل الله تعالى أن تكون بشائر إزالة الغربة وتحقيق زوال العلو الأول قد دنت برحمة الله تعالى على يد الفتية المؤمنة، هؤلاء الشعث الغبر الذين يعيدون للإسلام روحه وجدته بفعالهم وجهادهم.

وتدبر في هذه الآية لا تجد في تعليق الإذهاب على أمر من الأعمال، ولا تجد علة عدم الإذهاب إلا على رحمة الله تعالى، وهذا هو شأن الأمر الآخر في قوله تعالى﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**﴾.

وقوله تعالى﴿**إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا**﴾ وذلك ما أعطاه الله من النبوة والرسالة والقيام المحمود والأمة العظيمة، وفي سورة النساء جاء ذكر هذا الفضل على معنى العلم الذي يمنع الضلال واتباع الباطل فقال سبحانه وتعالى﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ ،وهذه الآية من سورة النساء تكاد تفسر ما ذكر هنا في هذه الآية من سورة الإسراء.

قوله تعالى﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾.

هذا إعلام للورى جميعاً وتحد لهم، وذلك لعظيم كلام الرحمن، إذ فضله على الكلام كفضل الله على خلقه، فهو كلام معجز لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، وقد جاءت آيات ثلاث غير هذه الآية تتحدى البشر أن يأتوا ببعض هذا القرآن، ففي سورة البقرة جاء التحدي على أن يأتوا بسورة مثله فقال تعالى﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ**﴾

- وفي سورة يونس جاء التحدي بذلك وذلك في قوله﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

والفرق بين هذه الآية وبين آية سورة البقرة أن الآية في سورة البقرة مدنية، وهذه التي في سورة يونس مكية، ومعلوم أن التهمة في مكة كانت موجهة إلى ذات الكلام وأنه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك فيها﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ،وأما التهمة في المدينة فكانت وجهة إلى أحكام القرآن وشرائعه ولذلك قال سبحانه وتعالى﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ وقد علمت من غير هذا الموطن أن الريب ليس عمل القلب فقط، فلا يفسر بالشك إلا على جهة التمثيل، ولكن الريب يكون في العمل، فالشك يكون أغلب ما يكون في الأخبار، أما الريب فيكون في الأخبار والإنشاء أي الأوامر.

دخول "من" في آية سورة يونس يدل على أن التحدي متوجه إلى الجنس، أي جنس القرآن، وفي البقرة جاء التحدي إلى اتيان "من" مثل ما جاء به القرآن، فإن التحدي في سورة البقرة متوجه إلى ما في الكلام، وأما في سورة يونس فالتحدي إلى ذات الكلام، وهو مناسب لما رأيت للحالين بين مكة والمدينة.

- وفي سورة هود وهي مكية جاء التحدي بعشر سورة فقال سبحانه وتعالى﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

وهذا التحدي شامل للفظ والمعنى، وأما الآية في سورة القصص فهي تتحدث عن هداية القرآن وذلك في قوله تعالى﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ذلك لأن هذا الخطاب هنا في سورة القصص متوجه إلى اليهود، وهم الذيم عرضوا شرهم على قريش في مكة من أجل التشكيك ورد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك فإن الخطاب لمعناه لأنه هو ما يدور حوله الكلام.

والقصد أن هذا القرآن معجز بلفظه ومعناه وأخباره، وقد تكلم أهل العلم في معنى الإعجاز، وأفسد الأقوال فيها وأضلها هو مذهب (الصرفة) الذي ينسب إلى الجاحظ من المعتزلة، حيث قال إن الإعجاز هو صرف الناس من الإتيان بمثله، لا لعدم قدرتهم على الإتيان، ويكذب هذا القول ما فعله بعض الزنادقة من المحاولة في هذا الباب، أشهر من حال هذا الكفر هو مسيلمة الكذاب فأتى بها يضحك منه الخلق.

وقوله تعالى﴿ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ حيث قدم الإنس على الجن لأن المقام مقام علم، والإنس أعلم من الجن بل هم لهم تبع في العلم، بخلاف القوة فإن الجن يقدمون في مقامها كقوله تعالى﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ ﴾ ،وبهذا تعلم أن شياطين الإنس هم أشد عداءً من شياطين الجن للأنبياء وأتباعهم لقوله تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾ فقد قدم الله شياطين الإنس على شياطين الجن، وإن سير الأنبياء وأتباعهم دليل على هذا، وكفى أن تعلم قوله تعالى﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ وقوله تعالى﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾.

وقوله تعالى﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ أي ناصراً ومؤيداً.

وكفار قريش زعموا أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله كما قال تعالى﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

وقد بسط في غير هذا الموطن الجواب على ما يتعلق بأمور الإعجاز المعاصرة من قضايا الإخبار عن أمور علمية جديدة لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن، وهو ما يسمى بالإعجاز العلمي، ومنه الإعجاز العددي، وهو مصداق قوله صلى الله عليه وسلم((ما من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)) ،فدل هنا على أن معجزة القرآن متجددة فحيث نزلت على قوم أصحاب بيان ولغة، فهو معجز لهم في هذا الباب، وحيث تتبدل قدرات الناس يكون القرآن معجزاً لهم في بابهم هذا، وتبقى هداية القرآن وعلومه، وأثره على القلوب والنفوس هو أعظم ما يحقق هداية الناس له.

وهذه الآية من سورة الأنفال مدنية، وإنما جاءت لخبر قد مضى في مكة لتدل على كذبهم، وأن هذا من زعمهم وتبجحهم الذي لم يقع، وذلك بعد مرور هذه السنون الطويلة على هذه الدعوة.

قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

والصرف هو البيان والتفصيل، وهذا من الإعجاز الذي لا يستطيعه البشر، فإن القرآن شامل على كل أنواع الحق مما يحتاجه الناس في حياتهم ومعادهم، إذ لا ينشأ فيهم سؤال حول معنى من المعاني إلا وفيه الجواب ولا يكون الناس في حال من الوقائع إلا وفيه بيانهم وما هم فيه الحق والضلال، وما كان هذا التفضيل والبيان ليقرب الكافرين إليه، بل يزيدهم بعداً.

ثمّ إن هذا دليل على أن القرآن شامل لأحكام الشرع، وما السنة إلا شارحة له، ولذلك كان اهتمام السلف من الصحابة خصوصاً ثم من بعدهم استخراج معاني السنن من القرآن الكريم، كقول ابن عباس أن الرجم للمحصن موجود في القرآن أخذاً بقوله تعالى﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم، وبعضهم قال: إن الرجم مأخوذ من قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ،والكلام العظيم إنما هو ما كان بليغاً وجامعاً، ثم تنزل مراتب الكلام من جهة البلاغة ومن جهة الشمول، فالسنة ليست معجزة بلفظها ولذلك أجازوا روايتها بالمعنى، وكذلك فيها التفصيل، وكلما تعاقب الزمان زاد التفصيل، ولذلك تجد أن أهل كل زمان يحبون من الكتب ما كان قريب العهد بهم لهذا المعنى، إذ أنها الموافقة لأذهانهم ومراتبهم، مع أنها ليست على مراتب كتب المتقدمين لا علماً ولا لفظاً وكان هذا يعرف قديماً، لكن جهالة أهل هذا العصر وغرور أهله أنكروا هذا وزعموا أن ما يكتب اليوم قد فاق ما كتبه المتقدمون، وأنا أتكلم عن كتب أهل العلم لا غيرهم من أهل الجهالات المعاصرة مما يسمونه الأدب الحديث وغير ذلك من صديد القول وزبالاته، فعناية أهل العصر بكتب أهل عصرهم لا لأنها الأعلم، بل لأنها الموافقة لحالهم من التفصيل ومرتبة البيان، واليوم تجد المسألة قد قالها أهل العلم السابقون لكن تجد المعاصرين إن ذكروها نسبوها لمعاصر لهم كأنه ابن بكرتها التي فتقت على لسانه، لأنهم لا يعرفون شيئاً عن كتب المتقدمين، ومما يساعد على هذا الجهل أن كثيراً من المعاصرين، بل هم الأغلب، إن ذكروا اختياراً لهم في مسألة نسبوه لأنفسهم دون أن يذكروا مصدره، فيظن السامع أنهم هم السابقون به قبل كل أحد، وإن شنعوا على مخالف لهم في مسألة صرخوا باسم المخالف وكأنه لا يأتي منه إلا الغلط،

والجهلة من الأتباع حيث لا يقرؤون إلا للمعاصرين يظنون أن شيوخهم إن جاؤوا بالصحيح المتبنى إنما هم استخرجوه وليس للأوائل إلا الغلط الذي ردوا عليه، وإن شئت ميزاناً في هذا لترى ما أقوله حقاً فراجع واحداً من هؤلاء الصغار من الأتباع والمتبوعين واسأله عن عدد المسائل التي أصاب فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى وعدّ له، ثم اسأله عن المسائل التي أخطأ فيها أبو حنيفة رحمه الله عنده أو عند شيخه ثم عد عليه، وحينها ستعلم أن المعاصرين لا يعرفون إلا أخطاء السابقين حسب زعمه، وأما الصواب فليس إلا لأهل العصر من هؤلاء الصغار.

والقصد أن القرآن شامل للأحكام، ومرتبة المجتهد تعرف بمقدار نظره في الكتاب واستدلاله به، ومن تأمل كتاب الإمام الشافعي = الرسالة وجده يشير إلى مرجح من المرجحات في المسائل وهو موافقة القول لمعنى الكتاب، وهو باب في الفقه لا تكاد تجده عند المتأخرين، بل هو كالمعدوم، وذلك للسبب الذي قدمناه، وهو ضعف قوة النظر في الكلام الجامع واستهسال البحث في ما هو مبسوط مع ضعف قوة دليله.

ومما أضعف النظر في الكتاب غير ما تقدم هو زعم المتأخرين تقليداً لابن حزم أن مرتبة السنة تعادل مرتبة القرآن في القوة، وهذا القول مخالف لكل ما ورد عن الصحابة والتابعين في هذا الباب، فإن أصول الصحابة في الفتوى والإجتهاد هو النظر في الكتاب أولاً، فإن وجدوا فيه بغيتهم لم يذهبوا لغيره، وإلا فإنهم يسألون بعد ذلك عن السنة، والفقهاء منهم يبدؤون بعد العلم بالسنة النظر في الكتاب ليعرفوا أصل هذه السنة فيه كما تقدم من فعل ابن عباس رضي الله عنهما.

ولذلك فمن الواجب اليوم أن يعلم الناس أن الكتاب فيه كل مسائل العلم، وكل قواعد الشريعة، وأنه لا صلاح للأمة إلا بالعودة له في كل أبواب الحياة، وخاصة ما نحن فيه من إعادة بناء الأمة وإزالة الغربة وتحقيق النصر والتمكين، فدعونا مما نسمع من أفواه أتباع الأشياخ والأحزاب: قال شيخنا، وقال إمامنا، دون أن نعرف دليله من كتاب الله تعالى، لا على وجه التكلف كما يصنع المتعصبون من أتباع المذاهب والمشايخ، ولا على وجه الزعم أن الإمام والشيخ لا يقول شيئاً بلا دليل، فإن فعلنا ذلك فإنما هي المزاعم والشعارات والدعاوى، ولن يتغير من الحال شيء.

وهذه الدعوة لا تعني أبداً إلغاء التراث العلمي من أقوال أهل العلم واجتهاداتهم، فإن العالم لا يكون كذلك حتى يعرف خلاف الناس وأقوال أهل العلم، بل إننا في هذا الزمن لا يمكن أن نعرف طرق النظر في الكتاب حتى نعرف أقوال أهل العلم وكيفية نظرهم في الكتاب، فحالنا أشبه بطرق مذهب الأحناف رحمهم الله في تخريج الأصول على الفروع، أي أن نعرف أصول الإستنباط بمعرفة الفروع التي قالها العلماء، فإدراكنا للسنن كيف تشرح لكتاب يعلم المرء كيف يستنبط الفقه من الكتاب بإلحاق المثيل بالمثيل، وهكذا في النظر إلى فقه الصحابة رضي الله عنهم، والقصد أن أقوال أهل العلم والحفاظ عليها والنظر فيها واجبة العلم وليست من نافله، لكنها وسيلة للوصول إلى المنبع، وهذا معنى ما قالوه:- إن أقوال أهل العلم يستدل لها ولا يستدل بها، وكلما ارتفعت أنظارنا إلى المقتدم من الفقه وكلام أهله كلما ارتقت مداركنا في هذا الباب، واقتربنا إلى الصفاء وقلة الخطأ والوهم، وكلما صار نظرنا إلى كتاب الله أقرب للصواب وقلة الخطأ، وهذا كما ترى يحتاج إلى أهل علم، فالدعوة إلى إحياء فقه القرآن لا يصح حملها من جهلة، ولا من أقوام لا يتقون إلا معارك الأقدمين، فإن جاؤوا للنوازل والحادثات كان بصرهم فيها اعجز من نظر العامي، ولا من قوم يرون أن ما قاله المتأخرون هو العلم الذي تحسر عليه المتقدمون فلم يدركوه، وإلا فبالله عليك كيف يكفر القائل بخلق القرآن اتباعاً للسلف ولا يكفر من غير أحكام القرآن، وكيف يكفر من ردّ حرفاً من القرآن ونفاه ولا يكفر من ردّ أحكامه اتباعاً لتشريع الكافرين؟!

إن المرء لا يقال من أتباع القرآن والسنة لأنه يتقن فقط رد مذاهب الباطل القديمة التي ردها أئمة السنة من السابقين، بل إن المرء يكون من أتباع الكتاب والسنة حين يقيم أحكامها في الناس والوقائع التي يعيش بينها، وإن شئت الفهم فانظر إلى فقه الصديق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه حين عالج فتنة زمانه من الردة على وجه لم يوافق عليه في الإبتداء أحد حتى أعلم الناس بعده وهو الفاروق رضي الله عنه، وانظر إلى فقهه في جمع القرآن بعد مقتل القراء مع المرتدين في اليمامة، وانظر إلى فقه عثمان في جمع الناس على مصحف واحد بعد مخافة الفتنة باختلاف المسلمين على القرآن، وانظر إلى فقه أحمد بن حنبل رحمه الله في فتنة خلق القرآن لتعلم أن الفقه ليس إدراك ما قاله السابقون ثم تقف، لكن أن تدرك وجه ما قالوه وأصول استنباطهم لتعمله في نوازل وحوادث زمانك، فأبو بكر رضي الله عنه يكفر من أنكر الزكاة

وامتنع عنها ثم يأتي معمم في زماننا يزعم أنه من أتباع الصحابة والسلف وينكر أن يكفر من بدّل دين الله تعالى ودان بدين العلمانية وأخذ بشرائع الكفر من المشرق والمغرب.

ولا تظنن أن هذا الكلام موجه لقوم دون قوم، فإن قوماً من أمتنا يزعمون الإحاطة بفقه الواقع، ويتقنون قراءات مذاهب أهل عصرهم الكفرية من العلمانية وغيرها ثم هم على طرائقهم في الدعوة إلى تحكيم الشريعة، بل يجعلون سبلهم في العمل والدعوة إلى الله وإقامة الشرع هي نفس سبل أهل الجاهلية، ويعلنون ليل نهار التزامهم بهذه الطرق، وكان زعمهم أن هذه وسائل مباحة ولا محظور فيها، ثم لما حصل لهم بعض تمكين صاروا إلى الدعوة إلى إقامة الحكم على وجه علماني صريح وأنفوا وأنكروا أن يكونوا دولة إسلامية أو إمارة إسلامية أو دعاة خلافة، فلذلك سار الفساد من الوسائل المزعومة إلى المقاصد الحاصلة، ذلك لتعلم حال أهل هذا الزمان من الدعاة والأحزاب الغالبة، وأن القلة هم أهل الحق، وأنهم هم أهل البلاء والصبر والجهاد.

ثمّ إن هؤلاء لا يحصل لهم المقصود إلا بأهل العلم بالقرآن، أقرب الناس إليه، وحالهم في البلاء والصبر والجهاد يجعلهم أقرب الناس منالاً للقرآن لاتحاد معناهما، إذ أن بيئة القرآن كما شرح في غير هذا الموطن هي بيئة الجهاد والصبر والبلاء، والتقصير منهم في النظر للقرآن يصيبهم ويصيب الأمة من الشر أكثر من غيرهم، لأنهم على معنى ما قيل: زلة عالمٍ زلة العالم، فهم أولى الناس بالعلم والتقوى، وكلما ازداد بصرهم بالقرآن ازدادوا بصيرة بالحق الذي هم عليه، وبالخطأ والباطل الذي عليه الآخرون، وكلما تمعنوا في القرآن علموا صدق مواقفهم له بالتوفيق الإلهي، وهذا من أعظم الفقه، وهو أن يعلم أهل الحق أنفسهم قبل أن يعلمهم الآخرون كما قال الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم﴿ **وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ** ﴾ ،وهذا الأمر لا ينشيء أبداً الغرور بل ينشيء الشكر والإخبات، وينشيء الخوف من الخطأ، فإنه كما تقدم إنما تعظم الأخطاء بمراتب فاعليها كما كان يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه في بدر ((اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض)) ،وأهل الجهاد الطائفة المنصورة وفساد قوم منها يخرجهم من مسماها ويقع عليهم قوله﴿**وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم** ﴾.

قوله تعالى﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

لما انتهى الكلام عن الرسالة وهي القرآن، جاء الكلام عن الرسول، فمعارضة المشركين إنما توجهت للأمرين، فانتهى الكلام عن الرسالة ببيان فضلها وإعجازها أو صرف الفضل عن غيرها، وشمول أحكامها كما تقدم هذا، وأما الكلام عن الرسول فأغلب ما يدندن حوله الكافرون هو بشرية الرسول، ثم المطالبة لرسولنا صلى الله عليه وسلم بآيات باهرة غير معجزة القرآن على وجه ما طلبه السابقون، فجاءت هذه المطالب المتعددة، حتى انتهت إلى طلب كتاب يقرؤونه على معنى ما قاله الله في هذا ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقد ذكر في غير هذا الموطن معالجة أمر الآيات الكونية القاهرة قديماً وحديثاً، فإن المعاصرين يردون الشريعة اليوم بحجة إنتهاء زمن المعجزات، وذلك على معنى ما طلبه مشركو قريش، حيث رد الله عليهم ببشرية الرسول كما في هذه السورة وفي سورة الأنبياء بقوله تعالى﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ وهو بيان قرآني أن السنن الكونية، وسنن النصر والهزيمة كانت هي الحاكمة على حركة الرسل وسيرتهم وليس أمر المعجزات كما يزعم الزنادقة، فلم ينتصر الأنبياء بخروجهم عن بشريتهم المحكومة بالسنن، بل هم كما قال تعالى﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ بل هم يأكلون ويشربون ويطرأ عليهم ما يطرأ على

البشر من العوارض، ولذلك فأمر نصرهم وتأييدهم إنما هو على وجه سنني مما يتحقق به النصر كما قال﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾، وهذا النوع من زعم الخصوصية هو ما غضب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استقل بعض الصحابة عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأرادوا الزيادة، فغضب لهذه الدعوى وقال: ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ،وهكذا فالسنن الحاكمة على الأنبياء هي سنن الكون الحاكمة على البشر، وتحقق النصر لهم ليس بالخوارق، وهلاك عدوهم ليس لأن من أمامهم ليسوا بشراً لا يموتون ولا يتأملون، ولا يحتاجون لطعام وشراب، بل لتحقق أسباب النصر الكونية التي خلقها الله في الوجود.

والقصد أن هذا العتو والفساد في طلب الآيات ما زال سارياً في أتباع المشركين اليوم من الزنادقة وغيرهم وهو من طرقهم الشهيرة في الإستهزاء بأتباع الرسل حين يهددونهم بالوحي وبسوء العاقبة، وكذا حين يظهرون لهم الوعد بالنصر والتمكين، فيصرخون مستهزؤون: لقد مضى عصر المعجزات، وهي صرخة زنادقة ملحدين، لكن مما يؤسف له أن يوجد لها صدى في قلوب حملة الدعوة إلى الله تعالى.

وفي هذه الآيات يبين ربنا أن الرسول من جنس المرسل إليهم، ذلك لتحقق الحجة الربانية على الخلق، إذ لو كان من غير جنسهم لاحتجوا أن ما جاء به ليس صالحاً لهم، وأن المثال العامل لها من النبي والرسول إنما يقوم بها لهذا الفارق فيه عنهم.

ثم إنه لو تحقق لهم الآيات لقالوا إنما نريد مثله كما قال تعالى﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ،وهكذا لا تنتهي أهواء الكافرين في رد الحق، ومتابعتهم على مطالبهم تنزل لا حاجة له، لأنهم أهل غرور وتلعب.

وقوله تعالى﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ دليل على الفارق بين الرسول والمرسل إليهم إنما هو الرسالة فقط، وأما غير ذلك فهو بشر مثلهم، يعاني مما يعانون، ويعيش كما يعيشون، بل إن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم أشد الناس بلاءً وأكثرهم صبراً.

ثم إن هذه الطلبات التي طلبها زعماء الشرك من قريش إنما هي تناسب حاجاتهم وواقعهم، فهم يشكون ما عليه الحال من طبيعة ما خلقت عليه بلادهم، والرسل لم تأتِ للأمور القدرية، ولا كتبهم لشرحها،

وإنما جاء الرسل لهداية الخلق إلى الحق في عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم وتشريعاتهم، وهذا أعظم ما يحتاجه لبشر، لكن لما كان البعض همه في غير هذه الأمور، وعنايته في أمر دنياه ومتعه فإنه لا ينظر لعظم مقصد الرسالة، ولكن إلى شهوته، فيتوجه بالسؤال إليها، وهذا ابتداءً يدلك على حال السائل ونوع ما قلبه من الهموم.

ومما يدلك على تعنتهم طلبهم بأن يسقط السماء عليهم كسفاً كما قال تعالى عنهم﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ وهذا طلب العذاب، والعاقل لا يفعل هذا، لكنه الكبر والغرور ورد الحق بالتعنت والإصرار.

ثم إن طلب رؤية الملائكة لو تحقق يلغي أصل الرسالة، لأن الرسالة تقوم على الإيمان بالغيب، وحضور الغيب ليكون شهادة يذهب ذها الأصل، فلا يتحث الإبتلاء في التفريق بين المؤمن والكافر.

فطلباتهم هذه تقسم إلى قسمين؛ قسم يريدون به تغيير ما هم فيه، وقسم فيه تعنت، ولا شيء فيما طلبوه يحقق لهم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ صدق الرسول ثابت في قلوبهم لكنه الجحود والكبر.

وإنكار المشركين إرسال الرسل من البشر له معاني كلها على وفق الشر، ففي سورة المؤمنون كان إنكارهم على معنى الكبر من متابعة بشر مثلهم فقال تعالى عنهم﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ، وهذا المعنى كان في نفس فرعون حين ردّ رسالة موسى عليه السلام كونه من قوم أدنى مرتبة منه ومن قومه كما قال تعالى في سورة المؤمنون﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾.

ثم كان بشرية الرسل عرضة في اتهام النوايات بطلب الملك والرئاسة كما قال الله عن قوم نوح﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ،وقال في سورة يونس عن قوم فرعون﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وكان ردهم لبشرية الرسول يتعلق أحياناً بحال الرسول وشخصه كما قال كفار قريش﴿ **لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ وذلك لما في نفوسهم من يتم النبي صلى الله عليه وسلم وفقره الذي كان عليه، ومثله اتهام فرعون لموسى في قردته على الإبانة فقال﴿ **أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾.

وكل هذه عوارض نفسية مريضة في منع اتباع الحق بعد ظهوره، وهي توجد ضعفاً وقوة في الناس حين يردون الحق في مسائل العلم وغيرها، ولذلك من الدين والعدل اتباع الحق على أي وجه جاء، ومن أي جهة كانت، ومن عجائب زماننا أن طوائف من المسلمين لا تتابع الحق إن جاء من فقير، أو من غير حزبه وجماعته، بل قد وجدنا قادة فكر وجماعات يعيبون أن يرفع الله شأن قوم فقراء، فيكون فيهم الجهاد، ونصر الدين، وتحقيق الآيات القرآنية، فيذهبون مستهزئين بهؤلاء القوم، وقد سمعنا من هذا الباب الكثير حين ترفع راية الجهاد في قوم فقراء، وهم مادته دون الملأ المترف، فيأتي جاهلهم ليقول: ما كان الدين لينصر بهؤلاء الفقراء، إذ يتصور هذا القائد أن نصر الدين لا يكون إلا بالمترفين والملأ من جماعته وحزبه، والأصل أن ينظر المرء إلى الحق من حيث كونه هو، دون صورته الخارجية، ثم يتفكر في حامله من جهة التزامه به، وتحقق صدق إيمانه بما يحملن ويدعو إليه، فهذا هوسبيل معرفة الحق وأهله ولا شيء آخر، أما الغنى والثراء فهما طلب فرعون وأمثاله حيث قال مشترطاً على موسى عليه السلام﴿ **فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ** ﴾ ،ولذلك فمتابع هؤلاء القادة على هذه المعاني يستحقون الدخول على معنى جزئي في قوله تعالى﴿ **فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ** ﴾ ،وقديماً كان التعصب للمذاهب الفقهية، واليوم صار التعصب للأحزاب، وهكذا يسير هذا المرض على صور متعددة من القبيلة للمدينة ثم للمذهب ثم للحزب، ولذلك فمن نعم الله على المسلمين اليوم أن طوائف الجهاد ليست على هذا المعنى في شيء، بل تراهم أسه الناس في محو الشعارات والإنتقال إلى البلاد، وعدم التعلق بالأشخاص والجماعات، بل هم حيث رفعت راية الجهاد والعلم ذهبوا إليها دون التصاق بأمر من موانع اتباع الحق، وخصومهم يصدون الناس عنهم بهذه الموانع، بمشايخ الدول يشدونهم إلى مذاهبهم الفقهية وأطرهم الجغرافية، وينصبون على هذه المذاهب والمناطق عمائم ومشايخ يزعمون أنهم المراجع التي لا يجوز تجاوزها، وقادة الأحزاب

يشدونهم إلى شعارات واجتهاد قادتهم الموتى والأحياء، بحجة أن هذا هو الدين وسمت الحق الذي لا يخطئ، وقد يلتقي هذان الطرفان من الباطل في حال ومكان لعلمها أن الحق مناقض لما هم عليه، ولأن الحق مزيل لسلطانهم الكاذب ودعاواهم الفارغة، ولذلك فلا وجود اليوم لحقيقة الدعوة إلى الكتاب والسنة إلا على أيدي هذه الطائفة المنصورة، إذ هي تأخذ الحق وتتبعه من أي جهة جاء، وأما الآخرون فإنهم على وفق المذاهب والقبائل القديمة، ودعاوى الحق واتباع الدليل هي بذور وحبوب تلقى ليقع في الفخاخ المساكين وأهل الغفلة، ثم يبدأ التدجين والتسليك حتى يصبح التابع لا يرى إلا ما يقوله الأشياخ والأياد.

وقوله تعالى﴿ **وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا** ﴾ فيه معنى مقايضة الإيمان بالعاجلة، وهذا مضاد لمعنى الإيمان، فإن قوماً اشترطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون لهم الملك بعده فردهم، فالإيمان لا يؤتى إليه كما تأتي البهائم إلى طعامها، فتساق إليه بدافع البطن واللذة، بل الإيمان يؤتى إليه لأنه الحق أولاً، ولأن الخلق عبيد لله ليس لهم اختيار مع تدبير الله وأمره، فهذا شأن العبد أن يسمع ويطيع، ثم إن حقيقة الإيمان إنما تكون بالإيمان بالغيب كما تقدم.

وقوله تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾ فسبحان الله قيلت لما في طلباتهم من معنى منازعة الأمور لحق الله تعالى فيما اختص به، ثم هي كفّ للرسول صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله هذه المسائل، وذلك أن لا يقدم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر من جهة نفسه حتى لو ظن فيه الخير، إنما هو متبع، ولذلك قال:- ﴿**هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾ ،فهي تذكير له بمقام العبودية التامة.

وقوله تعالى على لسان كفار قريش﴿ **أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ** ﴾ ذلك لما أخبرهم من يوم القيامة من تشظي السماء وتساقطها، فهذا استعجال منهم لأحداث يوم القيامة، وذلك لجهلهم بها كما قال تعالى﴿ **يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا** ﴾.

وقوله تعالى﴿ **وَمَا مَنَعَ** ﴾ ليس تبريراً إعراضهم، إنما هو بيان لهذا المانع الباطلن وتبكيت لهم في التعلق به، فالذي أمامهم ويدفعونه إنما هو الهوى، والذي في قلوبهم وعينهم إنما هو الباطل الذي قالوه من بشرية الرسول.

وقوله تعالى﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾

بيان أن الله تعالى قد أقام الحجة على خلقه، وأن صدق المرسلين قائم في نفوس المنكرين، والله شاهد على هذا، وشهادته في كمال الحجة وحصولها في قلوب الناس كافية عنده سبحانه وتعالى، وهي كافية عند المؤمنين به سبحانه وتعالى، فإنهم لا يضرهم أن يكذبهم الناس إن صدّقهم الله كما قال سبحانه وتعالى﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ** ﴾ ، فمن كان حسبه الله فهو كافيه جل في علاه.

وهذا تعليم للمؤمن أن يتعلق بالحق من حيث كونه حقاً، فإن الله يحبه، وهذا يذكرك بما تقدم من معنى الإسراء، حيث كان من معانيه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامه عند الله إن أنكره البشر، والله عز وجل قد أكرم أقواماً بأن جعلهم شهداء على الحق ورفع مقامهم بهذه الشهادة فقال سبحانه وتعالى﴿ **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ وقوله تعالى﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾.

ولذلك رفع مقام هؤلاء إلى ذكرهم معه سبحانه وتعالى فقال﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ** ﴾.

قوله تعالى﴿ **وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟**

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾

فالله عز وجل يرد الهداية لفضله، فليس إعراض الكافرين إلا لحرمانهم من فضل اله في إصابتهم الهداية، وهذا رد على ما يطرأ في نفوسهم الخبيثة أن الله محتاج لهدايتهم، وأنهم في إعراضهم عن الهداية إنما هو لغناهم عنها، فالله يرد عليهم هذه المعاني الخبيثة في نفوسهم، ويعلم خلقه أن الهداية منه، وأنها رحمة من الله يصيب بها أهلها المستحقين لها، فالله عز وجل وحده الهادي، وأما الضالون فإن رحمهم الله الهداية فلن يجدوها عند غيره.

ثمّ إن الله يبين أن وصف الهداية لا يتحقق إلا فيما أعطاه الله إياها، فليس كل مدع لها هو أهلها، إذ وصف الهداية قاصر على من أخذه من مصدرهن وهو ما أتى من الله تعالى، وأما من طلب الهداية من غيره فلن يتحصل عليها، فهذان معنيان يبينان فضل الهداية ومن أحق بحمل اسمها، وبالتالي هي وصف ممنوع من غير الأخذ بهدي الله تعالى في كتابه.

ثم يبين الله تعالى مستقر الضالين بقوله﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيًا وَبُكۡمًا وَصُمًّاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾.

ثم بين سبحانه وتعالى أن أصل الهداية هو الإيمان بالآخرة، وأن أصل الضلال هو الكفر بالآخرة.

وأنت ترى هنا كيف جاء مصير الكافرين بإعادة خلق الإنسان وقد صار عظاماً ورفاتاً، وذلك بعد أن تقدم قبل الرد عليهم وبيان الحجة عليهم، وها هنا بيان حكم عاقبتهم في الآخرة مع مزيد الرد عليهم بقوله سبحانه وتعالى﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ ،وهذا داخل في قياس الأولى من جهتين؛ أولاهما من جهة أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال تعالى في غافر﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ وثانيهما أن الإعادة أهون من الإيجاد من العدم كما قال تعالى في الروم﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾.

ثم هنا فيه ذكر بيان حدوث الإعادة في زمن لا ريب فيه، وذلك في تقرير هذه الحقيقة على وجه قاطع.

وها هنا وفي قوله سبحانه المتقدم﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ تعلم طريقة القرآن في الرد على منكري الحقائق، وهذا قد ذكر سابقاً، ويؤكد هنا، فإن القرآن يقرر الحقائق على وجه قاطع، ويرد على حجج المنكرين، وتقرير الحقائق على هذه الطريقة القرآنية تبين لنا وجه إدراك العرب أن هذا القرآن لا يخرج إلا من الله تعالى، فإن قائل هذه الحقائق على هذا الوجه يعني تمام القدرة والعلم، وهذه طبيعة الخطاب عندما يخرج من سيد إلى عبد، فهو لا يرجوه، ولا يستعطفه ليتابع قوله، بل هو كلام عزيز، يخاطب عباده المقهورين بقدرته، فيأتي كلامه على وجه الوعظ والتهديد مع بيان الحجة القاطعة المدركة ببداهة النظر والفطرة، وأما طريقة التطويل فليس بابها القرآن، ولا تركيب المقدمات المرهقة المبعدة للمنال، فلذلك لا يقال كيف يرد على حجج الكافرين بالتهديد والوعيد، وإنما هذا إذا كان الأمر بين نظيرين، وأما إن كان من السيد للعبد فليس له إلا الطاعة، وكذلك إنما تطول المقدمات في الأمور الخفية، اما الأمور الفطرية فإن منالها قريب، فحيث كفاية ذكرها تتحقق الحجة، ثم إن الله عز وجل يعلم علة إنكار الكافرين، ولذلك هو القائل فيما تقدم﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ ، فإنكارهم وطلباتهم ليس على وجه الإسترشاد إنما هو التعنت والجحود والتكذيب.

ثم تذكر أن هذا القرآن هو خطاب في الإبتداء والإنتهاء للمؤمنين به، فهم من يعتني بإفهامهم وتعليمهم، وأما المعرض فإن القرآن لا يعرض عليه إلا العذاب والعاقبةn وهذا الأمر يجهله من يعتني بالخصم أكثر من إعتنائه بالصاحب والتابع، كما حكي عن سبب سقوط دولة بني أمية من إهمالها لأصدقائها وعنايتها بأعدائها، فخسرت أصدقاءها ولم تكسب أعدائها، فكان حتفها، وفي تأمل هذا الأمر تعلم أن قوة الإسلام ليس في الرهق الذي يصيب البعض ليكسب متعاطفاً من الأغيار، وهو في استهزاء واختقار لمجموع الأمة الإسلامية، بل يرى أن كلمة عطف أو تأييد من الأغيار أهم من آلاف أهل الإسلام بل ملايينهم، وهذا من الجهل وضياع الهدى، فإن سالك سبيل التغيير هو من يعتني بمادة ما عنده ليحقق بها المراد دون النظر كثيراً إلى الآخر، فإن الآخر هو مادة الدافعة ابتداءً، والصاحب مادة النصرة والتأييد، ووضع أحدهما بدل الآخر إفساد للعمل وإذهاب للمقاصد.

قوله تعالى﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾

هذا تنبيه لنفس الرب وجودها، وأنه سبحانه وتعالى أعلى من عباده في كل صفات الحسن، وذكر الجود والكرم بعد ذكر القدرة هو تمام الحسن وكما العلى، فإن الله بعد أن ذكر قدرته على خلق السموات والأرض بل وقدرته على خلق أمثالها فإنه نبه إلى جوده وكرمه من خلال ما عليه الإنسان وطبعه، ودلت الآية أن الجود والكرم والعطاء لا يكون فقط من باب الملك وكثرته واتساعه، لكنه أمر آخر يتعلق بالنفس وما هي عليه، فإن هؤلاء المخاطبين لو ملكوا خزائن الله تعالى وهي فوق ما يأتي على القلب لأمسكوا وبخلوا مخافة الفقر، فالله عز وجل إنما يرزق عباده ويعطيهم لموجبات منها غناه سبحانه وتعالى، وامتلاء خزائن ملكة التي لا يحيط بها العقل، ومنها لجوده وكرمه، فإن يده سبحانه وتعالى سحاء، ولأنه جل في علاه لا يخشى الفقر، فهو الغني بذاته عن خلقه كما قال تعالى﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ والصمد هو السيد التام في سؤدده، وهي مأخوذة من المصمت؛ أي الذي لا جوف له، فهو غني عن كل آخر، وغيره فقير إليه يصمد إليه الحوائج كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ وقوله﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ فكل شيء سواه لا يقوم بذاته، بل يقوم بالله تعالى خلقاً وإمداداً.

وقوله ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ أي منوعاً حابساً لما في يده، وهذا لما ركب عليه من الجهل والفقر والضعف، ولا يخرج من هذا الوصف إلا المؤمن كما قال تعالى في سورة المعارج﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾.

والذي أظنه من مناسبة هذه الآية مع ما تقدم من رد الكافر الإيمان بالبعث، أن البخيل لضيق نفسه وخلقه، فإن هذا الضيق يرتد على عقله وتصوره، وهذا أمر مشهود، فإن نوازع السلوك لها آثارها على

العقل وتصوراته، فكلما ازدادت رحابة النفس كلما ازداد أفق العقل، فالبخيل لا يتصور تصور الكريم، فتذهب نفسه إلى سؤال: كيف؟ وهو سؤال المنكر، فهذا أولاً، ثم إن في الأمر مسألة أخرى، وهو أن الخلق له أثر على الإيمان كما العكس تماماً، فكما أن الإيمان بالغيب يطلق النفس وكرمها وعطاءها، فكذلك بخل النفس وتقتيرها تردّ عنه الإيمان بالغيب، فإن سبب كفر الكافر وجحوده هو ما يترتب على هذا الإيمان من سلوك ومنه الجود والكرم والشجاعة، فيهرب من الإيمان هروباً من واجباته والتزاماته، فكان البخل سبباً في رد الإيمان بالغيب، لأن البخيل يعلم أنه لو آمن بالغيب فعليه أن ينفق، وهو كاره له، فيأتي الأمر من أصله في جحود اليوم الآخر. وهذا يدلك أن الكفر وهم، وستار للشر، أما إنه وهم فإن الكافر يظن أنه بكفره بالإيمان وحقائقه يعني زوال هذه الحقيقة، كالجاهل حين يغطي عينيه فيظن زوال الوجود من حوله، وأما إنه ستار للشر فإن الكافر يتخذ الكفر وسيلة لاتقاء محاسن الإيمان وأعماله.

وفي هذه الآية دليل على أن الوجود رحمة، وأن العدم ليس بشيء، ولكن الوجود الذي يكون رحمة هو الوجود الموافق لمقاصده، فإن تعطل الشيء عن مقاصده لم يكن له هذا الوصف، فقد سمى الله ما فيه خزائنه من الخلق رحمة فقال﴿خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ ،فهي رحمة لما يحصل منها لما يعطيها الله للعباد، فإن خلت عن العطاء لم تكن كذلك، وبهذا تعلم معنى خلق الإنسان على هذه الفطرة من الحاجة، فإن ذلك يحقق أسماء الله وصفاته ولذلك في الحديث((لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم)) فإن الوجود الإنساني ووقوع الذنب منه يحقق عزة الله في ضعف الإنسان، ثم إن استغفاره يحقق مغفرة الله التي يحبها لأنه الرحيم جل في علاه.

قوله تعالى﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾

لقد بدأت السورة بذكر بني اسرائيل، وها هي في خاتمتها تأتي على ذكرهم على معاني مما جرى في السورة من أخبار وأحكام شرعية وقدرية، لتتحقق وحدة السورة، فقد ذكر في بداية السورة ما أعطى الله لموسى من أحكام وذلك في قوله﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ،وهنا ذكر ما أعطي موسى من الآيات القاهرة فقال﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾.

وذكر في السورة سنة الله في من أخرجه قومه من بلدته فقال﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهنا يبين حال هذه السنة مع موسى وفرعون فقال﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾.

وذكر في السورة أن الآيات ومعناها في قوله﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ وذكر هنا شأن ما أرسل على بني اسرائيل من آيات العذاب والتخويف فقال﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ وهي اليد والعصار والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص الثمرات وقال بعضهم غير ذلك، وهي في سورة الأعراف.

وذكر في السورة أمر علو بني اسرائيل، وهنا ذكر خاتمتهم في هذه الأرض وكيف سيكون شأنهم في العاقبة.

وذلك في قوله﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

وقوله تعالى﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ دليل على ما تقدم من قوله تعالى﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ ،فهذه تسع آيات ظاهرة جلية إلا أنها لم تمنع فرعون وقومه من الكفر برسالة موسى عليه السلام.

والقرآن يذكر أن بني اسرائيل كانوا يعلمون أن هذه الآيات من عند الله تعالى وذلك في قولهم لموسى عليه السلام﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وقوله تعالى عنهم﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، وقوله تعالى﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ دل على أن رالة موسى عليه السلام كان القصد منها ابتداءً هم قومه، وأما

فرعون وقومه فهم تبع، ولأن الرسل في دعوتهم للتوحيد لا يخصون قوماً دون قوم وإنما تكون الشرائع بحسب من أرسل لهم الرسول خاصة. وقوله تعالى﴿بَصَآئِرَ﴾ دل على ما تقدم من أنها بينة، وأن المنكر لها مبصر لحقيقتها إنما هو الجحود والتكذيب ورد الحق بعد العلم به.

وقوله تعالى على لسان فرعون﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴾ وقوله تعالى على لسان موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ هو من قبيل مقابلة التهمة بالتهمة مع الراد كذب المردود عليه، لكنه من باب الحجاج والمقابلة في الخطاب.

هذا وقد علم أن ظن فرعون هو زعم، فالآيات تبين أنه قد علم كذبه، وأما ظن موسى عليه السلام فهو اليقين، هذا وقد تقدم فيما سبق السر في استعمال لفظ الظن في مقام اليقين، وهذا هنا بين فوق ما ذكر من باب المقابلة، فإن في قوله موسى عليه﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ فتحاً لباب التوبة، وذلك لعدم علم موسى عليه السلام بعاقبة فرعون، وهذا يلائمه لفظ الظن، وأنبهك إلى هذا الأمر زيادة عما تقدم وذلك في قوله تعالى في سورة الجمعة﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ مع ما علم من نهي النبي صلى الله عليه ولم من إتيان الصلاة سعياً، بل بالسكينة والوقار، لكن لما كانت الآية حاضة على التبكير في الذهاب، وهذا ما ثبتت به الأحاديث كان الملائم ذكر السعي، فليس السعي إذاً وصفاً للمشي، ولكنه لأمر خارج عنه وهو ابتداء المشي والتبكير منه.

وقوله تعالى﴿ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ تقدم قولهم الدال على علمهم بأنها من رب موسى عليه السلام، وهو رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء السؤال في القرآن لبني اسرائيل على معاني منها هذا، وهو عامة الأسئلة في مكة، ويقصد منها بيان الإستشهاد فيما لا يُنكرونه، وذلك مثل قوله تعالى في سورة يونس﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾،وهذا السؤال قد يكون على معنى الحقيقة، وقد يكون على معنى الإهبار على معنى التقرير

كقوله تعالى في سورة الزخرف ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ،فقد علم أن هذا السؤال لا يقع لعدم حضور الرسل الذين من قبله.

- وجاء على معاني أخرى منها تبكيتهم وبيان خصالهم كقوله تعالى﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ فإن هذا سؤال يقصد منه بيان أسلافهم من الحيل على ترك الحق والتلعب بالدين.
- وجاء السؤال على معنى بيان النعم الإلهية عليهم كقوله تعالى﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾

وقوله تعالى﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾،والإستفزاز من الأرض هنا بمعنى القتل لأنه الموافق للحال، فإن فرعون وقومه رفضوا إخراج موسى عليه السلام وبني اسرائيل من مصر، بل أرادوا استبقاءهم عبيداً لهم، ولما لحقوهم بعد خروجهم من مصر إنما أرادوا استئصالهم، والذي وقع أن الله أورث بني اسرائيل الأرض كما قال تعالى﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾،ويقصد بالأرض هنا سوى ما منعوا منه بسبب اعراضهم عن الجهاد مع موسى عليه السلام كما في سورة المائدة حين قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾.

ولكن هل ورث بنو اسرائيل مصر بعد غرق فرعون؟ فالجواب عندي- والله اعلم- :لا، لأن الله دمر مصر بعد خروج موسى عليه السلام وبنو اسرائيل، وغرق فرعون وجنوده، وذلك في قوله﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾.

وهذا التدمير قد يكون بالأمر القدري، وقد يكون بالأمر الشرعي حيث كان حكم الله في الغنائم أن تجمع ثم تنزل نار من السماء فتحرقه، وكلا الأمرين له وجه.

أما قوله تعالى هنا﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ فليست هي مصر، لأن القرآن ذكر أن الله جاوز بني اسرائيل البحر كما في سور متعددة منها الأعراف ويونس وطه، إلا أنه في سورة الشعراء ذكر الله أنه أورث بني اسرائيل جنات وعيون ومقام وكنوز فرعون وقومه فقال سبحانه وتعالى﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهي كذلك في سورة الدخان في قوله تعالى﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ،فالذي يقوى في النظر بجمع هذه الأمور أن الوراثة بمعنى الغنائم، فوقع عليها التدمير كما هو شرعهم فيها.

وأما ما جاء في سورة البقرة أنهم نزلوا مصر مرة أخرى بعد الخروج، حيث كان هذا النزول عقوبة لهم وإذلالاً، فقال سبحانه وتعالى﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾.

وقد قال جمع من أهل التفسير أن مصراً هنا ليست مصر التي كانوا فيها، بل هي بمعنى المدينة، وقالوا إن السبب هو صرفها، ولو كانت مصر المعروفة لما صرفت.

وتقرير الفرق في آيات سورة الشعراء والدخان أن الأمر بينهما مختلف، فإن الآيات في سورة الشعراء ذكرت أمرين منفصلين هما:- 1- فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم.

2- وأورثناها بني اسرائيل.

فبنوا اسرائيل لم يرثوا الأرض التي فيها جنات وعيون، وإنما قوله﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ إنما يقع على قوله تعالى﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ، وهي الكنوز التي صنعوا منا العجل كما في سورة طه من قوله تعالى﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾.

وأما ما في سورة الدخان فلم تذكر الكنوز بل ذكرت الأرض وما فيها ولم يذكر أن الورثة هم بنو اسرائيل بل قال سبحانه﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ ،فالله أعلم من هم، وقد يقصد بها أبناؤهم من بعدهم فإن هذا مما يحتمله لفظ القرآن إذ يذكر فيه هذا المعنى، مع أن الآية في سورة الأعراف المتقدمة بقوله﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ والآية في سورة يونس بعد دعوة موسى عليهم في قوله تعالى﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ فقال سبحانه﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ ،مما يدل على تدميرها من بعدهم، وأما الوراثة التي قالها الله في سورة الدخان فإنها وراثة الأصول والله أعلم.

وقوله تعالى﴿ وَقُلۡنَا﴾ هنا أمر قدري، وذلك بحصول ما وعدوا به بالصبر، وهو هنا بشارة لرسولنا صلى الله عليه وسلم أن يرث مكة على معنى يوافق شرع الإسلام، وهذا يعلمك كما تقدم أن جريان الوعود لا يكون على وجه واحد، فإن الوعد سيتحقق، لكن صفة وقوعه تختلف من حال إلى حال، ومن زمن إلى زمن، وهذا كإجابة الدعاء فإن الله توعد به لكن نوع الوقوع وزمانه إنما تكون بموافقة حكمة الله وعدله بما يوافق قدره، فهذا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام توجها إلى الله بهذا الدعاء﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وقد أجيبت دعوتهما عليهما الصلاة والسلام، لكن تفكر بين وقت الدعاء وبين إجابته تعلم سر هذا الباب، فالمرء يعمل ويوقن أن العاقبة للمتقين، وأن عمله بطاعة الله هو لوقوع الوعد يوماً لاشك فيه، فكونه لا يكون هو صاحب الوعد لا يمنع أن يكون من رجاله الذين يعملون له ويحضرون له، أما الزعم بأن الوعد بعيد، وحين يأتي يكون له رجاله، وأما نحن فنعمل على غير معنى الوعد وسبله، بل نخضع للوقت كما خقع بنو اسرائيل لفرعون وقومه، فهذا هو الضلال والفساد والخروج عن صفة الطائفة المنصورة والغرباء.

وقوله تعالى﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا ﴾ قال أهل التفسير: إن المقصود يوم القيامة، والذي يناسب أول السورة هو وعد الآخرة في علوهم الثاني، وهو مناسب للحديث الصحيح: ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل

المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه شجر اليهود)). والله أعلم.

فإن كان هذا المعنى فيكون قوله تعالى﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ دال على تشتتهم في الأرض وتفرقهم فيها، حيث لا يكون لهم قبل ذلك مكان جامع كما كان شأنهم مع موسى عليه السلام.

قال ابن كثير:- وفي هذا بشارة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة، قلت: وفيها الوعد بالفتح الأخير ضد الدجال وجنده.

قوله تعالى﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾.

لقد رأيت كيف تخلل هذه السورة الحديث عن القرآن الكريم:-

- فقد جاء قوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾ إذ فيها بيان ما فيه من الحق وبيان أجر متبع الحق.
- وجاء قوله تعالى﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ إذ فيها صفة أحكام القرآن وأنها الحكمة الموافقة للفطرة والقدر.
- وجاء قوله تعالى﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴾ لبيان سمة هذا القرآن في البيان والتفصيل، وقطع الحجة على المخالف، وبيان حال المخالف لهذا البيان.
- وجاء قوله تعالى﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾ ففيه بيان حال سماع المعرضين عن الهدى، وأن سمتهم الكفر بالآخرة، فدل على أن المنتفع بالقرآن هو المؤمن بالآخرة.

- وجاء قوله تعالى﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ لبيان حال حملة القرآن إن غيروا وبدلوا واتبعوا أهواءهم دونه.

- وجاء قوله تعالى﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ ليدل أعلى مقامات قراءة القرآن وهو في الصلاة، وفي المفروضات صلاة لافجر.

- وجاء قوله تعالى﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ بيان نفع هذا القرآن في إصلاح النفس والمجتمع، وإصلاح كل فساد إن أعمله أهل الإيمان، ثم ما فيه من زيادة فضل فوق الشفاء بالرحمة، وفيها بيان حال المعرض مع هذا الدواء والغذاء.

- وجاء قوله تعالى﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ لبيان بقاء الرحمة ما دام القرآن مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أمته من بعده.

- وجاء قوله تعالى﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ لبيان إعجاز هذا القرآن وعدم قدرة الخلق عليه.

- وجاء قوله تعالى﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ لبيان اشتمال القرآن على قواعد الحق وأصول الدين.

وها هنا تختم السورة بذكر القرآن وبعض صفاته وسماته، ذلك ليعلم أهل الإسلام عظمة هذا الكتاب في حياتهم، وأنه ليس كتاب ذكر فقط مع عظمة هذا الجانب، ولا كتاب بترك مع وجود هذه الحقيقة، لكنه كتاب الحياة لهم، وأن الهدى لتحقيق سعادة الدارين لا تكون إلا به، ولا تكون النجاة من مسلمات الوجود الحاضر، والوجود القادم إلا بآياته.

وقد كثر في هذه الآيات ذكر التفصيل والبيان، وأنه ليس كتاب عمومات كما يقول الذين يعرضون عن هديه ممن يديمون النظر في مناهج الأغيار، ويبذلون الوسع لفهمها، ولو بذلوا بعض ما يبذلون هناك لحصل لهم خير كثير، ولعلموا بأنفسهم ما هم عليه من الغلط، وإنك لتستطيع أن تعلم ضعف عنايتهم بدارسة القرآن ومنهجه وهداه حين تسمع لهم في تقويم أمر، أو تسديد أو مقاربة لقضية، فتجدهم يشرقون ويغربون، ثم لا

تجد للقرآن عندهم منزع، بل قد يقدم أحدهم لك مقدمة يصرح فيها أن ما بين أيدينا من الأمر ليس أمراً دينياً، بل هو سياسة أو سلوك إنساني، مع أن ما يبحث إنما هو قضية القرآن كقضية الخروج من الغربة وتحقيق النصر وإزالة الهوان الذي تعيشه الأمة المسلمة.

لقد صار مناهج الجماعات الإسلام أن يقرأ لكل غريب، وإن كان للقرآن نصيب فإنما يقتصر على تلاوته في جلسة أو جلستين حيث لا يدرك الواحد من المجموع صفحة من القرآن، ثم يُظن أن هذا هو حق القرآن عليهم، فإن فرغوا لغيره طالت ألسنتهم، وامتدت أوقاتهم، ورطنوا بكل قول، وصار تميز الواحد منهم بمقدار ما معه من قراءات الأغيار، ومعرفته بأسمائهم وكتبهم وألفاظهم، فحيث هان القرآن على المسلمين فكيف يطلب من الزنادقة أن يعتنوا به في علومهم الأدبية والعلمية والبحثية.

وقوم آخرون زعموا إحياء علم السابقين ليتحقق الخروج من الهوان والتيه، فأوغلوا في دقائق صارت هجيراهم، وتنازعوا في الرجال أقالوا هذا أم لم يقولوه، وصار التحقيق عندهم هو تحقيق أقوال الرجال لا تحقيق الحق ومعرفة الباطل، وأصابهم الرهق هنا، وصارت خصوماتهم في هذا الباب، وما القرآن عندهم إلا تابع لما يقول الآخرون لا أصلاً ينظر فيه، وعموا وصموا عن واقع المسلمين، وعاشوا في معارك التاريخ وخصوماته، وصار العلم عندهم هو معرفة هذه المعارك وأقوال الناس فيها، والبحث عن أشباه السابقين في عصرهم، حيث إنهم ليتقفرون بحثاً في الزوايا المنسية عن أشباه هؤلاء، فأخرجوهم من الزوايا البعيدة حيث لا حضور لهم بين المسلمين، ولا أثر لهم كما كان الأثر لأسلافهم، فصرخوا وضجوا ليسمعوا الناس أن للسالف تابعاً فلاحقوه كما لاحقه الأوائل، فضخموا ما هو أشبه بالميت إن لم يكن كذلك، وعميت أعينهم عن الكفر الحاديث المبين، وعن الزندقة الغازية الجديدة، فعاشوا بعقول غيرهم، ثم زعموا أنهم علماء، لا لشيء إلا لأنهم حفظوا حجج السابقين في حروب هؤلاء الذين لا يكاد وجودهم يكون إلا في الدفاتر والزوايا المنسية القفرة، فالعلم عندهم ليس علم القرآن في تحقيق النصر في حروبهم الحاضرة، بل الإحتجاج بالآيات التي اعتصم بها السابقون في حروبهم على وجه التبجح أنهم أبناء بكرتها.

فأين هي مدارسة القرآن لإجابة نوازل وحادث عصرنا من أهل الإسلام اليوم؟! ثم يزعم الجميع أن لا سعادة إلا بالعودة إلى القرآن، وهم يقولون هذا على وجه الزام خصوم الإسلام بالعودة إلى أحكام القرآن في

الحياة، وطريق الحق والنظر يلزم دعاة الإسلام أن يعودوا إليه ليتعلموا منهجه في تحقيق النصر والتمكين، وليبصروا هداه في الإجابة على أسئلة واقعهم الدعوي والإصلاحي والجهادي، لأن هذا هو أول السبيل، وهذا ما يعنينا ابتداءً، ونقطة الإبتداء أن نعرف حكم أهل الزمان ودولهم وفرقهم في كتاب الله، وأن نرفع آيات القرآن لنرى واقعنا من خلالها، فإن أدركنا أننا أهل عجز في هذا الباب، وهو أمر واقع علمنا أن ما نراه من سلوك الجماعات الإسلامية هو ضرب من ضروب الرأي، وعامته مأخوذ من الأغيار ومن تاريخهم ومن تأثرنا بهم، حتى إننا لا نستطيع أن نرى مقاربة بين هذا السلوط وبين شبه له في تاريخ الأمة، بله أن نرى له شاهداً من القرآن الكريم.

هناك مزاعم كثيرة في الدعوة إلى القرآن، أغلبها يريد العودة إلى قيمه الأخلاقية التي يدعو إليها، لأنهم يرون أن هذا هو ما يحبب الآخر فينان فيأتي هؤلاء إلى قطع الآيات على وجه الشعارات ليجعلوا هذه الأجزاء هي لب القرآن وجوهره، وقد يحملون هذه الآيات ضد أهل القرآن من الدعاة والمجاهدين، على وجه فيه ضرب الأصل بالفرع، ولو حوجج هؤلاء بأهمية التوحيد والإيمان بالدار الآخرة لما رأوا هذه شيئاً يقام لها ويرفع لها الرأسن ولو دَعوا إلى بيئة القرآن وهو الجهاد لرأوا أن هذا يناقض قيم الإنسانية المعاصرة، ولو ذكروا بآيات الوعود الموجبة للعمل من أجل تحقيقها لاستهزئ بأهلها، فهم يريدون فقط تقطيع قيم القرآن عن أصولها، وبتر أحكامه عن بيئتها، ليصير القرآن مجرد شعار إنساني كشعاراتهم المعاصرة، لا أنه دين الله الذي يعلمنا حقه قبل حق غيره، وأسماءه وصفاته لأننا من أجل هذا خلقنا، ولا من أجل تحقيق العزة لأن هذا وعد الله بالمؤمنين به، ولا من أجل الجهاد والصبر والبلاء لأن هذا ما يحقق اليقين على اليوم الآخر.

إن قيم القرآن لها بيئة، وحين تقتطع القيم عن بيئتها لا تكون ممدوحة، وإن الفروع حين تزال عن أصولها فإنها تصبح سهلى التزوير والإمتطاء، ثم وضعها في غير موضعها، فاحذر هذا التأويل الباطل المعاصر، فهو من طريقهم، ولذلك لن تعدم زنديقاً يحتج بآية، أو كافراً مجرماً عدو لله ولرسوله وللمؤمنين يلقي على المسلمين المواعظ من كتاب الله تعالى، أو مبطلاً جاهلاً مبتدعاً يريد إماتة الحق بآية يجريها على هذا المعنى بهواه وشهوته.

وقوله تعالى﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ فهذا وصف لما فيه، فالله عز وجل أنزل القرآن بالحق، فلا يأتيه الباطل قط، وكل ما فيه حق، والحق ما قابل الباطل، وإنما يعرف الحق بنسبته إلى الله تعالى، وبملائمته للقدر، وبآثره في الدنيا والآخرة، والقرآن حق بكل هذه المعايير، ولذلك صار الحق يعرف بنسبته للقرآن عند أهل الإسلام، فكل ما خلفه هو الباطل.

وقوله تعالى﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ بيان لوصف نزوله، فإن الحق قد يشوبه الباطل في مسيرته المستقرة، والقرآن ممنوع من ذلك، فإنه نزل عن طريق أمين، وعلى صدر أمين، فلم يشبهه الباطل في وسيلته، وهذا الوصف رد على الزنادقة المعاصرين ويسمون حالة النزول بالظاهرة القرآنية خلا الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تعالى فليس منهم إذ أن عنوان كتابه بهذا الاسم لا يقصد به ما قصده هؤلاء المعاصرين وإن صدر من الله؛ على نحو ما، فهم يرفضون الإعتراف أنه كلامه، إلا أنه بعد هذا الصدق لم يعد بهذا التقديس الذي بدأ به، إنما عرضت له عوارض شابته فحولته إلى ظاهرة بشرية فيها عوامل الصواب والخطأ، ولذلك يجب دراسته على وفق ما تدرس الظواهر البشرية، وعمدة بحثهم القول بحصر هذه الظاهرة بالبيئة التي صدر منها كما يزعمون، إذ الظاهرة هي وليدة بيئة وإن كانت فعلاً أو قولاً بشرياً، ولذلك ففهمها محكوم في إطار هذه البيئة فقط، وحين يراد تعميمها يجب التقاط الملائم للبيئة المغايرة دون كلية هذه الظاهرة، هذا قول الأكثر منهم، وواحد منهم يزعم أن الإختيار والرد غير منهجي بل يجب اعتماد التأويل لعزم غير الملائم للعصر، وذلك بتطويعه عن طريق الدراسات اللغوية الحديثة التي تجعل النص بحثاً بذاته لا يراد منه ما هو خارجه، والقصد من كلا الطرفين هو نشر الزندقة والتحلل من الدين باسم القرآن نفسه، لأنهم يعلمون أن النفس الإجتماعية الملمة محكومة بالحلال والحرام، ومهما اشتط العاصي فإن هذا الحكم سيشده إلى التوبة والعودة للدين، وطريقة تحرره من هذا القيد هو تقديم المعصية إليه على طبق الكتاب الذي يلتزم به، وهو القرآن الكريم، وبهذا يتحقق دخول عالم الإسلام في الحداثة والتطور الإجتماعي كما يزعمون، فلا تعد قيم القرآن من حلال وحرام سوى شعارات لحقائق مغايرة.

وهذه الطرق في التعامل مع القرآن يراد منها إزالته، ولا يراد منها تحقيق مراد متكلمه منه، وهذا أول الباطل، فإن الحق الحقيق بالإتباع أن يعلم مراد المتكلم فإما أن يقبل أو يرد، أما أن يزعم الناظر قبوله ثم يصرفه عن

مراد متكلمه فهذا تزوير وكذب، وهذا صنيعهم، فإن الله تعالى جعل القرآن عربياً، ولذلك يجب فهمه على قواعد من نزل عليهم، وعلى وفق فهمهم له.

أما الزعم أن الكدورة البشرية قد لحقت به بعد صدوره عن الله تعالى، فهذا يناقض نص القرآن، وهو نص يزعم هؤلاء أنهم لا يناقضون إلهيته في الأصل، إذ القرآن يقرر أنه نزل بالحق وبالحق نزل، ويقرر أنه محفوظ فلا ينقص منه ولا يزداد في لفظه كما قال تعالى﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ويقرر كذلك أن البيان له على الضد مما يقولون، فإن البيان له أن يكون في الصدور كما قال كما قال تعالى﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وهم يقولون إن حمله وتنقله في الصدور يجعله ظاهرة بشرية متغيرة حادثة، فانظر إلى الفارق بين الأمرين.

ثم إن تاريخ القرآن يشهد له، فأول ما يدل على إلهيته هو تاريخه قبل النظر فيه كما يقول تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في الرد على افترائه من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وذكر حال الرسول به فقال﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

ثم إنه بعد حدوث ضمه للصدر تكفل الله بحفظه فيه دون رهق ومشقة الحامل فقال سبحانه وتعالى﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ وقال سبحانه﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾.

أما بعد خروجه من صدر الرسول صلى الله عليه وسلم فقد علم من تاريخ القرآن أن لفظه حفظ على وجه يقيني لا شبهة فيه، ثم لم يعلم قط أن كلاماً في الوجود حصل له العناية ما حصل للقرآن.

أما فعل البشر فيه من جمع كما فعل الصديق رضي الله عنه، وترتيبه كما فعل عثمان وذو النورين رضي الله عنه فهو أمر خارج عن النص، ولا تعلق له باللفظ البتة، فكتابته كقراءته فعل بشري، وما وقع من ذلك إنما وقع

على وجه الكمال الإنساني المطلق، فلا يجوز تسمية ما هو خارج عن الشيء تدخل في الشيء، وفاعل هذا جاهل لا يخاطب مخاطبة العقلاء.

ثم إن النص نفسه وهو مقدس كما يقر هؤلاء قد صرح أن حق البيان له لا يعود لغيره كما قال تعالى﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ،فهو قرآن محفوظ النص، لا يعتريه ما يعتري الخلق من تغير، ثم إن حقيقته وتأويله قد جاءت معه، وهي حياة النبي صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله، كما قال تعالى﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقضي ويقول ويرشد إنما هو مبين للكتاب حين تعجز أفهامهم عن إدراك مرادهم فيه، وإلا فالقرآن كما قال تعالى﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ،فالسنة تابعة للقرآن شارحة له، وبمقدار علم الرجل بالسنة يكون عالماً بالقرآنن والناس إن اختلفوا في القرآن حكمت السنة بينهم، لا لأن السنة حاكمة على القرآن كما يظن البعض، لكن لأن السنة أقرب منالاً في الفصل بين الخصوم، وأكثر تفصيلاً.

أما اختلاف الناس في القرآن فهذا لم يكن عند من أنزل عليهم القرآن وهم الصحابة رضي الله عنهم، فلم يرد عنهم كبير اختلاف فيه، بل يكاد المرء لا يجد اختلافاً في معاني آياته، إنما حدث الخلاف لما كثرت الأهواء، وصار الناس يحكون على القرآن ولا يتخذونه حاكماً، وفرق بينهما، ولذلك كثرت الإختلاف، ثم إن هؤلاء المختلفين لم يرجعوا إلى السنة لتقضي بينهم في معاني الكتاب، بل عادة أهل البدع والأهواء يردون السنن بأدنى الحيل، وكون القرآن يدخل عليه التأويل الباطل كما قال تعالى﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ فهذا من محنة الله للخلق، وهو من طبيعة البيان، فالهوى الإنساني قادر على التغلغل في كل العلوم مهما بدت للناس يقينية صارمة، وقد زعم الناس قديماً أن المنطق اليوناني الأرسطي عاصم للعقول من الخطأ، ثم تبين أن هذا العاصم المزعوم هو نفسه محتاج للتصحيح وقد دخل عليه الفساد.

والقصد أن أصحاب هذه النظرية في حرف كلام الله عن حقائقه هم محجوجون بكلام نفسه وبتاريخه، وأما الرد عليهم قضايا خارجية أخرى فهذا يطول، لكن لا يخاف من هؤلاء لأن رطانتهم وكلماتهم لا تعدو مجالسهم ومجالس أمثالهم، بل إن كلماتهم لا يكاد يسيغها المتخصصون منهم، ولذلك فأثرهم على المسيرة

العلمية لا تكاد تذكر، إنما الخوف يكمن فيمن يقرؤهم من المسلمين فمن يسمون بقادة الفكر، فيتضلعون بكلماتهم، ويشربون حبها ثم يصيغونها فكراً وفقهاً لأتباعهم وللعوام، وهذا الذي حصل قديماً، فإن المنطق اليوناني من حيث هو، ومن حيث حملته من الفلاسفة لم يكن له كبير تأثير في المسلمين إلا بعد أن أخذ فقهاء وأصوليون فعجنوا به العلوم الشرعية، وكان الأثر الأكبر حين خرجت به العقيدة موضوعاً وأسلوباً، فارتدت الآثار على التصورات والعقائد والسلوك، واليوم الحال هو الحال، إذ تجد من ينزع إلى القراءة من قادة ومفكرين يلوك عبارات هؤلاء، ولضعف هؤلاء بالكتاب والسنة فإن بضائع هؤلاء الزنادقة تروج عليهم، ويستحسنونها، فتراها تسري في مناهجهم وطرق نظرهم وأحكامهم، ويزعمون أن هذا هو الفكر، ويتهمون الناظر في الكتاب والنة بالتخلف وقلة البصيرة والعلم، وهم يصيبون في بعض الأمور، لأنك تجد بعض من يعتني بالفقه والحديث لا بصر له بالواقع، ولا بنوازله الفكرية والعملية، والطرفان على وجه خطأ كما ترى.

وقوله تعالى﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ مع كونه الحجة الخاتمة يعلمك أن هذا القرآن الذي تقرؤه هو كما نزل، وإلا فما معنى أنه الحق، وبالحق نزل ثم يدخل فيه النقص والعبث والزيادة، فكأن الأمر لم يكن، ولذلك فإن هذا القرآن لا يحصل لأحد حتى آخر الزمان إلا وهو كما قال الله تعالى وتكلم به، وهذا من أعظم النعم على أهل الإسلام، وهو رد على الزنادقة القدماء والمحدثين ممن يتهمون القرآن ولو بحرف منه.

وقوله تعالى﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ فالذي تقدم وصف الرسالة، وهذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا الوصف قد جاء مراراً في القرآن الكريم:-

- ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.
- وفي سورة الأحقاف جاء وصف القرآن بقوله﴿لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾

والبشارة هي الإخبار بما يفرح، والنذارة الإخبار بالضر، فأما أن تكون البشارة للمؤمنين فهو معلوم من ذلك لما أعد الله تعالى لهم جزاء إيمانهم، وكذلك النذارة للظالمين فهي لما أعد الله تعالى لهم جزاءً لظلمهم، وأما أن تكون النذارة للمؤمنين فهي في التحذير من الإنقلاب على الأعقاب، واجتماع الوصف للرسول والرسالة يدل على أن السنة وحي من الله تعالى.

- وفي سورة البقرة قوله تعالى﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

فهذا الوصف هنا مطلق.

- وفي سورة فاطر قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾.

- وفي سورة الفرقان قوله تعالى﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾.

- وفي سورة يونس جاءت النذارة للناس جميعاً وأما البشارة فللمؤمنين إذ قال تعالى﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴾

- وفي الأحزاب قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وفيها خصلة أخرى وهي الشهادة، لأن المقام فيها مقام مدح للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو المعنى في سورة الفتح في قوله تعالى﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ والآيتان اللتان فيهما ذكر الشهادة مدنيتان.

ثم إن هذه صفة الأنبياء جميعاً كما قال تعالى﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ،وإنما أكثرت من ذكر هذا الأمر ليعلم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم عظمة هذا الأمر، وأن البشارة بالجنة والنذارة من النار، وكذا البشارة بالرحمة مطلقاً والنذارة بالعذاب مطلقاً هو عمل الأنبياء، وأن غيره من الأعمال تابع له، وفي ذلك رد على من جعل أعمال الرسل الأخرى من الحكم والقضاء وسياسة الأمم هو الأصل وغيره تابع له، وهذا قد وقع فيه بعض المعاصرين ممن أرادوا إصلاح العمل الإسلامين وتنشيط المسلمين إلى الإهتمام بهذه الأمور، فذهبوا لتضخيمها على غيرها من أعمال الدعوة والبشارة والنذارة، وصار بعضهم يقلل من هذه الأمور، بل ربما لا يرى أهمية للحديث عن الآخرة، إنما يرون من الوعي والذكاء هو الجوانب الأخرى غير البشارة والنذارة، فتضخم الفرع على الأصل.

ثم إن هناك أُخر يحتجون بهذه الآيات على ترك واجبات الأنبياء وأتباعهم من سياسة الأمم، فيقصرون عمل الأنبياء على الوعظ، ولا يلتفتون إلى قوله تعالى﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ ولا إلى قوله تعالى﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ ،وكل هذا جهل في

قصر مفهوم البشارة والنذارة والشهادة على الخلق، والدين الحق هو أن ترتب الأولويات على وجه صحيح، ثم لا تجعل الأولويات سبباً لترك التالي في الأهمية، إذ هذا الدين كله حق، ورد القليل منه بعد ثبوته كفر كرد أصله.

وكما ترك فقد اشترك الرسول والرسالة بنفس الوصف في الأعراف والأحقاف، فلا يجوز اتخاذ هذا الوصف هنا على معنى ما يحمله ما يقال لهم((القرآنيون)) ؛أي الذين ينكرون السنة، وهو وصف خطأ، فإن المرء لا يكون قرآنياً حقاً حتى يؤمن بالسنة، بل إن منكر السنة منكر للقرآن كافر به، فالقرآن بشير ونذير، والرسول صلى الله عليه وسلم بشير ونذير، فما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما أتى به القرآن، إذ كلاهما وحي من الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم((ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه)).

وقوله تعالى﴿ **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا** ﴾

فهذا وصف لطريقة التنزيل، إذ أنزله الله منجماً وفسر هذا في قوله تعالى﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾.

وها هنا وقع خطأ في كتب التفسير وكتب علوم القرآن وهو منتشر على ألسنة طلبة العلم والمدرسين وهو تفسيرهم ﴿ **فَرَقْنَٰهُ** ﴾ بالتخفيف، إذ لها قراءتان بالتخفيف والتشديد، فيفسرون معناها بالتخفيف وهو أن القرآن نزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم موزعاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة بعثته؛ أي ثلاث وعشرين سنة، وهذا القول صحيح إلا قولهم إنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، فإن هذا غير صحيح، ولا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما مع اشتهار نسبته إليه، وهذا القول يعني أن جبريل كان يأخذه من بيت العزة زمن السماء الدنيا ثم يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مخالف للقول إن جبريل كان يسمعه من الله تعالى، فالله عز وجل تكلم بهذا القرآن، وسمعه منه أمين الوحي جبريل عليه السلام، ثم يحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو كلام بحسب الوقائع، وسمعه جبريل عندما تكلم به.

وهذا يعني أموراً:-

- أن الله تكلم بالقرآن حقيقة.
- وأن جبريل سمعه من الله تعالى، وفي الحديث الصحيح في كتاب خلق أفعال العباد للإمام البخاري أن الله يتكلم بصوت يسمعه من بعد كمن يسمعه من قرب.
- وأن الله يتكلم متى يشاء سبحانه وتعالى، فالكلام صفة فعل لها تعلق بالإرادة، بخلاف صفات الذات كالحياة والعلم فلا تعلق لها بالإرادة.

وفرق بين الكلام بالقرآن وبين العلم به، فالعلم بالقرآن أزلي، ولكن الكلام به يكون بحسب المشيئة كما قال تعالى عن كلام لموسى عليه السلام﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فالكلام حصل لما جاء موسى لا أنه أزلي، وهذه مسألة من مسائل الحق التي خالف فيها كثيرون.

فالقائلون بأن القرآن كلام الله، وهو حقن زعم بعضهم أن الكلام قديم، ويقصدون آحاده لا نوعه، وهذا خطأ، ولذلك اضطروا إلى الزعم أن الكلام هو المعنى النفسي لا الحروف، وهذا باطل فالقرآن كلام الله وهو حروف كما قال صلى الله عليه وسلم ((من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة)) ،والكلمة لا تكون كذلك إلا بالحروف المركبة كما هو معلوم، وهناك حرف سابق وحرف يتلوه، وهذا من بداهة العقول.

أما نفي كلام الله على هذا المعنى بحجة أن هذا يؤدي إلى حلول الحوادث في ذات الله تعالى، فهذا غير صحيح، وأصله أن هؤلاء لا يجعلون كلمة الحوادث إلا بمعنى المخلوق، وهذا باطل وتحكم منهم، فجريان الفعل من الله تعالى بحسب المشيئة لا يجعل المشيئة مخلوقة، بل القول في الصفة كالقول في الذات، فحيث جهلنا كنه الذات جهلنا كنه الصفات، وهذا بين لمن تدبره.

والقصد التنبيه على هذا الخطأ المنتشر حتى ليقوله من لا يقول بتوابعه ولوازمه.

ويكون معنى ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بالتخفيف أي أنزلناه مفرقاً بحسب الحوادث والوقائع، والنزول إنما يكون بعد أن يسمعه جبريل من الله تعالى، وهذا تفريق للنزول.

وأما معنى ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بالتشديد، أي جعلناه آية آية، وهذا تفريق للآيات، ومن تأمل قوله تعالى﴿ **ونزلناه تنزيلاً**﴾ فإنها لا تكاد تتلاءم مع قول القائلين أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، إذ هي مطلقة هذا الوصف وأن التنزيل في كل مراحله كان مفرقاً.

وقوله تعالى﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على مهل رد على من تقدم ذكرهم من القائلين بأن القرآن ظاهرة بشرية تقرأ كما تقرأ الظواهر من خلال بيئتها.

وها هنا لابدّ من الإشارة إلى منهج استشراقي سرى إلى بعض المحدثين فرأوه حسناً، وهو محاولة ترتيب القرآن على وفق التنزيل لا على ما كان يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من وضع الآيات موضعها، ذلك لأن ترتيب الآيات بالإجماع توقيفي لا يشذ عن ذلك إلا هالك، وزعم هؤلاء أن هذا الترتيب ثم تفسيره يبين حجتهم في تطور القرآن!! وذلك خدمة لمقالتهم الضالة المتقدمة إن القرآن ظاهرة إنسانية، وها هنا مقصد آخر زائد عن ذلك وهو تقرير تهمة قديمة رددها المستشرقون الأخباث وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم –بأبي هو وأمي– كان يأتي بالتشريع موافقة لما يحصل له من انتصار وظروف؛ أي إن الشريعة وضع محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يجريها على وفق السياسة كما هي في عرفهم، وهؤلاء لا يرد عليهم كما رد على السابقين، أي من آيات القرآن، لأنهم لا يرونه إلهياً بوجه من الوجوه، ولكن يرد عليهم بأمور خارجية عن الآيات، وهذا الموضع ليس كذلك.

ثمّ إنه من العجب أن يتوافق قول هؤلاء الكفرة مع قول بعض الزنادقة من المنتسبين للرفض اليوم حيث يزعمون أن مناقب آل البيت قد ذهب من القرآن بسبب ترتيب القرآن على غير وفق النزول، وذلك لما شرقوا به من رؤية فضل آل البيت في القرآن مقروناً بأحكام أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على دخوله، في هذا المسمى دخولاً أولياً قبل غيرهم، فلم يجدوا إلا أن يدخلوا سبيل أعداء القرآن، فيلتقون معهم في دينهم.

وينبه كذلك إلى مسألة مهمة، وهي أن الآيات القرآنية وإن نزلت وفق الحوادث والوقائع إلا أن أحكامها عامة لهذه الحوادث ولغيرها، فأسباب النزول وإن كانت كاشفة عن المرادن وتكون داخلة في اللفظ ابتداءً إلا أن الأحكام تؤخذ من الألفاظ، وهذا شأن القرآن فإنه جرد الألفاظ عن الحوادث، فجاءت الأحكام دون ذكر

حوادثها، فدلت أحكامها على العموم حيث دخل كل حادث قادم يعمه اللفظ، والأمر كما قال ابن العربي أن الأحكام وإن كان منشؤها العلل إلا أنها لا تؤخذ إلا من الألفاظ، ولذلك فإن قصر الحكم على السبب زندقة لأن ذلك تعطيلاً للقرآن، وكذلك لابدّ من تنقيح المناط في أسباب الألفاظ، وهو عزل العلل غير المؤثرة وإبقاء المؤثر، وتنقيح المناط هنا لا يقصد به القياس، فإن هذا النوع يعمله الظاهرية مع نفيهم للقياس، ولذلك على الصحلح هو قول البيضاوي إن تنقيح المناط ليس قياساً خلافاً للغزالي والشوكاني، والمقصود به أن يعلم المجتهد على ورود الحكم إن كان في الحادثة أمور متعددة كلها تتنازع على سبب الحكم، وهذا يحتاجه المجتهد في الأحاديث أكثر من القرآن، بل تكاد تعدم هذا في القرآن لما قلناه من تجريده الألفاظ عن حوادثها، وتعليق الأحكام على الألفاظ والمعاني، والتي يعمل لها قاعدة: ((تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية الإشتقاق)) فالعلة تعلم من النص لا من أمر خارج عنه، بخلاف ما لو سبقت الحوادث قبل النص، فإن العلة كثيراً ما تعلم من الحادثة لا من النص. فهي تغني في النظر عن تنقيح المناط، لأنه لا يحتاج إليه في الأغلب إلا في الحوادث كما يمثلون في مسألة الأعرابي وإتيان أهله في رمضان، بل إن تنقيح المناط على هذا المعنى، وهو إخراجه عن معنى القياس يوسع دائرة عمله أكثر من ذلك، مثل مسألة الشرب واقفاً من زمزم، فهل كان الشرب واقفاً من زمزم لمعنى خاص في زمزم فيقتصر عليها، أم أن الشرب واقفاً كان يومها بسبب الزحام فيعمم، وهذه مسألة غير مسألة ((العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)) كما شرحها أصحابها ومنهم ابن تيمية. ويستفاد من هذا التعميم التفريق بين الخصوص والعموم في الحوادث كمسألة وضع الجريد على القبر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فعله كما في الصحيح من حديث ابن عباس عندما مر على قبرين يعذبان فقال صلى الله عليه وسلم((إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)) ثم أخذ جريدة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله: لم صنعت هذا؟ فقال:- لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا)).

فإن من اعمال تنقيح المناط بهذا المعنى أن يعلم فعله هل هو عام لكل قبر، أم أنه خاص لهذين القبرين، وقد اختلف الصحابة فيها، والمسألة فيها مقال يراجع في مظانه وفيها حديث جابر في مسلم((فأجيب شفاعتي أن يرفع ذلك عنهما ما دام القضيبان رطبان)) ،وقد اختلف الشراح هل الحديثان لواقعة واحدة أو واقعتين.

والقصد أن أسباب النزول تعين في فهم النص، بل قد لا يدرك المعنى إلا بمعرفة سبب النزول كما في قوله تعالى﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾ إذ جعل بعض أهل العلم قوله تعالى﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ قيداً للحكم، فلا يعمل الحكم إلا إن حصل ارتياب، وهذا خطأ، فإن سبب النزول يدل على أن قوله تعالى﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ المقصود به حكم عدتهن؛ فإذ وقع الإرتياب منكم في حكم عدتهن فعدتهن ثلاثة أشهر.

وهذه الآية تدل على منهج القرآن في التعليم وهو أن يربى الناس على مكث، أي على مهل، ولا يلقى إليهم العلوم دفعة واحدة فيشق عليهم، كذلك تدل على عدم التطويل بحسب قراءة التشديد، فإن تقطيع الكلام فيعيد في الحفظ والفهم، وهذا ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يوصف كلامه من قبل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه أن لو أراد العاد لعده.

وقوله تعالى﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴾.

هذا غناء الحق بنفسه عن غيره، وعزته أن لا يعرف شأنه الجاهلون، فالله يقول: إن عدم إيمانهم بهذا الكلام إنما لجهلهم، وحيث هم كذلك فهو في غير ضر أن يكفروا به، وكفى أن يعرف شأنه أهل العلم، إذ هؤلاء هم الذين يوفون عظمة الكلام، فهم مؤمنون به، ومن علمهم واقرارهم بعظمة ما يتلى عليهم أنهم حين يسمعون لا يملكون من عظمته وهيبته وشأنه إلا أن يخروا سجداً له.

وفي هذا دليل على صفة أهل العلم ومن هم، ودليل على عظمة أهل العلم حيث يرضى بهم ربنا بأن يكونوا من أهل كتابه ليحقق بهم رضاه وفرحه أنهم عرفوا شأن كلامه، فالخلق كلهم ليس لهم شأن عند الله إذ لم يعرفوا عظمة ما يتلى عليهم، إنما الذين لهم الشأن هم أهل العلم، وهي صفة لا يستحقها إلا من علم هذا الكلام على وجه التعظيم والإجلال حتى يسجد خضوعاً له.

وقوله تعالى﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴾

دلت على أن السجود هنا إنما هو لعظمة ما يتلى عليهم؛ أي الكلام، والسجود في القرآن على قسمين؛ وصف وأمرن فأما في النصف الأول من السجدات فهي وصف، وأما في النصف الثاني من السجدة الثانية في الحج فهي أمر إلا السجدة في سورة ص فإنها وصف، وهي سجود توبة لداود عليه السلام، وسجود شكر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث، وهذا التقسيم قاله ابن تيمية رحمه الله.

وبهذا تكون السجدات في القرآن إما امتثالاً لأمر، وإما وصفاً للعابدين والعلماء، وتكون حينئذ إما وصفاً للعابدين في سجودهم لله تعالى أو وصفاً لسجود عموم الخلق له من ملائكة وجماد ونبات وجبال، وإما وصفاً للعلماء في سجودهم للكلام تعظيماً له.

وقد كان من شأن الأقدمين السجود للآيات العظيمةن لا على وجه العبادة، ويتجاوز بعضهم فيسجد لها عبادة فقال تعالى﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ،ومن تعظيم بعضهم لما يسمع فإنه يسجد للكلام الذي يسمعه تعظيماً له، وهذا ما وقع لأهل العلم من أهل الكتاب حين سمعوه، ووقع لهم البكاء خشوعاً كما سيأتي.

وجعل بعض أهل العلم السجود هنا في هذه الآية على معنى الشكر حيث هداهم الله للحق، وهو معنى صحيح إلا أن ما سيأتي من قوله﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ إنما يدل على أن السجود كان لغفلة الكلام الدال على عظمة الله تعالى، وذلك كقوله تعالى﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ،وأما سجود الشكر فهو السجود الثاني الآتي في الآية التالية.

وقوله تعالى﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ دل على أن المعاني الإيمانية في اتباع الرسل جميعاً أمر واحد، وهو دليل على وحدة التشريع كذلك إلا ما جاء النسخ له، ولذلك القول بأن شرع من قبلنا هو شرع لنا هو الصواب إن جاء هذا الخبر من طريق الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن لم يأت ما ينسخه.

ثم دلت على أن العلم لا يوصف في القرآن إلا مقروناً بآثره في القلوب والجوارح، وإلا فهو جهل.

وقوله تعالى﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ ذلك بأن أثر التفكر في الكلام ارتد على ألسنتهم ذكراً لله تعالى، وهذا أثر كل تفكر في الوجود، سواء كان في كلامه تعالى أم في خلقه كما قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾.

وقوله ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي بوقوع ما وعد الله تعالى رسله السابقين من البشارة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا تعظيم لشأن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو وعد الله تعالى الذي وعد به رسله من قبله كما قال سبحانه﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ،وهذا إن جمعته لما قدم لك من شأن الإسراء وأن ما كان فيه إنما هو لبيان عظمة الرسول في الوجود بعد ما وقع له من عام الحزن، واشتداد البلاء عليه تبين لك مناسبة ذكر هذا هنا فقوله تعالى﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

وهذا السجود هنا غير السجود الأول، فإن السجود الأول كان لعظمة ما يتلى عليهم، أما الجود هنا فهو لأمر زائد عن ذلك، وهو سجود الطاعة والإخبات والشكر، ولذلك قال سبحانه﴿يَبْكُونَ﴾ فإنهم بعد أن خروا سجداً لعظمة الكلام، ثم تفكروا في هذه النعمة حصل لهم سجود العبادة والطاعة والشكر، وهذا السجود يحصل به بكاء الفرح، وكذلك بكاء الخشوع، فقال سبحانه﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ،فإن الشيء يأتي بمثله كما قال تعالى﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ ،سجود العبادة هو سجود الخشوع وهو يأتي بالخشوع كذلك.

والآية تدل على سجود الشكر، وهي سنة معلومة، يأتي بها العبد عندما يقع له من الخير، وخاصة ما كان له تعلق بالوعد، كالولد يأتي بالإستغفار، والفرج يأتي بالدعاء، وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة على هيئة الجود فوق دابته، وقد أمر الله بني اسرائيل أن يدخلوا الباب سجداً، وهو كقوله تعالى عن عباده﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾.

والسجود هو أعظم هيئات التعبد، وهو أحبها إلى الله تعالى، ولذلك يكرر مرتين في الركعة الواحدة، ولكونه كذلك قال صلى الله عليه وسلم((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء)) ،والجمع بين هذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسلم((خير الصلاة طول القنوت)) ؛ أي القيام، أن السجود خير من القيام في الهيئة، والقيام خير من السجود في الذكر، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، فالسجود حظ العبد بقربه من الله، والقيام حظ القرآن فهو خير ذكرها والقرآن في الذكر خير من الدعاء، وفي كل خير.

قوله تعالى﴿ **قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا** ﴾

لم يخلق الله الخلق، ولم يبعث الرسل، ولم ينزل الكتب إلا ليعلم الناس كما قال تعالى﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ فيوحدوه ويعبدوه، والتوحيد والعبادة لا تكونان إلا بمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته، وكلما ازدادت عبادة المرء لربه كلما فتح له أبواب العلم بأسمائه وصفاته ولذلك قال صلى الله عليه وسلم((إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)) ،والإحصاء فوق العد، وإن كان العد أصله، ولكن الإحصاء بعد عدها أن يؤمن بها وأن يعبد الله بها علماً وسلوكاً واخباتاً، وكل المعاصي من الشرك فما دونه إنما تنشأ بالجهل بأسماء الله وصفاته، إما علماً وإما حالاً، فمن علم رحمته دون أن يعلم غضبه لم يعبده إلا بالحب وهو غير كاف لتحقق العبادة على وجهها الكامل، ومن علم غضبه وسخطه ولم يعلم رحمته عبده بالخوف وحده وهذه لا تحقق رضى الله تعالى، ومن علم حياء الله دون أن يعلم مغفرته يأس إن عصى، ولابدّ أن يعصي، ومن علم رحمته دون أن يعلم حياءه تجرأ على المعصية، ومن جهل سمعه وبصره استخفى من الناس ولم يستخف من الله، وهكذا، فإن العلم بأسماء الله وصفاته عداً وحالاً تحقق فيه العبادة على معناها التام الذي يحبه الله تعالى.

ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوه باسم الذات، وهو الله، جل في علاه، أو باسمه الرحمن، وهو ما جهلته العرب أو بأي اسم من أسمائه الحسنى التي علمها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، فكل ذلك

دعاء للع تعالى له جل في علاه، إذ الأسماء تقوم مقام الذات في الدعاء، فمن دعاه باسم الذات كمن دعاه بأي صفة من صفاته سبحانه وتعالى.

وتخصيص ذكر الرحمن هنا لما تنكره قريش من هذا الاسم، كما تبين ذلك في سورة الفرقان من قوله تعالى﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ويشهد لهذا ما أنكروه في الحديبية حين قالوا: ((لا نعرف الرحمن ولا الرحيم)) ،وانظر ما في البخاري في كتاب الوكالة فإن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي بمكة، واحفظه في صياغته بالمدينة، فلما ذكرت ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال: لا أعرف ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ،كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته (عبد عمرو) ثم ذكر قصة كيف قتله بلال رضي الله عنه في بدر.

وقوله ((الذي كان في الجاهلية)) هو تصرف الناقل إما الصحابي عبد الرحمن بن عوف أو غيره، فإن أمية الكافر لا يقول هذا قطعاً. ولأن هذا الاسم هو الأليق بالدعاء، فإن الداعي أكثر ما يرجو رحمة الله تعالى، والرحمن أبلغ من الرحيم لزيادة المبنى، ولأن دخول الألف والنون يدل على المبالغة، ولذلك لا يجوز تسمية أحد من خلقه بالرحمن، بل هو اسم يختص به الله تعالى، أما الرحيم فهي صفة تطلق على الخلق كما سمت الله رسوله به في قوله تعالى﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثمّ إن الله يحب مقتضى هذا الاسم وهو لرحمة، ففي الحديث القدسي((إن رحمتي سبقت غضبي)) وقوله صلى الله عليه وسلم((الراحمون يرحمهم الرحمن)).

واسم الذات ﴿الله﴾ صفة على الصحيح، أي المعبود، فإنه مشتق من الإله، ونفاة اشتقاقه حجتهم هي حجة منكري التعليل في أفعال الله تعالى وشرعه وليست بشيء كما تقدم. إن الذين يبحثون عن الجمال، ويبحثون عن قيم الوجود الكونية، ويريدون حقاً أن يرقى الوجود بمفاهيمه ومعاييره وسلوكه فليس لهم إلا الله، بأسمائه وصفاته، فبدل أن يتغنوا بالوهم أو بالزائل يصبح ترجيعهم تسبيح الله وحمده وتكبيره، ويصبح تفكرهم في الوجود باعثاً للخضوع لرب الكون ومبدعه لا مخرجاً لهم للبهيمية المتحررة من القيم، ولذلك فمبدأ جمال الوجود وكمال القيم إنما العلم بأسماء الله تعالى وصفاته.

وأسماء الله حسنى لأنها صفات، فليست حي علمية دون حقائقها، كمن يُسمى من الخلق خسن وهو قبيح أو خالد وهو ليس كذلك، بل لا تكون أسماؤه إلا حقائق لصفات، فهو سبحانه وتعالى اسمع الحي، وله صفة الحياة، وهو سميع وله صفة السمع وهكذا.

ثم إنها حسنى لأنها مطلقة، فإن العبد إن كان له سمع لم يكن سمعه شاملاً لكل المسموعات، وإن كان بصيراً لم يكن بصره شاملاً لكل المرئيات، ولكن ربنا سبحانه وتعالى أسماؤه فيها تمام الحسن وكمالهن ولا تكون كذلك إلا لإطلاقها.

وهي حسنى لأنها قائمة به لا بغيره، فإن العبد إن اتصف بصفة فإنما هي بعطاء الله تعالى، ولا تعمل إلا بقيام غيرها عليها وهو خالقها، وخين يكون الحسن على هذا المعنى فإنما الحسن التام يعود القائم عليها ولذلك فحمد كل شيء يعود إلى الله تعالى، إذ لولاه لم يكن الفضل يكون.

وهي حسنى لعدم طروء ضدها عليها لا بالغلبة ولا بالذهاب، فإن الله تعالى هو الأول والآخرح فهو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء.

ومن فقه الدعاء أن يدنو العبد ربهبما يناسب معنى الدعاء والحاجة من أسماء الله وصفاته، فإن دعا المغفرة دعاه باسمه الرحمن والقنوت ومن دعا على ظالم دعاه باسمه المنتقم، وهكذا، وأكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم كان باسمه سبحانه وتعالى: الحي القيوم، وقيل إنها الاسم الأعظم، إذ كل الصفات لا تكون بغيرها، أي بغير الحياة والقيومية على النفس والغير.

وقوله تعالى﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾

هي أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يجهر بالقرآن جهراً أكثر مما يلزم لاسماع أصحابه رضي الله عنهم، وأن لا يخافت خفتاً لا سمعهم، بل يكون صوته بالقرآن بينهما ليسمع أصحابه حوله دون غيرهم، وهذا ما دل عليه سبب النزول فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:- نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار بمكة﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك

المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك.

قال ابن عباس: فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أي ذلك شاء.

وها هنا بحث يتعلق بنسخ القرآن، وهو أنه ما من آية في كتاب الله تعالى نسخ حكمها وبقي رسمها في الكتاب إلا وحكمها باق على وجه ما، فإن القرآن لا يوجد فيه ما لا يعمل به البتة،فالنسخ في القرآن حقيقة وأهل العلم يثبتونه، لكن الكلام هنا في بقاء الحكم المنسوخ على وجه جزئي ما، إما يتعلق بعودة العلة التي كانت قبل النسخ، وإما ببقاء حكم جزئي فيها، وهذه الآية مثال على ذلك، فإن حكمها باق حيث تحققت علتها، وهي أن يحصل بالجهر الشديد ايذاءً لآخر يؤدي لكراهية القرآن، فهذا حكم عام، فإن وجد مسلم في حال كما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم تحققت العلة فإنه يعمل بهذه الآية.

وقد يقال إن الآية وإن كانت قد نزلت في الصلاة في مكة إلا أنها عامة في كل صلاة حيث يبالغ المرء في الجهر حتى الإيذاء، له ولغيره، أو يقصد من جهره مراءاة الناس.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في القراءة في الصلاة إلا أنها شاملة لكل عمل من أعمال الصلاة كالدعاء والتشهد، مع ورود قوله تعالى في الدعاء وغيره من الذكر﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وقوله ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

وهذه القاعدة في الآيات المنسوخة في القرآن هي الأولى مع كتاب الله تعالى، ومن تفكر في الآيات المنسوخة علم هذا الوجه تماماً، إلا أنه قد يعترض على ذلك بالآيتين في النساء في حكم الزنا في قوله تعالى: ﴿ **واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم...إلى قوله تعالى: إن الله كان تواباً رحيماً**﴾

،فيقال:- وهذا كذلك لا اعتراض فيه، فإن حكم الإيذاء باق على الصحيح في التغريب، وهو قول أحمد رحمه

الله، وآخرون قالوا: هو سياسة للإمام يغرر بها إن شاء، وهذا أقوى، فليس في الأمر ما يشكل، ومن تأمل الآيات المنسوخة التي بقي رسمها وجد هذا المعنى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

لقد افتتحت هذه السورة بالتسبيح، وقد رأيت فيها تسبيح الوجود كله لربه، وتسبيح العابدين له، وقد مضت هذه السورة بمعاني الحق اللازمة للداعي في مسيرته نحو تحقيق رضى الله تعالى، وتحقيق وعد الله في الأرض وفي الآخرة، وأقامت معالم العلم والعمل، وردت على أهل الظنون في الرسالة والرسول والغيب والعاقبة، وهدت إلى سنن الوجود الكونية التي يتحقق بها النصر والبقاء، وسنن الذهاب والزوال، فأمدت المؤمنين قوة في نفوسهم وقلوبهم وعقولهم، وهدتهم إلى أقوم السبل، ودفعت إراداتهم لينازعوا كل القرى وكل الهياكل، وربطت وعود الغيب بواقع البلاء والإمتحان، لتنبعث في النفوس قيم الصبر واليقين، وعلمت المؤمن خطر أعدائه عليه، وكانت في كل ذلك تربط العبد بربه توحيداً وإخباتاً ودعاءً وطاعة.

وأوقفت الداعي على مزالق الطريق وكيد الأعداء، وعروضهم الخبيثة، وتهديداتهم الجاهلة، وعلقت كل الوعود على الصبر على قيم الإيمان والثبات عليها، وأرته بهذا الثبات ما يكون من النصر والفتح بعد الهجرة إلى دار التمكين والأمن والنور، وضربت له المثل السابق في إدراك الوعد بعد الصبر.

لقد مضت هذه السورة بتوحيد الله تعالى الذي تخلل كل موقف فيها، فأعلمت المؤمن صفات الله تعالى وعظمته، وكشفت عن دلائل هذه العظمة بما يبصر الناس من آيات وبما كان عليه العالمون والعابدون من إدراكهم لهذه المعاني، فدعت اللاحق لإدراك السابق، وأعلمته أن العلم بالله لا يكون إلا بالذكر والتسبيح والصلاة والدعاء، وأن معاني الإيمان ليست فكراً لا يتخلل النفس والقلب، بل الإيمان هو الذي يحقق شغل القلب واللسان والجوارح بالعبادة والذكر والدعاء.

ولقد رأينا في هذه السورة كيف أن الوعود تتخللها لأنها من روافع الهمم، ومن منشطات الإرادة، وهي مفاصل إبتلاء الإيمان، فإن الإيمان لا يتحقق إلا بتصديق الوعود، ولا يتمايز الناس في العمل إلا بمقدار

الإيمان بها، كما أن الثبات على الطريق حين تدلهم الفتن وتصوّح الطرق من الأنصار لا يكون إلا بالتصديق بوعود القرآن.

لهذا ولغير ذلك مما لا نحيط به ويحيط به علم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت هذه السورة هجيراه في قيام الليل، فهي السورة التي ربطت فيها الوعود بالشروط، وكان من هذه الشروط قيام الليل والتهجد، فهي سورة الرحلة وسورة الغذاء والدواء لهذه الرحلة، حيث يرى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله له بالفتح وقد تحققت الهجرة، ويرى فيها أمته وقد بلغت أقصى الأرض، واستقر سلطانه فيها، حيث يبتلى هذا السلطان بشرار الخلق، وأعتى الناس صداً عن دين الله، وأكثر الناس بغضاً لهذا الدين وأهله، لكنها العاقبة التي يتحقق فيها الرحمة بالغرباء، وهم الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إخوانه حيث يقول((وددت لو أننا رأينا أخواننا)) ،إنهم الغرباء حيث علمهم الكتب، وهدايتهم الورق المعلق، يشددون هممهم إلى القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حيث الصفاء والنور والهداية، من غير خلائط الفكر ونوازع الهوى وآراء الرجال.

مع كل هذا الفضل الإلهي على رسوله مقاماً حيث لا يبلغ شأوه أحد، لا مكاناً ولا رتبة، فهو الذي أسري به وعرج به إلى السماء، وارتقى حتى سمع صرير الأقلام، وارتفعت رتبته حتى تحقق له المقام الموعود من الشفاعة العظمى، وتحقق له سلطان الأرض بكثرة الأتباع، وحفظ الدين وكتابه ورجاله، فكان له فضل المقام في الآخرة، وفضل السلطان في الأرض، مع عبودية وإخبات ليعلم أهل الإسلام فضل رسولهم على سائر الرسل، وفضل كتابهم على باقي الكتب، وفضل هذه الأمة على باقي الأمم.

إنها سورة تقرؤ للعبادة في جوف الليل، لأن الترجيع في الليل عند العظماء ليس بقصص الغرام وأوهام الطفولة وأحلامها، ولا أشعار الخيال الضارب في المعاني بغير حقائق، بل دمدمتهم تتلى وفيها مدح وحمد رب العالمين، وقصص العابدين والمجاهدين والصالحين، فحين يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة، ويقرؤها أتباعه يروا أنفسهم فيها حيث لا يكون الأنيس إلا جمادات الوجود وهي تسبح لربها، فتهتز قلوبهم بهذه الرفقة العابدة، ويروا أنفسهم وهم في طريق الإبتلاء أنهم في سبيل النصر وإما تحضيراً أو إصابة، فتصغر الملمات والغمرات وتطوى الطريق لأن النور معهم وسائقهم، وبهذا الأنيس وبهذا النور تقشعر جلودهم

فرحاً فيخرون لربهم سجداً، ويبكون وقد تداخلت المعاني بهذا البكاء، فهو بكاء الشكر حيث المن الإلهي الغامر الذي يراه غيره، ويحس به وهو بين السماء والأرض وحيداً مهاجراً أو أسيراً، وهو بكاء الرجاء أن يدخل في سلك أتباع النبي الحبيب لربه، إذ هو أعظم نبي، وأفضل نبي، وأعبد نبي، وهو بكاء الصابر بصبر لم يخطئ الرجاء والأجر وإصابة الوعود، ثم سيكون هذا السجود تعليماً لسجود الشكر حين تقع الوعود فتنطلق الألسنة شاهدة والعيون دامعة والقلوب شاكرة﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾.

حينها يختم الوجود وتختم الرحلة بهذا الذكر العظيم: الحمد لله.

نعم: وقل الحمد لله.

فإذا بدئ بالتسبيح فإن الخاتمة بالحمد، وأما سر تحقق المسيرة في كل النعم والوعود والوجود ذلك بأن الله أكبر.

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾

سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

أشهد أن الله يحب:-

أشهد أن الله يحب لأنه الجميل الغني الرحمن الرحيم.

وأشهد أنه يحب لأنه يحب لعبيده الخير مع استغنائه عنهم.

وأشهد أنه يحب لأنه يغفر لعبده ذنبه ويستر عليه عيبه.

وأشهد أنه يحب لأنه يعطي ويمن ويجود.

وأشهد أنه يحب فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، فاللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت شيئاً بعد، عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك

اللهم ما من نعمة في الأرض ولا في السماء إلا منك فلك الحمد.

وما من جمال في السماء وفي الأرض إلا منك فلك الحمد.

ولا شريك لك، إذ الكل خلقك، والكل عبدك، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام.

أنت الغني فليس لك ولد، وليس لك شريك، وليس لك ولي من الذل، بل الكل ذليل محتاج إليك وإلى عطائك وفضلك وولايتك.

وأشهد أنك العظيم والكل مقهور بعظمتك.

وأشهد أنك رب كل شيء ومليكه.

فلا يرد أمرك، ولا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء، فالله أكبر على كل متكبر، والله أكبر على كل شريف، والله أكبر نستعين بها في رحلة الإيمان فإما أن نصيب الوعود أو نلقى الله تعالى على ما لاقاه أنبياؤه وأولياؤه وصالحو عباده.

الحمد لله ربّ العالمين.

9 محرم 1432 للهجرة النبوية الشريفة

15-12 -2010 للميلاد